الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي و البحث العلمي

جامعة أبو بكر بلقايد – تلمسان

كلية العلوم الإنسانية و العلوم الاجتماعية

قسم التاريخ وعلم الآثار

شعبة الثقافة الشعبية

رسالة دكتوراه العلوم

المؤثرات الحضارية الأندلسية على الهوية الثقافية في الجزائر

تلمسان أنموذجا

إعداد الطالب :

بن سهلة ثاني سيدي محمد

تحت اشراف

أ.د / طالب أحمد

أ.د/ شايف عكاشة	جامعة تلمسان	رئيسا
أ. د/ طالب أحمد	جامعة تلمسان	مشرفا و مقررا
أ. د/هلايلي حنيفي	جامعة سيدي بلعباس	عضوا
د/ رزقي الشرقي	جامعة تلمسان	عضوا
أ.د /عبد اللّه ثاني قدور	جامعة وهران	عضوا
أ.د/ عبد الحق معزوز	جامعة الجزائر 02	عضوا

الموسم الجامعي: 2013– 2014 م

إهداء

۞ إلى والديّ الكريمين اللذين سهرا على تربيتي حفظهما الله وأطال في عمرهما.

۞ إلى زوجتي المتفهمة التي كانت ولا زالت دوما سندا لي في حياتي اليومية، والتي شجعتني على البحث العلمي والمثابرة في العمل.

۞ إلى فلذة كبدي ابني العزيز "أيمن" الذي أنار حياتي.

۞ إلى إخوتي وأخواتي بارك الله فيهم.

۞ إلى كل من ساعدني من قريب أو بعيد ولو بكلمة طيبة.

شكر وتقدير

- إلى السيد الفاضل: **الأستاذ الدكتور طالب أحمد** الذي قبل الإشراف على هذه الأطروحة بصدر رحب و لم يبخل علي بتوجيهاته ونصائحه القيّمة.
- إلى **الأستاذ الدكتور شايف عكاشة** الذي شرفني برئاسة لجنة مناقشة هذه الأطروحة، فليجد هنا أسمى عبارات التقدير والاحترام.
- كما أتوجه بالشكر الجزيل إلى أعضاء لجنة المناقشة: **الأستاذ الدكتور هلايلي حنيفي** و**الدكتور رزقي الشرقي** و**الأستاذ الدكتور عبد الله ثاني قدور** و**الأستاذ الدكتور عبد الحق معزوز** لتفضلهم بقبول مناقشة هذه الرسالة.

كما أوجه بالشكر الجزيل إلى جميع الزملاء والأساتذة بجامعة تلمسان.

مقـــــدمـــة

حظي تاريخ المشرق الإسلامي بجانب كبير من عناية المؤرّخين المحدّثين، بإعتباره الوطن الأصلي للجنس العربي: ففيه قام الإسلام كدين ودولة، وفيه بثّتْ بذور الحضارة الإسلامية، وفيه نمت وترعرعت. أمّا المغرب الإسلامي، فلم يلْق من هذه العناية إلاّ حظا يسيرا، فكان في الموضع الثّاني من الأهمية، لأنه دخل في الدولة العربية كأي قطر مفتوح، فتعاطت حضارته بالتّقاليد المشرقية التي كانت تتدفق عليه في موجات متتابعة، بفضل وفود العلماء المشارقة إليه، من أدباء وعلماء لغة وفلاسفة ورجال فن، ثمّ أنه نكب بضياع الأندلس نهائيا سنة 1492م، ورزئ بالحروب والغزوات التي توالت عليه بعد الإسترداد المسيحي للأندلس إذ إنتقلت إلى أرضه الإفريقية الحرب الصليبية التي كان يقوم بها الإسبان والبرتغاليون في الأندلس، وعلى هذا النحو تعرّضت بلاد المغرب للأطماع الإستعمارية لهاتين الدولتين، ثمّ فرضت فرنسا حمايتها على سائر أجزائه بقوة السّلاح، وكانت تستعمر حتى عهد قريب جزءا هامّا من أجزائه هوالمغرب الأوسط الجزائر .

وهكذا لم يظفر التّاريخ والحضارة الإسلامية في الأندلس عامة والمغرب على وجه خاص بما يستحقّانه من عناية الباحثين، وساعد على ذلك قلة ما كان يعرفه العالم الإسلامي والأوروبي حتى طليعة القرن التاسع عشر من تاريخ الإسلام وحضارته في الأندلس، وكانت معرفتهم به لا تعدو صورة باهتة شاحبة، لا تمثل حقيقته بحال من الأحوال، وكان جلّ من كتب في تاريخ الأندلس من الفرنسيّين أوالإسبان رجالا متعصّبين لدينهم، لم ينصفوا الإسلام في الأندلس دوره الرّائع الذي قام به في العصر الوسيط، أمّا من بحث منهم في التراث الفني الذّي خلّفه المسلمون في هذه البلاد، ونقصد به ما تبقى لهم من آثار سواء كانت آثارا معمارية أم زخرفية، فقد نسبوا معظمها إلى الرومان أوالقوط الغربيين، من أمثال هؤلاء **رودريجوكاروRodrigo caro**، والمؤرخ الإشبيلي **ألونسو مورجادوAlonso morgado**، و**بايستروسBallestero**، وقد أنكر هؤلاء نسبة معظم هذه الروائع إلى المسلمين، وكأنهم استكثروا عليهم أن يبدعوا مثل هذه الروائع الفنية. ثمّ إن معظم هذه الكتابات كانت تختلط فيها الحقيقة بالخيال، إذ كانت تعتمد على القصص والروايات التي توارثها القوم، وتواترت على ألسنة الناس جيلا بعد جيل، بل إن الآثار الإسلامية الباقية في الأندلس بما تتسم به من جمال فنّي وما يحيط بها من أسرار وغموض، كانت تساعد على تأليف موضوعات شيّقة لمثل هذه القصص والأساطير. ثم بدأت خيوط وأضواء

التاريخ تبدد شيئا فشيئا ذلك الظلام الحالك الذي أحاط بتاريخ المسلمين في الأندلس، وتكشفت حقائق كانت خافية بفضل جهود كثير من المستشرقين(1).

وبدأ العالم الأوربي، وقد بهرته هذه الإكتشافات يهتم بتاريخ الحضارة الإسلامية في الأندلس، بعد أن وضح له تفوقها على حضارته، وتبيّن فضلها عليها، فقد كان الأندلس في الحق مركز الإتّصال بين آسيا وإفريقيا من جهة وبين أوروبا من جهة أخرى، أوالجسر الذي عبرت منه تأثيرات الحضارة الإسلامية المتفوقة إلى القارة الأوربية : فمنه إنطلقت أشعة هذه الحضارة، فغمرت جنوبي فرنسا وإيطاليا، وأدركت أضواؤها شمالي أوربا، في الوقت الذي كانت في هذه القارة تسبح في ظلمات الجهل والإنحطاط. وهنا عرف الأوربيون عظم ما تدين به حضارتهم للإسلام في الأندلس، فأقبلوا على دراسة هذه الحضارة الأندلسية، وزيارة آثارها التي أصبحت تؤلف أعظم مراكز السياحة في العالم، ونتج عن هذا الإهتمام آثارا هامة في شمال إفريقيا ، إذ نشطت الدراسات الأندلسية والمغربية (**تلمسان** نموذجا)، وتقدمت تقدما هائلا على نحو لم يكن في الحسبان، خاصة بعد أخذ كثير من المستشرقين يقومون بنشر كثير من المصادر العربية الأندلسية، وأهم ما صدر في هذا السبيل، الأجزاء العشرة التي تتألف منها المكتبة الأندلسية، وغيرها. ومن أشهر المستشرقين الإسبان الّذين ظهروا منذ سنة 1880م **كوديرةCodera**، و **لافونتى القنطرةAl cantara**، و **خوليان ريبيرةJulian Livera**، و**بونس بويجس Pons borges**، و**سيمونيتSimeoni**، وآسين **بلاثيوسAsin Palacios**، و**جنثالث بلنسيةGentalet Palencia**، و**إسيدرو دىلاس كاخيجاسIsidro Callejas**، و**غرسية جومثGarcia Gomez**، و**انطونيا ملشرAntonia Malche**، و**إوبثى ميراندا Opti Merenda**، و**سانشز البرنسSanchez Parenz**. أمّا المتأسبنين من الفرنسيين فنخص بالذكر

[1]– كان كل اهتمام الابحاث العربية الأندلسية على نقل النصوص والروايات الواردة في الكتب المعروفة وقته مثل كتاب "نفح الطيب" المقري، وكتاب "السير" لابن خلدون، دون مقارنة النصوص ببعضها البعض اونقدها والتعليق عليها، فلما ظهر فهرس المخطوطات الأندلسية بمكتبة الإسكوريال الذي اصدره المتاسبن العربي غزيري Gaziri عام 1770، ساعدت النصوص العربية التي عزز بها غزيري فهرسه، عن تاريخ الأندلس، على قيام الابحاث العلمية في هذا التاريخ، وبدات هذه الابحاث تسلك اتباعا علميا سليما، فقد اعان هذا الفهرس الباحثين في التاريخ الإسلامي بالأندلس على الاطلاع على المصادر العربية المخطوطة والإقامة منها في كتاباتهم. وعلى هذا النحوظهر كتاب "التاريخ النقدي لاسبانيا والحضارة الاسبانية" المؤرخ الاسباني ماسدي، وخلفه المؤرخ الاسباني خوسي كندى صاحب كتاب "تاريخ هولة العرب في اسبانيا"، وان كان هذا المؤلف قد نقل كثير من النصوص دون دراساستها الدراسة الائقة، وبذلك وقع في كثير من الاخطاء التاريخية التي اخذها عليه دوزى. ثم ظهر دوزى الهولندي، اول مؤرخ متاسبن استطاع ان يكتب تاريخا منهجيا من "تاريخ المسلمين في اسبانيا حتى عصر المرابطين" استغل فيه المصادر العربية احسن استغلال. وما زال هذا الكتاب رغم قدمه من اعظم المصادر الاوربية في تاريخ الأندلس. ثم اصدر دوزى كتابه الثاني عن "ابحاث في تاريخ اسبانيا وآدبها في العصور الوسطى "، ثم نشر عدة كتب في هذا التاريخ اهمها البيان المغرب لابن عذاري، وجزء من الحلة السيراء، ووصف الأندلس من كتاب "نزهة المشتاق" للادريسي، وكتاب نفح الطيب.

منهم **ليفي برفنسال Levi Provençal** رئيسهم على الإطلاق فإن ما كتبه وما حققه عن تاريخ المغرب والأندلس يعتبر أعظم ما قام به مستشرق حتى الآن.

ولم يكن العرب بعيدين عن هذه الحركة العلمية الأندلسية، فقد أسهموا بقسط محدود في تلك الدراسات، ثم إزداد إهتمام العرب بالمغرب الإسلامي، بعد أن نضج الوعي القومي العربي، وشمل بلادًا تمتدُّ من الخليج العربي حتّى المحيط الأطلسي. فبدءوا يوجّهون إهتمامهم لدراسة التّراث الإسلامي في الأندلس.

وكان قيام معهد الدّراسات الإسلامية **بمدريد** سنة 1950م خطوة موفّقة في هذا السّبيل. ومنذ ذلك الحين ظهرت بعض التآليف والتّرجمات التي تعرضْ صورا من هذا التّاريخ الأندلسي (1).

وكان للنّجاح الكبير الذي صادفته الدّراسات الأندلسية أثر عظيم في تشجيعنا على المساهمة في كشف النقاب عمّا خفي من تاريخ حضارة المسلمين في الأندلس، وتزويد مكتبتها العربية بتفاصيل شيّقة عن جانب من أهم جوانب الحضارة الإسلامية، نعتز به كل الإعتزاز، ونفخر بأصالته كل الفخر.

إن المتأمل في حاضر المسلمين اليوم، وما جعلهم يصلون إلى ما هم عليه من ضعف وفرقة يجده مشابهاً ومقارباً لحالهم يوم كانوا يتربّعون على عرش الأندلس، فيرى نفس أسباب الهزيمة ونقاط الضعف، وإهمال فرص الريادة والقوة والوحدة، مع اختلاف الجغرافيا والمسميات. انطلاقاً من هنا جاءت هذه الدراسة التاريخية الشاملة لتاريخ العمران الأندلسي والتي تهدف إلى قراءة التاريخ بعين ثاقبة مستلخصة العبر والمواقف وذلك لتنبيه الغافل وتذكير العاقل بتاريخ الإسلام والمسلمين .

أما تلمسان فقد أخذت الكثير من هذه الحضارة الأندلسية المتجدرة و العريقة حيث المكانة الرائدة التي كانت تحتلها، و التي تعود الى النزعة العلمية و الثقافية و الفنية التي يتميز بها أهلها و حكّامها و رعايتهم للفنون و الآداب و العلوم الشرعية. و في هذا المقام يقول عنها عبدالرحمان ابن خلدون **"فاختطوا بها القصور المرتفعة، و المنازل الحافلة، و غرسوا الرياض، و البساتين، و أجروا لها المياه، فأصبحت أعظم أمصار المغرب، و رحل إليها الناس من القاصية، و نفقت بها أسواق العلوم و الصنائع، فنشأ بها العلماء، و اشتهر بها الأعلام، و ضاهت أمصار الدول الإسلامية، و القواعد الخلافية"**.

1– من هذه التواليف: "تاريخ اسبانيا الإسلامية" للأستاذ عبدالله عنان، و"فجر الأندلس" للدكتور حسين مؤنس، و"سقوط الخلافة الاموية" لنفس المؤلف، و"تاريخ الادب الأندلسي" للدكتور احمد هيكل، و"المساجد والقصور في الأندلس" لصاحب هذا الكتاب، وغيرها مما لا يتسع المجال لحصره. اما عن تعريب بعض الكتب الاوربية الهامة، فنخص بالذكر منها على سبيل المثال : "كتاب الاسلام في المغرب والأندلس" الفي بروفنسال وتمت بترجمته بالاشتراك مع الاستاذ صلاح حلمي، وكتاب "الفن الإسلامي في اسبانيا" تاليف جرمث مورينووترجمة الدكتور لطفي عبد البديع بالاشتراك مهى، و"تاريخ الذكر الأندلسي" تاليف جونتالث بلنسبة وترجمة دكتور حسين مؤنس إلى غير ذلك من الترجمات. كذلك قام عدد كبير من الاساتذة المصريين بنشر كثير من المصادر العربية الأندلسية مثل كتاب "المغرب في حل المغرب" لابن سعيد المغربي قام بنشره الدكتور شوقي ضيف، بالاحاطة في اخبار غرناطة" لسان الدين بن الخطيب، نشره الاستاذ عبدالله عنان، وبعض مؤلفات لسان الدين بن الخطيب نشرها الدكتور مختار العبادي، وجزء من فرحة الانفس لابن غالب الأندلسي نشره الدكتور لطفي عبد البديع وغير ذلك من المصادر.

فكان للمجتمع التلمساني قابلية لإستقبال و إستقطاب أهل الفن و العلم الوافدين من الأندلس خاصة و هذا ما جعل عملية التأثير الفني الأندلسي أكثر التجدرا .

و لعلّ ما لفت إنتباهي وشدني أكثر ، هذه القدرة الفائقة في عملية التأثير الثقافي التي تميّز الحضارة الأندلسية التي خلّفت بصمات واضحة فالنسيج العمراني لمدينة تلمسان الذي لا يكاد يخلو من الهيمنة الأندلسية، فكلّما تمعّنا فيه إلا و تأكّدنا من البصمة الأندلسية التي تبدو جلية رغم ما تعانيه من هجمات الثقافية ذخيلة فما السرّ في ذلك؟ هذا ما حاولت أن أجيب عليه و أفك خيوط شفرته معتمدا بعون الله على خطة بدت لي أكثر إنسجاما و توازنا.

فبدأت رسالتي بالتحدث في **الفصل الأول** عن تاريخ الأندلس و أمجاده حيث ركزت على تاريخ و جغرافية الأندلس ثم تطرقت الى المجتمع الأندلسي العربي الإسلامي في ظل الحكم الإسباني منهيا الفصل بالكلام عن الأندلس كحضارة ضاربة في التاريخ.

وخصص **الفصل الثاني** من الدراسة والمعنون بـ "العمارة الأندلسية و عبقريتها" للتضارب في الفن الإسلامي في شبه الجزيرة الإسبانية ثم عرجت على العمارة في الأندلس كشاهد على تاريخ إسلامي عريق. ختم هذا الفصل بالحديث عن معالم معمارية أندلسية.

أمّا **الفصل الثالث** "تلمسان أعرق مدن شمال إفريقيا" درست فيه جغرافية تلمسان و تاريخها، ثم إنتقلت إلى الحديث عن تلمسان الفترة ما بين الوجود الروماني و الفتح الإسلامي، ثم ختم الفصل بالحديث عن تلمسان في العهد العثمان.

وتحدثت في **الفصل الرابع** عن "الإمتداد الأندلسي في تلمسان" فركزت في البداية على دور الأندلس في نقل الحضارة العربية في العالم، ثم تطرقت الى تلمسان الوجهة المفضلة للجالية الأندلسية موضحا ذلك في العلاقات بين تلمسان و غرناطة و ختم الفصل بإضهار محطات في تاريخ تلمسان العمراني كل هذا تم التحدث عنه ضمن تسلسل تاريخي كامل وشامل وقراءة واعية للأحداث، وهذا ما يجعل من هذه الرسالة مرجع يتحدث عن تاريخ العمارة في كل من الأندلس و تلمسان بهذا الشمول وهذا الترتيب.

الفصل الأول

الأنــدلس تــاريخ وأمجــاد

1 – الأنـــــدلس : جغرافيتـــــــــها وتاريخـــــــــها

2 – مجتمع الأندلس العربي الإسلامي في ظل الحكم الاسباني

3 – الأنـــــــــدلس حضـــارة ضاربـــة في التـــاريخ

1- الأنــدلس جغرافيتـها وتاريخـها :

جـغرافيتــها: الأندلس التّسمية التي تعطى لما يسمّى اليوم شبه الجزيرة الإيبرية (جزيرة الأندلس) في الفترة ما بين أعوام 711هـ /1492م التي حكمها المسلمون. تختلف الأندلس عن أندلسيا التي تضم حاليا ثمانية أقاليم في جنوب إسبانيا.

تأسّست في البداية كإمارة في ظل الدّولة الأمويّة في الشّام، التّي بدأت بنجاح من قِبَلْ **الوليد بن عبد المالك**711-هـ /750هـ، بعدها تولّتها دولة بني أميّة في الأندلس **عبد الرحمن الداخل** وبعد سقوط دولة بني أميّة تولّت الأندلس ممالك غير موحدة عرفوا بملوك الطّوائف، ثمّ وحّدها المرابطون والموحّدون قبل أنْ تنقسم إلى ملوك الطّوائف مرة أخرى وزالت بصورة نهائية بدخول **فرناندو الثاني** ملك الإسبان مملكة غرناطة في 2يناير 1492م.

أصلــها: الأندلس قد تكون محرّفة من وندلس، إذ إعتادت العرب إبدال الواو ألفًا والأندلس لدى العرب القدامى هم فاندال وهم شعب جرماني نزحوا من(جرمانيا ألمانيا وبولندا حاليا) إلى (ايبيريا إسبانيا والبرتغال حاليا) وإنتقل جزء كبير منهم أيضا إلى شمال إفريقيا بعد أن غزا القوط الغربيون إيبيريا، يتأصل القوط الغربيون من منطقة البحر الأسود، كانوا قبائل آرية.

ذكر **إبن عذاري** في كتابه :"البيان المُغْرِب في اختصار أخبار ملوك الأندلس والمغرب " وقيل أن أوّل من نزل الأندلس بعد الطّوفان قوم يُعرفون بالأندلش (بشين معجمة)، فسميت بهم (الأندلس) بسين غير معجمة(1).

أطلق المسلمون إسم الأندلس على شبه الجزيرة(2) الإيبرية، وهي تقابل كلمة **"فاندالوسيا"** وهي مشتقة من إسم الوندال التي كانت تطلق على الإقليم الروماني المعروف بإسم باطقة الذي إحتلّته قبائل الوندال الجرمانية ما يقرب من عشرين عاماً ويسمّيهم **الحميري** الأندليش و يرى البعض أنّها مشتقة من قبائل الوندال التي أقامت بهذه المنطقة مدة من الزمن، ويرى البعض الآخر أنّها ترجع إلى أندلس **بن طوبال بن يافث بن نوح.**

موقعـــــــــــها:

تقع الأندلس في الطرف الغربي من أوروبا وتشمل الآن ما يسمى إسبانيا والبرتغال، ويفصلها عن قارة إفريقيا مضيق جبل طارق. ويراد بالأندلس في التاريخ الإسلامي تلك الحقبة الزّمنية التي إمتدّتْ منْ فتح

1- من تفاصيل هذه المنازعات وأعلام رجالها، انظر الأخبار المجموعة، ص 20 – 42. ابن القوطية، "افتتاح الأندلس"،ص 41 – 43. ابن الابار، "الحلة السيراء"، ج1 ص 61 – 62.

2- ابن بسام "الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة"، تحقيق سالم مصطفى البدري، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت 1998 م.

العرب إسبانيا 91هـ / 711م حتى سقوط غرناطة 897هـ/ 1492م وهي الفترة التي إمتدّتْ نحو ثمانية قرون.

تـــــاريخـــها: اليبين والكلتز هم أقدم الشعوب التي سكنت إيبريا (إسبانيا والبرتغال) اليبين شعب أتى من الجنوب من جزر في البحر الأبيض المتوسط بينما الكلتز Celts شعب آرى أتى من الشمال.

كما إستوطن اليونانيّون والفينيقيّون المدن. أمّا الثغور الإيبيرية فغزاها الرّومان وقاموا بتحويلها إلى ولاية رومانية الثّقافة وكاثوليكيّة الدّيانة بعد أَنْ كانت تنتشر العقيدة الآريوسية بين أهل البلاد ونجح الرّومان في تغيير اللّغة إلى اللاتينيّة و كان لآنتشار العقيدة الآريوسية بين أهل البلاد الأصليّين الأثر في اعتناقهم الإسلام بعد الفتح الإسلامي لقربها من العقيدة والفكر الإسلامي.

فتحــــــــــها:

فتح المسلمون بقيادة القائد **طارق بن زياد** سنة 92هـ/711م وجعلوا الأندلس جزءاً من الدولة الإسلامية ويعتبر **عبد الرحمن الداخل** "صقر قريش" المؤسس للدولة الأندلسية سنة 113هـ -172م/731- 788م التي كانت مستقلة عن الدولة العباسية واعتبرت الأندلس إمتدادا لدولة بني أميّة التي قضى عليها العبّاسيون في الشّرق(1) عام 132هـ. وفي سنة 756م ـ بنى **عبد الرحمن الناصر الثالث** مدينة قرطبة والتي أصبحت عاصمة الأندلس واعتبرت المدينة المنافسة لبغداد عاصمة العبّاسيّين.

وكان الأندلس قد تجزّأ إلى عدة دول صغيرة ومتنازعة بعد سقوط الدولة الأمويّة عام 399هـ سمّيت دويلات ملوك الطوائف وأبرز هذه الدويلات وأكبرها كانت دويلة **بنو عباد** في إشبيلية ودويلة **بني هود** في سرقسطة ودويلة **بنو الأفطس** في بطليوس ودويلة **بنو ذي النون** في طليطلة وقد توسعت الممالك الإسبانية الكاثوليكية على حساب هذه الدويلات الإسبانية المسلمة مستغلة تنازعها وفي النهاية سقطت طليطلة في أيدي جيوش **ألفونسو السادس** ملك قشتالة القوي والملكة **إيزابيلا الأولى** مما اضطر ملوك الطوائف للإستنجاد بالمرابطين الّذين كانوا قد أقاموا دولة قوية في شمال إفريقيا والّذين عبروا إلى الأندلس لنجدة إخوانهم في الدّين، وهزموا الإسبانيين الكاثوليك في معركة الزلاقة ودولة الموحدين ومملكة غرناطة.

محاكم التفتيش(2) كان الهدف منها تعقب كل من لم يكن عضواً أرثوذكسياً في الكنيسة الكاثولوكية وإنهاء حياته، كان رجال الدّين المنتمّين لهذه المحاكم يجبرون من يقع بأيديهم على الإعتراف بخطاياهم وكان متهموهم يراقبونهم متخفيين تحت القبعات الطويلة. حيث كانوا يحرقون المذنبين على الخشبة

[1]- ابن الآبار التكملة لكتاب "الصلة"، ط 1، تحقيق : ابراهيم الابياري، دار الكتاب المصري اللبناني 1989 م ص69.

[2]- محمود علي مكي "التراث السياسي في المغرب والأندلس" قمم وتحولات في: ندوة قضايا المخطوطات بعنوان "تراث العرب السياسي" القاهرة معهد المخطوطات العربية،2001 ص39.

أحياءًا عام 1526م، أتت محاكم التفتيش إلى غرناطة فخيّر المسلمون بين إعتناق المسيحية أو مغادرة البلاد أو التّعرضْ للعقاب. وكانوا يأخذون الأطفال والنّساء في اللّيل ليحتجزوهم في الكنائس ليحاكموا في الصّباح التّالي. رغم ما فعلته المحاكم بمسلمي الأندلس وإعتناق العديد منهم المسيحيّة إلاّ أنّ الكثيرين بقوا مسلمين في السّرْ. وفي سنة 1609م أمر الملك الإسباني بطرد جميع المسلمين من إسبانيا ويذكر الدكتور " دوايت رينولد " أنّ الأشخاص الّدين طردوا لم يكونوا من العرب أو البربر، بل كانوا من سكّان إيبيريا الأصليّين وكان أبناء عمومتهم في الشمال يطردونهم من ديارهم... وهي رؤية مختلفة تماماً عن حقيقة عملية الطرد وهدفها، ولاسيما أنّ الأشخاص الّذين طردوا كانوا من السّكان الأصليين(1).

وفي فترة لا تتعدى عشرة أعوام طُرِدَ أكثر من 250 ألف مسلم ومنعوا من أخذ ممتلكاتهم, حيث لجؤوا إلى شمال إفريقيا (ولا يزال العديد من العائلات التي ترجع أصولها إلى مسلمي الأندلس تعيش في شمال إفريقيا وخصوصاً بالمغرب وهم من المسلمين ذو الأصول الإيبيرية) .

دام الوجود الإسلامي في إسبانيا قرابة 800 سنة كدولة مسلمة وكانت تعرف بالأندلس حينها وهو الإسم الذي أطلقه العرب على إسبانيا، قام الإسبانيون بحروب الإسترداد وفي نهاية القرن الخامس عشر عند سقوط غرناطة (2)آخر ممالك المسلمين عادت إسبانيا إلى حكمها الذاتي.

ولم يكن يعرف الإسبان عندما نفوا العرب من بلادهم أنهم يخرّبون بيوتهم بأيديهم، ولم يدركوا أنّهم قتلوا الإِوَزَّة التي تبيض الذهب، فقد كانت إسبانيا ولقرون طويلة في حكم العرب مركز المدينة منبع الفنون والعلوم، مصباح الهداية في أوروبا.

2 - مجتمع الأندلس العربي الإسلامي في ظل الحكم الإسباني

منذ إنقسام دولة العرب المسلمين في الأندلس عند بداية القرن الخامس للهجرة/الحادي عشر للميلاد، بدأ لأوّل مرة خضوع جماعات عربية إسلامية للحكم الإسباني(2). وتزايد عدد هذه الجماعات مع الزّمن وعندما عمّت السّيادة الإسبانية شبه الجزيرة الإبيرية كلّها أواخر القرن الثامن للهجرة / الخامس عشر للميلاد، أصبحت كلّ الجماعات العربية الإسلامية الباقية في مواطنها خاضعة لحكم الإسبان. وظلّت كذلك حتى طردت نهائيا بعد أكثر من قرن، لكنّ الوضع القانوني لهذه الجماعات وكذا حريّاتها الفكريّة والإعتقاديّة وأوضاعها الإقتصاديّة الإجتماعيّة تباينت من فترة إلى أخرى، ممّا جعل حياتها تمر بفترات متمايزة متباينة، وسنعوضها وفق هذه الفترات أو المراحل.

1- ابن حزم علي بن محمد "جمهرة انساب العرب"، تحقيق عبد السلام هارون، دار المعارف، مصر، دار المعارف 1962م ص45 .

2- احمد مختار العبادي صور من حياة الحرب والجهاد في الأندلس منشآة المعارف 2000م ص25.

المدجنـــــون

ظلّت شبه الجزيرة الإبيرية، منذ فتحها أواخر القرن الأوّل الهجري/أوائل القرن الثامن للميلاد وحتى خروج العرب منها، منطقة يعيش فيها عرب مسلمين من جهة وإسبان كاتوليك من جهة ثانية، مع إختلاف في سعة الرقعة التي يسودها كل طرف ما بين فترة وأخرى، وتغير في ميزان القوى من فترة إلى أخرى(1). وبصورة عامّة ظلّت السّيادة على الرقعة الأوسع، وبقيت القوة الأعظم للعرب المسلمين حتى أوائل القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي. ومنذ ذلك الوقت بدأ الوضع يتغير بالتّدريج لمصلحة الإسبان الذين صاروا يتقدّمون بإطّراد. وإنْ كانت تعتري هذا التقدّم ما بين حين وآخر أوقات توقّف يليها تقدّم سريع فكان يتم على نطاق واسع، و على شكل موجات إكتساح. حدثت أولها أواخر القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي، عندما سقطت بيد الإسبان كل مملكة طليطلة. وكانت الموجه الثانية، أوائل القرن السابع الهجري / الثالث عشر للميلاد، عندما إستولوا على حواضر الأندلس الكبرى، مثل جيان وقرطبة في الوسط، واشبيلية في الغرب ومرسية و فالنسية في الشرق.

بعد كل إحتلال وعند سقوط أي أرض، كان قسم من سكّانها يغادر انفة من الخضوع لغير المسلمين. أمّا القسم الآخر فيفضل البقاء مع الذل، مما جعل المسلمين في المناطق الأخرى يدعونه "مدجنا"، وحرّفت عند الإسبان لتتّفق مع قواعد اللّفظ لديهم وأصبحت "مديخر "Mudejar وفي هذه التّسمية ما يدل على معنى الحيوان المروض أو القطيع الذليل. لكننا لو تركنا إعتبارات القدماء جانبا ونظرنا لواقع هؤلاء المدجنين الموضوعي، نرى أنّ الملوك الإسبان(2)– شأنهم في ذلك شأن مجتمعهم في سائر النواحي الحضارية الأخرى - نظروا للسلطة نظرة مقتبسة عن نظرة الأمراء والخلفاء العرب المسلمين في الأندلس لها. إذ كانت سلطة على رعية لا تقتصر على من يدينون بدينهم، بل أنّ أهل الكتاب يمكن أن يدخلوا في عداد هده الرعية، وأن يتمتّعوا بحريّة المعتقد ويخضعوا لأحكام قوانينهم الخاصة ويحافظوا على أملاكهم ونفوسهم. وقد أرسيت هذه القاعدة لدى الملوك الإسبان منذ فتح طليطلة. وهكذا نرى **ألفونسو السادس** غازي المدينة يلقب نفسه ملك الملل الثلاث(3)(أي المسيحية والإسلام واليهودية). ويعرض كاتب سيرته خبر إستقباله في المدينة بشكل يرسم صورة الملك بالشكل الذي يرغبه لنفسه، فيدّعي أنّ المسيحيّين و المسلمين واليهود خرجوا بقيادة زعمائهم الدّينيين لإستقباله، كل يدعو بصوت آلاته الموسيقيّة "الله يحفظ الإمبراطور ويمدّ في عمره كملك يحفظ للجميع الحكم العادل".

1- السلقي اخبار وتراجم اندلسية مستخرجة من "معجم السفر" للسلقي، تحقيق : احسان عباس، ط1، دار الثقافة 1963 م ص66.

2- أنور محمود زناتي تحقيق مخطوط "تاريخ الأندلس" لاسماعيل بن إبراهيم بن أمير المؤمنين. مكتبة الثقافة الدينية ص100.

3- P.Agusdo Bley, Historia de Espana, Vol. I, P. 001 – 002.

كذلك أضحت تفاصيل شروط إستسلام طليطلة نموذجا للشروط الّتي تستسلم بها المدن الأخرى، وبموجبها كان سكان المواقع المستسلمة، ينالون حرية البقاء لمن يريد و الرحيل لمن يشاء، ويحتفظ المقيم بأملاكه ويسترجعها المغادر عندما يغيّر رأيه ويعود، كما يتمتّع المستسلمون بحريّة العقيدة ويحتفظون بمساجدهم بما فيها المساجد الجامعة، ولو أنّ هذا الحق الأخير أصبح نظريًا وغالبًا ما حوّل المسجد في أكثر من موقع إلى كنيسة. وكانت طليطلة أيضا النّموذج في هذا الأمر أيضا، إذْ أنّ أسقفها بعد السّقوط برناردو، وهو من الآباء الكلوتنيّين ومن أصل فرنسي، قام بتحويل المسجد الجامع في طليطلة إلى كنيسة بالإتّفاق مع الملكة **كوستانزا** Costanzaالبورغنديّة الأصل.

وقد يعكس مثل هذا الأمر تعصّبا لدى غير الإسبان، أكثر مما لديهم، ويمكن تفسيره بأنّ مواطنهم لم تشهد التّعايش بين الدّينيين الذي أوجده العرب المسلمون في إسبانيا خلال أمد طويل، وتحاول الرّواية الإسبانيّة تبرير سكوت الملك عن خرق عهده بالقول: أنّه قدم إلى طليطلة غاضبا يريد حرق الأُسقف والملكة، فخرج أكابر أهل طليطلة وأصاغرهم لإستقباله في ظاهرها، وظنّ الملك أنّ خروجهم كان للشكوى فطمأنّهم ووعدهم بأنّه سيعاقب خارقي العهد ويحقق لهم ما تمّ الإتّفاق عليه، فبكى أهل طليطلة وكان بينهم حكماء ورجوه بألاّ يفعل لإنّ لكلّ من الملكة والأُسقف أنصار كثيرون، فإذا فعل بهم ما يريد أن يفعل، قام أنصارهما بالإنتقام منهم بعد إنقضاء أيّامه(1).

رغم هذا الخرق، ورغم أنّ المدجّنين كانوا يخضعون من فترة لأخرى لقيود جديدة كإجبارهم على وضع علامات خاصة في ألبستهم تميزهم، فإنّهم عاشوا بشكل عام في وضع شبيه بوضع الجماعات غير الإسلامية في المجتمع العربي الإسلامي2. لم يطرأ على حياتهم في الريف من تغيير، في الغالب، إلاّ تبدّل السّادة الّذين تابعوا في ظلّهم نمط حياتهم السّابق، وإشتهروا بمهارتهم في الريْ وأنواع الزراعات المختلفة التي أنتجتها الأندلس وخاصة أرز، وقصب السكر والتوت وتربية دودة القز.

كذلك بقي المدجنون يشكّلون النّسبة الكبرى من سكّان المدن في إسبانيا، طليطلة في الوسط، وقرطبة وإشبيلية في الجنوب، ومرسية وفالنسية في الشرق(3). وتعكس لنا المصطلحات الإدارية العربية التي بقيت في اللّغة، على أنّ الإدارة في هذه المدن سارت على نفس الخطوط الأساسية التي تأصلت وترسّخت في فترات الحكم العربي الإسلامي. وهكذا بقيت إدارة المدينة بيد Zalmedina (صاحب المدينة أو ذو المدينة).

---

[1]– R. Menendez Pidal, Primera Cronica General, Vol. II, P.541

[2]– احمد اليوسفي شعيب "أهمية الفتاوى الفقهية في كشف وقائع التجربة الأندلسية" (لوازم ابن الحاج القرطبي) نموذجا في : ندوة "الأندلس قرون من التقلبات والعطاءات" الرياض مكتبة الملك عبد العزيز العامة، 1993 م ص33.

[3] – Watt, A History of Islamic Spain, PP. 150- 152

ويجمع الضّرائبAlmojarife (المشرف)، ويقوم بأعباء القضاء Alcalde(القاضي)، ويفتّش الأسواق Almotacen (المحتسب)، ويقوم بالإشراف على تطبيق القانون(1)ومعاقبة الخارجين عليه Alguacil (الوزير). ضمن هذا الإطار تابع مدجّنو المدن حياتهم السّابقة، فتركوا إنطباعا لدى المعمّرين الإسبان والرّحالة الأجانب، ينم عن الإعجاب بمهارتهم في العمل ودأبهم عليه وبإستقامتهم في السّلوك. فهم على حد قول Alonso Frnandez يذهبون بهذوء الى أعمالهم، ولا يختلطون إلاّ قليلا ويدفعون ما عليهم من ضرائب بدقّة، ويسيطرون بفضل مهارتهم وجدّهم على الصّناعات والحرف، وربّما أدّت مهارتهم وصفاتهم إلى الإقبال على إستخدامهم وترك غيرهم، مما جعلهم ميسورين وجعل البعض يتّهمونهم بالشح والبخل. وهكذا كتب أحد المؤرخين الإسبان بقوله " أخذوا كل الحرف والأعمال والخدمات كعمّال يوميّين أو عمّال لدى السادة.

وبما أنّهم كانوا يقومون بهذه الأعمال على الوجه الأكمل، لم يتعرّضوا للبطالة ووفّروا المال لأنّهم شرهون إليه شحّيحين لا ينفقون كثيرا على طعامهم وشرابهم ولباسهم أمّا العاملون المسيحيّون الإسبان فلم يجدوا عملا "(2).

لعلّ المعماريين أكثر هؤلاء الحرفيّين المهرة شهرة، وقد كثر عددهم وذاع صيتهم منذ عصر الطوائف في الأندلس(3)، عندما تبارى هؤلاء الملوك في إنشاء القصور الفخمة التي عكست إرتقاء لفن العمارة وتقدما عمّا كان عليه في مصر الخلافة الفاطمية، ورغم أنّ العديد من هذه القصور قد باد، إلاّ أنّ قصر الجعفرية الباقي على مقربة من سرقسطة يكفي وحده كشاهد على مدى هذا الرّقي وذلك التطور. وورث الملوك الإسبان العديد من ملوك الطّوائف، وبذلك أصبح العديد من المعماريين بين رعاياهم وفي متناول أيديهم، مع كل ما يتمتّعون به من مهارة ورخص أجر، وهكذا إستخدموهم لبناء قصور ملكية مثل قصر **ماريا دي باديا** María de badiaفي مدينة **توردي سياس** Tordi Siasوقصر **اشبيلية**. ولقد لعبت هذه القصور، إضافة لتجسيدها لفن المدجّنين، دور الموحي والنّموذج للتّقليد، فإنتقل التّأثير إلى المباني الدّينية وخاصة في الكنائس الصغيرة التي بنيت في أمكنة متعددة(4).

وقد ساعد على نشر هذا الطّراز، كون مادة البناء الأساسية في هذا العمران الآجر الملائم والمطواع لبناء جميع أنواع الأبنية الصّغيرة منها والكبيرة.

1– الخشني "قضاة قرطبة""، الدار المصرية للتاليف والترجمة. القاهرة 1966 م ص55.

2 – Jean Read, The Moors in Spain and Portugal, PP.193

3– عبد العزيز سالم "صور من المجتمع الأندلسي في عصر الخلافة الاموية وعصر دويلات الطوائف من خلال النقوش المحفورة في علب العاج" – مجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية (مدريد) – ع 19 (1976) – ص ص 61–81.

4 – Gabriel Jackson, The Macking of MEDIEVAL Spain P. 114 – 115.

تميزت العناصر الجمالية في هذا العمران عن مثيلاتها في البناء القوطي، من كون العنصر الجمالي في هذا الأخير، يتركز على شكل مخطط بينما إعتمد جمال بناء المدجّنين على نعومة العناصر المعمارية فيه، وخاصة الأعمدة الرشيقة والأقراس المفصّصة، والأهم من ذلك كلّه اللّوحات التي تملأ الجدران والسّقوف وتضم أشكال هندسية ونباتيّة في بعض الأحيان. وقد تكون هذه الزّخارف من الخشب المحفور في السّقوف أو الجّص على الجدران أو السّيراميك، الذي كان عبارة عن رسوم زرقاء على أرضية ناصعة البياض. ويستحق هذا النّوع الأخير من الزّخرفة وقفة قصيرة. فقد صنع في الأندلس قبل الفتح وفي العهدين الرّوماني و القوطي على نطاق ضيق، وبعد الفتح حمل المسلمون أساليب صناعيّة متقدّمة من الشّرق وبلاد ما بين النّهرين، وأصبحت الأندلس شهيرة بصناعته وتصديره خاصّة على شكل أواني وتحف من **مالقة** Malagaوشرق الأندلس إلى أوروبا وعالم المتوسط. وقد عرف فيها بإسم Azulejo وهي كلمة يبدو أنّها دمج لكلمتين إحدهما عربيّة وهي الزلّيجة (اي الحجر الصغير المصقول) وكلمة (azul) من الإسبانيّة الدّارجة التي تعني أزرق. وهذا كلّه يفسّر لنا إنتشار النّموذج المدجّني في فن العمارة والزّخرفة عبر الزمان. لإنّ عناصر منه ظلّت باقية في الفن الإسباني حتى العصر الحديث.

أمّا عبر المكان فقد جاوز إسبانيا ووصل إلى العالم الجديد. فقد كشف **تيراس** Terrase العديد من موضوعاته وتقنيّاته في فن المكسيك وتكساس وباراغواي، وعبّر عن أهميّة ذلك بقوله " أنّ فن المدجنين إنفرد وحده دون سائر فنون غرب أوروبا بعبور المحيط وتحدي الزّمان والمكان، بوصله أمريكا بأوربا وإسبانيا الوسيطة بإسبانيا العصر الذّهبي(1").

من التدجين إلى التنصير

بدأ الإنتقال بإحتلال الملكين الكاثوليكيّين فرنادو وايسابيلا لمملكة غرناطة والقضاء على سيّادة بني الأحمر، فأزالا بذلك آخر وجود عربي إسلامي في الأندلس على الصّعيد السّيّاسي.

وأثّرت هذه العملية على المدجنين من الناحية الكمية، لأنّها زادت في أعدادهم زيادة كبيرة، كما أنّ أحداثا تبعتها أو تولّدت عنها أدّت إلى تغيير كيفي وإلى التّنصير.

تمّت أوّل خطوات هذه المرحلة بسقوط مدن ومواقع مملكة غرناطة ضمن شروط متباينة، حسب درجة المقاومة للموقع أو للمدينة، وحسب زمن السقوط بين بداية الحرب أو قرب نهايتها، إذ كانت الشروط أكثر سخاء كلّما كانت المقاومة أقل والزّمن أقرب لنهاية الحرب لرغبة الملكين الكاثوليكيين في الفراغ منها بسرعة. على أنّه يمكن تمييز ثلاثة نماذج عامة للإستسلام.

[1] - Terras, Islam d’Espagne, P. 60.

يمثّل إستسلام مالقة Malagaأقسى النّماذج، فقد قامت في الفترة الأولى من الحرب مقاومة شديدة، وإستسلمت آخر الأمر دون قيد أو شرط، ليستعبد من أهلها ما بين 000ر11 و000ر15 وحصل التاج من بيعهم وبيع أملاكهم على 56 مليون دينار مرابطي(1).

ونجد النّموذج الثّاني في شروط إستسلام تلك البلاد التي سقطت بعد مالقه وقبل غرناطة، والّتي تضمّنت سلامة النّفوس وحرّية الإعتقاد وممارسة الطّقوس الدّينية وتنظيم شؤونها والعلاقات بين أفرادها وفق أحكام الشريعة الإسلامية.

أمّا النّموذج الثّالث، فهي الشّروط التي إستسلمت بموجبها غرناطة، وهي أسخى الشّروط وتشابه ما يمكن أن نسمّيه بالإستقلال الدّاخلي أو بالحكم الذّاتي في مفاهيم عصرنا الحاضر، كانت هذه الشّروط سبعة وستّين، إحتوت على ضمان سلامة الأرواح والأملاك" تأْمين الصّغير والكبير في النّفس والأهل والمال وإبقاء الناس في أماكنهم ودورهم ورباعهم وعقارهم(2).... وإن لا يدخل النّصارى دار مسلم ولا يغصبوا أحد ".

كذلك إحتوت الشّروط على حرّية العقيدة وحريّة ممارسة طقوسها علينا وإعتبار الشّريعة الإسلامية قانونا تجري المعاملات وفق أحكامه " ومنها إقامة شريعتهم على ما كانت، وأن تبقى المساجد كما كانت والأوقاف كذلك.. ولا يمنع مؤذّن ولا مصلّ ولا صائم ولا غيره من أمور دينه، ومن ضحك منهم يعاقب... ولا يحكم على أحد منهم إلاّ بشريعتهم وأنْ لا يولّى على المسلمين نصراني أو يهودي ".

وفي الواقع لم ينل الغزاة من مكاسب على حساب الإسلام كعقيدة أو شرع، إلاّ في مجال ترك حريّة التّبشير لهم بالمسيحيّة وحريّة النّاس في إعتناقها إذا أرادوا ذلك دون قسر، مع إفساح المجال لعلماء دينه بأن يقدّموا النّصح لها في فترة تريّث، بين إعلان رغبته بإعتناق الدّين والمصادقة على ذلك، إذ نصّ الشّرط على أنّ " من تنصر من المسلمين يوقف أيّاما حتى يظهر حاله ويحضر له حاكم من المسلمين وآخر من النصارى، فإن أبى الرّجوع إلى الإسلام تمادى على ما أراد".

على أنّ هذه الأمور تخص أصحاب خيار البقاء، أمّا من أراد الرّحيل فله ذلك ضمن شروط محدّدة، نصّ عليها الإتّفاق بالْقول" ومن أراد الجواز للعودة لا يمنع ويجوزون في مدة عينت في مراكب السّلطان لا يلزمهم إلاّ الكراء، ثمّ بعد تلك المدّة يعطون عشر مالهم و الكراء"(3).

كان الكراء متباينا وأقصاه قطعتان ذهبيتان. كذلك فإن الأملاك المنقولة التي يجوز حملها مع المغادر يجب أن تتقيّد بالقوانين القشتالية التي تحرم إخراج الذّهب والفضّة والحديد والفولاذ والخيول إلى البلاد

1 - Cronicas de Los Reyes de Castilla, Vol, III. PP. 449 – 473.

2- عبد الرحمن الرءوف الخانجي "اثر فتنة قرطبة على المرتكزات النفسية والأخلاقية" لابن حزم الأندلسي في كتابه "طوق الحمامة" في ندوة – "الأندلس قرون من التقلبات والعطاءات"- الرياض مكتبة الملك عبد العزيز العامة

3- المقري "نفح الطيب" ج6، ص 267 – 278.

الإسلامية، بإعتبارها مواد ثمينة أو إستراتيجية يجب ألّا تقع بيد الأعداء، ويمكن إستثناؤها من القوانين بموجب ترخيص ملكي لكبار الشخصيات. وهكذا إستطاع كل من الزغل عام 490هـ/1493م ومحمد الثاني عشر الذي رحل إلى تلمسان(1)، أن ينقلا ما حصلا عليه من مال، بالغت الرّواية الإسبانية في تحديد كميته فجعلتها 40 مليون دينار، وهو رقم مبالغ فيه إلى حد كبير، ويمكن تفسير هذه المبالغة بالرغبة في اضعاف معنويات العرب المسلمين الباقين، بتصوير زعمائهم على هذه الدرجة من الجشع وإهمال شؤون رعيتهم.

بعد إستسلام دولة غرناطة كلها جاء دور تنفيذ إتفاقيات الإستسلام. وممّا لا ريب فيه أنّ أيْ إتّفاق بين طرفين يعكس وضع القوى في الوقت الذي عقد فيه، وفي حالة مملكة غرناطة تمّ عقد هذه الإتّفاقيات في ظل الحرب مع الإسبان ورغبة هؤلاء في إنهاء الحرب بسرعة.

أمّا الآن فقد تغيرت الظروف وأصبحت الشروط التي تحفظ حق مدجني غرناطة(2) ينظر إليها على أنها إمتيازات ومنحة من قبل السلطة(3). وإضطّر مدجّنو غرناطة أن يتحمّلوا تفسيرات السّلطة المناقضة لمصالحهم بالنّسبة لبعض الشّروط وعدم التقيّد ببعضها، إضافة للضّغوط التي وقعت عليهم من قبل الكنيسة والمعمّرين الجدد، الّذين قدموا ليحلوا محلة المدجنين المطرودين.

وهكذا لم يلبث أن ألغي حق حمل السّلاح للغرناطيين، ثمّ إستبعد المدجنون من اللجنة التي تدير شؤون المدينة.

أمّا حق الإحتفاظ بالملكيات الثّابتة فقد أصبح غير ذي معنى بفعل بعض القرارات التي صدرت، وبموجبها أجبر من يسكن قلب المدينة من المدجنين على مغادرتها إلى الأطراف وخاصة إلى حي البيازين. أمّا في الريف فقد حرّم على المدجنين شراء الأراضي وأبيح لهم بيعها. الأمر الذي سيؤدي على المدى الطويل إلى انتقالها للمعمرين الإسبان.

محاولة التعايش بين مدجني غرناطة والمجتمع الإسباني :

خضع مدجنو غرناطة للسلطة الملكية وأدواتها في بلدهم من حكّام وقوى عسكرية، وعاشت إلى جانبهم قوى أخرى تتمثل في قوة الكنيسة والسّادة الإقطاعيين والمعمرين الإسبان العاديين.

وكانت هذه العناصر كلها متعطشة لملكية الأرض، التي تمت لها بطرق ثلاثة، أوّلها الشّراء من سكانها المدجنين الذين يريدون بيعها طواعية، ويظهر أنّ الإقبال على هذه الطريقة كان كبيرا بسبب إحتكار الإسبان للشراء وحدهم، وما يؤدي إليه من تدن في الأسعار.

[1]- عبد الواحد ذنون "دراسات في تاريخ وحضارة المغرب الإسلامي" دار المدار الإسلامي، بيروت 2004 م.

[2]- توفيق محمد علي "صفحات من تاريخ المدن الأندلسية" دار الضياء، 2005 م ص120.

[3]- ابن خلكان (محمد البرمكي)"وفيات الاعيان وانباء ابناء الزمان" تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد القاهرة 1948 م.

وقامت السلطة بالسعي لمنع التنافس حتى لا يزول مفعول احتكارات الشراء، فحدد له سقف بحدود 200.000 دينار مرابطي. إلى جانب ذلك كان الملك يقدم منحا إما على شكل أرض أو على شكل سيادة على منطقة يسكنها ويملكها مدجنون، وقد بلغ مجموع هذه المنح ألف منحة خلال السنوات السّت التي إنقضت بين سقوط غرناطة عام 1492م ونهاية القرن(1). أما الطريق الثالث لإمتلاك الأرض فكان تقسيم الأراضي التي جلا عنها أهلها من العرب المسلمين، وكان يتم بقدوم كتّاب مع مسّاحين يمسحون الأراضي ويقسمونها إلى قطع، ويحدد عدد السكان الذين يعمرون كل قطعة.

وكانت جماعات المعمرين تتدفق إلى الأرض الجديدة التي غزيت حتى بلغ عدد أفرادها من 53.000 إلى 40.000 بين عامي 1485م و1498م، وكان إعمارهم كثيفا لمناطق الحدود السابقة التي كانت شبه خالية، ونجد مثلا واضحا على ذلك في قرية انتقيرهAlcantara الّتي لم يبق فيها من سكان أكثر من 200 بين عامي 1410م و1480م فأصبح بعد الإعمار أوائل القرن السادس عشر الميلادي 3500نسمة(2).

بهذا تغير الوضع الإجتماعي لسكّان غرناطة(3) الّذين ينتمون لإطار الثقافة العربية الإسلامية، بعد ما عاش بينهم أناس ينتمون إلى إطار ثقافي مغاير هو إطار الثقافة الإسبانية المسيحية. ورغم كون هؤلاء أقلية إلاّ أنهم أصحاب القوة لأنهم ينتمون للغالبين، وتدعمهم السلطة الملكية والكنيسة وقوة الجيش المتمركز في الحمراء وفي نقاط أخرى. ونتيجة لهذا التّناقض لا بد من وجود عداوة متبادلة كان يؤيّدها لدى المعمرين الإسبان تلك الغارات التي كان يقوم بها العرب المسلمون "المنفيّون" في الجبال، حيث لجؤوا أنفة من ذل الخضوع، وكذلك غارات القراصنة من شمال إفريقيا، وإنتفاضات الناس هنا وهناك على قسوة جباة الضرائب. وهذا كله خلق عقبة في وجه التّعايش بين المجتمعين.

أمّا في المجال الإقتصادي فلم يكن التعايش صعبا إلى هذه الدرجة، إذ أنّ الأراضي التي إنتقلت ملكيتها للإسبان شهدت تغيرا في عقلية الإستثمار وتقنية الإنتاج، لكنّ التعايش إستمر عشرات السّنين وأتاح فرصة التبادل في التجارب والطرق والإقتباس المتبادل.

أمّا على النطاق التجاري فقد حصل تغير كبير، إذ رغم تمكن التجار الإطاليين، بعد مجهود كبير، من الإبقاء على تجارة الحرير مع مملكة غرناطة على وضعها السابق، ورغم أنّ عددا من الرخص أعطي

---

[1]- ابن الخطيب(لسان الدين) "الاحاطة في اخبار غرناطة"، تحقيق محمد عبد الله عنان مكتبة الخانجي، 1974 م ص98.

[2]- M. A. Ladero Quesada, La Repoblacion del Reino de Granada anterior al- Ano 1500, Hispania, 110 (1968). PP.485-59.

[3]- شوقي ضيف "الحضارة الأندلسية ودورها في تكوين الحضارة الاتسبانية" – مجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية (مدريد) – ج23 (1986-1985) –ص ص 7-25..

للمتاجرة مع المغرب، إلاّ أن إقتصاد غرناطة دخل بالنسبة للمواد الأخرى ضمن دائرة الإقتصاد القشتالي(1).

في ظل هذا الوضع للتعايش بين الجهتين المليء بالتّناقضات والكراهية المتبادلة التي زادها حدّة، كره مدجني غرناطة للسلطة التي فرضت عليهم ضرائب جديدة.

وكانت السلطة السياسية والدينية تعتبر حالة التعايش هذه عارضة وأنّها منتهية لا محالة بالإنصهار، وذلك عندما يعتنق هؤلاء المدجنون المسيحيّة عاجلا أم آجلا، لكن الإختلاف وقع على الطّريقة المؤيدة لهذه الغاية، فبينما كان الملكان الكوثوليكيان في البداية يأملان بأن العرب المسلمين عندما يتعايشون في ظل الأوضاع الجديدة لأمد مع المسحيّين سيقبلون دون شك ما إعتقد الملكان أنّه الدّين الحق.

أمّا أسقف غرناطة تالابيرا Talaveraفكان يرى ضرورة العمل لذلك عن طريق الإقناع والمعاملة اللّطيفة، واللّجوء إلى كل الوسائل الممكنة على أن يستبعد منها العنف بجميع أشكاله. لكنّ كبير أساقفة إسبانيا في طليطلة ثيسنيروسCisneros كان يرى رأيا مخالفا واستطاع أن يضع رأيه موضع التعليق بفعل ظروف متعددة. فقد أتمّ ثيسنيروس دراسته العليا في اللآهوت و زار روما ثمّ انخرط في صفوف الفرنسيسكان حيث إعتزل في أحد أديرتهم مدّة ثماني سنوات.

ثم أصبح صاحب الإعتراف "confesor" للملكة **ايسابيلا،** ومن هذا الموقع إنتقل لدخول عالم السّياسة بعد ما أصبح بمثابة مستشار لهذه الملكة، وكان له بالتالي أثره الكبير على القرار السياسي الصادر عنها.

وقد تجلى هذا عندما رافق الملكين في رحلتهما إلى غرناطة حيث إعتبر أنّ عمل تالا بيرا Talaveraفي التّنصير يسير ببطء شديد، وإستطاع الحصول على الإذن بالبقاء فيها أمدا لإعطاء العملية دفعا جديدا(2).

بدأ يعقد إجتماعات مع الفقهاء وحاول جلبهم بالإقناع وتوزيع النعم والهبات، وإعتبر أنّه حقق نجاحا هائلا بعدما ضم حسب قول الرواية الإسبانية أحد زعماء حي البيازين مع ثلاثة آلاف، وهي رواية مبالغ فيها دون شك، خاصة إذا أخذنا بعين الإعتبار قولها أنّ هذا كان حصيلة أحد الأيّام. من جهة ثانية شنّ حربا على الناس والكتب معتبرا أنّ الكتب تشكل مرعى فكريا يدعّم الإعتقاد بالإسلام وممارسة طقوسه، وهكذا جمع أعدادا كبيرة منها وأرسلها إلى جامعة القلعة(3).

أمّا الطريقة المناسبة التي رآها صالحة لمن يمتنعون عن إعتناق الدّين الصحيح فهي **"**جلبهم ورميهم مكبلين في السّجون حتى يأتوا طالبين ماء التعميد وأن يصبحوا مسيحيين، ولكي يصبحوا هكذا، يجب

[1]- Pedro Longas Vida Regligiosa de los Moriscos, P. XXXV

[2] - Diccionario Historico Espanol, Vol. I, Art. Cisneros, Francisco Jimenez de.

[3]- ابراهيم بيضون "الدولة العربية في اسبانيا"، ط 3، دار النهضة العربية 1986 م.

وعظهم بإستمرار وضعهم على طريق عقيدتنا الكاثوليكيّة المقدسة، ويجب أن يعهد بالسّيطرة عليهم إلى أناس معينين ومحدّدين بالأسماء "، كالقس المسمى **"سبع"** وهو إسم على مسمى لأنّ الذين يقعون تحت سيطرته يعاملهم بالقسوة التي تجعل الواحد منهم مهما بلغ من إعتقاده وتعنته، يأتي، بعد البقاء تحت رحمته من أربعة إلى خمسة أيّام، طالبا أن ينقلب إلى الكاثوليكيّة، تجاه هذا الضغط قام مدجنو مملكة غرناطة بالعمل على الصّعيدين الداخلي والخارجي: قامت ثورة في حي البيازين بغرناطة وكاد يذهب ثيسنيروس ضحيتها لأنّه حوصر، لكن الإنتفاضة إنتهت بعد ثلاثة أيام، أي يوم 21 كانون الأول 1499م مقابل الأمان للجميع وحصر العقوبة بالمسؤولين المباشر فقط. ثمّ أعلن حاكم المدينة وأسقفها أنّهما يمنحان العفو لمن يدخل في المسيحيّة، لكنهما من جهة أخرى ألقوا المسؤولية على الجميع وجعلوهم بالتّالي عرضة للعقوبة مما دفعهم للتعمد جماعات (1).

كانت إنتفاضة البيازين الشرارة التي تطاير شررها إلى أمكنة متعددة من مملكة غرناطة فتتالت فيها الإنتفاضات التي إستمرت لآماد متفاوتة لكنّها لم تقع في وقت واحد. إنفجرت في البشارات Alpujarras في كانون الثاني عام1500م وإستمرت ثلاثة أشهر، أخضع الثّائرون على أثرها ولم ينالوا الأمان إلاّ بالتعهد، فتعمّدوا وعلى رأسهم زعيمهم الوزير **إبراهيم بن أمية** الذي عمد بإسم Hernando de Cordoba ثم قامت ثورة ثانية في المنطقة الشرقية أي منطقة المرية، وثورة ثالثة في جبال رائدة أكثر خطورة وأطول أمدا، إذ بدأت في كانون الثاني عام 1501م ولم تخمد إلاّ في شهر مارس، ولقي القائمون بها مصير من سبقهم والتّعمد(2).

أمّا على الصّعيد الخارجي فقد وصلت شكاوي مدجني غرناطة إلى السلطان المملوكي في مصر، بأن المسلمين في إسبانيا ينصّرون بالقوة، خلافا لما نصت عليه إتفاقيات الإستسلام، ورد سلطان مصر بالتّهديد بإجبار المسيحيّين في بلاده على إعتناق الإسلام، ومن هنا ظهر التخيير بين إعتناق المسيحيّة أو الهجرة خارج الأندلس، وبالتالي يبدو التنصر وكأنه طوعي(3).

ويظهر أنّ هذه الإتصالات ونتائجها وما دار فيها بشكل عام كانت صحيحة، بدليل إشارة قصيدة موريسكية(4) متأخرة عن الحدث بسنوات عدة وبعد إخماد الثورة، أرسلت إلى السلطان العثماني **بايزيد الثاني** (1481 – 1481 م) طلبا لعونه.

وتشير القصيدة إلى ما حصل في السّفارة إلى مصر وإلى الجزاء الذي ناله الثائرون:

[1]- Juan de Vallejo, Memorial de la vida de Fray Francisco Jimenez de Cisneros, P.33 – 34.

[2]- A. Dominguez Ortiz y Bernard Vincent, Historia de los Moriscos, P. 18 – 19.

[3]- Màrmol Carvajal, Historia dela rebilion y Casztigo de los Moriscos P. 156.

[4]- ابن دحية الكلبي (ت633 هـ) –الدرجيني : كتاب "طبقات المشايخ بالمغرب"، ج1 ص 66تحقيق : ابراهيم طلاي، الجزائر 1394 هـ/ 1974م.

وقد بلغت إرسال مصر إليهـــم * وما نالهم غدر ولا هتك حرمــة
وقالوا لتلك الرسل عنا بأنـنـــــا * رضينا بدين الكفر من غير قهرة
وساقوا عقود الزور ممن أطاعهم * و والله ما نرضى بتلك الشهــادة

وسردت القصيدة في معرض تعداد دواعي الإكراه لهم على تغيير دينهم، ما حصل في إخماد ثوراتهم التي أشرنا إليها على الشكل التالي :

وان زعموا أنا رضينا بدينهــــم * بغير أذى منهم لنا ومســـاءة
فسل وحرا عن أهلها كيف أصبحوا * أسارى وقتلى تحت ذل ومهنة
وسل "بلفيقا " عن قضية أمرها * لقد مزقوا بالسيف من بعد حسرة
ومنيافة بالسيـــف مزق أهلـهـــا * كذا فعلوا أيضا بأهل البشــــرة
واندرش بالنار احــرق أهلـــها * بجامعهم صاروا جميعا كفحمــة

ثمّ يطلبون من السلطان العثماني السعي لمنع الإجبار وأن يسمح لهم بالجلاء إلى المغرب مع أموالهم، وتعبّر القصيدة عن ذلك بالقول :

فها نحن يا مولاي نشكو إليـك * فهذا الذي نلناه من شر فرقـــة
عسى ديننا يبقى لنا وصـلاتنـــا * كما عاهدونا قبل نقض العزيمة
والا فيجلونا جميعا من أرضهم * بأموالنا للغرب دار الأحبــة(1)

إلى جانب هذه الوثائق التي تصف وضع الجماعة فإنّ هناك وثائق أخرى لأفراد يصفون فيها ما تحمله من آلام كأفراد أو كأسرة.

فقد وصف إمام جامع غرناطة **يوسف بن نيغاش** لشباب زاره من بني قومه وضعه بقوله: "بالنسبة لي لم يبك أحد بمرارة كأبناء غرناطة، لا تشك بقولي لأني واحد منهم ولكوني شاهدا عيانا، رأيت بعيني كل السّيدات المحترمات أرامل ومتزوجات يعرضن للبيع، وشهدت بيع ثلاث مائة فتاة، وبالنّسبة لي فقدت ثلاثة أبناء وإبنتين إضافة لزوجتي وما بقي لي من عزاء سوى هذه الإبنة، وهي في الشّهر السابع من عمرها.

أنا لا أبكي الماضي لأنّه لن يعود، ولكنني أبكي ما سوف تراه إذا طال بك العمر وبقيت على هذه الأرض، فإذا كنّا لا نستطيع تحمل الأعباء التي حملناها في هذه الفترة القصيرة من الزّمن، فماذا نعمل عندما تأتي السنوات بأعباء أخرى، وإذا كان **الملك الغازي** الذي أعطى عهود الأمان قد نكث بها فماذا ننتظر من خلفائه. أقول دائما يا بني إن مصيبتنا في إزدياد "(2).

[1]- المقري(أحمد بن محمد أبو العباس) "أزهار الرياض"، ج1، ص 105 – 115.

[2]- M. A Ladero Quesada, Granada (1232 – 1572) , P. 163.

إتمام عملية التنصير (1502 – 1526)

أحرز **ثيسينروس** كبير أساقفة طليطلة نصرا ثانيا عند إخماد الثورات في غرناطة ليجعل القرار الخاص بتنصير مدجنيها يعمم على المدجنين في أنحاء المملكة الأخرى.

وهكذا خضع هؤلاء المدجنون، الذين لم يكونوا يعرفون شيئا مما حدث في غرناطة ويصرفون حياة ذلّ في أحياء خاصة بهم، للقانون الذي صدر عام 1502 م والذي يخبر الجميع بين التعمد أو الجلاء. وحدد عام 1510 م كنهاية للفترة التي تنتهي فيها العملية، ولتحقيق ذلك أنشئت شبكة كنائس محلية ونظّمت عملية التّنصير بموجب عقود خاصة بالنسبة لكل مكان من الأمكنة(1).

وقد يناقش البعض في جدوى هذه العملية التي قام **ثيسنيروس** بإقناع السلطة بها، وهي التنصير في ظل التهديد الذي يجعل المجتمع متجانسا عقائديا ومنصهرا كله في بوتقة كاثوليكية ظاهريا، بينما يبقى في الباطن منقسما على نفسه ويبقى المعمدون قهرا يحفظون إيمانهم سرا ويزداد تشبثهم به وحرصهم عليه، كما أثبتت الحوادث التالية.

لكن هذا الإعتراض والتقليل من أهمية العملية يصدق على المدى الطويل، أمّا على المدى القصير فقد تحقق منها شيئان لا يمكن نكران أهميتهما.

أوّلهما أنّ التنصير، إضافة لطابعه العقائد الإيماني، وسيلة مساعدة في الحكم، لأنّ العقيدة- أي عقيدة في ذلك الزّمان – كان يرتبط بها قانون خاص ينظم علاقات الناس ببعضهم ويحدد أنظمتهم الإدارية والقضائية والإقتصادية ومن شأن التّعميدات يجعل قانون الإمبراطورية الإسبانية يسود ويطبق على المسلمين بعد تنصيرهم(2).

أمّا الأهمية الثانية فهي مالية بحتة بالنسبة للتاج وللكنيسة، إذ أن تنصير جماعة إسلامية في أي موقع أو مدينة يعني أنّ أملاك الجماعة العامة تعود للدولة الجديدة بعد تغيّر عقيدتها، إضافة لأملاك المغادرين. ومن الأمثلة الواضحة على ذلك حالة جماعة المدجنين في إشبيلية التي حفظت عنها وثيقة، لمّا قام الموظفون بأمر ملكي بإحصاء الأملاك العامة للجماعة التي تعيش في حي من أحيائها يسمى " درب الموروس"(3)

تعميق عملية التنصير

بعد عشر سنوات تبيّن للقائمين على التنصير أنّ عمليتهم كانت شكلية بحتة لأنها إقتصرت على التعميد فقط بينما إستمر المدجنون الذين أصبحوا **مسيحيين** جدد أو**"موريسكوس"** على إعتقادهم القديم سرا.

[1]- أمين توفيق الحليبي "دراسات وبحوث في تاريخ المغرب والأندلس"،ص75 دار العربي للكتاب 1984 م.

[2]- احمد ابراهيم الشعراوي "دراسات في تاريخ اسبانيا في العصور الوسطى"، ج1 ص98، دار النهضة العربية،1973 م.

[3]- Klaus Wagner, Un Padron desconocido de los Mudejares de Sevilla, Al-Andallus, Vol XXXXVI51971°?pp.-373-382.

كما أنّ الإسلام ليس عقيدة فقط بل ناظما للشؤون الدنيوية، التي ترسخت على شكل قواعد وعادات حياتية للمسلمين الأندلسيين، وهذا ما أدّى إلى نشر سلسلة جديدة من القوانين الغاية منها القضاء على هذه الممارسات سواء في أداء المناسك الإسلامية سرا أم في السير على تقاليدهم وعاداتهم السابقة، وكذلك منع الإتصال فيما بينهم.

وهكذا حرّم على الموريسكوس مغادرة المكان الذي يعيشون فيه تحت طائلة لإستعبادهم من قبل من يقبض عليهم، وإلاّ يصبحوا قصّابين حتى لا يتم ذبح على الطّريقة الإسلامية، وأن يقوم المسؤولون عن المناطق بإغلاق المساجد، وأن يتخلى الناس عن أسمائهم وألقابهم العربية، وألاّ يقوم طبيب أو غيره بعملية الختان. وعندما يدرك قرع الأجراس للإحتفالات الدينية على الموريسكوس أن يخلعوا قلنسواتهم ويركعوا، وأن يتركوا إرتداء الألبسة العربية وخاصة الملفة أو الملحفة التي ترتديها النّسوة، وأن تغلق حمّاماتهم ويمنعوا من الإحتفال في أيّام إحتفالاتهم الدّينية القديمة أو الموسمية (1).

ووصلت عملية التّنصير في **قشتالة** إلى ذروتها بإقامة محكمة التفتيش في غرناطة عام 1526م. أمّا في بلاد **أراغون** فالوضع كان مختلفا، إذ رغم الإشاعات التي راجت هناك والقلق الذي كان يسود دائما بين 1502م – 1520م من القيام بعملية الطرد لمن لا يتنصر، إلاّ أنّ ذلك لم يحدث طيلة هذه الفترة نظرا لحماية النّبلاء، لكن الضغط جاء من الأدنى حيث قامت النقابات بعمل ضاغط عن طريق مهاجمتها لقرى وأماكن المدجنين، وفي عام 1520م عمد دفعة واحدة وفي بلد واحد 15000ر من المدجّنين بعد محاصرة النقابيين له.

وإستمرت العملية مدة خمس سنوات تدخل الملك بعدها ليأمر بإستكمال عملية التنصير خلال شهر. وقد قدم خلاله عليه وفد إسلامي أعلن الطاعة وقبل بالتعميد، إلاّ أنّه نال مقابل 40000ر دوكا (أربع ملايين ليرة تقريبا) إعفاء لمدة عشر سنوات من دخول التفتيش والسماح لهم بإستخدام اللّغة العربية وألبستهم الخاصة والزّواج غير المختلط والدّفن في مقابر خاصة والذبح على الطريقة الإسلامية، إضافة إلى الإستمرار في دفع نسبة من مداخيل أوقاف المساجد على الفقهاء والمشرفين. لكنّ هذا الإتفاق لم يطبق بفعل الإنتفاضات التي قام بها المتعصّبون ضده. وهكذا أصبح عام 1526م العام الذي أصبحت فيه إسبانيا(2) بكاملها كاثوليكية.

[1]- Pedro Longas, Vida Religiosa de los Moriscos PP. XL- LXLL

[2]- البكري "المسالك والممالك" (جزء خاص بالأندلس واوروبا)ص100 تحقيق : عبد الرحمن الحجي (بيروت دار الارشاد، ط1، 1968م).

محاولة صهر المجتمعين : الإسباني والموريسكي 1526م – 1558 م

في ظل القوانين والأنظمة والسياسات الملكية والكنيسية التي مرّ ذكرها، إستمر تعايش بين المجتمعين قرابة نصف قرن. كان كل طرف خلاله يسير في خط معيّن، فالسلطة السياسية والكنيسية كانت تحاول صهر الموريسكوس في المجتمع الإسباني(1)، بينما كان هؤلاء يحاولون التملّص والنّجاة من ذلك والتّحايل على القوانين والأنظمة والمؤسسات والإبقاء على جوهر هويتهم الذاتية، المتمثلة بدينهم الإسلامي ولغتهم وعاداتهم وتقاليدهم، وقد أحرزوا في هذا المجال نجاحا غير تام، إلاّ أنّه كان كافيا ليشعر الفئة المتعصبة من الطرف الإسباني بأنها فشلت في مسعاها.

وضع الموريسكيين في مجال العقيدة

رغم عمل محاكم التّفتيش في معاقبة من يثبت عليه الحفاظ على شيء من ديانته وعاداته السّابقة، ونشاط رجال الكنيسة في التّبشير، و الذي تخلوا فيه عن طريقتهم السّابقة في تركيز جهودهم على اجتذاب القوم للعقيدة الكاثوليكية، وتوجههم إلى عامة الناس بمجموعهم وخاصة النّساء والأطفال، إلا أنّ نجاحهم ظلّ غير مرض لهم لأنّ الموريسكيين إستفادوا من مرونة السّاسة وخاصة **كارلوس الأول** (1517م – 1556م) الّذي كان يعطيهم ما بين فترة وأخرى أرجاء لتطبيق بعض القوانين مقابل المال.

كما إستفادوا أكثر في المناطق التي يسودها النّبلاء، الّذين وجدوا في عدم تطبيق القوانين مظهرا من مظاهر تأكيد سيادتهم في مواجهة السّلطة المركزية، إضافة لما ينالونه من نتائج نشاط الموريسكيين وبذل جهودهم في العمل أو تقديم المال لهؤلاء السّادة، الّذين يحمونهم وينالون رضاهم بالتّسامح معهم في ممارسة طقوسهم الدّينية والمحافظة على مظاهر حياتهم.

ولعلّ أوضح الأمثلة على هؤلاء **دون سانشو كاردونا** Cardona **de Don Sancho** أميرال البحر الأراغوني، الذي رأى القساوسة في عمله المبالغ في التسامح مع الموريسكيين فضيحة، إستدعت رفع قضية ضده. فقد روي عنه أنّه أثناء زيارة له إلى أملاكه بقرية **"أثاتيتا "** حيث رأى فيها مسجدا مهدما، ومع ذلك كان يجتمع فيه أعداد من الموريسكيين خلال أيّام من السنة للقيام بطقوسهم الدّينية. وعند سؤاله لمرافقيه ما قصة هذا البناء، أجيب بأنّه مسجد للعبادة. ولمّا لامهم على تركه بهذه الحالة أجابوه بأنّهم لا يستطيعون لمخالفة ذلك للقوانين، أجابهم بأنّه يرخّص لهم في إعادة بنائه وممارسة طقوسهم الدّينية. وسرعان ما أعيد البناء ووجد أهل القرية والمناطق المجاورة متنفسا لهم بهذا المسجد لأداء طقوسهم فيه، وتسرّب خبره إلى المناطق المجاورة حتى صاروا يقصدونه من مناطق أندلسية بعيدة **كغرناطة**. وعندما زار المكان مبعوث أسقف **فالنسية**، إعتبر ذلك فضيحة، وأن لم يستطع تحدّي سلطان

[1]- عبد العزيز الاهواني "امثال العامة في الأندلس" – مجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية (مدريد) – ج 9-10 (1961-1962) – ص ص 411 – 413.

أمير البحر في أملاكه. فإكتفى بأن رسم بالصباغ صليبين على الجدران ليذكر **دون سانشو** و**الموريسكيّون** بأنّ عملهم غير جائز ويجب ألاّ يستمر(1).

إستفاد الموريسكيون من هذا التّسامح عند البعض، ومع ذلك إضطروا – بصورة عامة – لإنكار إسلامهم علنا وممارسته سرا، فهم يمتنعون عن أكل طعام الإسبان خشية أن يكون فيه لحم خنزير، ويمتنعون عن الشّراب والطعام في رمضان، أمّا ممارسة الطقوس فكانوا يقومون بها ليلا، وهم في ذلك يمارسون التقية التي أفتى بجوازها مفتي وهران منذ عام 1504م عندما إستند على حالة **عمّار بن ياسر** عندما أكره على إنكار دينه وإستثنته الآية الكريمة(2)﴿ لم كَفَرَ بِاللَّهِ مِن بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾. وفي مجال الألبسة نجحت تحريمات الألبسة لدى الرجال أكثر منها عند النّساء، إذ نجد أنّ الألبسة النّسائية التي وصفها الرحالة الألماني عام 1494م Jeromina Munzere وكذلك السّفير الإيطالي Navajero عام 1520م، هي نفس الملابس الأندلسية(3) القديمة وأشهرها الملفة أو الملحفة، وهي عباء واسعة بيضاء تغطي الجسم والرأس والوجه إذ أن اللّباس التقليدي في قرية Mojocar يذكر بهذا الثوب المشهور لنساء الموريسكيين.

لعلّ واحدة من أهم نواحي الحفاظ على الهوية الذّاتية(4) والشّخصية المميزة للموريسكيين هي اللّغة العربية، لذا عملت السلطة السياسية والكنيسة الإسبانية على ازالتها من تفكيرهم، ، بدليل الإجراءات التي إتخذتها، كانت ذات علاقة مؤثرة ومتأثرة بالإيمان الدّيني.

فالتعلق بها يزيد من تأصل الإسلام في القلوب، كما أنّ الإيمان بالإسلام يدعوللتمسك بها بإعتبارها لغة القرآن. وهكذا كان إستخدامها محرّما لديهم، في الوقت الذي توصي الكنيسة فيه رجالها المبشّرين والوعاظ للموريسكيين بتعلّمها، كي يستطيعوا هداية الموريسكيين إلى العقيدة الكاثوليكية.

قد لقيت جهود القضاء على اللّغة العربية نجاحا متفاوتا، اذ بقي محدودا جدا في الريف الذي ظلّت اللّغة العربية الدّارجة المسيطرة فيه، وخاصّة في ريف غرناطة حيث كان يشاهد قس أحد الكنائس هناك يلقي مواعظه بالعربية، كما كان يفعل كثيرون مثله، بعد سبعين سنة من غزو غرناطة وخضوعها للإسبان(5). أمّا في المدن فقد كان الوضع مختلفا، إذ كان التّعدد اللّغوي سائدا في البيئة المدنية، منذ عصور إزدهار الحضارة العربية الإسلامية.

---

[1]- Pedro Longas, Vida Religiosa de los Moriscos, P LIV – LVL

[2]- سورة النحل، آية 106.

[3]- ابن حزم "فضائل الأندلس واهلها" ص 130 نشر وتقديم : صلاح الدين المنجد، دار الكتاب الجديد 1968 م.

[4]- شكيب ارسلان "الحلل السندسية في الاخبار والآثار الأندلسية" ص 170، القاهرة 1936 م.

[5]- M. a. Ladero ? Granada (1232 – 1571), P. 164 6 165.

فإلى جانب العربية الفصحى لدى العرب المسلمين(1) واللاتينية الثقافية في الأوساط الثقافية الدّينية الإسبانية، كانت تسود في الشارع لهجة دارجة **عربية** وأخرى **قشتالية**، كان العرب يسمونها **" أعجمية أهل الأندلس "**، وكان المستعربون يتكلمونها ، كما أنّ أكثرية من العرب كانوا يعرفونها في عصر الخلافة.

ومن الطبيعي أن يتسع نطاق إستخدامها في المكان بإتساع رقعة السّيطرة الإسبانية، ولدى أوساط المجتمع بمقدار إستحكام سيطرتهم، وإذا أضفنا لذلك عدم تسامح محاكم التفتيش في إستخدام اللغة العربية، يمكن آنذاك فهم سيطرة العجمية على الألسنة، لدرجة أنّ أحد مثقفي الموريسكيين قال " إنّ أبناء قومه أجبروا على إستخدام لغة أعدائهم ولم يعودوا يعرفون شيئا من العربية، مما يجعل من الضّروري الكتابة لهم بهذه كي يتعرفوا على فرائض دينهم ".

وهكذا أصبحت **" الأعجمية "** أو الدارجة الإسبانية لغة التخاطب ولغة الثقافة بالنسبة لهؤلاء الموريسكيّين إمّا وحدها أو إلى جانب العربية، مما يدل على عدم إنقراض العارفين بالعربية في أوساط المثقفين، وان لم يكونوا أكثرية.

وأنتج مثقفوا الموريسكيّين فكرا وأدبا بهذه اللّغة التي إحتفظت بإسمها الأوّل **" الأعجمية "** وأن تحرف ليتفق مع القواعد اللّفظية للإسبانية الدارجة فأصبح Aljami a الخاميا(2). وإشتهر بإسم الصفة منه وهوAlgamiado.

يتميز هذا الفكر بأنّه مكتوب بأحرف عربية مما يدل على تشبث من مثقفي الموريسكيّين للحفاظ على التراث، فكان عملهم هذا كعمل الفرس والترك الّذين كتبوا لغاتهم بأحرف عربية. وكذلك فعل بعض اليهود والإسبان وكتابتهم المعروفة بـ **"اليديش"** ولا زالت حتى عصرنا هذا مخطوطات كثيرة لهذا الفكر، حتى أنّ المكتشف منها دفعة واحدة كان كبيرا، كما حدث عام 1884م عند عملية إصلاح منزل في إحدى قرى **سرقسطة،** فتساقط العديد منها من سقف خشبي وهمي خبئت خلفه ورغم إتلاف الصبية وإحراقهم للكثير منها أثناء تلاعبهم بها، إلا أنّ ما افقذ منها كان كبيرا. ومن ناحية أخرى فإن اللّغة واحدة، إلا أن كون المكتوب مكتوب بلّغة دارجة تحتوي لهجات محلية متعددة، جاء متمايزا بتمايز هذه اللّهجات المحلية.

فهناك لهجة **قشتالية** وأخرى **غاليسيّة** وثالثة **قطلانية** ورابعة **أراغونية** وخامسة **برتغالية**. أمّا من ناحية المضمون فإنتاج **الألخميادو**الفكري متواضع جدا في مستواه إذ طبقنا عليه مقاييس الإبداع والإبتكار

[1]- جرجي زيدان "تاريخ اداب اللغة العربية" ص 110 مراجعة شوقي ضيف، دار الهلال، القاهرة.

[2]- Levi Proençal, E, I, Art " Aljamia ".

أوالعمق. لكنّه من ناحية أخرى هام من نواح كثيرة ومتعددة(1). منها، أنّه وثيقة في تاريخ اللّغة الإسبانية لأنّه يعكس لهجاتها في الفترات الأولى من حياتها، ولا يخفى ما في ذلك من أهمية في دراسة فقه هذه اللّغة. كما أنّه وثيقة تاريخية نعثر فيها على حلقة الإتصال والتّأثير بين الفكر العربي والفكر الإسباني والأوروبي عن طريقه في هذه الفترة.

من ناحية أخرى تعكس هذه الوثيقة التاريخية المتمثلة بفكر **الألخميادو** واقعا إجتماعيا لدى الموريسكوس، وتدل على وجود طبقة منهم حافظة للتراث ومتفانية في سبيل الحفاظ عليه وجعل بني قومها يتمسكون به (2). إذ كتبته باللّغة التي يفهمونها وخاطرت بحياتها عندما كتبته بالأحرف العربية الممنوع إستخدامها.

ولم تقف حدود مخاطرتها عند هذا الحد، بل كانت تقوم بالإتّصال فيما بينها، وهوأمر لابد من حصوله لكي يخرج هذا الفكر بالشكل الذي وصلنا به.

إذ تلاحظ فيه وحدة في التعبير عن المصطلحات العربية بلغة الألخميادو، كما نلاحظ نفس الوحدة في الحروف الإسبانية المقابلة للحروف العربية، مما لا يدع مجالا للشك بوجود مدرسة بمفهوم هيئة عليا مقننة لتوحيد هذه الإصطلاحات ودلالات الحروف الإسبانية.

ولعل أهم نواحي عظمة فكر **الألخميادو،** هوأنّه رغم خلوه من الإبداع والإبتكار والعمق فيه، تلبيّة حاجات مجتمع الموريسكيين وتقديم العون لهم في معركتهم للحفاظ على هويتهم الذاتية وشخصيتهم الخاصة.

إذ بإستثناء بعض القصص، كقصة **"بارس وفيانا "،** وهي قصة حب على غرار القصص التي يضحي فيها البطلان بحياتهما في سبيل حبّهما، والتي تعكس تأثرا بالوسط الأروبي والإطار الثقافي الذي ينتمي إليه الحكام في إسبانيا، نجد بقية نواحي هذا الفكر تلبي جميع حاجات الموريسكيين وتعبر عن طموحاتهم وتخلف الأمل لديهم بالخلاص مما يعانونه.

الدّليل على ذلك نستنتجه عند استعراضنا لنواحي هذا الإنتاج. نجد فيه ترجمة للقرآن الكريم، وضعت فيها **الألخميادا** إلى جانب **العربية،** مما يظهر النيّة في الحفاظ على الدقة بوضع النصين أمام بعضهما لدقة المعنى في الآيات القرآنية.

[1]- العذري "نصوص عن الأندلس" تحقيق : عبد العزيز الاهواني، مدريد 1965 م ص55.

[2]- عبد الرحمن علي حجي "الكتب والمكتبات في الأندلس"، مجلة كلية الدراسات الإسلامية، العدد الرابع، بغداد 1972ص65.

كما نجد ترجمة لكتب تحتوي على الطقوس الدّينية الإسلامية، ككتاب **أبي الليت نصر بن إبراهيم السمرقندي** عام 980م وعنوانه **" تنبيه الغافلين و ايضاح سبيل المريدين"** (1). الذي ترجمه أحد الموريسكيين الأراغونيين في هذه الفترة. ويبدو الغرض من ترجمة هذه الكتب ومدى تلبيتها لحاجة الموريسكيين، الذين يستعينون آنذاك في الحفاظ على عقيدتهم ويجهدون في سبيل ممارسة طقوسهم الدّينية واضحا في كتاب **السمر قندي**، الذي يزودهم بذلك، إذ أن مخطوطه يحوي **330** ورقة تضم ستة وتسعين فصلا وتعالج شعائر الدّين والقانون وقواعد السّلوك الصحيح.

وفي الأدب القصصي نجد بعضها يركّز على العون الذي يتلقاه المتمسك بدينه، مهما غالى أعداؤه في إيقاع النكال به، من الملائكة والإنسان وحتى الحيوان. وهذه كانت تشكل عونا للمعذبين في سبيل عقيدتهم، وخاصة الفتيات اللّواتي يلدن لأم موريسكية وأب إسباني ويحفظون دين الأم، متحملين قسوة العقوبات التي يوقعها بهم الأب وسلطاته مجتمعة والتي تصل إلى قطع بعض الأعضاء.

كذلك إحتوى هذا الفكر على تاريخ لا يتّسم بالعقلانية ولا بالموضوعية بالمعنى المتعارف عليه في عصرنا، لكنّ الشكل الذي يرد فيه ملائم لأوضاع الموريسكيين ويخدم أغراضهم. فهو تاريخ للشخصيات العظمى في التاريخ الإسلامي **كالرّسول الكريم (ص) وعلي بن أبي طالب وعمر بن الخطاب رضي الله عنهم** والعديد من الأنبياء.

وترد أعمال هؤلاء الأبطال كلّها على شكل خوارق ومعجزات لا يقتصر عملها على الأنبياء بل يتعدّاها إلى الآخرين، كما هوالحال في الصورة التي يرسمها لعلي بن أبي طالب، التي تحتوي على مبالغات كبيرة في قوته وجبروته لدرجة تمكنه من التغلب على ألاف الرجال. ومثل هذا التاريخ يساعد في خلق الأمل بإمكانية الخلاص لهذه الأقلية الضعيفة والمسحوقة في واقعها، ما دام **الله** يخلق من فترة لأخرى رجال لهم هذه القدرات الخارقة (2).

المقدمات والظروف المحيطة بقيام ثورة الموريسكيين

في العقد السابع من القرن السادس عشر الميلادي جرت سلسلة من الأحداث المتتابعة، أدّت إلى تراكم النّقمة المتابدلة بين الموريسكيين وفئات متعددة من مجتمع الأكثرية الإسباني الذي تعيش ضمنه، وأدى ذلك إلى إنضاج العوامل التي أدت لثورة الموريسكيين. في هذه الفترة، هيمن في مجال الإهتمام لدى

[1]- نشر هذا الكتاب في القاهرة عام 1226 م.

[2] من أدب وفكر الالخميادا– انظر:

A.P. NYKI, Aljamiado Leiterature, R. H. 77 (1929) , 448 – 465, A. el-Chejme, Musliù Spain, PP. 375- 396.

الإسبان تزايد القوة الإسلامية في حوض المتوسط، ، خاصة قوة الأتراك، حيث سقطت بيدهم طرابلس الغرب وفقد الإسبان كل مواقعهم في الشمال الإفريقي بإستثناء موقعين.

وإنتعشت قوى العرب المسلمين في المغرب الأقصى(1) حيث نزح كثير من الأندلسيين فنفدوا عمليات هجومية بحرية على جهات وطنهم السليب بعدما أصبحت لا تكتفي بضرب السّفن في البحر. وقد قامت بأعمال إنزال عدّة مبنية على حسابات دقيقة من رصد دقيق للقوى الموجودة في مكان الإنزال، والإتصال مع المريسكيين في الداخل، الذين يساعدون في الغارة ومن ثمّ يلتحقون بالمغربيين ويعبرون معهم البحر على ظهر سفنهم إلى المغرب.

وعلى أرضية هذا الواقع تقوت معنويات الموريسكيين في الدّاخل وعبّرت عن ذلك تنبّؤات، مؤدّاها أنّه ورد في الكتب بأن الأندلس ستعود إسلامية كما كانت. وقد قال أحدهم لمحكمة التفتيش " إنّكم إذا نظرتم في كتبكم تجدون فيها أن هذه البلاد ستعود إسلامية كما كانت، وسيسيطر عليها المسلمون القادمون من شمال إفريقيا ". كما إدّعت بعض السلطات أن الموريسكيين إتصلوا بالسلطان العثماني وقام تحالف بينه وبين سلطات مراكش ضد الملك الإسباني.

رافق هذه الأحداث تغيّر في قمّة السلطة بإرتقاء **فيليب الثاني** (1556م – 1598م)، الذي يصفه بعض من أرّخوا له بأنه كان مبدئيا أكثر منه ذرائعيا مثلما كان سلفه **كارلوس الخامس**. لكن موقفه من الموريسكيين لم يتأثر بذلك فقط، بل يرجح عليه في التأثير حالة المجابهة مع الأتراك الذين كان يصطدم معهم في عدّة جبهات من المتوسط وشمال إفريقيا وهنغاريا (2)، وبالتالي كان ينظر للمريسكيين الّذين إتصلوا بهم على أساس أنهم **طابور خامس** لهؤلاء الأعداء، وبالتالي فهم أعداء سياسيّون خطرون أكثر منهم كاثوليك غير مخلصين يبطنون الإسلام سرّا. لهذا أصغى **فيليب الثاني** لإتباع الرأي القائل بشدّة خطرالموريسكيين. وللحد من هذا الخطر تشدّدت محاكم التفتيش، كما قامت عدّة حملات للبحث عن السلاح، وتم عام 1563 م تفتيش 16377 منزلا موزعة بين أربعة عشر موقعا، وأسفرت العملية عن العثور على 330 قطعة سلاح ناري و27145 سلاح أبيض.

كانت غرناطة ضمن الأماكن التي تعرضت للتفتيش، لكن العمليّة لم تشف غليل المتعنتين وإعتبروها غير مجدية لأن أكثر السلاح كان مُخَبَأً، كما أنّه كان يصنع محليا في بعض الأماكن البعيدة عن مكان الإصطدام بين الجماعات الموريسكية والسلطات الإسبانية.

[1]- المراكشي عبد الواحد "المعجب في تلخيص اخبار المغرب" (ت 647 هـ) تحقيق محمد سعيد العريان، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، لجنة احياء التراث الإسلامي القاهرة 1963 م ص102.

[2]- Diccionario Historico Espanol, Art. Felipe II P452.

وإستغلت الجماعات الطّامعة بالأرض هذا الخطر و الفشل المزعوم في عملية التفتيش عن الأسلحة في ملكية الأراضي في هذه المملكة القديمة، ويحوّلوها نحوتسهيل إغتصاب الأراضي من السكان. وكان الإجراء هذا سهلا بسيطا، يطلب من كل صاحب أرض أن يبرز وثيقة رسمية من الفترة النصرية تثبت ملكيته لأرضه، ومن لم تكن لديه، وهم كثر، فرضت عليه غرامه كبيرة، ومن عجز عن دفعها صودرت أرضه.

كانت نتيجة العملية مصادرة أراضي بمساحة 000 100 هكثار، وحقق كبار الموظفين أيضا ربحا قدره 997 430 2 دينار.

وقد علّق أحد الإخباريين الإسبان القدماء على ذلك بقوله " أنّ الموريسكيين كجماعة دون قوة تدعمهم أو لسان ينطق بالدّفاع عنهم، رأوا أنفسهم وقد أصبحوا ضحية حكم ينتزع منهم أراضيهم التي ملكوها شراء أو وراثة عن أسلافهم دون أن يصغي أحد إحتجاجاتهم ".

عندما كانت هذه الأمور تأخذ مجراها كانت أزمة الحرير، الذي يشكل الإنتاج الرئيسي لهذه المنطقة زراعيا صناعيا وتجاريا، تصل إلى ذروتها. كانت زراعته النشاط الإقتصادي المهم بالنسبة لسكان جبال **البشاراتAlpujarras**، الذين يجمعون شرانقه وينحدرون بها إلى مدينة غرناطة عند إنحسار الثلوج بين جوان وسبتمبر. وفي المدينة التي يقدّرعدد سكّانها آنذاك من الموريسكيين بأربعين ألفا نسمة كان ثلاثة آلاف منهم يعملون في نسجه وثلاثة مائة في عمليات بيعه وشرائه. وقد كانت أوّل عوامل الأزمة خارجية عند ظهور مزاحمة من الحرير الإيطالي الذي تربّى شرانقه على نوع جديد من التوت، وقد إقتبس هذا النوع مزارعون كثيرون في جهات متعددة من إسبانيا. تجاه هذه المزاحمة كان من الضّروري أن تخفّف الأعباء عن عملية إنتاج الحرير الغرناطي كي يستطيع الصمود.

لكن الذي حدث كان يسير في إتجاه معاكس، إذ أنّ الشرانق مع المواد الثمينة كانت الهدف الرئيسي لنهب جنود **فيليب الثاني**. ومن ناحية أخرى كانت تجارة الحرير مثقلة بالضرائب، لإن الملوك الكاثوليك إعتبروا أنفسهم منذ إحتلالهم لغرناطة، قد ملكوا الدجاجة التي تبيض ذهبا لما كان الحرير يدره على غرناطة من ذهب(1). لذا وجدوا من المناسب أن ينالوا حصتهم بفرض ضرائب ثقيلة ومتعددة عليه. وهكذا تدفع ضريبة على الشرانق عند دخولها القيسارية، وتدفع ضريبة القبالة عند نسجها، وعند البيع يدفع عنها ضريبة العشر ونصف العشر. سهّل كل ذلك على الحرير من **مرسية** أن يزاحم حرير **غرناطة** مزاحمة قوية رغم أنه أدنى نوعية، لأنّه لم يكن مثقلا بالضرائب، وتخلص أصحابه من إنحطاط نوعيته

[1]- عبد السلام الهراس "الأندلس بين الإختبار والإعتبار" : محاولة لدراسة ضياع الأندلس وسقوطها من الفتح إلى نهاية العصر الأموي في ندوة "الأندلس قرون من التقلبات والعطاءات" الرياض: مكتبة الملك عبد العزيز العامة 1993م.

بمزجه بحرير غرناطي وبيعه على أساس أنّه مماثل. ومع أن محاولات جرت لمنع غش الحرير المرسي والحيلولة بالتالي بينه وبين المنافسة الشّديدة لحرير غرناطة، كمنع تصديره بين 1552 – 1561م.

في ظل هذه الأوضاع كلّها حلّ الخراب بزرّاع التوت ومربى دود القز في جبال البشرات وناسجيه في حي البيازين بغرناطة مما سبب هجرة الكثيرين منهم إلى مرسية(1).

وفي نفس الفترة كان الخوف من الموريسكيين، الذين إعتبروا عدو داخلي في الوقت الّذي كانت تنهمك فيه الإمبراطورية في الصّراع مع المسلمين في الجبهات الأخرى، يدفع بالسلطات الملكية والكنسية إلى التشدّد تجاههم.

جرى التأكيد على القوانين السّابقة التي تهدف إلى إزالة كل مظاهر حياة الموريسكيين السابقة من معتقد وعادات وألبسة. وأضيف لها تحريمات جديدة، فقد حرّم عليهم عام 1565م ملكيّة العبيد السود وحتى العبيد المسلمين. وإزداد نشاط محاكم التفتيش التي وسعت من مجال الأعمال التي تعتبر خارجة عن العقيدة الكاثوليكية فشملت القول بأنّ الله يثيب على الأعمال الحسنة للمسلمين واليهود.

وكان الموريسكيين مشبوهين دائما لديها بدليل أنه ما بين 80% إلى 90% من القضايا المعروضة عليها في غرناطة كانت ضد أناس من الموريسكيين.

وبلغ عمل سلطات الكنسية والملكية ذروته ضد الموريسكيين عام1567 م، عندما عقد رجال الكنيسة في منطقة غرناطة إجتماعا دعو فيه إلى حسم قضيتهم وإجتثاث جذور تعلقهم بمعتقداتهم السابقة. وإقترحوا تحقيقا لذلك عددا من الإجراءات أهمها، أن تنزل في كل موضع يعيش به الموريسكيين إثنتا عشر عائلة إسبانية، ويكون لها الحق في دخول منازلهم متى شاءت وخاصّة في الأوقات التي يشكّ فيها أنّهم يمارسون طقوسهم خفية(2). كذلك إقترحت أن يحال بين الآباء وصغارهم كونهم قدوة وحرمانهم من تربيتهم حسب مشيئتهم، وذلك بأن يجبروهم على إرسال أبنائهم إلى قشتالة على نفقتهم كي يربّوا فيها على الطريقة الكاثوليكية ولا يتأثروا بأبائهم.

وقد وافق على هذه المقترحات مجلس للمملكة مؤلف من رجال الكهنوت والقضاء والعسكريين. وسمى وجهاء الموريسكيين للحصول على تعديل القرارات بوسائل شتّى، فذهبت جهودهم أدراج الريّاح، الأمر الذي قرب الجهتين من الصّدام، وزاد في دفع الموريسكيين إلى الثورة.

---

[1]- K. Garrad, La industria sedera Granadina en el siglo XVI y su Conexión con el levantaminto de los Alpujarras, M.E.A.H, 1956. PP. 73 – 104.

[2]- علي لغزيوي "ادب السياسة والحرب في الأندلس" مكتبة المعارف، الرباط 1987 م ص90.

ثورة الموريسكيين

تجاه هذه الأوضاع التي أحاطت بالموريسكيين واليأس من تحويلها إلى أوضاع محتملة بالوسائل التي سلكوها سابقا إنفجرت الثّورة، التي قامت بعد الإعداد لها خلال سنتين وبسرية تامة، حسب قول الكتّاب الإسبان المعاصرين لها. ولم يستطع أن يتكّهن بإمكانية وقوعها إلاّ حاكم المنطقة **ماركيز دي مونديجار**Marquez de mondejarقبل شهور عدّة من إنفجارها وذلك عند العثور على رسالة موجّهة من **داود** أحد زعماء الموريسكيين إلى المغرب يطلب فيها المساعدة (1)، لكن الأمر لم يتعد التخمين والتكّهن لإحدى الشخصيات الكبيرة، ولم ير فيه الآخرون أمرا قريبا من التّصديق بوقعه. أعلنت الثورة في 1يناير لعام 1568م في بعض قرى البشرات تحت راية **فيرناندو دي بالور Fernand de palori** كملك، وبإسمه القديم **مولاي محمد بن أميّة**. وقبلا ابن **فرج** ذو الأصل الأنبل أن يكون وزيرا له. وإستطاع الثّائرون أن يسيطروا على الوضع خلال عام كامل في المنطقة التي تشمل كافة أرجاء مملكة غرناطة القديمة (2)، وكانت أهم الوقائع في العام الأوّل دخول **إبن فرج** مع عشرات من رجاله إلى البيازين بغرناطة، وخروجه مع مئات من الأتباع ليساهموا في السيطرة حتّى الرّبيع على المناطق الجبلية في المنطقة، ويستأصلوا فيها كافة مظاهر الوجود الإسباني.

وحاول القائد الإسباني **ماركيز دي مونديجار** عبثا الوقوف في وجههم، فإنتقم لفشله بقتل المساجين الغرناطيين في سجون قشتالة يوم 7 مارس عام 1569م، علما أنّ وضع هؤلاء أكبر دليل على عدم إشتراكهم في الثّورة، لذا كان للعملية رد فعل إيجابي عليها، لأنّه جعلها تحظى بدعم أوسع بين صفوف الموريسكيين (3).

جاء تعيين **خوان دي استريا** للقيادة الجديدة في ظروف ملائمة طبيعيا، لأن الشّتاء الذي يساعد الثّوار الجبليّين قد إنقضى، مما يجعل الأمل بسحق الثورة كبيرا. لكنّ القيادة الجديدة فشلت أيضا أمام الثائرين، وإن نجح جندها بالظفر بنعت بعض المعاصرين لهم " بأنّهم أكبر لصوص في العالم، لهم مبدأ يلتزمون به بصرامة، وهوسرقة ونهب وتهديم قرى الموريسكيين". ويظهر أن السلطة أباحت لهم ذلك ما دام يصب في مجرى إيذاء أعدائها، حتى أن النّهب وصل إلى ذروته عندما أباحه لهم الإمبراطور **فيليب الثاني** رسميا في شهر أكتوبر من نفس العام، وتنازل عن الخمس الملكي من الغنائم.

---

[1]- Marmol, Historia de rebelion y castigo de los Moriscos del Reino de Granada, P. 179.

[2]– لويس سيكودي لوثينا "الوثائق العربية الغرناطية وقيمتها التاريخية" بترجمة حسين مؤنس – مجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية (مدريد) – ع7 – 8 (1960– 1959) ص ص 85 –108.

[3]– محمود السيد "تاريخ العرب في بلاد الأندلس" مؤسسة شباب الجامعة 1998م ص75.

لكنّ هذا الموقف اللاأخلاقي يمكن فهمه في ضوء الفشل أمام شدّة الثورة، والخطر الذي تجسم أمام السلطة من مجئ الشتاء المعرقل لسير الجيوش والملائم جدّا للثوار وخاصة في الجبال. وقد عبّرت هذه السلطة بمسلكها عن هذا القلق بشكل آخر، إذ دعا الإمبراطور لعقد مجلس **"الكورتيس" "مجلس الشيوخ"** في قرطبة خلال شهر ديسمبر من نفس السنة 1569م، ممّا يعكس رغبته بالتّواجد قرب ميدان العمليات.

أمّا على صعيد الخطّة في القضاء على الثورة(1)، فيظهر أنّها عدّلت لتتلائم مع تقييم جديد لها، فلم يعد النّظر إليها على أنّها هبّة في بقعة يمكن سحقها بسهولة بل نظر إليها على أساس أنها ثورة عارمة قويّة، لها بؤرة هي الجبال، وإمتداد في غرناطة، ومجال إمداد وتموين من منطقة **بلنسية Valencia**في الشّمال الشرقي والشرق. وهذا يتطلب إخضاعها على مراحل، فيقضى أوّلا على إمتداداتها ومجالات إمدادها وبذلك تعزل البؤرة، التي يتم الإجهاز عليها في مراحل متتالية. وتطبيقا لهذه الخطة، فصل بين منطقتي **بلنسية** مراقبة شديدة بعدما دأبوا على تعليم أبنائهم إستخدام السّلاح وتسريبه إلى غرناطة. وجاءت ضربة العزل الكبرى بترحيل الموريسكيين من مملكة غرناطة سواء كانوا من الثائرين الذين أخضعوا أو المسالمين الذين لم يحرّكوا ساكنا.

وكان عدد من رحلوا قرابة ثمانين ألفا. وتمت العملية على أساس تقسيم المنطقة إلى إثني عشر قسما، كل منها مؤلف من إثنتي عشرة قرية(2). وعهد بترحيل سكّان كل قسم إلى قائد مسؤول. وقام القوّاد بدورهم بتقسيم الناس إلى مجموعات، يبلغ عدد المجموعة حوالي 1500 شخص، وجعلوا عليها حراسة في ترحيلها نحوالشّمال إلى **مملكة قشتالة** مكونة من مائتي جندي، سارت المواكب بهذه الطريقة نحو الشّمال، وهي تضم الرّجال والنّساء والأطفال، وقد أمر الجنود بأن يترفقوا بهم ويقدموا لهم معسول الكلام ويغذوا فيهم الآمال الكاذبة بقرب العودة، لأن تهجيرهم يهدف إلى حمايتهم ما دامت مواطنهم مناطق عمليات عسكرية(3)، وأنّهم سيعدون إلى بيوتهم حالما تنتهي هذه العمليّات. لكنّ الطّبيعة لم ترأف بهم، إذ بدأ السّير في شهر نوفمبر واستمرّ قرابة شهرين في سنة ماطرة باردة، وهم مضطرون للسير نحوعشرين كيلومترا في اليوم الواحد. لذا إنتهت العملية بهلاك الكثيرين، لتفشي الأوبئة كالتيفوس ، لذا هلك فيها حسب تقديرات القائمين عليها ما بين 20% في مناطق و30% في مناطق أخرى.

---

[1]- محمد ماهر حماده "الوثائق السياسية والإدارية في الأندلس وشمال افريقيا"، ط1 ، الشركة المتحدة للنشر والتوزيع 1980 م ص120.

[2]- محمد القاضي "موسى بن نصير فاتح المغرب وبلاد الأندلس" دار التوزيع والنشر الإسلامية 2000م ص160.

[3]- محمد ابا الخيل "الأندلس في الربع الاخير من القرن الثالث الهجري" ، الرياض 1995 م ص85.

حوصرت الثّورة الآن في الجبال، ومنع عنها العون القريب، كما أن العون البعيد الذي يأتي عبر البحر من العثمانيين والمغرب لم يصل في الوقت المعين، ولا بالقدر المطلوب – كما سيمر معنا – لذا إنتقلت الثورة من مرحلة الهجوم إلى مرحلة الدفاع في العام التّالي. ثم حدثت إنقسامات في صفوف قادتها فأغتيل **إبن أميّة** وخلفه قريبه **إبن آبو** الذي واجه معارضة تزعمها **"الهبقي"**، دعت للتّفاوض للحصول على شروط إستسلام مناسبة. وإنتهى الصّراع بإغتيال الزّعيم **إبن آبو** الذي كان يريد المقاومة حتى النّهاية. وفي هذه الظروف شنّ الجيش الإسباني بقيادة **دون خوان** Don juanهجوما كاسحا على جبال البشرات، معقل الثورة، على ثلاثة محاور، من الجنوب والشرق والغرب، وتمكن من القضاء على المقاومة المتماسكة عام 1570م. وبقي الثوار عبارة عن جماعات صغيرة متفرقة، في أماكن مستعصية من كهوف ومغارات، قتلوا في بعضها اوماتوا جوعا او أسروا. ولم يأت ربيع عام 1571م حتى باتت سيطرة الدولة الإسبانية شبه كاملة على المنطقة.

خطط الثورة الجزئية والعامة

قدّر السفراء الأجانب عدد المشاركين في هذه الثورة ما بين أربعة ألاف في البداية وثلاثين ألفا عندما أصبحت في الأوج، وهي نسبة عالية من المشاركين بالنسبة للموريسكيين في مملكة غرناطة الذين قدر عددهم ب 150.000، لأنّها تبلغ الخمس بالنسبة للجموع، وتعكس تفانيا في بذل الأرواح. ويقابله بذل مقابل في المال من قبل من يملكون، فقد تبرع غرناطيان بكل ما يملكانه من أرض للمساعدة في فداء أسرى موريسكيين. أضيف لهذا التفاني في المشاركة بالثورة طريقة وخطة ملائمة في المجابهة، قائمة على أساس ما نسميه في عصرنا الحاضر بحرب العصيان، حيث تقوم جماعات خفيفة الحركة بالإنسحاب عند تقدم جيش العدومن المشاة والخيّالة مع الدعم من المدفعية، والتحصن في أماكن منيعة يصعب عليه الوصول إليها. كأن تكون وراء وديان سحيقة، مما يضطر الجيش للسير في أسفل الوادي فيصبح هدفا سهلا لإستخدام الأسلحة البشرية بجميع صنوفها ضدّه، إضافة إلى الأسلحة التي توفرها الطبيعة كالصخور. في نفس الوقت كان بعضها يتحرك للإغارة المفاجئة على قطعة في الأطراف، وبعضها الآخر يغير على الإمدادات، أو يحطّم المزروعات المحيطة بمنطقة إنتشاره(1).

كل هذا يفسر قدرة هذه الثورة على الصمود خلال سنتين، رغم صغر الرقعة التي حدثت ضمنها وجابهت فيها قوة امبراطورية تعتبر إحدى القوى العظمى في تلك الفترة، على أن الثائرين لم يكن في حساباتهم أنهم قادرون على الصمود فقط، بل على احراز النصر أيضا، وإعادة الأندلس كما كانت في السابق. فقد نظروا لثورتهم كجزء من المجابهة والصراع الذي كان يأخذ مجراه للسيادة على المتوسط بين العثمانيين والإسبان، وإن كان في نظرهم صراعا بين الإسلام، الذي يمثله العثمانيون والقوى

1- M. A. Ladero quesada, PP. 172 – 177.

المجاورة في المغرب، وبين المسيحية الكاثوليكية التي تمثلها إسبانيا. وإنطلاقا من هذه النظرة، كانوا واثقين من ورود الإمدادات اليهم من هذه القوى الإسلامية بالمقدار الملائم والوقت المناسب، وأخذت سفاراتهم التي أرسلوها وعدا بذلك(1).

أرسل الموريسكيين ثلاث سفارات إلى تطوان والجزائر والقسطنطنية، كان على رأسها الزعماء أوأقاربهم. وعدهم **علج علي** بالقيام بعملية إنزال قوات من المغرب في الأندلس، وعندما قدمت سفارة ثانية في العام التالي تستنتجز الوعد، أرسل علج علي أسلحة ووعده بتقديم المساعدة الكبرى لأنهم وإياه جسد واحد. أما السلطان العثماني المعاصر **سليم الثاني،** فقد كتب ردا على رسالتهم بأنّه علم أنّ لديهم عشرين ألفا تحت السلاح ومائة ألف دون سلاح. وأن العون الذي وصلهم من الجزائر ساعدهم في إلحاق الهزيمة بالأعداء وسيستمر. وقد وصل مدد بلفعل من الجزائر فيه الرجال والسلاح، لكنه وصل مفرقا وعلى فترات، وأكثره وصل بعد ضعف الثورة، لذا لم يتفق مع خطة الموريسكوس الذين كانوا يبنون حساباتهم على انزال ضمن نطاق واسع وترافقه الإنتفاضة العامة في الداخل، فيتحقّق بذلك النصر.

أمّا قلة إمدادات الحليفين علج علي والعثمانيين بالنسبة لما كلن يتوقعه الموريسكيين، فمرده للخلاف في المنطلق بين الطرفين، إذ كان الموريسكيين يرون أنهم جزء من صراع بين المسيحيّة والإسلام، بينما كان الطرف الآخر ينظر للأمر من زاوية المصلحة السياسية لدولته وسلطانه فقط، ونظروا للموريسكيين على أساس أنهم إعداء إمبراطو إسبانيا. وهكذا كان يحتل المكانة الأولى في سلم الأولويات لدى علج علي مخططه لإحتلال تونس، حتى أن البعض يتّهمه بأنه أوقف المتطوعين الذين يريدون الابحار إلى الأندلس كي يستخدمهم في تونس، مما جعل عدد الواصلين إلى الأندلس قليلا. أما السلطان العثماني، فكان يعلق أهمية على إستخدام الموريسكوس والبروتستانت كطابور خامس ضد خصمه امبراطور إسبانيا، لكنه كان مهتما بالدرجة الأولى بإضطراب علاقته مع روسيا وبإحتلال قبرص. وقد سقطت قبرص عام 1570م، أي هجوم الإسبان على الثورة. وبعدها بعام جرت معركة ليبانتوس وبدأ إهتمام السلطان بالحوض الغربي يقل لدرجة أصبحت فيها علاقاته مع الملك الإسباني في هدنة واقعية، بينما كان هذا الأخير يجهز على ثورة الموريسكوس نهائيا (2).

الموريسكيين بين الثورة والطرد (1571م – 1609م)

استطاع سادة إسبانيا أن يسحقوا ثورة الموريسكيين بالقوة، وهكذا بقيت المشكلة الإسبانية على حالها، لأن إخماد الثورة قضى على المقاومة فقط بوسائل مختلفة، أهمها قتل الثائرين وترحيل من عداهم من

---

[1]- محمد سهيل طقوش "تاريخ المسلمين في الأندلس" ص 250، دار التفانس، ط1، 2007م.

[2]- Andrew C. Hess, The Moriscos, An Ottoman Fifth Column in XVI Century Spain, A.H. R. LXXIV (11968) PP- 1 -25.

مواطنهم في منطقة غرناطة إلى مناطق أخرى في قلب قشتالة وهذا بالطبع لم يستطع المساس بالقضية الجوهرية، وهي تذويب الموريسكيين في المجتمع الإسباني، ومحو شخصيتهم الحضارية وذاتيتهم التي تمحورت حول حفاظهم على معتقداتهم وتقاليدهم وطريقتهم في الحياة بصورة عامة،و التي تدخل كلّها ضمن إطار الدّين الإسلامي.

إستمر الموريسكيون على أداء طقوسهم الدّينية سرّا والتظاهر بالمسيحيّة جهرا، مع تحمل الإستفزازات بصمت، لكن البعض لم يستطع تحمل هذه الإستفزازات فكان يظهر دينه علنا ويتحمل نتيجة لذلك عقوبات محكمة التفتيش التي تدرجت بين مصادرة الأموال إلى الجلد فالحرق. وتذكرالسجلات تحدي البعض لهذه المحاكم، كما هو حال **بياتريسBiatriz**من مدينة **اركش Arcos**التي قدمت للمحاكمة في مرات عدة 1576م ،1581م ،1596م، لكن تحديها لمحكمة التفتيش بلغ الذروة عام 1598م حينما نعتت المحكمة بأنها من محاكم الشّيطان، القاضي فيها هوالشّيطان والعضوان هما الخديعة والعمى. فحكم عليها بالموت. وعلى الصعيد الفكري إستمر الفقهاء بتأليف الكتب التي تدحض الكاثوليكية وتمجد الإسلام(1)، وذلك كي يحافظ أفراد هذه الأقلية على معتقداتهم وذاتيتهم وسط كل تلك الضغوط، وقد أحرزوا نجاحا في هذا المضمار تجاوز الغاية المطلوبة إلى الكسب على حساب الخصم، وإعتنق بعض الإسبان الدّين الإسلامي المضطهد على أرض شبه الجزيرة مثل **خوان الونسو ابن الأراغوني**.

وأتى أخيرا البعد الخارجي لخطر الموريسكيين على العرش الإسباني، وتجسد في العلاقات مع البروتستانت. ذلك أن الجماعتين وجدتا في وضع إجتماعي واحد، وخاصة على الارض الإسبانية حيث كانتا مضطهدتين. ولم يلبث المفكرون، وخاصة في صفوف الموريسكيين، أن وجدوا نقاط التقاء في العقيدة بين الطرفين. فالإسلام و البروتستانتية يبحثان عن الحقيقة في كتاب الله دون أن يتبعوا أقوال و شروح البابوات و رجال الكنيسة، كما أن أماكن العبادة عند كليهما خالية من التماثيل و ليست مقدسة في العقيدتين. اضافة لذلك اقتبس مفكروا الموريسكيين في دحض الكاثوليكية أفكار عديدة من مؤلفات المصلحين الدينيين الإسبان، أو ممثلي البروتستانتية فيها.

من ناحية أخرى إتصل الموريسكيون في المواطن القريبة من فرنسا ببعض الحكّام أوالملوك للبروتستانت أوذوي الماضي البروتستانتي. فقصدت سفارات متعددة من سرقسطة مقر **" ذي روز "** صاحب مقاطعة Bearn، الواقعة في أقصى الجنوب الغربي من فرنسا وعلى المنحدرات الفرنسية من **جبال البيرانيس**، وطلب المساعدة والعون. وكان تبادل السفارات نشيطا عام 1575م ، فقد ألقي القبض على عضو سفارة موريسكية في طريق العودة. وفي نفس العام قام شخص من منطقة **بيرن** متزوج من أراغونية بنقل عرض من **" دي روز"** و إستعداده لتقديم العون الحربي لموريسكيي سرقسطة ومنطقة

[1]- عمر رضا كحالة "معجم المؤلفين"، دار احياء التراث العربي، بيروت ص78.

أراغون مقابل تقديم 10000 او13000 قطعة ذهبية. وأراد الموريسكيون المساومة على كمية المال فأرسلوا إليه يقولون : أنهم سيدفعون ما يمكنهم دفعه ولا قدرة لهم على تقديم كل المبلغ، وأرسلوا سفارة إلى تركيا في طلب المساعد ة المالية لكن الأمر لم يصل إلى حد الإتفاق التّام ولم يتبلور في عمل عسكري مشترك من قبل الطرفين. ثم انتعشت آمال الموريسكيين بظهور الملك البروتستانتي **هنري الرابع** في فرنسا، الذي ظلوا يعتبرونه حامي قضية البروتستانت حتى بعد عودته الرسمية إلى الكاثوليكية، فأرسل إليه موريسكيو **بلنسية** Valenciaمذكرة عام 1602م، يناشدونه فيها تخليصهم من الظلم الذي يقاسونه من السلطة الإسبانية. وكانت شكواهم تنصب على الضرائب الفادحة وفقدان حرية المعتقد والدّين. وقام **هنري الرابع** من جهته بتكليف أحد ممثلي حكومته في إجتماع مع السلطات الإسبانية بالإتصال سرّا بالموريسكيين في **بلنسية** والتعرف على أوضاعهم (1). اذا كانت هذه الإتصلات وتلك التي سبقتها لم تسفر عن نتائج ملموسة فيما يخص تلقي الموريسكيين العون الفرنسي، فإنها زادت من المخاوف التي تنتاب الإسبان من خطرهم ومن الشكوك في تكوينهم طابورا خامسا لإعداء إسبانيا.

ضمن هذه الأجواء التي إختلط فيها الخوف من الموريسكيين، مع أطماع الموظفين الكبار من مدنيين وعسكريين وكنيسيين في أملاكهم، وحسد العامة الإسبان لهؤلاء العاملين النشطين المهرة، قفزت قضية الخلاص من خطر الموريسكيين إلى السطح لتصبح من القضايا ذات الاولوية لدى البلاط. وتعددت المقترحات لحل هذه القضية وكلها تنصب في كيفية اذابتهم في المجتمع الإسباني. منها العودة عن التنصير واطلاق حريّة العقيدة لهم، على أن ينزلوا في احياء خاصة بهم **(غيتو)** Ghettoويمنعوا من مغادرتها، ولتحقيق ذلك يوشم الوجه بوشم خاص، كأن يكون علامة أوحرفا كما يصنع مع الدواب. وتمهيدا لتصفيتهم تفرض عليهم ضرائب ثقيلة جدا يستعبد العاجز عن تأديتها ويرسل للعمل في المناجم. كما إقترح البعض أن يمنعوا من الزّواج مع بعضهم البعض، وبذلك يمتنعون عن الزّواج وينقرضون بعد أمد، لإن الرجل منهم يخاف أن تربي إمرأته أولادها على دينها والمرأة تخشى بدورها أن يقوم الكاثوليكي بعمل ذلك. وأخيرا نال إقتراح آخر الموافقة الملكية وهوالطرد من البلاد(2).

- طرد المسلمين من الأندلس: 1609 م

رشحت أخبار موافقات مجالس الدولة على العملية منذ عام 1908م أي قبل تنفيذ الطرد بعام واحد. وحدث نتيجة لذلك اضطراب نجم عن انسحاب الموريسكيين التدريجي من ميدان الأعمال في الحرف والزراعة لتدبير أمورهم، مما أثر على تموين المدن بالمواد الغذائية. وقام النبلاء أصحاب الأملاك الواسعة في الشرق وخاصة في **بلنسية** ببذل المساعي لدى البلاط بإستثناء الموريسكيين من اتباعهم من

1- Louis Cardaillac, Morisques et. Protestants, Al – Andalus Vol. xXXVI (1971), PP. 29 – 63.

2- صادق جودة "تاريخ المغرب والأندلس" ص 170، جامعة القدس المفتوحة

قوانين الطرد، لكنهم سكتوا بعد الترضيات التي قدمت لهم بجعل حيازة الأموال والأملاك المنقولة لأتباعهم والتي لا يستطيعون حملها حقا لهم. كما أمنت مصالهم الزراعية بالسماح لهم بالإحتفاظ بستة أشخاص من كل مائة شخص قادرين على العمل لصيانة أنظمة الري والإشراف على زراعة الأرز وقصب السكر(1).

صدرت قوانين الطرد عام 1609م التي تحتوي على خلاف في التفاصيل بالنسبة للمناطق، ولكنها تتفق في أمور عامة أهمها، أنه يحق للموريسكي الخروج إلى حيث يشاء مع أفراد عائلته والسماح له بأخذ المواد المنقولة، انما عليه أن يترك أبناءه دون السابعة الا اذا توجه لبلد مسيحي، وأن يترك زوجته إذا كانت كاثوليكية أصلا، ان على المرحلين في السفن ان يدفعوا نفقات ترحيلهم وعلى القادر من كل جماعة أن يدفع عن العاجز.

إتجهت أكثر الجموع نحو فرنسا برا وبحرا كي يستطيعوا الحفاظ على أبنائهم، وفي نيتهم أن يتوجهوا من هناك فيما بعد إلى المغرب العربي لكن الأمور لم تجر حسب ما قدروا، ولا حسب ما نصت عليه القوانين، إذ أن بعض النبلاء جردوا أتباعهم من كل ما يملكون، وشنت عصابات حربا على بعض الجماعات الراحلة فسلبوا ما تملك، وقام بعض أصحاب الاملاك(2) عند إجتياز بعض الجماعات لأراضيهم بتقاضي ثمن الماء الذي تشربه والظل الذي تتفيؤه في اوقات الراحة. ونتح عن كل ذلك تمرد البعض عن الرحيل والإعتصام بالحبال، وباع البعض، ممن حلت بهم المجاعة لإولادهم وتوزيع البعض أبناءهم الذين عجزوا عن اطعامهم على معارفهم.

كانت فرنسا المحطة الرئيسية للمطرودين للأسباب التي سلف ذكرها، ومنها تتفرع الطرق، البعض أقام، والبعض الآخر توجه إلى المغرب، وقسم ثالث عبر البحر شرقا بإتجاه المشرق العربي. أما المقيمون فوصل بعضهم إلى باريس، لكن من تجاوز الجنوب، حيث نزلت أكبر الجماعات كان نادرا. أقامت جماعة من اشيسلية في **ناربون**، (الآربونه عند العرب) في جنوب شرق فرنسا وعلى مقربة من الحدود مع إسبانيا، وأتيح لهم أن يمارسوا حياتهم التي ألفوها، (إذا تأذى بعضهم من وجود الخنازير التي تمس ثيابهم وتدنسها)، إلاّ أنهم لم يجبروا على ممارسات لا يرغبون بها. فقد شيدوا لأنفسهم فرنا خاصا خشية أن يكون خبز الأفران الأخرى قد تلوث ببعض مشويات تحتوي على دهن الخنزير، كما ذبحوا على الطريقة الإسلامية. لكن موت **هنري الرابع** كان ضربة للحرية التي تمتعوا بها، إذ أمر الملك بعده في فبراير 1910م بترحيل من لا يعتنق الكاثوليكية، وتبع ذلك قيام السلطات المحلية في الجنوب بمنع

1- M. Soledad Carrasco, El-problema morisco en Aragon, PP. 12 y sig.

2- الحميري "الروض المعطار في خبر الاقطار" تحقيق: احسان عباس، (القاهرة، مؤسسة ناصر للثقافة، ط2، ص86 1980م.

سيرهم برا وأغلقت مقاطعات الحدود الطرق المتاخمة لإسبانيا. ويظهر أن الخوف من الأوبئة أضيف للسبب الدّيني، وأدى إلى هذا الاصرار على الترحيل وتنظيمه. فقد نظمت عملية الدفع للسفن، بأن يقوم القادرون بدفع أجر العاجزين، وعندما لا يتوفر الأجر كاملا تقوم السلطات المحلية بدفع الفرق. ونجد مثلا على ذلك في سفينتين فلمنكيتين أبحرتا من اشبيلية، وعندما وصلتا كانت أحدهما شبه مستشفى لكثرة المرضى فيها، فاستأجرت بلدية **مرسيليا** سفينتين لنقل الركاب مباشرة إلى **عنابة** أو **طبرقة** على الشاطئ **المغربي**(1). و حلت كوارث ببعض السفن المبحرة من فرنسا إلى المغرب بسبب جشع بعض أصحاب السفن، واشتهر قيام أحدهم بقذف ركاب سفينته إلى البحر لتبقى له أموالهم وأمتعتهم، وقام آخر بالإتفاق مع أربعين راكبا لنقلهم إلى **تونس**، لكنه أجبرهم عند الوصول إلى **بنزرت** على النزول وقبل أعطائهم أمتعتهم أبحر بها، ويقدر ثمن ما غنمه ب 93245 اسكودو. لكن **برلمان لنفدوك** Lavandokسلك عام 1910م سلوكا ينم عن الغضب لهذه العملية، فحكم على الربان وشركائه بالعقوبة القصوى وصادر اموالهم وردها الى الموريسكيين.

من الطبيعي أن كل هذه الوسائل لم تمنع بقاء بعض الموريسكيين على الأرض الفرنسية لكن عددهم لم يتجاوز الألف، حسب تقديرات البعض، مارس بعضهم الطب والبعض التجارة وآخرون الزراعة(2)، ومع ذلك لا مجال للشك في أن الأرض الفرنسية إحتوت في باطنها على عظام آلاف مؤلفة منهم، لأن كثيرا من القادمين وصلوا مرضى ومنهمكين ووافاهم الأجل بسرعة فيها.

كان المتجهون من فرنسا شرقا يحطون في شبه الجزيرة الإيطالية، فمن أراد اتخاذها محطة على الطريق إلى أراضي الدولة العثمانية، قصد البندقية(3). وسار من هناك إلى اسطانبول، سالكا الطريق التي أصبحت مطروقة و معهودة وسبقتهم عليها جماعات منذ عشرات السنين، أي عام سقوط غرناطة عام 1492م وسنة ثورة الموريسكيين عام 1569م. وقد استقروا فيها في حي غلطةGaleta، حيث تضخمت أعدادهم فإنقلبت كنيسة **القديس بولس** في الحي إلى مسجد، وإضطر سكان حي المسيحيين القدماء للنزوح منه. وقد ورد في بعض رسائل قنصلي فرنسا وهولندا ما يفيد أن الموريسكيين أضحوا جالية وفيرة العدد نشطة وذات نفوذ، كما كانت لها اتصالات مع شخصيات وجاليات الموريسكيين المبعثرة في جهات مختلفة. وهكذا وجه **احمد بن قاسم الأندلسي**، الذي كان يعمل ترجمانا ومستشارا للسلطان المراكشي **مولاي زيدان**، رسالة من باريس عام 1612م إلى بناء قومه الأندلسيين المقيمين في القسطنطينية.

---

[1]- ابن بشكوال "الصلة" تحقيق ابراهيم الابياري ط1 ص45، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، 1989م.

[2]- حسين مؤنس رؤية جديدة عن فتح المسلمين للأندلس- مجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية (مدريد).- ع18 1974م. - ص ص79-130.

[3]- D. Fonseca, justa expulion de los Moriscos de Espana, P. 347 6 348.

امّا عن ايطاليا، عدا هؤلاء المارّين بالبندقية، كان اندلسيون موريسكيون آخرون يرغبون بالإقامة فيها، لكن اسبانيا حظرت عليهم الإقامة في ممتلكات **المملكة النمساوية**. ولم يفتح من أمراء ايطاليا بلده للموريسكيين إلّا **دوق تسكانيا**Dok de tescania، لكن الإتفاق معه تعثر ثم تعذر، لإن استقبال السكان لم يكن وديا، كما ان **الدوق** لم يطلق لهم حرية العمل، اذ اراد استخدامهم في الزراعة، اي في الميدان الذي ذاع فيه صيتهم حيث برعوا ، وكذلك في بعض المهن الذلية. واخيرا نزل بعض الموريسكيين في روما وطلبوا من البابا التوسط لإقامتهم، وأعلموه أنهم أصبحوا مسيحيّين مخلصيين لمعتقدهم. وخلال الإنتظار لمعرفة الجواب ورد الخبر إليه بأن امرأة منهم وهي في النزع الأخير رفضت تلقي المراسيم المسيحية ونطقت بالشهادة الإسلامية وهي تلفظ انفاسها الأخيرة فرفض الطلب وطردت الجماعة.

حل اكبر قسم من الموريسكيين المهاجرين في المغرب(1)، حيث اقام عديدون على مقربة من المضيق في **سبتة وطنجة وتطوان** كي يشتمّوا رائحة الأندلس، على حد تعبير احدهم. وتجول البعض في أنحاء المغرب وعملوا لدى أبناء الأسرة المالكة المتصارعين على العرش بعد موت بعد موت **احمد الرابع**، وكان من نصيب **مولاي زيدان**، و كانوا عدة ألاف، حتى أن قائد **جؤذر** كان أندلسيا، وقد إنتصر أخيرا بموت منافسه. لكن المجموعة الموريسكية التي حلّت بمدينة **سلا**، اضحت اكثر المجموعات شهرة للدور الذي لعبته في هذه الفترة.

فقد أسست دويلة او جمهورية بحرية تهاجم السفن المعادية، وخاصة الإسبانية، التي كانت كثيرة التجوال بين اسبانيا والمغرب لوجود قواعد واماكن تحكمها على الشواطئ، وقد تحقق لهذه الجمهورية جمع حوالي أربعين مركبا سريعا مجهزا بأدوات الحرب والإبحار من هولندا، مما مكنها من التجول في البحار البعيدة حتى عبر الأطلسي، لدرجة ان الخوف من غاراتهم وصل حتى **ايسلندا**. وعاشت هذه الجمهورية مدة تزيد عن نصف قرن اذ ضمت إلى **المغرب الاقصى** نهائيا عام 1668 م، بعدما كان اعترافها بالسلطان رمزيا وتعبر عنها بدفع 10% من المكاسب التي تحققها.

قدر عدد الموريسكيين النازلين بالمغرب الاقصى بحوالي اربعين الفا(2)، وهوعدد يشير إلى جالية كبيرة نسبيا من النازحين، لكن الأندلسيين الذين نزلوا بتونس زاد عددهم على هؤلاء كثيرا، اذ يقدر عددهم بين 50٫000 و80٫000 أكثريتهم من شرق الأندلس وأراغونيين، الذين وصلوا إلى تونس في وضع افضل من غيرهم من ناحية الخبرة وحمل جزء كبير من مقتنياتهم. وهذا ما يفسر الدور الذي لعبوه في

[1]- ابراهيم احمد العدوي "المجتمع المغربي مقاوماته الإسلامية والعربية" ص 98، القاهرة 1970 م.

[2]- ابراهيم القادري بوتشيش "مباحث في التاريخ الإجتماعي للمغرب والأندلس خلال عصر المرابطين" ط1،ص74 دار الطليعة، 1993 م.

تونس على مستويات مختلفة، فالنخبة منهم من الاغنياء والعلماء نزلوا في حي خاص بهم في العاصمة. وقام الفلاحون منهم وهم الاكثرية باعمار جهات بجوار تونس، وفي اماكن اخرى كانت مخربة فأعمروها. ومن ثم بدت اثار اعمالهم في فعاليات اقتصادية مختلفة، اثروا في صناعة الحرير والسيراميك والشاشية التي سادت في الاسواق، وادت لإنهيار هذه الصناعة في مركزها الأندلسي بطليطلة، لسيطرة شاشية تونس على اسواق التصدير، وفي المجال الزراعي لفت عملهم في مجال الري وزراعات البستنة انظار كل الجغرافيين والزوار لتونس في تلك الفترة.

أثر خروج الموريسكوس من اسبانيا على حياتها الإقتصادية

كان خروج الموريسكيين نتيجة الطرد أوائل القرن السابع عشر للميلاد خروجا لآخر جماعة من أصل عربي إسلامي. وقد سبقها نزوح متصل وبأعداد وفيرة منذ نهاية الوجود السياسي للعرب المسلمين. دأب عدد من القريبين من شاطئ المضيق على الإنتقال إلى الضفة الأخرى أومع جماعات المغيرين في البحر. لكننا نجد أفرادا مشاهير على مسافات بعيدة شرقا وغربا، مما يدل على سعة الرقعة التي انتشروا فيها. ففي الشرق نجد على شواطئ افريقيا غرناطيا يعمل وكيلا لأعمال ملك غربي المشهور بغناه. ونجد أندلسيا آخر يعمل كترجمان لدى نائب ملك البرتغال في الهند. أمّا في اتجاه الغرب فقد حدثت هجرة إلى العالم الجديد. ويظهر ان الاعداد المهاجرة سرا لم تكن هجرة أفراد قلائل، بدليل أنها بلغت مسامع الملك، فأصدر 1522م أمر ملكي يمنعها، وتكرر إصدار هذا المنع مما يدل على استمرار حدوث هذه الهجرة ومحاولة التحايل على الامر الملكي. من هذه الدلائل متابعة محاكم التفتيش في إصدار احكامها على اشخاص بتهمة الاسلام، فأحرق شخص عام 1560 م وإعترفت إمرأة أخرى من أصل غرناطي بأنّها مسلمة أمام محكمة التفتيش في المكسيك. ومن الدلائل الأخرى على وجودهم، أن أعمال الخشب المحفور والأساليب والنماذج المعمارية التي إشتهر بها الموريسكيون في الأندلس بدت واضحة في الفن الإسباني الأمريكي.

نستنتج من هذا أنّ الموريسكيين المطرودين ليسوا سوى بقايا مجتمع المريسكوس ويقدر عددهم بثلاثمائة ألف فقط، يكونون منهم سكان المدن نسبا مختلفة: 10% من قرطبة و6% من اشبيلية، ولا تتجاوز نسبتهم بالنسبة لمجموع سكان اسبانيا 4%. وتبدومثل هذه النسبة تافهة القيمة من الناحية الكمية، لكن الأمر ليس كذلك من الناحية الكيفية، لأن هؤلاء المطرودين كانوا من العاملين المهرة بمجموعهم، فمن الثابت أنه لم يكن بينهم نبلاء عاطلون عن العمل ولا رهبان أو جنود أو مشردون. أضف إلى ذلك إتفاق الشواهد والمصادر على الإشادة بنشاطهم عند مقارنتهم بالإسبان، كما تتفق آراء الرحالة بشكل غريب

على ان عمل الواحد منهم يساوي عمل أربعة من الإسبان (1). فالرحالة **مونزر** Monzerالأماني، الذي قام برحلة إلى اسبانيا عقب سقوط غرناطة، لاحظ في منطقة من الشمال الشرقي من اسبانيا، أن مكانا كان يعيش فيه ستون من الموريسكيين بيسر لايكاد يكفي خمسة عشر من المسيحيين، ويعلل ذلك بأن الموريسكيين مهرة في الري نشطين في الزراعة.

وبعد ذلك بقرن مر راهب من **الجزويت** بموقع قريب من **غرناطة** رحل منه الموريسكون وحل محلهم معمرون اسبان، فلاحظ أنه على الرغم من توزيع أملاك ثلاثة أو أربعة من الموريسكيين على إسباني واحد، إلّا أن المعمرين يكادون يموتون جوعا لأنهم لا يعملون عمل أولئك. ويرد تبرير آخر لقلة إنتاجية الأرض يعتمد على ضعف إمكانيات الإسبان في عمليات الري لأنهم أصحاب زراعة بعلية، وعندما حازوا على أراضي الموريسكيين حاولوا تقليد عملهم، لكن إنعدام الخبرة جعل الأرض تفسد سريعا والإنتاج يقل. وإذا صرفنا النظر عن الأسباب ونظرنا إلى الواقع نجد أن الإنتاج تدهور في الزراعات الغنية كالأرز وقصب السكر. وقد إستفاد منافسوالإسبان من برتغاليي المستعمرات الأمريكية في إنتاج السكر من هذا الوضع الجديد ليوجهوا ضربة قوية للسكر الإسباني.

وفي المجال الصناعي تدهورت صناعات متعددة كالحدادة، لأن عدد الحدّادين بين الموريسكيين قدر بخمسة آلاف حداد. وحاول المعمرون الجدد سد النقص فيما يتعلق بزراعة التوت وصناعة الحرير بإستقدام العبيد، فلم يؤد ذلك إلى نتيجة مثمرة وتدهورت هذه الصناعة. من ناحية أخرى قلت كمية الذهب والفضة المتداولة نظرا لإخفاء الموريسكيين (2)لأموالهم ودفنها، قبل مصادرة الأعداء لها والإستفادة منها، وأملا بالعودة وإسترجاعها. وقد عثر على بعضها وإنتشرت الأساطير والقصص عن مكانها. وأخيرا لم يكن للتجارة أثر كبير ، حتى الخارجية منها و بدرجة أقل الفعاليات الإقتصادية الأخرى. فقد لاحظ **بيير شوني** Pierre Choney (أحد المؤرخين الفرنسيين) إن الطرد كان ضربة قوية لحركة التجارة الاطلسية، بدليل أن حجم التجارة المنقولة في دورة 1614م – 1622 م، كانت أقل من حجم التجارة في دورة 1605م – 1613م.

إنعكس هذا التدهور الذي حل بجمع الفعاليات الإقتصادية على مردود المناطق والأملاك، ونجد مثلا عليها في إرادات أملاك الكنيسة في مدينة **المرية**Almeria(3) التي كانت عشرين ألف دينار قبل الطرد، لكن الوارد من المعمرين الجدد كان قليلا إلى حد الذي جعل الفقر المدقع يحل بالرهبان ويموت إثنان منهم جوعا. كما أن بعض المراسيم الملكية تصح كدلائل، فقد أصدر **فيليب الرابع** أمرا ملكيا عام

1- Miguel de Epaiza, Moriscos y Andalusies en Tunez en el siglo XVII, Al-Andalus (1969).
2- A. D Ortiz Y B. Vincent, Historia de los Moriscos, PP. 201 – 223.
3- حسن مؤنس "رحلة الأندلس" ص 157، القاهرة 1963 م.

1622م بتخفيض ما تدفعه المناطق للتاج الملكي بمقدار الخمس، وتكاثرت الطلبات بعد ثلاث سنوات على تخفيض ما تدفعه المدن من ضرائب مقابل المبيعات بسبب ركود المعاملات. وأخيرا، يظهر أن أثر الطرد على التدهور الإقتصادي كان أمرا مسلما به لدى المعاصرين، فقد أقر رجال الكنيسة أن الطرد كان سببا رئيسيا من أسباب الفقر الذي عم، لكن كان على اسبانيا أن تتحمل نتائج هذه العملية العنصرية في حق المريسكيين.

الحالة في إسبانيا قبل الفتح العربي

كانت إسبانيا في الفترة الأخيرة من الحكم القوطي، تعاني ضعفا سياسيا وإجتماعيا جعلها فريسة سهلة لأي غاز يغزوها من الجنوب أومن الشمال(1)، كان المجتمع الإسباني في ذلك الوقت ينقسم إلى طبقات يسيطر بعضها على بعض و هي:

1- **الطبقة العليا المكونة من الملك والنبلاء :**لم يكن الملك يعين بالوراثة بل كان يعين بالإنتخاب، فالنظام كان ملكيا إنتخابيا، لكنه أدى في النهاية إلى تنافس بين النبلاء للوصول إلى الحكم، مما أجج وثيرة المؤامرات فيما بينهم الأمر الذي أدى لإضعاف قوة الدولة، وكان أفراد هذه الطبقة يملكون نفوذا غير محدود ولهم ممتلكات عقارية كثيرة وكانت هذه الممتلكات معفاة من الضرائب.

2- **طبقة رجال الدّين:** كان الدّين في العصور الوسطى في إسبانيا له نفوذ واسع، وكان رجال الدّين يتمتعون بنفوذ غير محدود سياسيا وروحيا، إذ كانوا يشاركون النبلاء في انتخاب الملك، وأيضا كانت لهم ممتلكات عقارية معفاة من الضرائب.

3- **الطبقة الوسطى:** وهي الطبقة الحرة التي تمثل الشعب، كثرتها تدل على رخاء المجتمع وقلتها تدل على إختلاله، وفي الفترة الأخيرة من الحكم القوطي، كان عدد أفراد هذه الطبقة قليل، كما كانوا مثقلين بالضرائب.

4- الطبقة الدنيا أوطبقة العبيد: وهم الأكثر عددا في المجتمع القوطي في الفترة الأخيرة من الحكم القوطي، كان معظمهم يعمل في مزارع النبلاء، وكانوا ملكا لصاحب الأرض وكانوا ينقلون مع الأرض إذا بيعت لشخص آخر.

5- طبقة اليهود: كان اليهود يقومون بالأعمال المالية والحسابية في دواوين الحكومة، وكانوا مكروهين لإختلاف عقيدتهم الدينية، ولذلك تعرضوا لكثير من الإضطهادات، فاضطروا أحيانا لقلب نظام الحكم بالثورات، وأحيانا عن طريق المؤامرات .كانت الحالة الإجتماعية في إسبانيا قبل الفتح الإسلامي تعاني

[1]- Werener Weichi, "Al-Andalus, Vol.XVII ?1950" , PP, 449-450

الفساد والتفكك وعدم التماسك، في وقت أصبحت فيه اللأراضي المغربية المقابلة لإسبانيا قوة متماسكة يتيح لها الفرصة للتدخل فيها(1).

السبب المباشر لفتح إسبانيا

تختلف الرواية العربية عن الرواية الإسبانية حول السبب المباشر لتدخل المسلمين في إسبانيا، الرواية العربية ترجع بذلك إلى قصة إنتقام شخصي، القصة تقول أن **الكونت يوليان** Gulianحاكم **سبتة** كانت له ابنة جميلة إسمها **فلورندا** Florenzaوأن الكونت أرسلها إلى القصر الملكي القوطي في **طليطلة** لتتأدب وتتعلم كغيرها من فتيات الطبقة الراقية، فرآها الملك القوطي **لذريق**Lodrigo وأحبها فإعتدى عليها، فكتبت رسالة إلى أبيها تخبره وتشكو إليه ما حصل، فذهب **يوليان** إلى القصر وأخذ ابنته من هناك، أراد **يوليان** الإنتقام فإتصل **بموسى بن نصير** وأقنعه بغزواسبانيا مبينا له سوء الأحوال فيها فإستجاب موسى لطلبه وأقدم على الغزو بعد أن استأذن الخليفة الأموي **الوليد بن عبد الملك** أما الرواية الإسبانية فتقول أن الملك القوطي **أكهيلا**، عندما عزل من ملكه ذهب انصاره إلى حليفه الكونت **يوليان** حاكم **سبتة** طالبين منه المساعدة، فقادهم **يوليان** إلى **موسى بن نصير** بالقيروان حيث تم الإتفاق على أن يمدهم موسى بجيش من عنده ليرد إلى ملكهم المعزول عرشه بشرط دفعهم جزية سنوية للعرب.

التخطيـط لفتــح إسبانــيا

كان فتح المسلمين لإسبانيا نتيجة لخطة موضوعة، أقرها الخليفة الأموي **الوليد بن عبد الملك** بدمشق، بإتفاق مع قائده على المغرب **موسى بن نصير**. قام موسى بن نصير بعدة حملات إستكشافية على جنوب إسبانيا، فقام بإستدعاء حليفه الكونت **يوليان** حاكم سبتة، قام يوليان بحشد جيوشه وجاز في مركبين إلى الأندلس وشن الغارة على الساحل الجنوبي، فقتل وغنم ورجع وإمتلأت يديه خيرا وشاع الخبر في كل قطر فتحمس الناس للغزو. لم يكتفي **موسى** بهذه الغارة الإستطلاعية التي قام بها **يوليان** بل إستدعى أحد ضباطه وهو**طريف بن مالك**، فأمره بشن غارة على ساحل الأندلس الجنوبي فعبر **طريف** المضيق بـ100 فارس و400 راجل وذلك في يونيو سنة 710م /91 هـ في رمضان في طريقه، نزل طريف وجنده وأغاروا على المناطق التي تتبعها إلى جهة الخضراء فغنم منها الكثير وعاد سالما. فتبين **لموسى بن نصير** أن ما قاله **يوليان** كان صحيحا عن ضعف المقاومة في إسبانيا، فأعد موسى جيشا من سبعة آلاف محارب لغزو الأندلس بقيادة **طارق بن زياد**.

إن فتح المسلمين للأندلس لم يكن منذ البداية مغامرة حربية إرتجالية، بل كان فتحا منظما حسب خطة أعدت من قبل.

[1]– حامد الشافعي "الكتب والمكتابات في الأندلس"، دار قباء للطباعة والنشر،ص100، 1995م.

عبور المسلمين إلى إسبانيا

إعتمد **موسى بن نصير** على الأساطيل الإسلامية التي كانت تحت قيادته على طول الساحل المغربي، وجه موسى **طارق بن زياد** إلى **طنجة** ومن هناك انطلقت السفن العربية الإسلامية(1) إلى الجبل المعروف حتى اليوم **بجبل طارق**.

معركة جبل طارق

عند نزول **طارق بن زياد** وجيشه إلى سفح الجبل لقوا مقاومة عنيفة من القوط الذين كانوا على علم بأن المسلمين قادمون لغزوهم نتيجة الغارات الاستطلاعية التي شنت من قبل، فإضطر المسلمون لتغيير خططهم العسكرية وقرّروا النزول ليلا في مكان صخري وعر، فإستخدموا براذع الدواب ومجاذف السفن لكي تعينهم على خوض المياه وارتقاء الصخور فإلتفوا بذلك حول جموع القوط وانقضوا عليهم قبل أن يشعر القوط بهم. وكان هذا النصر الأول الذي أحرزه **طارق** عند نزوله أرض الأندلس وتمكن من إحتلال الجبل المسمى بإسمه حتى اليوم.

حرق المراكب وخطبة طارق

قصة حرق المراكب هي قصة شائعة في تاريخ فتح الأندلس تفيد القصة بأن **طارق** قد أحرق سفنه بعد نزوله بالشاطئ الإسباني لكي يقطع على جنوده أي تفكير في التراجع والإرتداد. ثم خطب فيهم خطبته المشهورة التي قال فيها: "أيها الناس. أين المفر؟ البحر من ورائكم. والعدوأمامكم. وليس لكم والله إلاّ الصدق والصبر. واعلموا أنكم في هذه الجزيرة أضيع من الأيتام في مأدبة اللئام. وقد إستقبلكم عدوكم بجيشه وأسلحته. وأقواته موفورة. وأنتم لا وزر لكم إلا سيوفكم. ولا أقوات إلا ما تستخلصونه من أيدي عدوكم. وإن إمتدت بكم الأيام على إفتقاركم. ولم تنجزوا لكم أمرًا ذهبت ريحكم. وتعوَّضت القلوب من رعبها منكم الجراءة عليكم فادفعوا عن أنفسكم خذلان هذه العاقبة من أمركم بمناجزة هذا الطاغية (يقصد **لذريق**Lodrigo) فقد ألقت به إليكم مدينته الحصينة.

وإنّ انتهاز الفرصة فيه لممكن، إن سمحتم لأنفسكم بالموت. وإني لم أحذركم أمرًا أنا عنه بنجوة. ولا حَمَلْتُكُمْ على خطة أرخص متاع فيها النفوس إلا وأنا أبدأ بنفسي. واعلموا أنكم إن صبرتم على الأشقِّ قليلاً .استمتعتم بالأرفَهِ الألذِّ طويلاً، فلا ترغبوا بأنفسكم عن نفسي، فما حظكم فيه بأوفى من حظي."ثم قال" :وقد إنتخبكم **الوليد بن عبد الملك** أمير المؤمنين من الأبطال عُربانًا، ورضيكم لملوك هذه الجزيرة أصهارًا. وأختانًا. ثقة منه بإرتياحكم للطعان. واستماحكم بمجالدة الأبطال والفرسان. ليكون حظُّه منكم ثواب الله على إعلاء كلمته وإظهار دينه بهذه الجزيرة. وليكون مغنمًا خالصة لكم من دونه. ومن دون المؤمنين سواكم. والله – الله – ولَّى أنجادكم على ما يكون لكم ذِكرًا في الدارين .واعلموا أنني أوّل

[1]- الحميري، صفة جزيرة الأندلس منتغبة من كتاب "الروض الممطار"، ص127.

مُجيب لما دعوتكم إليه. وأني عند مُلتقى الجمعين حامل نفسي على طاغية القوم **لذريق**. فأقتله إن شاء الله فاحملوا معي. فإن هلكت بعده. فقد كفيتكم أمره. ولم يعوزكم بطلب عاقد تسندون أموركم إليه. وإن هلكت قبل وصولي إليه. فاخلفوني في عزيمتي هذه. واحملوا بأنفسكم عليه .واكتفوا الهمَّ من الإستيلاء على هذه الجزيرة بقتله؛ فإنهم بعده يُخذلون". والرواية الإسلامية تشير إلى حادثة حرق السفن في ثلاثة مراجع هي كتاب الإكتفاء **لإبن الكردبوس،** وكتاب نزهة المشتاق **للشريف الإدريسي** وكتاب الروض المعطار **للحميري.** في كتاب ابن الكردبوس. يشار إلى أن طارق أراد حرق سفنه كي يحشد هممه المقاتلة. أمّا في كتب الإدريسي والحميري، فيشار إلى أن طارقا أحسّ بأن العرب لا يثقون به وتوقع أنهم لن ينزلوا معه إلى الجبل فعمد إلى إحراق سفنه كي يحول دون إنسحابهم بها إلى المغرب.

معـركة كـورة شذونــة

أقام **طارق بن زياد** في جبل طارق عدة أيام، بنى خلالها سورا أحاط بجيوشه سماه **سور العرب،** كما أعد قاعدة عسكرية بجوار الجبل على الساحل لحماية ظهره في حالة الانسحاب أوالهزيمة وهي مدينة **الجزيرة الخضراء،** والتي سميت أيضا **بجزيرة أم حكيم،** إن موقع هذا الميناء قريب وسهل الإتصال بمدينة **سبتة** على الساحل المغربي المقابل، بينما يصعب الإتصال بإسبانيا نفسها بسبب وجود مرتفعات بينهما، كذلك أقام قاعدة أمامية أخرى في مدينة **طريفة** بقيادة **طريف بن مالك**. وعلم الملك القوطي **لذريق** خبر نزول المسلمين في بلاده، كان هذا الأخير مشغولا في ذلك الوقت بإخماد ثورة قام بها **البشكنس** سكان **نافارا** Navarraفي أقصى شمال إسبانيا. فأسرع الملك لذريق بالعودة إلى جنوب إسبانيا بجميع قواته لملاقاة المسلمين. في ذلك الوقت كان **طارق بن زياد** قد اتجه نحوالغرب متخذا قاعدة طريفة قاعدة يحمي بها مؤخرة جيشه ثم أكمل سيره حتى وصل بحيرة تعرف باسم **بحيرة لاخندا** في كورة شذونة. بعث طارق جواسيس له إلى الشمال ليروا حجم الجيش الذي سيواجهه المسلمون، وعندما عادوا إليه أبلغوه عن ضخامة الجيش الذي جهزه له الملك لذريق، فانزعج طارق لهذا النبأ وكتب إلى **موسى بن نصير** يطلب منه أن يمده بالمزيد من الجند، فاستجاب له موسى فوجه له خمسة آلاف جندي فأصبح عدد جيش المسلمين في الأندلس إثنا عشر ألفا. يتفق أغلب المؤرخين على أن المعركة الفاصلة التي دارت بين المسلمين والقوط والتي حددت مصير الأندلس حدثت في **كورة شذونة** جنوب غرب إسبانيا، استمرت المعركة مدة ثمانية أيام من الأحد في 28 من رمضان إلى الأحد 5 شوال عام 92هـ - ومن 19 الى26 يونيوعام 711م[1].

وصفوها بأنّها كانت معركة شديدة ضارية، اقتتل فيها الطرفان قتالا شديدا حتى ظنوا أنه الفناء، ولم تكن بالمغرب مقتلة أعظم منها، وأن عظامهم بقيت في أرض المعركة دهرا طويلا لم تذهب، وإنتهت

[1]- حمدي عبد المنعم "ثورات البربر في الأندلس في عصر الإمارة الأموية" ط1، ص112 مؤسسة شباب الجامعة.

المعركة بإنتصار المسلمين وهزيمة الجيش القوطي. وقد سميت هذه المعركة في عدة مصادر عربية وإسبانية بإسم **معركة البحيرة، ووادي لكة، ووادي الرباط**، و**شريش**، و**السواقي**، وتنسب هذه التسميات إلى تلك الأماكن التي دارت وتشعبت عندها تلك المعركة الواسعة النطاق في أراضي **كورة شذونة**. بعد المعركة الفاصلة وانتصار **طارق بن زياد** أصبحت جميع المعارك التي قامت في أنحاء الأندلس ما هي إلا مناوشات بسيطة بالنسبة لهذه المعركة الكبيرة، فقد استولى المسلمون على الأندلس خلال ثلاثة أعوام مما يدل على إنتهاء المقاومة تقريبا.

إتمـام فتــح الأندلــس

إتمام فتح الأندلس بعد هذا النصر الكبير الذي حققه طارق في **معركة شذونة** فتحت أبواب الأندلس للمسلمين واتجه طارق بالجيش شمالا نحوالعاصمة طليطلة، و أثناء سيره واجهته قلعة اسمها **إسبيجاه** Espejo، فحاصرها ثم استولى عليها، في ذلك الوقت أرسل طارق أقساما من جيشه إلى المناطق الجانبية في الأندلس، اتجه قسم إلى **قرطبة** بقيادة **مغيث الرومي مولى عبد الملك بن مروان**، فإستولى عليها بعد حصار دام ثلاثة أشهر، واتجه قسم آخر إلى **البيرة** Elviraوما يحيطها وفتحوها. و الجدير بالذكر أن طارق وجد وقادته عونا من اليهود المقيمين في إسبانيا بسبب اضطهاد القوط لهم ولذلك اعتمد طارق عليهم في حفظ المناطق المفتوحة في أنحاء البلاد. استمر طارق بزحفه نحوالشمال حتى وصل العاصمة **طليطلة**، فدخلها دون مقاومة تذكر، إذ كان حكامها وأهلها قد هربوا منها، فكانت المدينة شبه خالية تقريبا، فغنم المسلمون من كنائس المدينة وقصورها ذخائرا و كنوزا كما تشير المصادر العربية.
ثم خشي **طارق بن زياد** من أن يقطع عليه القوط الطريق في تلك المناطق الجبلية الوعرة، لأن فصل الشتاء قد اقترب وتعب الجيش الإسلامي من الجهود التي بذلها، والغنائم التي ثقل بها، فكتب إلى **موسى بن نصير** يطلب منه العون، وفي شهر رمضان عام93هـ يونيو712م، عبر موسى مضيق جبل طارق بجيش كبير من 18 ألف محارب، معظمهم من العرب بعصبياتهم القيسية واليمنية، ومن بينهم عدد من التابعين وقد عرف هذا الجيش العربي الأول بطالعة موسى. وسار موسى من طريق غربي غير الطريق الذي سار به طارق، واستولى على مدن أخرى غير التي استولى عليها طارق فاستولى على **إشبيليةSevilla** و**ماردةMerida** و**قرمونةCarmona**، ثم وصل إلى **نهر التاج** El Tajo بالقرب من **طليطلة** فالتقى **بطارق بن زياد** هناك. ثم تابع القائدان سيرهما نحوالشمال بإتجاه جبال les pérénnés(**البرانس**) وأخذت المدن تتساقط بين أيديهم مثل **وشقةHuesca** و**لاردة** Lerida و**سرقسطةZaragoza**، حتى وصلا إلى شاطئ البحر الشمالي عند الحدود الإسبانية الفرنسية.
وهكذا أنهى كل من **طارق وموسى** فتوحاتهما، وأمر الخليفة الأموي **الوليد بن عبد الملك** برجوع القائدين إلى دمشق، فعاد **موسى وطارق** وخلف على الأندلس **عبد العزيز بن موسى بن نصير** واليا

عليها عام 95هـ 714 م. لم يتبقى من الأندلس سوى بعض المناطق الشرقية والشمالية الغربية، أما شرق الأندلس فقد فتحها الأمير **عبد العزيز بن موسى بن نصير** الذي أصبح واليا على الأندلس، تركزت المقاومة في **كورة تدمير** (مرسية حاليا) Murcia وكانت لها قاعدة حصينة وهي أريولةArbolla، سميت هذه الولاية بهذا الإسم نسبة إلى اسم حاكمها الأمير القوطي **تيودمير** الذي منحه عبد العزيز شروطا ضمنت له أن يحكم ولايته مقابل جزية سنوية[1].

أما الجزء الشمالي الغربي من الأندلس، وهي المنطقة المعروفة **بأستورياس**Asturias في جليقية أوغاليسيا Galicia ، فإن الأمويين لم يفرضوا عليها سيطرتهم بالكامل، بسبب برودة مناخها ووعورة طرقها، فأهملوا هذا الجانب استهانة بشأنه، نتيجة لذلك تمكن بعض من تبقى من الجيش القوطي المنهزم بزعامة القائد المعروف باسم **بلاي أوبيلايو**Opelleo، لجأ هؤلاء القوط إلى الجبال الشمالية في تلك المنطقة، وهي ثلاثة جبال عالية، تسمى القمة الغربية منها بإسم **أونغا ونغا** Honga donga فيها كهف يعرف بإسم **كوفادونغا** Confa donga ، أما العرب فيسمونها بإسم **صخرة بلاي** لأن **بيلايو**اختبأ فيها عندما حاصرهم المسلمون وعاشوا على عسل النحل الذي وجدوه في خروق الصخور، عندما عرف المسلمون أمرهم، تركوهم استهانة بأمرهم و انسحبوا وقالوا: **" ثلاثون علجا ما عسى أن يجيئ منهم؟ ".**

المصادر الإسبانية تعتبر إنسحاب المسلمين من **كوفادونغا** نصرا عسكريا وأيضا نصرا قوميا للإسبان، وتقول أن العون الإلهي كان قد وقف إلى جانبهم، أما المصادر العربية فهي تعترف بإنسحاب المسلمين عن هذه المنطقة الباردة والقاحلة لكنها لا تذكر شيئا عن قيام معركة ولا عن القائد **علقمة اللخمي** الذي قاد الجيش هناك ذلك الوقت. وعلى إثر انسحاب المسلمين قامت في تلك المنطقة (شمال غرب إسبانيا) مملكة **أستورياس**Asturias.

مراحل الحكم الإسلامي في الأندلس

إتفق الؤرخون على تقسيم مراحل الحكم الإسلامي في الأندلس إلى خمسة عصور وهي:

- **عصر الولاة:** وهوالعصر الذي يمتد من الفتح العربي حتى قيام الدولة الأموية في الأندلس منذ عام 711م حتى عام 756 م هذا العصر كانت الأندلس(2) ولاية تابعة للخلافة الأموية في دمشق.

- **عصر الدولة الأموية في الأندلس:** يقسم هذا العصر إلى قسمين، القسم الأول كانت الأندلس إمارة أموية مستقلة عن دولة الخلافة العباسية في المشرق. منذ عام 756م حتى عام 929م. أما القسم الثاني وقد

[1]- عبد الرحمن علي الحجى "تاريخ الاندلس من الفتح الاسلامى حتى سقوط غرناطة" ، ص98 دمشق 1981 م.

[2] المقري: "النفح الطيب"، ج2، ص 62،− 67 و102 – 104، الزهري، الجغلرافية، ص 87.

أصبحت الأندلس خلافة مستقلة روحيا عن الخلافة العباسية عندما أعلن **عبد الرحمن الثالث** نفسه خليفة ولقب **بالناصر لدين الله**.

-**عصر ملوك الطوائف :** 1031م - 1086م ويبدأ هذا العصر بإنتهاء الدولة الأموية في الأندلس(1) وإنقسامها إلى دويلات متنازعة إلى أن دخلها المرابطون من المغرب وأعادوا توحيدها بعد إنتصارهم على الإسبان في **معركة الزلاقة** عام 1086م بقيادة القائد البربري **يوسف بن تاشفين**(2).

-**عصر السيطرة المغربية أوالحكم المغربي:** من سنة 1086م حتى سنة 1214م، وفيه أصبحت الأندلس ولاية تابعة للمغرب أثناء حكم المرابطين ومن ثم الموحدين، كانت العاصمة لكلتا الدولتين المتتاليتين مدينة **مراكش المغربية**، انتهى هذا العصر بهزيمة الموحدين أمام الجيوش الأوروبية المتحالفة في **موقعة العقاب** عام 609 هـ / 1212 م أعقب ذلك فترة ملوك طوائف ثانية، أنهى وجودها الإسبان ولم يبقى منها غير مملكة واحدة وهي **مملكة غرناطة**.

-**عصر مملكة غرناطة:** أو الدولة النصرية أو دولة **بني الأحمر**، وهو آخر عصر إسلامي في الأندلس من عام 1231م حتى عام 1492 م، وهي السنة التي سقطت فيها المملكة في أيدي الملك **فرناندو الثاني** والملكة **إيزابيلا**، وهي نفس السنة التي اكتشف فيها **كريستوف كولومبس** قارة أمريكا.

3- الأندلس حضارة ضاربة في التاريخ

كان للأندلس دور كبير في التأثير على أوروبا والممالك المجاورة لها، وعند قيام الدولة الأموية في الأندلس كان يقصد **قرطبة** العديد من أبناء أوروبا لطلب العلم(3). وقد دام الحكم الإسلامي للأندلس قرابة 800سنة. وفي العصر الحاضر لا تزال منطقة جنوب إسبانيا تعرف بإسم الأندلس وتعتبر إحدى المقطاعات التي تشكل إسبانيا(4) الحديثة وتحتفظ بالعديد من المباني التي يعود تاريخها إلى عهد الدولة الإسلامية في الأندلس، وتحمل اللغة الإسبانية كثيراً من الكلمات التي يعود أصلها إلى اللغة العربية.

وقد قارن الطبيب الأمريكي المؤرخ **فيكتور روبنسون**Victor Robinson بين الحالة الصحية وغيرها في الأندلس وفي أوروبا خلال فترة الفتح الإسلامي للأندلس فقال: " كانت أوروبا في ظلام حالك، في حين كانت قرطبة تضيئها المصابيح، وكانت أوروبا غارقة في الوحل، في حين كانت قرطبة مرصوفة الشوارع ". وإننا لنلمس فضل المسلمين وعظيم أثر مجدهم حينما نرى بإسبانيا

[1]- من دور المنصور في الحياة الفكرية، انظر كتابنا " تاريخ الأندلس" عصر للخلافة، ص 167 – 169.

[2]- هو يوسف بن تاشفين ناصر الدين بن تالاكاكين الصنهاجي ح. (1106 - 1006 وثاني ملوك المرابطين بعد عمه ابن عمه أبوبكر بن عمر.

[3]- المقري "نفح الطيب"، ج1، ص 251

[4]- E. Levi Provençal, Histoire de L'Espagne Musulmane, TI, P.56.

الأراضي المهجورة التي كانت أيّام المسلمين جنّات تجري من تحتها الأنهار، فحينما نذكر تلك البلاد التي كانت في عصور العرب تموج بالعلم والعلماء، نشعر بالرّكود العام بعد الرفعة والإزدهار.

نماذج لمدن و معالم أندلسية

طليطلة وهي مدينة إسبانية كانت واقعة تحت الحكم الإسلامي كشأن بقية المدن ولكن كان يعيبها الضعف في فترة إنحلال الحكم الإسلامي هناك قام الكاثوليك القوط بمحاصرتها ودخولها بسرعة. بعد إحتلال القوط لها أصبحت مدينة شاهدة على تراث ثقافى عربى كبير فلجأ إليها العديد من الجماعات المؤلفة من مسلمين(1) ويهود ومسيحيين للتعلم والمعرفة وكان من بين الوافدين رجل إنجليزى يدعى **دانييل مورليDaniel Morley** والذى قال عنها أنه ذاهب إلى حيث يجد أهم فلاسفة العالم وبعد جولة معرفية هناك رجع إلى إنجلترا محملا بالعديد من الكتب والمؤلفات، و المفاجأة أن هذا الوفد كان من **اوكسفورد**.

مريم: إقليم في وسط أراجونة وهي الآن تحت **مريماتي**.

مسجد قرطبة: إهتم الأمويون في بناء قرطبة(2) وقد بلغ عدد مساجدها 1600 مسجداً وإشتهر المسجد الجامع على الأخص في قرطبة وقال **الإدريسى** أنه لا نظير له في المدن الإسلامية، وبلغ عدد حمّاماتها 600 وفيها مائتا ألف دار وثمانون ألف قصر منها **قصر دمشق** شيده **الأمويون** حاكوا به قصورهم في بلاد الشام وقد بلغ عدد أرباض قرطبة (ضواحيها) تسعة أرباض كل ربض كالمدينة الكبيرة، ودور قرطبة ثلاثون ألف ذراع وفي ضواحيها ثلاثة آلاف قرية في كل واحدة منبر وفقيه وقد قدر بعض المؤرخين عدد سكان قرطبة في أيام إزدهارها بمليوني نسمة، وكان بالربض الشرقي من قرطبة مائة وسبعون إمرأة يكتبن المصاحف بالخط الكوفي. وقد كانت شوارعها مبلطة وترفع قماماتها وتنار شوارعها(3) ليلاً بالمصابيح ويستضئ الناس بسروجها ثلاثة فراسخ لا ينقطع عنهم الضوء وفي ذلك يقول الشاعر:

بأربع فاقت الأمصار قرطبة *** منهن قنطرة الوادي وجامعهــا
هاتان اثنتان والزهراء ثالثة *** والعلم أعظم شيء وهو رابعها

وقال آخر:

وليس في غيرها بالعيش منتفــع *** ولا تقوم بحق الأنس صهبـــــتاء
وكيف لا يذهب الأبصار رونقها *** وكل روض بها في الوشى صنعاء

1- العذري "الدخيرة"، ق4، م 1، ص 110 ، نصوص عن الأندلس، تحقيق الاهواني، ص 14 – 15.

2- كاظم شمهود طاهر "الأندلس والفن الإسلامي" ص 130، دار ازمنة، 2001 م.

3- ابراهيم بيضون "الأمراء الشعراء في الأندلس" ص 165 دراسة في ادب السلطة دار النهضة العربية 1994 م.

أنهارها فضة، والمسك تربتهـا *** والخـز روضتـها والدر حصبـــاء

وللهـواء بها لطف يرق بــــه *** من لا يرق و تبدو منه أهـــــتواء

وبالطبع لم تكن قرطبة وحدها فهناك طليطلةToledo ، وهناك إشبيلية Sevilla وغرناطة Granadaومالقة Málaga والمريةAlmería .

غرناطة: سلالة بربرية حكمت في تونس شرق البلاد الغرناطية التي لم تعرف ما معنى الضوء الذي هو إشعاع كهربائي.

المكتبات: إنتشرت المكتبات والكتب في جميع أنحاء البلاد وكثر التّأليف والمؤلفون(1)، ولاسيما أنه وجد حكام شجعوا العلم وإهتموا به **كالحاكم الثاني** الذي وصف بأنه كان جمّاعاً للكتب وكان يرسل المبعوثين إلى دمشق والقاهرة وحلب وبغداد والمدن الأخرى التي تهتم بالكتب، وذلك لشراء الكتب بأثمان عالية حتى إستطاع أن يجمع نحو400 ألف مجلد لمكتبته.

وقد روى عنه **إبن الأبار قائلاً "** ولم يسمع في الإسلام بخليفة بلغ مبلغ الحكم في إقتناء الكتب والدواوين وإيثارها والتهمم بها. وقد انتشرت الحلقات التعليمية في أغلب جوامع الأندلس وبشكل خاص في المدن الرئيسية كقرطبة وطليطلة وإشبيلية، ولقد وجد في كل جامع مكتبة غنية بمختلف فروع المعرفة الإنسانية، فقد كان للحلقات التي تعقد في **جامع طليطلة** تجذب إليها الطلاب المسلمين والمسيحيين على السواء حتى كان يقصدها من جميع أنحاء أوروبا بما فيها إنجليترا و سكوتلندا وقد إحتفظت طليطلة بمكانتها هذه بعد سقوطها سنة 1085م حيث وجد فيها هؤلاء مكتبة حافلة بالكتب في أحد مساجدها. كثيراً من رجال الدين في الأندلس(2) تعلموا اللغة العربية وألفوا بها، فقد نقل **يوحنا** رئيس أساقفة اشبيليه التوراة من اللاتينية إلى العربية وذلك سنة 764م كذلك نقل الأب **فيسنتيVicente** ثمانية أجزاء من قوانين الكنيسة إلى اللّسان العربي(3) وأهداها إلى الأسقف **عبد الملك** في أبيات من الشعر العربي مطلعها:

كتاب لعبد الملك الأسقف الندب ***جواد نبيل الرفد في الزمن الجدب

وصنف **ربيع بن زياد** الأسقف كتاباً في **"تفضيل الأزمان ومصالح الأبدان "**وآخر بعنوان**"الأنواء"** وألف **بدروالفونسوPedro Alfonso** (1062 - 1110م) كتاباً عنوانه : **"تعليم رجال الدين"** ثم ترجمه إلى اللاتينية، ومنها نقل إلى لغات كثيرة وقد طواه على ثلاث وثلاثين قصيدة شرقية اقتبسها من **حنين بن**

[1]- نبيلة حسن مجمد في "الوثائق والمخطوطات" ص60، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية 2006 م.

[2]- احمد يوسف "مصادر الأدب الأندلسي" دار الوفاء ص 36، 1995 م.

[3]- رجب عبد الجواد ابراهيم "معجم علماء اللغة والنحوفي الأندلس"، ص 132 دار الآفاق العربية.

اسحاق (لعل الاسم الصحيح المبشر بن فاتك) **وكليلة ودمنة** ، و هي اضافت لطالب الأسكتلندي أو الإنجليزي الراغب في الإستزادة من **أرسطو** والتعمق فيه أكثر.
ما يسمح له في الترجمات اللاتينية الميسورة فلا مانع له من الرحيل إلى طليطلة ليتعلم هناك كيف يقرأ كتب اليونان وقد تحدث **هيستر باش** Ceasar of Heister Bach عن شباب قصدوا طليطلة ليتعلموا الفلك فلا غرابة إن لعبت الأندلس الدور الرئيسي في نقل معارف المسلمين العقلية وكتبهم إلى أوروبا ولا سيما إن تذكرنا أنه كانت هناك فئة أخرى من السكان المقيمين تحت الحكم الإسلامي هم اليهود والذين تعلموا اللغة العربية(1) وألفوا بها إلى جانب اتقانهم اللغة اللاتينية والعبرانية, ولقد أصبح هؤلاء اليهود إلى جانب المستعربين وعدد من اللاتينيين الوسطاء في عملية النقل هذه.

تأثير المسلمين في العلوم

ويمكننا أن نقول ان تأثير المسلمين في بعض العلوم كعلم الطب مثلا دام إلى الزمن الحاضر. فقد شرحت كتب **ابن سينا** في **مونبيليه** في اواخر القرن الماضى. واذا كان تأثير المسلمين في أنحاء أوروبا التي لم يسيطروا عليها إلا بمؤلفاتهم، فقد كان تأثيرهم أكبر من ذلك في البلاد التي خضعت لسلطانهم كبلاد إسبانيا.
إشتهر مسلموا إسبانيا في العصر الأندلسى بحب اقتناء الكلاب, وكان من هذه الكلاب نوع يسمى كلب الماءSpanish Water Dog - Perro de Agua Espanol - Turco Andaluz(2) وكان يستخدم في صيد الأسماك. كما عرف عن الأندلسيين حب الماء والسباحة وكانت تحتوى بيوت القادرين منهم على برك للسباحة **"**أحواض للسباجة**"**. واشتهروا أيضاً بحب الموسيقى مثل الموشح الأندلسي والذي يرجع في موسيقاه إلى الموسيقى القوطيه ورقص الفلامنكو Flamenco و موسيقى الفلمنجدوAlfanjandro و صناعة الوتر الخامس للعود على يد **زرياب** وتطور آلة العود إلى الجيتار. وإشتهروا أيضاً بالعمارة الأندلسية والنافورات والزجاج المعشق والزجاج الملون كما ساهم الأندلسيون الذين هاجروا إلى بلاد إسلامية أخرى في نقل إختراعهم صناعة البارود للشعوب الإسلامية الأخرى كما اشتهر الأندلسيون(3) بالخط الأندلسى المائل سواء كتب بالحروف العربية أو كتب بالحروف اللاتينية. وفي العصر الحاضر لا تزال منطقة جنوب إسبانيا تعرف بإسم **أندلوثيا** وتعتبر إحدى المقاطعات التي تشكل إسبانيا الحديثة España وتحتفظ بالعديد من المباني التي يعود تاريخها إلى عهد الدولة الإسلامية

[1]- عبد الرحمان ابن خلدون، كتاب "العبر"ج1، ج7 ص 54.

[2]- Los Banu Nasr en el sigle VII. Madrid 1964

[3]- حسن عبد الكريم الواركلي "التراث الأندلسي ومسالة الوحدة" ص 123.

في الأندلس، وتحمل اللغة الإسبانية كثيراً من الكلمات التي يعود أصلها إلى اللغة العربية مثل كلمة **الزيتونAceituna.**

حضارة الأندلس تبرز في عهد الخليفة عبد الرحمن الناصر

بعد أن استقرت الأوضاع في الأندلس، توجه الخليفة **عبد الرحمن الناصر**(1) إلى ارساء دعائم الحكم في كل الاتجاهات الداعية إلى بناء الدولة. عام 336هـ، / 948م.

من الناحية السياسية : أصبحت قرطبة أيّام الخلافة في المكانة السياسية التي تفد إليها الوفود والرسل من جميع الدول، فقد وصل إليها سنة 336 هـ /948م وفد من **"بيزنطة الشرقية"** من القسطنطينية - **استانبول** حاليا- لتطوير العلاقات بين دولة الرومان الشرقية وبين الأندلس، فهال الوفد ما رأوه من عظمة الأندلس ورقيها وردّ **الناصر** بوفد يرأسه **هشام بن بديل** بالهداية الثمينة إلى ملك الروم، ودامت السفارات بينهما. كما جائت وفود الدول المجاورة لدولة قرطبة تلتمس الصداقة، وتبادل السفراء فيما بينها ومن مختلف المناطق حتى من نصارى شمال الأندلس، فأجروا مع الناصر معاهدات سلم وأمن، فأمن المسلمون في الثغور وساد الهدوء. مات في عام 339هـ /951م **راميروالثاني** Ramero2ملك **ليون،** فاقتسم ولداه **أردينو Ardinho**و**شانجة Schangah**الملك، ثم تنازعا مما جعل **"شانجة"** - وهوالصغير- يطلب المساعدة والعون من الناصر بالذات، ولم يتوان الناصر في ذلك فأمد "شجانة" بمال وعتاد مكنّه من إستلام الحكم، ثم عقد مع الناصر معاهدات أمن وسلام.

من الناحية الاجتماعية: تفنّن الناس في أنواع الطعام والغناء والطرب، وانشغلوا عن الإستعداد للجهاد، وكان من سنّ فيهم هذه السنة **زرياب** فأشغل الناس بإبتكاراته في عالم الطعام واللّباس، فلكل فصل نوع من الطعام واللّباس، ولكل مجلس آداب وتقاليد، ولكل حفلة طرب وغناء وموسيقى بمختلف الألحان، ولقد تصدى العلماء على محاربة الترف والإسراف، منهم **المنذر بن سعيد البلوطي**(2)قال عنه **ابن بشكوال منذر بن سعيد خطيب ماهر** لم يكن بالأندلس اخطب منه، مع العلم البارع، والمعرفة الكاملة، واليقين في العلوم والدّين، والورع وكثرة الصيام والتهجد والصدع بالحق، كان لا تأخذه في الله لومة لائم، وقد استسقى في غير مرة فسقي، وكذلك الخليفة الذي بيده متاع الدنيا الكثير يقف خاشعاً متضرعاً إلى الله أن ينزل الماء وأن لا ينال المسلمين قحط أو حرمان من رحمة الله بسببه، وهو الذي ما قصّر يوماً بحق الإسلام والمسلمين.

من الناحية العمرانية: بنيت أول طواحين الهواء ذوات المحور الرأسي في العالم من قبل المهندسين المسلمين في قرطبة، حيث أصبحت هذه المدينة من أكبر مدن العالم آنذاك سكانا، إذ بلغ عدد سكانها

[1]- حازم غالم حسين "الحياة العلمية والثقافية في الأندلس"، ص 82 رسالة ماجستير، الموصل 1983 م.

[2]- الطاهر احمد مكي "دراسات اندلسية في الادب والتاريخ والفلسفة"، ط2 ص 161دار المعارف 1983 م.

نصف مليون، ولم تكن مدينة أكبر منها إلا **بغداد**، وبلغت دورها ثلاثة عشر ألفا دور واسعة في العربية كما يقال، بالإضافة إلى القصور(1) و المساجد فكان فيها ثلاثة آلاف مسجد، فهل توجد في هذا العصر مدينة تضاهيها بعدد مساجدها؟.

من الناحية الإدارية: قسّمت قرطبة وحدها إلى ثمانية وعشرين ضاحية، وقسّم رجال الشرطة إلى شرطة بالليل وشرطة بالنهار، وجعل قسم منهم لمراقبة التجار، ونظمت جباية المال وموارد بيت المال حتى بلغ دخل هذا البيت (6,245,000)دينارا ذهبياً، ولما مات عبد الرحمان الناصر ترك في بيت المال ثلاث مائة مليون ليرة ذهبية، وكان ثلث هذا المبلغ يرصد لتغطية نفقات الدولة الجارية، ويدخر الثلث الثاني، وينفق الباقي على **مشروع العمران**، لذلك أطلق على **قرطبة** لقب **"جوهرة العالم"** في ذلك الزمان، وحق لها هذا اللقب(2). وكذلك نظم أسلوب البريد،و المالية، فالضرائب والمكوس والخراج والجزية، ونظم القضاء ووضع شروطاً لتولي هذا المنصب من الناحية الفقهية، وفي العدالة والإستقامة، ولم يشترط عربية الجنس في القضاء، وأنشأ قضاءًا جديدا أسماه **قضاء المضالم** ما يقابل **الإستئناف** في يومنا هذا، وأوجد جماعة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، كذلك جعل نظام الحسبة ففي كل بلد محتسب، يشرف على الاسواق التجارية ومشاكلها وقوانين القضاة.

من الناحية الإقتصادية: نمت الزراعة نمواً مزدهراً، فتنوعت أشجار الفواكة والمزروعات من قصب السكر والأرز والزيتون والكتان، وأوجد مزارع خاصة لتربية دودة القز، كما نظم أقنية الري وأساليب جر المياه، وجعل تقويما للزراعة لكل موسم ومنها إنتقلت الزراعة إلى أوروبا. وفي الصناعة جعلت المناجم، وطور أنواعها، الذهب والرخام والفضة والرصاص والنحاس، وتطورت صناعة الجلود، ومراكز خاصة لصناعة السفن وآلاتها، وصناعة الزيتون والأدوية، وفي زمنه ظهرت الأسواق الخاصة للبضائع، فهناك سوق للنحاسين، وسوق للزهور والشحوم وسوق للزيتون.

من الناحية الثقافية: إنّ الأشياء الداخلية من قصر الحمراء في إسبانيا مزيّنة بتصاميم الزخرفة العربية. صارت قرطبة مركزاً للعلوم والآداب(3)، وانتشرت الثقافة وكثر الإنتاج العلمي وشاعت المعرفة، وبلغ عدد الكتب **"400000"** كتاب في مكتبة واحدة هي (مكتبة الحكم)، وبلغ عدد المكتبات **"70"** مكتبة. ووضعت لها فهارس دقيقة، وتصانيف عديدة، كما ظهر النساخون الذين كانوا يقومون بدور المطابع في عصرنا، وظهر المجلَدون لتجليد الكتب والعناية بها وحفظها، وكان **"عبد الرحمن الناصر"** يُعرف بحبه

---

[1]- علي محمد حودة "تاريخ الأندلس السياسي والعمراني والاجتماعي" ص 56 القاهرة 1957 م.

[2]- فؤاد افرام البستاني دائرة المعارف "قاموس لكل فن ومطلب" المجلد 2، ج2 ص 99، بيروت، 1958م.

[3]- يوسف فوزي العريني "الحياة العلمية في الأندلس في عصر الموحدين" –الرياض : مكتبة الملك عبد العزيز العامة، 1995 – ص 470 – سلسلة الاعمال المحكمة،

للعلم والعلماء، وكان من أشهر العلماء القاضي **عبد الله محمد بن محمد** الذي أخذ العلم عن مائتين وثلاثين شيخا(1)، كما ظهر **القاسم بن الدباغ** الذي نقل العلم عن مائتين وستة وثلاثين شيخاً، ولم يكتف بما أخذ من الأندلس بل سافر إلى المشرق لينهل من علومه، وكان من بين العلماء الأندلسيين الذين قدموا المشرق الإسلامي. وبرز **ابن عطية** في التفسير، كما اشتهر في الفقه:، **الباجي** و**ابن وضاح** و**ابن عبد البر**، و**ابن عاصم** و**المنذر بن سعيد** في الفقه والحديث، وظهر بالفلسفة **ابن رشد** و**ابن مسرة القرطبي** و برز في اللغة **ابن سيده** صاحب المعجم، و**أبوعلي القالي** صاحب الامالي الذي تلقى تعليمه في بغداد ثم رحل إلى الأندلس فبلغ في فقه اللغة شأناً بعيداً هناك، وكتب **ابن قوطية** في التاريخ، وبرز شاعر عظيم هو **محمد بن هانئ** الأندلسي . ضاهي **المتنبي** و**أبوتمام** وكان أهل الأندلس يأملون له مكانة مثل عظماء الشعراء لكنه مات صغيراً. وغيرهم فقد عمل **عبد الرحمن الناصر** على نشر المعرفة في ربوع البلاد، فابتنى في قرطبة وحدها سبعاً وعشرين مدرسة وأدخل إليها الفقراء من الطلاب مجاناً، حتى أصبحت قرطبة في عهده منارةً تجتذب إليها الأدباء والعلماء والفنانين.

[1]- ابن الخطيب "تاريخ اسبانيا الإسلامية" (الجزء الخامس بالأندلس من كتاب اعمال الاعلام) تحقيق ليفي بروفنسال، ص 209.

الفصل الثاني
العمارة الأندلسية وعبقريتها

1- تضـــارب في الفن الإسلامي في شبه الجــزيرة الإسبانيـــة
2- العمـــــــــــــــارة في الأنـــــــــــــــــدلس
3- العمارة الإسلامية في الأندلس شاهدة على تاريخ إسلامي عريق
4- معـــــــــالم معماريـــــــتة أندلسيـــــــــــــــة

1- تضارب في الفن الإسلامي في شبه الجزيرة الإسبانية

من بين جميع مناطق العالم التي حافظت على كنوز العمارة الإسلامية فيها، أوالتي تحوي آثارا فريدة ذات مهارة فائقة إبتدعها صنّاع مسلمون، كانوا منضوين تحت لواء الإسلام، هناك منطقتان لم تعودا تخضعان لحكم المسلمين، هما **الهند**، حيث يوجد مقر الملك الذي فاتح **بور سكري**، ثم **إسبانيا**. ومن بين الحضارات الفرعية المفيدة التي تكونت منها الحضارة المسيحية الأوروبية في العصور الوسطى وتلك التي سبقت العصور الحديثة، هناك حضارتان ظلّتا قرونا عديدة ذواتي صلة وثيقة بالعالم الإسلامي، بل أنهما كانتا خاضعتين له حينا من الدهر. إحداهما تتكون من منطقة أوروبا الشرقية والجنوبية الشرقية، وقد إتبعت في غالبيتها الدّيانة المسيحية الأرثوذكسية، والأخرى تضم الجزء الأعظم من شبه الجزيرة الإيبيرية، وتحديدا ذلك القسم الذي يسمى **الأندلس**، وهو اليوم الجزء الجنوبي من شبه الجزيرة الذي أصبح يدعى بمقاطعة أندلوسيا، أمّا في العصور الوسطى، فقد كان المؤلفون المسلمون العرب يطلقون إسم الأندلس على كل جزء من شبه الجزيرة خاضع لحكم المسلمين وسيطرتهم.

" لن نحاول، في سياق هذه المقالة، أن نتتبّع المتوازيات بين العلاقات الحضارية المتداخلة في شبه الجزيرة الإيبيرية، وفي مناطق أخرى من أوروبا الآسيوية وإفريقيا، إلاّ أنني سأعود للإشارة إليها في نهاية ملاحظاتنا لأنها قد تمدُّنا بهيكلة تحليلية مفيدة نتحرى من خلالها الفنون في إسبانيا المسلمة، وأقوم بتفسيرها. بيد أنّ ما سأحاول أن نبيّنه هو أنه بمقدورنا النظر إلى فنون إسبانيا المسلمة بطريقتين"1: يمكن إعتبارها جزءا من مجموعة كبيرة من المعالم الفنية التي تعرف ب **"الإسلامية"**، أي أنها شيّدت لأناس يعتنقون الدّيانة الإسلامية، أوأنّها من صنعهم، أوالنظر إليها بصفتها هسبانية **(إسبانيا / برتغالية)** أي أنها نتاج منطقة ذات تقاليد خاصة كانت مستقلة، بصورة جزئية على الأقل، عن الولاء لحكّام ذلك العهد من حيث الدّين والعرق والثقافة.

ويمكن إعطاء أدلة مقنعة مثلما أعطيت في الماضي تعزز كلاّ من هذين الموقفين أو المنطقين، المتعلّقين بالفنون في إسبانيا المسلمة. بل يمكن حقا تبرير كل منهما من خلال الخصائص الواقعية للمعالم ذات العلاقة، ولكن مع إعطاء إشارة خاصة إلى موقفين إيديولوجيين متعارضيين. أمّا الإيديولوجيات، فإن تعريفها أقل سهولة. فمن ناحية، هناك منجزات تحقّقت على أرض بعيدة عن مراكز القوة والإبداع الإسلامية. ويمكن تفسير هذه المنجزات بأنها عرض للقدرة النفسية المسلمة الملهمة إلهيا، أوأنها مظهر لروابط ثقافية فذّة متفوقة ربطت معا في عقيدة واحدة متعددة الجوانب جماعات متنوعة مثل الإيرانيين

[1]– أولغ غرابار (Olog Ghrabar) أستاذ الفنون الجميلة في جامعة هارفود وأستاذ قسم الدراسات التاريخية في معهد الدراسات العالية في جامعة بونستون، قام بترجمة هذا الفصل محمد الأسد.

المتركين في أواسط آسيا، والمستعربين من سلالة البربر، والنساء اللواتي إنحدرن من أصل إسباني/برتغالي.

بيد أن هناك حالة بديلة لما قد يطلق عليه إيديولوجية الرابطة الإسلامية تفسر الثقافة من خلال التوافق المؤثر بين العقيدة والأخلاقيات المرتبطة بها. ومن وجهة النظر البديلة هذه، يتم تفسير الصفات الفنية لأحد البلدان من خلال الجهد المستمر للروح القومية، والخاصيات المتعذر تعريفها للبلد وماضيه، وكذلك من خلال وجود "الأرض" و"الموتى" حسبما عرّف بعض منظّري الفكر القومي للأمة في السنوات الأولى من هذا القرن1.

إن الحوار بين هذه الإيديولوجيات لا ينبغي أن يخوض فيه الا من هو مسلم أو إسباني، "بيد أنه حريّ بنا أن نسأل لماذا ظهرت بجلاء وجهات نظر متضاربة بشأن الفن في إسبانيا المسلمة"، كما ظهرت أيضا بشأن ثقافتها، بل بشأن وجودها ذاتها. "وسأتفحّص هذا السؤال بتحديد أمرين واضحي التناقض متعلّقين بالفن في إسبانيا المسلمة، وبتكوين أفكار وملاحظات متنوعة بشأن هذين المتناقضين. الأول هو وضوح الصفة الفريدة من الناحية الجمالية وناحية النوع للكثير من أعمال الفن الإسباني الإسلامي2. والثاني هو الملاءمة الفذّة بين نماذج يفترض أنها إسلامية وأنماط من الفن ليست إسلامية. وسأعود إلى بعض المسائل الأعم التي أثيرت في البداية".

أولا: المعالم الأثرية في إسبانيا

من المسلّم به أن المسجد الكبير في قرطبة هو من أفضل روائع العمارة الإسلامية، ويعتبره جمهرة المتخصّصين أحد النماذج الأصلية للمسجد المسقوف المرتكز على أعمدة، والممتد لمساحات واسعة تتسع للمجتمع بأسره، وذلك بتكرار الدعامة الواحدة – التي هي في هذه الحالة، العمود وأقواسه – بطريقة مرنة يمكن تعديلها لتلائم الزيادة أوالنقصان في أعداد المؤمنين.

كذلك فإن من الصواب القول، بصورة بسيطة وأوليّة، أن مسجد قرطبة مخطّط ومصمّم على أسس مشابهة لتلك الأسس التي أقيم عليها مسجد القيروان في تونس، والأزهر ومسجد عمرو في القاهرة، ومسجد الرسول في المدينة، والمسجد الأقصى في القدس، وبطرق مختلفة بعض الشئ، المساجد الضخمة المبنيّة من الطوب في مدينة سامراء العراقية ومسجد ابن طولون في القاهرة. لقد بنيت جميع هذه المساجد قبل بناء مسجد قرطبة، أو في وقت واحد تقريبا من المرحلة الأخيرة من بنائه في القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي.

[1]– ورد ذكر هاتين الكلمتين "الأرض" و"الموتى" في بعض كتابات القوميين الفرنسيين، حوالي عام 1900 م. ويعنون بذلك أن الأمة تكون من الوطن المقدس "الأرض" والشهداء والأسلاف "الموتى" الذين أعلوا شأن الوطن، (المترجم).

[2]– مقداد رحيم مصادر التراث الأندلسي من كتاب "كشف الظنون" ص 89، المجمع الثقافي 1999م.

وبعد هذه الفترة، إستمر تشييد آلاف المساجد، وبخاصة في المغرب الإسلامي، وطبقا لهذا الطراز التراثي. ولكن النظر إلى مسجد قرطبة1 على أنه ليس سوى مجرد مثال آخر لطراز واسع الشهرة من المساجد يعكس خطأ في فهم السمات الخاصة بهذا البناء. وكما يبيّن العديد من المعماريين ونقاد العمارة المعاصرين، فإن، هذا البناء يجمع عددا من الصفات المدهشة : تناسق بديع بين أجزاء العناصر مثل الأعمدة الرّفيعة والأقواس التي على شكل الحدوة، والتي ليست أصلية بذاتها.

إنها هندسة في الأعمدة التي تشيع شعورا بالإطمئنان بدلا من الشعور بالتوتّر من جرّاء الإحساس بأنها حاملة للقوى الدافعة، وتوازن بين الدعامات الفردية والتجمعات المعمارية مثل أروقة المسجد الداخلية.

ويظهر أحيانا، التقسيم المقصود لأشكال معمارية أساسية كتقسيم الأقواس إلى وحدات يمكن إعادة تركيبها بطرق مختلفة، وأخيرا، هناك المحراب المذهل والقباب الثلاث الموجودة أمامه. إنّها مجموعة تتلألأ بفسيفساء مترفة لأشكال نباتية مركبة ولعبارات طويلة مكتوبة، ومع ذلك، فإن هذه الفسيفساء تستقرّ غامضة في تجويف المحراب العميق، الذي يشبه غرفة فارغة، أو بوابة تقود إلى عالم غير عالم الإنسان.

ويمكن تفسير بعض هذه الملامح، مثل منطقة المحراب ذات التكلفة العالية أو ما في الفسيفساء من تشكيل فنّي، بأنّها نتيجة ظروف محلية خاصة: أي العلاقات السياسية والثقافية مع العالم البيزنطي التي تفسر حقيقة وجود الفسيفساء ووجود شعائر أكثر تعقيدا ممّا هومعتاد بشأن الصلوات اليومية المفروضة على جميع المسلمين. ففي قرطبة كان المؤذن يذهب إلى المحراب ويصلّي هناك قبل الأذان، ولعلّ ذلك كان تقليدا للشعائر الدّينية المسيحية. وكان المسجد يحتوي على مصحف ضخم يتطلب رجلين لحمله، ومن ضمنه أربع صفحات من مصحف منسوب إلى **الخليفة عثمان2**، الذي يعتبر من أبطال التراث الأموي، والذي يُعتقد أنه أغتيل خلال قراءته للقرآن، وتوجد بالفعل قطرات دم على هذه الصفحات التي أصبحت من النصوص. وفي وقت الصلاة، كان يطاف بالمصحف على المصلّين، يتقدمه سادن يحمل شمعة، على غرار ما يجري من حمل الأناجيل في الكنيسة.

بالإضافة إلى هذه التفصيلات المحدّدة، والتي هي أصيلة في مسجد قرطبة لكنها لا تختلف من ناحية النوعية عن أشياء مرتبطة بمساجد أخرى، هناك ميزتان تفرقان مسجد قرطبة عن غالبية مساجد العالم الإسلامي الجامعة. إحدى هاتين الميزتين أنّه حوفظ على الكثير من هذا المسجد وسجل الكثير عنه، حتى من مؤرخين وجغرافيين كتبوا في فترة لاحقة بعد أن إستولى المسيحيون على المدينة.

---

[1]– ابن بسام "الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة"، تحقيق لطفي عبد البديع، الهيئة المصرية للكتاب 1975م، القسم الأول، المجلد الأول ص 145.

[2]– سامي أحمد عبد الحليم "المساجد والقصور في الأندلس"، مركز التميز، 1998 م.

كأن الذاكرة الجماعية الإسلامية – ولعل الذاكرة المسيحية أيضا – سلّمت من خلال الحفاظ عليه، بوجود شئ فريد في هذا المعلم القرطبي1.

والميزة الثانية هي التوافق في غايات البناء الجمالية، أي في خلق المؤثرات البصرية ذات الوقع الحسّي الذي يشيع البهجة في نفوس الزائرين أو أولئك الذين يستعملونه. وقليلة هي المساجد المصمّمة بطريقة يتوافق كلّ ما فيها مع المنشآت التي شيّدت في أوائل القرن الثالث للهجرة / التاسع للميلاد، بما في ذلك الإضافات التي شيّدت فيما بعد، كالكنيسة وأماكن صلاة النصارى (ويشكّل جامع ابن طولون في القاهرة إستثناء رئيسيا لذلك). إن الإهتمام بالتأثير الحسّي والجمالي المرئي هو علامة فارقة لمسجد قرطبة، فهو أكثر تماثلا، وأكثر رسوخا، وأكثر جاذبية من غالبية المساجد الجامعة في التراث الإسلامي في العصور الوسطى.

ومن الأمور التي تعتبر أكثر غرابة وجود تلك العلب العاجية العائدة إلى القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي وأوائل القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي، التي بقي منها نحوعشرين قطعة. ولعل بعض المواد النفيسة، كالمناديل والمراهم المنوّعة، كانت تودع فيها. وقد أرّخ الكثير من هذه القطع وجرى حصرها إمّا في قرطبة أو في الزهراء، المدينة الملكية التي لا تبعد سوى بضعة أميال عن مركز قرطبة.

وتعرّف الكتابات الموجودة على معظم هذه القطع أصحابها بأنّهم أعضاء في الأسرة الحاكمة، أو مسؤولون كبار في الدولة الأموية. إنه ليس من المستغرب وجود قطع ثمينة، مصنوعة من مواد نادرة، لأعضاء الطبقة الحاكمة في العالم الإسلامي. فالمصادر التاريخية وغيرها من المراجع المخطوطة زاخرة بإشارات إلى ملابس وأشياء فاخرة تحيط بالأمراء والأرستقراطيين من مختلف الفئات في بغداد أو نيسابور أوالقاهرة أو هرات أوالريّ أو بخارى. ولكن لم يبق من هذه الكنوز إلاّ ما ندر. ولعل إحدى وسائل تفسير هذه العاجيات الإسبانية هي تقديمها على أنّها أشياء فاخرة جرى الحفاظ عليها بالمصادفة، وقد تكون مثيلات لها موجودة كذلك في أماكن أخرى. ويرجع الإحتمال بأن هذه القطع قد أعيد استعمالها بصفتها من كنوز الكنائس، الأمر الذي أنقذها من التلف، أو من استعملها وتداولها على مدى العصور إلى أن تهترئ بالكامل. ولعل ذلك هوالإستنتاج الصحيح – إلى حدّ معيّن – الذي ترسم معالمه أمامنا. فهذه العاجيات تعود في الواقع لأسر أرستقراطية وتُظهر ما في البلاط الأموي في الأندلس من غنى وذوق. ولكن هناك أسبابا عدّة تدعو إلى التّساؤل: ألسنا نحن أيضا نتداول مجموعة فريدة بعض الشئ من القطع

[1]– علي محمد حودة "تاريخ الاندلس السياسي والعمراني والاجتماعي" ص130 القاهرة 1957 م.

التي تعكس ظواهر محليّة فريدة ؟ وسأقتصر على ذكر خاصيّتين لهذه العاجيات يستعصي تفسيرهما - على الأقل من خلال قدراتنا العلمية الحالية – في نطاق الحضارة الإسلامية الواسعة. الأولى هي أنّ قطع هذه المجموعة، مثل علبة الحلي الأسطوانية (357 هـ / 968 م) المحفوظة بمكتبة اللوفر Louvre(France)، والقطعة الموجودة في متحف فكتوريا وألبرت (359 – 360 هـ / 969 – 970م) والقطعة غير المؤرخة الموجودة في المتحف الوطني Museo nacional في فلورنس، جميعها محفورة بعمق بحيث أن فيها من زخرف يبدو ذا بروز ناتئ جدا.1

وهو كبير الشبه بالنحت الموجود على التوابيت الحجرية العائدة إلى الفترة الرومانية المتأخّرة والفترة المسيحية الأولى. إن هذا التأثير النحتي، وبخاصة في قطعة اللوفر، قد أنجز بطريقة تكاد تبدو فيها الأشخاص والحيوانات والنباتات كأنها تماثيل قائمة بذاتها ويمكن رؤيتها من جميع الجوانب. إن شيئا من هذا القبيل غير معروف في أي مكان آخر، سواء في ما يتعلق بالفنون الإسلامية أو بالفن المسيحي ذاته في العصور الوسطى الأولى. ويحتمل أن تكون بعض النماذج القديمة أثّرت في نفس من صنعت تلك القطع لأجله، أو في نفوس صانعيها2. ولكن يصعب تصور الطريقة التي أدت إلى هذا التأثير أو إدراك وسيلة الحصول عليه.

وأما الخاصية الثانية لبعض هذه العاجيات فهي أكثر إثارة للحيرة. فالنماذج المحفوظة في متحف **فكتورياVitoria** و**ألبرتAlbert**، والنماذج الأخرى الموجودة في خزينة كاتدرائية بنبلونةPamplona Espane، والنموذج الموجود في **برغش**Burgos، جميعا مزخرفة بأشكال أشخاص وحيوانات مرتّبة إما بشكل منظّم ومتناظر، كما هوالحال غالبا في المنسوجات، أوغير ذلك، من مناظر يتضح أنها قصصية أو رمزية مثل أمير جالس على عرشه، وهو يصارع، ويصيد، ويخطف بيضا من عش، ويركب فيله، أو يقطف بلحًا، وما إلى ذلك. وإنّ ما يلفت الأنظار في أول الأمر هو أنّ هذه المشاهد التي تحوي أشكال أشخاص في سياق قصصي قد وجدت في إسبانيا قبل حوالي قرن ونصف من انتشارها في مصر وباقي العالم الإسلامي. ولكن ما هو أكثر لفتا للأنظار أنه بينما كانت هذه النماذج قد شاعت شيوعا ملحوظا في النهاية في الفن الإسلامي، فإن غالبيتها فريدة في نوعها. لذلك، فإننا نواجه تناقضا عجيبا، فنحن أمام صور نستطيع وصفها بسهولة، ولكننا لا نستطيع إيجاد تفسير لها.

إنّنا في هذه المرحلة لا نستطيع إلاّ أن نتكهّن بشأن الأسباب الكامنة وراء هذه الخصائص العجيبة للعاجيات الإسبانية الإسلامية العائدة للفترة الأموية. فلعله أريد لهذه القطع أن تعكس في ذروة القوّة

[1]– أحمد مختار العبادي وصف الأندلس من كتاب "صلة السمط وسمة المرط" لابن الشباط –مجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية (مدريد)– ع 14 –(1968–1967) ص 99–163.

[2]– عبادة كحيلة "اندلسيات" ص 190، القاهرة 2001 م.

والغنى للأمويين الأعماق الثقافية والفنيّة النادرة للبلاط الأموي الذي تمت في رحابه بواعث جديدة أسبغت مظاهر العراقة، ذات النمط الكلاسيكي، على المواد الثمينة المستوردة من إفريقية الوسطى، وبعد هذه الفترة بمئة سنة أو أكثر، زينت تحت حكم ملك مسيحي أشكال إسلامية محضة سقف المصلّى الملكي للقصر النورمندي في مدينة بالرمو Palermoفي صقلية.

إن هذا المثال الأخير قد يوحي بتكوين خليط ثقافي في غرب البحر الأبيض المتوسط مختلف عن ذلك الموجود في الشرق منه. كما أن هناك نقطتين ثانويتين تؤكدان الإحساس بالإختلاف في فنون إسبانيا الإسلامية في عهدها المبكر، وهو أعظم عهودها شأنا. فقد حفظت أسماء الفنانين والحرفيين المنتجين للقطع الفنية والزخرفة المعمارية في إسبانيا قبل أي منطقة أخرى من العالم الإسلامي وقد تكرّر ذلك كثيرا قياسا بمناطق أخرى من العالم الإسلامي، وكأنما كانت مرتبة الحرفيين هناك أعز مكانا.

هذا، ومن الجدير بالذكر، وضوح رعاية النساء لمثل هذه القطع1، وهي أيضا ظاهرة كانت نادرة في مناطق أخرى في ذلك الحين. فقد صيغت أقدم قطعتين عاجيتين مؤرختين لبنات **عبد الرحمان الثالث**، وصنعت بعد ذلك إحدى القطع الباقية **للأميرة صبح**.

أما المثال الثالث فهو أكثر معالم الفن الإسلامي شهرة في إسبانيا: إنّه **قصر الحمراء**. مع أنّه ليس هنا المكان المناسب لمناقشة التركيب الأثري لهذا القصر أو ملامحه الأخّاذة التي تجذب الملايين من السياح سنويا، فإن الرأي الذي نحاول أن نبرزه في هذا المجال هو أنّ هذا البناء نسيج فريد من نوعه في العمارة الإسلامية، مع أن الجميع، من الأكاديميين الذين كتبوا عنه، إلى مخرجي الأفلام السينمائية في هوليود، إلى العرب الخلجيين الأغنياء الذين نسخوه أو قلّدوه، أو اقتبسوا بعض أجزائه آلاف المرات، يعتبرون الحمراء المثال الحي للثقافة الإسلامية إلى حدّ أن المخيلة الشعبية والعالمية الثقافة على السواء، نسجتا خيالاتهما الإستشراقية حوله منذ أوائل القرن التاسع عشر.

لكن من المستغرب أنه لا يوجد بناء، أوجزء من بناء معروف، يشبه قصر الحمراء، بإستثناء بعض الأبنية المقلّدة له التي شيّدت في ما بعد في المغرب بالذات. ويتطلب الأمر الإمعان في التخيّل لرؤية ما يتجاوز بعض التشابه العابر بين رائعة الحمراء والتوب كابي في اسطنبول، وهو قصر السلاطين العثمانيين، أو القصور الصفوية التي بنيت في ما بعد في أصفهان، اوالقصور المغولية في الهند.

إنّ ما لدينا من معلومات عن القصور القديمة2 والمعاصرة الموجودة حول البحر الأبيض المتوسط ضئيلة، ولكن المعلومات المتوفّرة عن قلعة القاهرة في ذروة الحكم المملوكي –مثلا- لا تربط بين هذه القلعة وقصر الحمراء سوى بأقل القليل. ولعلّه من المحتمل هنا أن سلالة إسلامية كانت في طريقها إلى

[1]– محمد صبحي "صورة المرأة في الأدب الأندلسي"، ط1 ص70، عالم الكتب الحديث، 2006 م.

[2]– ابن حزم "طوق الحمامة" في الألفة والألاف، تحقيق الطاهر مكي، ص 140 دار الهلال 1994 م.

الاحتضار في الأندلس لم تبتدع قصرا "نموذجيا" ينتمي إلى مجموعة اختفت في أماكن أخرى، وإنما أنشات قصرا يتلاءم مع تاريخها المنفرد الخاص، يتكيّف مع حاجتها وتطلعاتها الخاصة.

إن مسجد قرطبة، والعاجيات الأموية العائدة إلى القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي، وقصر الحمراء العائد إلى القرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي، جميعا معالم فريدة لا تتوافق بسهولة مع الأنماط الثقافية العامة التي تنسب إليها عادة. ومع ذلك، فإن هذه الأمثلة الثلاثة – بالإضافة إلى أمثلة إضافية أخرى مثل عدد من القطع النسيجية والبرونزية، ومثل مسجد باب المردوم الصغير في طليطلة، تدل على أعمال وأذواق كانت حقا جزءا من خصائص العالم الإسلامي التقليدية والكلاسيكية: المسجد الجامع الكبير، والقطع المنزلية الفاخرة ذات القيمة العالية، والجو المترف المحيط بحياة الحكام. لكن لا شئ من هذه المتطلبات كان ذا أهمية للعالم المسيحي في العصور الوسطى –ما عدا القطع المنزلية المستثناة من ذلك بعض الشئ– بيد أن التعبير الإسباني عنها يبدو أنه خضع لضغوط أخرى وقوى مختلفة غير تلك السائدة في مناطق أخرى من العالم الإسلامي. لماذا؟

ثانيا : أشكال فنية إسلامية ورعاة فن غير مسلمين

إنّ الإلمام بالظاهرة المتناقضة الثانية التي نأمل أن نوسعها في بحثنا هو أكثر سهولة من الإلمام بالأولى. ولكنها – مثلها – يصعب تفسيرها، ممّا يسترعي الإنتباه منذ أمد طويل أن نماذج الفن الإسلامي استمرت في إسبانيا فترة تزيد على ما كانت عليه في البلقان أو روسيا، حيث كان تأثيرها في فنون الشعوب المحلية (بإستثناء الملابس) لا يكاد يذكر، حتى أثناء فترة السيادة الإسلامية على تلك البلاد.

والشواهد على ذلك كثيرة. فقصر بيدروالقاسيAlcazar في إشبيلية Sevillaيتكون من أشكال معمارية ترتبط عامة بالفن الإسلامي. وفي الأشكال المعمارية الزخرفية المصنوعة من الجص، والتي تبدو للعيان في كل أنحاء القصر، يظهر اسمه واضحا بالأحرف العربية1.

واستخدمت الكنائس في طليطلة وسرقسطة أروقة مزخرفة، مقفلة ومفتوحة، مأخوذة من واجهات ومآذن ذات طراز إسلامي موغل في القدم، بل إنّ بناء عميق الأثر في مسيحيته، مثل ما يسمى التمبيتو(القلعة) في دهر غوديلوبGuadalupe، يحمل في ثناياه آثارا لا ينطرق الشك إلى أنّها ثمثل ملامح أحسن اختيارها من أنماط إسلامية من العصور الوسطى. وفي **برغش** – وهي واحدة من مراكز الحياة الإسبانية الرئيسة القليلة التي لم يصل إليها الحكم الإسلامي، والتي أصبحت من مراكز **"حروب الاسترداد"-** صمّم **دير لامي هويلغاسDelarme Huelgas**، في أوائل القرن الثالث عشر، ليكون

---

[1]– المقري "نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب" ج1 تحقيق إحسان عباس ط1، ص100، دار صادر، بيروت، 1968 م.

في بعض مظاهره معلما تذكريا **لألفونس السابع**، وهومن قادة الصليبيّين المعادين للنفوذ الإسلامي في الجنوب.

ولكن زخارف هذا البناء ليست مأخوذة بالكامل من نماذج إسلامية فحسب، بل إن معظم أجزاء القطع النسيجية الموجودة هناك، والتي استعملت عادة أكفانا للموتى، صنع بأيد إسلامية، أو كان تقليدا لنماذج إسلامية. وبقي إنتاج الخزف لمدّة قرون متأثرا بأساليب صناعة الخزف المطلي اللّماع التي نمت في رحاب العالم الإسلامي ثم وردت إلى إسبانيا في ما بعد.

كذلك فإن معبدين رائعين من معابد اليهود التي بنيت في طليطلة إبان الحكم المسيحي قد زيّنا بأساليب الزينة الإسلامية الصرفة. ويعود أحد هذين المعبدين إلى القرن الثاني عشر ميلادي، ويعرف اليوم بكنيسة سانتا ماريا Santa Mariaلابلاتكا، ويعود الآخر إلى عام 1537 م وقد حوّل إلى كنيسة تسمى **الترانزيت**وEl Transito[1]. إن هذا كلّه واضح في الأذهان – ولقد مضى ما يزيد على قرن من الزمن حتى قام العلماء خلاله بتحديد ملامح ما أصبح يعرف بفنّ المدجنين، الذي يعتبر فنّ النماذج الإسلامية في بنية غير إسلامية. وقد اتسع نطاق هذه الأشكال حينا من الدهر حتى وصلت إلى المكسيك وبيرو.

وممّا يزيد الأمر حيرة هو أن الحفاظ على نماذج تسمى إسلامية كان يحدث بينما كان قمع المسلمين يتم عادة بأقصى الأساليب وحشية إلى أن انتهى الأمر بطردهم من شبه الجزيرة الإسبانية، حيث كان الفن القوطي القادم من الشمال، يقتحم الساحة بين الفينة والفينة، متغلغلا في النظام السائد، الذي هو نظام حقيقي ومقبول. ولم تأخذ الأشكال الإسلامية بالاضمحلال إلا مع ظهور عصر النهضة المصبوغ بالصبغة الإيطالية، كمنزل بيلاطس الجميل (House of Pilate) في إشبيلية.

ولكن حتى في تلك الفترة، بنى **شارل الخامس** قصره الغرناطي الفخم بالقرب من قصر الحمراء، مشرفا عليه دون شك – كما تفعل عادة الحضارة المنتصرة – ولكن معترفا بشئ من قدره من خلال الحفاظ عليه. وقبل ذلك كان **ألفونسوAlfonso** الحكيم متأثرا تأثرا بالغا بالقيم الإسلامية، وملما بكل ما يتطلبه تكوين العربي المسلم المثقف[2].

كيف يمكن للمرء أن يفسر هذا التباين بين سياسات كانت تؤدي إلى تدمير الوجود الإسلامي في شبه الجزيرة الإسبانية وبين هذا الإفتتان بنماذج الفن الإسلامي التي إستمر إهتمام بها بصورة منقطعة النظير عدّة قرون، والتي يرى البعض أنها لا تزال منذ ذلك الحين مائلة في الخلفية الفنية، فما هي العوامل التي جعلت إسبانيا مختلفة اختلافا بيّنا عن البلاد الأخرى؟.

[1]– أحمد بدر "دراسات في تاريخ الأندلس وحضارتها" أطلس للنشر والتوزيع، دمشق ص105، 1972 م.

[2]– أحمد مختار العبادي في "تاريخ المغرب والأندلس" ط1، ص 75، دار النهضة العربية، د. ت.

وكما هو حال المتناقضات عموما، فإن هذا التناقض بشأن الفن الإسلامي في إسبانيا ينتهي بسؤالين مفادهما أن أمرا قد حدث في إسبانيا يختلف عمّا حدث في أي بلد آخر. ويبدو– بداهة – أنه لا يوجد أي سبب يفسّر كون المعالم الإسلامية في إسبانيا متفردة من الناحيتين النوعية والرمزية عن باقي الألوان في نطاق هذا الطيف الواسع من الفن الإسلامي، مع أن الأغراض التي شيدت من أجلها هذه المعالم لم تكن مختلفة. وممّا يدعو إلى الاستغراب أن بلادا صرفت الكثير من الجهد المادي والروحاني لإسترجاع ما تدّعي أنه لها من سلطة تزعم أنها غريبة –أجنبية – قد حافظت خلال قرون عدة على النماذج الفنية للعدو، وأحسنت رعايتها.

ولكي نستطيع أن نصل إلى جواب – أو أجوبة – لهذين السؤالين، علينا أن نكون راغبين في أن نتفحّص مقترحين يتعارضان مع بعض الفروض الراسخة عن تاريخ الفن، وربما عن تاريخ الثقافة عامة. أول هذه الافتراضات هوذلك الذي يسهم في تبويب أشكال ذات انتماءات ثقافية أو قومية. فإن ما قد يبدو اليوم وسيلة مقررة بل دقيقة لتصنيف أحد شواهد الماضي المرئية واستحسانه من خلال فكرنا المعاصر قد لا يكون المقياس الملائم في الفترة التي ظهر خلالها ذلك الشاهد. فإذا تأملنا إحدى الصور أو الأشكال المصمّمة، فوجدناها منذ النظرة الأولى، بهيّة الألوان، أو ذات تناسق هندسي، أو أنها نباتية في مضمونها، بدلا من كونها إسلامية او بيزنطية، فيبرز حينذلك استحسان للأشكال قد يرتبط ارتباطا أوثق بما جرى بالفعل بدلا من ارتباطه بالتركيبات القومية أو العرقية التي افترضناها. ويمكن للمرء، من جهة اخرى، أن يعتبر أحد الأشكال أنّه "يخصنا"، أي أنه تابع للأعراف المقامة على أرض ما بدلا من كونه نظاما لعقيدة منتشره في تلك الأرض.

بالفعل، فالتحليل المنصف يشرع حقا في تقديم الحجج، في ما يتعلق بإسبانيا في العصور الوسطى، بأن لم يمكن فيها جميعا، مميزا من خلال وجوده في تلك الأرض بعينها بدلا من خلال ارتباطه بجماعات ذهنية أو قومية تقيم على تلك الأرض. وفي داخل هذا التراث، قد تحمل ظاهرة معينة دلالات إسلامية، أو عربية، أو مسيحية، أو قشتالية، أو قطلونية. بيد أن التوصل إلى هذه الخصائص لا يتم إلا بإدراك أن لغة مشتركة للتعبير عن الأفكار والأذواق والمقاصد المختلفة كانت قائمة. ومع ذلك، فمن المحتمل وجود عوامل أخرى غير الإنتماءات الثقافية تأثر بها الفن في العصور الوسطى في إسبانيا وفي أماكن أخرى أيضا.

القضية الثانية التي هي موضع بحث تبرز من هواية بمركز الأندلس في نطاق الكيان الثقافي الإسلامي الواسع بدلا من إفتراضات قد تكون غير صحيحة. لقد كانت الأندلس منطقة حدودية تقع في الأطراف الخارجية لدار الإسلام. وكما هوالحال في جميع المناطق الحدودية فقد إكتسبت صفات متناقضة ذات

طبيعة خاصة تعايشت فيها انتماءات شديدة الإختلاف بين جاماعات وولاءات –إتسمت في بعض الأحيان بالكراهية والإحتقار – مع تعايش يتصف بالتسامح والإبتكار الخلاق1.

وقد كانت بلاد الأناضول في القرن الثالث عشر، وصقلية في القرن الثاني عشر، وأواسط آسيا حتى القرن السادس عشر جميعها مناطق حدودية بين جماعات من فئات مختلفة كثيرة متعارضة، وفي بعض الأحيان متحاربة. وكانت أيضا مناطق إبداع خصب في الفنون المرئية (وربّما في غيرها) إرتبطت من خلالها الرغبة في إستعراض الصفات المميزة للأفراد بالتنافس مع الآخرين وبتفهّم شتى الوسائل لتحقيق الفعالية في تلك الفنون المرئية. ومع ظهور المعتقدات العقلانية المنبثقة عن عصور النهضة، أصبحت المحافظة على هذا التسامح من أشق الأمور.

من الواضح أن هذه القروض والنظريات الأولية تحتاج إلى تفصيل وتأمل قبل أن تصبح مقبولة تمام القبول بصفتها تفسيرا للفنون الإسلامية في شبه الجزيرة الإسبانية خلال العصور الوسطى، بل إن إمكانية إثارتها تعتبر شهادة على الصفات المميزة البارعة على مدى القرون، التي أحدثت تغييرا كاملا في أحد البلاد وعبّرت عن بعض أفضل الطموحات لنظام عالمي، دينيا وخلقيا، تكوّن في منطقة نائية.

تراث المدجنين في فن العمارة(جيربلين دودز)2

عانت الأندلس من تغيرات جذرية في السلطة السياسية قبل سقوط غرناطة بزمن طويل. وكانت قوّات المسيحيين تقوم بهجمات رئيسية لا تقاوم على أراضي المسلمين منذ أواخر القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي. ونجم عن ذلك تباين بين الحكم المسيحي الجديد والبنية الثقافية والإجتماعية الإسلامية القائمة في عدّة مدن في ظلّ الحكم الإسلامي، و الذي ورثه قادة حرب الإسترداد المسيحيون .

وقد كانت المواقف المسيحية من الفنون الإسلامية مختلفة، تتناسب والجو السياسي والإجتماعي. وكان الإعتقاد السائد، مدّة من الزمن، أن فن المستعربين هو فن المسيحيين الذين كانوا يعيشون في ظل الحكم الإسلامي، ويحمل الطابع الفني الإسلامي الذي لا ينسى.

وعندما أحس ولاة الأمر المسيحيون في ظل الإمارة الإسلامية أن ثقافتهم مهدّدة بالخطر، عملوا على مقاومة الأنماط الفنية الإسلامية التي أدركوها. وفي المقابل شهدت بعض الحقب، التي إتسمت بإستقرار أمني نسبي، قام بعض المسيحيين بتدجين أنماط إسلامية لتلائم أهدافهم الفنية3.

[1]– الحميدي "جذوة المقتبس" الدار المصرية للتأليف والترجمة ص30، 1966 م.

[2]– جيريلين دودز (Jerrilltun Doddz) تشغل منصب أستاذ مساعد في قسم تاريخ الفن وعلم الآثار في جامعة كولومبيا، وأستاذ مشارك في قسم العمارة في معهد سيتي التابع لجامعة سيتي في نيويورك، متخصصة في فن العمارة العصر الوسيط. قام بترجمة هذا الفصل جاسر أبو صفية.

[3]– حول تطور الفكرة والأمثلة عليها، أنظر: Jerrilyun Dodds, Architecture and Ideology in Earty Medieval Spain (London : University Park, 1990).

تعد قضية تدجين الفن مثيرة للإهتمام، لأنها تمثل حقبة سيطر فيها المسيحيون، وذلك حين أصبحت الثقافة الإسلامية لا تشكل تهديدا لثقافة المسيحيين ووجودهم.

وتعني عبارة فن المدجنين: فن المسلمين التّابعين، مع أن الرأي القديم الذي يذهب إلى أنّ المسلمين عبيد السادة المسيحيين، هم الذين نفّذوا ذلك الفن، لا أساس له من الصحة. ومن المتوقع أن يكون في صفوفهم مسيحيون ويهود يعملون حرفيين تحت سلطة المسلمين.

وأيًا كان الأمر، فقد كان فن المدجنين أسلوبا فنيا مرتبطا برعاية المسلمين له وتشجيعهم إيّاه. وقد عملت المكانة الجديدة للزعامة المسيحية على عودة إنتشار الفنون الإسلامية، وسمحت لمهارات إسبانيا الإسلامية التقليدية أن تكتسب معاني جديدة تلائم حماتها الجدد. ومن الأمثلة التي يمكن إتّبعها في هذا المجال المسجد الصغير في **"باب المردوم"** قرب أسوار مدينة **طليطلة**، فقد بني على أنقاض كنيسة **فيزقوطيةVisigoda**، إذ استخدمت في بنائه بعض أجزاء هذا المعبد المسيحي. وإستغلت كثافة الآجر التقليدي لتكوين سطح مستو وبناء يعيد إلى الأذهان الأشكال المخروطية لهذا المعبد الذي يشبه السرادق.

إن القباب الجصية التي تحاكي الأنماط الأثرية في مسجد قرطبة الكبير تستخدم فيها مواد محلية تستحضر معلما أثريا عظيما. وإبان تنصير مدينة طليطلة (أواخر القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي) بقيادة **ألفونسو الثامن**، أضيفت قبة ضخمة إلى خطة المسجد ذات المناظر التسع ، فتحول بذلك إلى كنيسة دائرية تضم في داخلها محرابا.

ومع أن صور الفن التشكيلي الملونة قد حولت مظهر النصب من الداخل، فقد أتم تنفيذ المشروع برمته بناؤون كانوا يعملون حسب التقليد الذي اتبع في بناء المسجد قبل مئتي عام إذ شيّد البناء كلّه من الطوب (الآجر) المرصوص بدقة بأسلوب **"سن المنشار"** كما في الأعمال السابقة. ويتألف اتصالها المفصلي من ممرات غير نافذة تحتضن نافذة آنية أيضا، وقد حيكت جميعها بأسلوب مخطط ينم عن كثافة الطوب نفسه. وفيه كثير من الفصوص الفضية لموقع الفصوص المتعددة والقناطر البارزة من زخرفة القبة في بناء المسجد، ولكنها تحكي المغزى من استمرار التشابه في الزخرفة المنقوشة على الجوانب القديمة من المسجد. وهناك أسباب عملية لكل هذه المحاكاة والإستعارة منها: الحاجة إلى قوة عمل قائم على بناء الكنائس المهدّمة والتراكيب المعدة لإستقبال القادة المسيحيين، ورجال الكنيسة الجدد الذين مُكّن لهم.

ومع ذلك، هناك إهتمام واضح بدوام التصور من جانب أولياء الأمور، أو على الأقل، الزهد في تمييز المباني الجديدة المقدّسة في عرف الإسترداد المسيحي بعدم إجراء أي تغيير على مكونات التصوير الخارجي. إنها الزخرفة الداخلية للمباني، واستخدام التصوير الفني للأحداث والطابع المسيحي للخطة التي تقرّر الثقافة الجديدة.

وقد نشأ خلاف حاد بين فريقين: فريق يرى تحويل مواقع المساجد إلى كنائس، كما حدث بالفعل مع مسجد المردوم الذي حوّل إلى كنيسة كريستودي لا لوز (Cristo de La Luz)، وفريق يرى إمتلاك بعض القوّة واستمرار سيادة التقاليد المحلية التي نشأت في حقبة سيادة المسلمين على **طليطلة**. إنها معضلة القيادة المسيحية الجديدة التي وجدت نفسها تحكم شعبا في نفسه آثار قوية لثقافة عدوّ سيطر عليها المسيحيون بهيبة وخوف. وهذا الإعجاب تمّ إبطاله في سنوات السيطرة الإسلامية على شبه الجزيرة، ولكنه يبدو الآن آمنا في مواجهة السيطرة السياسية ليعطي مثل هذه الإتفاقية الثقافية حكما مطلقا.

وقد حمل الإستخدام المبكر لأسلوب المدجنين في أنحاء أخرى من البلاد معنى مشابها. ويعد تبنّي هذا الأسلوب في قشطالة (Castilla) مرجعا لنجاح حروب الإسترداد. ومن جهة أخرى، فعند ارتفاع نسبة تطور النمط الروماني في فن العمارة في الشمال المسيحي، ينشأ سؤال: هل يمكن أن تبنى كنائس "سهاغون" (Sahagun) المهمة برمّتها على نمط المدجنين المستورد الذي يعتمد على الآجر؟ وهنا تأتي أهمية الواقع العلمي، فقد استقرت في قشطالة جماعات مسلمة من البنائين وعمّال الآجر، وجاء بعضهم مع ملوك المسيحيين بوصفهم جزءا من المستوطنات على التخوم1.

وكان أجرهم الذي يتقاضونه أقل كثيرا من أجر العمال العاملين في إنشاءات النمط الروماني الذي كان سائدا. ولكن هذه الحقيقة تساعدنا في الإطّلاع على الدعوة الدائبة في انتهاج النمط الذي كانوا يبنون به، ففي سان تيرسودي سهاغون (San Tirso de Sahagun) كان قد بُدئ ببناء كنيسة بثلاث قباب من الحجر المنحوت يفترض أنّها من النمط الروماني الذي يقام على الطريق لأغراض الحج، وهو النمط الذي تم تشكيله في فرنسا ونقل إلى إسبانيا لإستخدامه في المنشآت الدّينية مثل كنيسة الأبرشية في فروميستا (Fromista).

وبعد أن بنيت ستة مداميك من قباب **سان تيرسو** أكمل البناء على طراز الأقواس الآجريّة غير المفرغة، وحواف الجدران التي تحاكي نمط طليطلة. ومع إحتمال أنّ التغير الفجائي في البناء جاء لتلبية اعتبارات عملية، فقد كان استقرار بنّائي طليطلة في الشمال نوعا من الدعاية والتملك.

ومع ذلك، فمن الصعب أن نرى مثل هذا التغير الكبير في نمط البناء وأسلوبه التقني دون افتراض وجود مغزى لهذا النوع الغريب الجديد الذي يمتاز بالزركشة والزخرفة، لأن الوعي الذي يختص بالأنماط الفنية التي تحمل مغزى ثقافيا، قد جاء من خارج شبه الجزيرة التي كان يسكنها المسلمون والمسيحيون في توتّر دائم ومتغير. وقد أتاح هذا لتبنّي النمط الروماني واتخاذه مرجعا للثقافة المسيحية الشمالية

---

[1] – أنظر أمثلة عدّة في: Leopoldo Torres Balbàs, Arte almohade. Arte mazari. Arte mudéjar, Arte Hispaniae, histiria universal del Arte hispanico. V.4 (Madrid : plus – utra, 1949), p.257.

برمّتها، ليصبح ذا مغزى شرعي وثيق الصّلة بتدجين بناء الطوب، وهوالنمط الغني الغريب الذي اتبع لمحاكاة النمط الإسلامي في طليطلة المسلمة.

ونجد في كنيسة سان رومان (San Roman) في طليطلة صورة أخرى من فن المدجنين، إذ أن شهرتها جاءت من المزيج الغني من الثقافة المحلية التي كانت تلقي بظلالها على المباني الأصلية المشكل المستعار. ومن المعروف أن كنيسة سان رومان بنيت سنة 618 هـ /1221 م على الطراز نفسه الذي اتّسعت به قباب كنيسة **صكريستودي لا لوز**Cristo de La Luz ، ولكن بإستخدام رسوم تشكيلية غريبة في الداخل، ولا بد أن يكون ذلك جزءا من حماسهم لبناء كنيسة بعد إسترداد المدينة.

وكانت الرسومات تغطي مساحة كبيرة دون إتقان، ولكنّها تضم أشكالا ذات سخرية لاذعة، وتحكي قصة تمثّل مفاهيم الكتاب المقدس، في حين كانت النقوش التي تحيط بهذه الصور أكثر مطابقة للنصب التذكارية الإسلامية منها للمسيحية. ولكن ممّا يبعث على الدهشة أن تكون أقواس الممرّات في الكنيسة مطلية بألوان حمراء وبيضاء ونقوش عربية مضافة إلى النقوش اللاتينية.

وكانت الرسومات الكبيرة كافية لتخليص الكنيسة من أي امتزاج محتمل بعبادة المسلمين. ان استخدام الألوان المتعاقبة والنقوش العربية تشير إلى صلة أعمق بين البنائين ومستخدمي الكنيسة وبيئتهم، لأنّ هناك إيحاء بوجود ثقافة مشتركة من حيث اللغة المحكيّة والمكتوبة التي تعود إلى سنوات طويلة من حكم المدينة، يضاف إلى ذلك اللغة المشتركة من حيث الأشكال الفنية التي بدأت بصبغة إسلامية، وأصبحت جزءا من رؤية ثقافية محليّة وزركشة شهدت تاريخا[1] وثقافة لأهل طليطلة. ويبدو أن الأمر كذلك فيما يتصل باليهود الذين كانت كنسهم مزخرفة على غرار طراز فن المدجنين القريب من الطراز الذي اتبعه الغرناطيون.

وكان أقدم هذه الكنس قد تم بناؤه في القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي في مدينة سانتا ماريا لا بلانكا (Santa Maria la Blanca) ثم حول إلى كنيسة، في الوقت الذي ما تزال معالم مخطّط بناء شبيه بالمسجد ظاهرة للعيان، ملتفّة بدعامات القناطر البيضاء ذات الأذرع الثمانية المتوّجه بنفائس الجصّ المغطّى بأكواز الصنوبر الملتف بشكل مجسّم تدب فيه الحياة، كما بلى ظاهر العقد وعروات عقد الأقواس والجدار العلوي لكل قاعة أشكال نافرة من الجص الرصين.

إن أثر إطلالتها على القاعة بشكل جانبي يشبه ذلك في مسجد المهاد شبها تاما من حيث الإرتفاع والزخرفة، مع أنه يصعب إصدار حكم قاطع على المظهر العام في غياب أساسات البناء الأصلية[2]. ومهما لاحظنا من تشابه بين الكنيس والمسجد فلا يعزى ذلك إلى تشكل العقائد وحدها، بل إلى عالمية

---

[1]– عبد الواحد ذنون "نشأة تدوين التاريخ العربي في الأندلس" ص 142، دار المدار الإسلامي، بيروت 2004 م.

[2]– حمدي عبد المنعم "التاريخ السياسي والحضاري للمغرب والأندلس"، ص 187، دار المعرفة الجامعية، 1998 م.

الشكل الفني أيضا. ومن السهل أن نميّز كنيس بناء صموئيل هاليفي أبوالعافية Samuel Halevi) (Abulafia، المعروف بكنيس الترانزيتو(El Trànalo) في طليطلة. وهو كنيس مستطيل عريض، فيه عدّة مشاك (جمع مشكاة) للإحتفاظ بلفائف التوراة. وللكنيس ممر خاص يؤدي إلى بيت القيّم عليه، لأنه لم يكن مخصصا لعبادة الطائفة اليهودية، ولكنه كان لعبادة **أبي العافية** الذي كان وزيرا للمالية ومستشارا للملك بيدروPedro الصارم. وكنيس أبي العافية مغطّى بأشكال نافرة من الجص الملوّن يبدو فيه الطراز الغرناطي أكثر وضوحا من طراز مسجد المهاد الذي انعكس في بناء كنيس سانتا ماريا لا بلانكا. ويبدو أن الإتصال بالفنون الإسلامية لم ينته، لأن التدجين يمثل جدلا نشأ بعدإنحصار الحكم الإسلامي، ولم يكن مجرد مجموعة من البنائين المسلمين المدربين الذين يبحثون عن عمل، بل كان جزءا من نسيج ثقافي يعتمد بعضه على بعض في أرض عرفت حكومات كثيرة مختلفة. وهذا يتضمن فكرة عن الفن، نمت وتغيرت وجدّدت العودة إلى الفنون الإسلامية التي كانت تغذي جذورها.

وتشير المراجع المعاصرة لكنيس **أبي العافية** إلى أن جدرانه كانت مفصولة بطبقة من الزّينة، وكانت الجدران العلوية مغشّاة بحلّة من أغصان الزينة الملتفّة حول القناطر والأقواس. وكان الكنيس مغطى بمجموعة من النقوش العربية والعبرية. وكانت النقوش العربية عبارة عن ابتهالات حميدة توحي مرّة أخرى بوجود لغة مشتركة. أمّا يهود طليطلة فقد كانت قوتهم الإستراتيجية تكمن في معرفتهم بلغات المدينة الثلاث. ولكن كان ثمة إهتمام بالنقوش العبرية[1]، لأن القصائد التي كتبت بها كانت تتعلّق براعي المبنى، وتذكّر بإستخدام الزخارف والنقوش في قصر الحمراء في غرناطة، كما تذكّر المرء بالمكانة التي وصل إليها يهود البلاط في ظل رعاية الأمير المسلم وليس السيد المسيحي.

وربما كان الوضع أكثر تعقيدا ممّا يبدو فسيّد **ابي العافية** كان **بيدرو** الصارم، المعروف عنه أنه أول من بنى قصر "الكازار" (Alcazar) في إيشبيلية، حيث ترى فناء بعد فناء وغرفة فوق غرفة تمثل مجتمعة قصرا شبيها بالقصور الإسلامية **كقصر الحمراء** الذي يوحي بعظمة الملك. ولكن بناء الكازار يشير مخططه إلى نوع من الإضطراب والتحيّر، وفيه تركيبات من الجدلات الفاخرة مثبنة فوق أعمدة دقيقة، ويلاحظ أن قواعد أعمدة القرميد منحوتة بأشكال هندسية ولوحات كبيرة من الجص المزيّن بنقوش عربية. فهذه الدلائل مجتمعة هي شاهدنا اليوم الذي يصعب ان نتصوره حيث لا يوجد مثيلا له ألا و هو قصر الحمراء في السنوات الأخيرة من الحكم الإسلامي.

وقد خلّد قصر الحمراء، لأنه كان رمزا دينيا ذا صبغة سياسية، عدا كونه تحفة فنية تمثل قوة الثقافة التي أبدعت لنا صورة موحية للملك، والتي كانت أقوى من آلاف الفتوحات العسكرية. ولعلّ ذلك هو ما سعى الملك **بيدرو** لإستثارته في إيشبيلية وبعض المدن الأخرى التي تشبهها، وقد يكوّن صورة لتركيبة شاملة

[1]– سعد شلبي "الأصول الفنية للشعر الأندلسي" (عصر الإمارة) ص 140، مطبعة نهضة مصر، القاهرة، 1984 م.

لحياة أرستقراطية سعى إليها أبوالعافية في طليطلة، وهي التركيبة التي تلّح بإستمرار إلى حق الإمتياز والسلطة. وقد أدت هذه التصورات والتركيبات إلى ذيوع نمط فن المدجنين في عدد من المنشآت الملوكية، إذ ليس من قبيل المصادفة أن تعطى راية الموحدين العسكرية المعروفة براية لاس ناقاس دي تولوزا (Las Navas de Tolosa) إلى دير لاس هويلغاس De las Huelas في برغشBurgos، فبلاط الجص الذي يضم أشكال طيور لطيفة غائرة في عقد مجدولة أو في أبواب خشبية، وإضافات تقليدية هي نفسها التي وشي بها منبر مسجد الكتبية (Kutubiyya)، تحكي كلّها قصة ثقافة سلبت وصارت غنيمة للأمير **المظفر**.

وكان **الملك ألفونسوالعاشر** (Alfonso X) ينوي بناء كاتدرائية في ليون Lyonتشبه كاتدرائية ريمس (Reims) في فرنسا حيث يتوج ملوك فرنسا. وقد أشرف بنفسه على بناء عدد من المعالم لها طابع المدجنين في أنحاء مختلفة من إسبانيا، ومن أهمّها موقع الكنيسة في مسجد قرطبة الكبير الذي تمّ تملّكه، ويعرف الآن بكاتدرائية القدسية ماريMaria، وهو المكان الذي كان يأمل أن يدفن فيه.

ووجد في ذلك الوقت مكعب صغير في فناء مسجد كبير بقي على حاله، مغطى بأعمال الجص المدجّن، متعدد الأجزاء تلفّه الأقواس والقناطر والتصاميم الهندسية التي تقوم على أعمدة مرصعة بالزخارف والفسيفيساء. وهوعمل فنّي على طراز المدجنين قام به المصوّرون ومعلّمو فنْ المدجنين الذي يبرز شيئا من قدرة **ألفونسو** في إستخدام نمط الفن المعماري للتعبير عن الأوضاع السياسية الملائمة، فالكاتدرائية القوطية في **ليون** Lyonعبرت عن إهتمامات الأمبريالية العالمية، في حين أن بناءه وتراكيبه على طراز المدجنين تنبع من محاولاته الدائبة لخلق صورة ملك في وطنه يحكم السيطرة على الإختلاف الكبير في المسائل العرقية والدينية التي كانت تتّسم بها الممالك الإسبانية المسيحية السريعة النمو والتطور.

وفي **أراغون** Aragonكان التركيز على إدخال نمط المدجنين إلى معالمها كبيرا، وامتد هذا النمط ليصبح جزءا من التقليد المحلي المتذبذب. وهناك سلسلة من الأبراج الجميلة ما تزال قائمة منذ القرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي، تذكر المرء بمآذن الموحّدين، إذ كانت سهلة التصميم وذات شكل هندسي، وتميزت بنوافذها ذات الأقواس المزدوجة، ولوحتها المأطورة المتشابكة ذات القرميد ذي التهوية المريحة.

ولكن التصاميم الرئيسية في برج سان سالفادور (San Salvador) قد ضوعفت لتشمل تعرجات وأشكال نجمية غير ملائمة، وكان الهيكل ملفوفا بدقة متناهية، بألواح من الخزف الملون. وتلاشت بذلك

الهندسة الإسلامية ومنطقتها اللّذان كانا يمثلان قلب هذه الزخرفة في ظل الحكم الإسلامي، وأصبحت تراثا محليا متذبذبا عاصر زركشة سطحية أصبحت جزءا من التراث القومي1.

وقد أدمجت مبادئ الزخرفة التي دخلت فن المدجنين، من خلال مصادر الموحدين أو النصريين، في لغة فنية عامة من الأشكال شارك فيها المسلمون والمسيحيون على حد سواء. أمّا فن التصفيح أوعقود فن العمارة، إبان النهضة، الموجودة في سلمنقة (Salamanca)، فإنّ التصاميم التقليدية فيها تغطي واجهة البناء، وتخلق جوّا من الرعب، وتشبه زخارف الجص الإسلامي، ولكن بمواد زخرفية دخيلة وجديدة. إنّ مبدأ الفن المتشابك فوق واجهة الزركشة أصبح نمطا محليا تتشكل منه أنماط فن العمارة المستجلبة.

أما اليوم فقد أصبحت عناصر نمط المدجنين محلية، ولكنها مكونة جانبا. وتظهر في العروض الثقافية والكرنفالات المعمارية لتمثل شيئا تقليديا قديما في التاريخ الإسباني، لكنه فن لا تبدوعليه الملامح الأوروبية الذي كانت تسعى إسبانيا الحديثة دوما لتقليده.

ويتّضح أن فن المدجنين في العمارة يحمل شواهد فنية على حقبة عزيزة الإبداع في تشكيل الثقافة الإسبانية، ويعكس ضغوط الإنحسار السياسي والصبغة العرفية من خلال ضبط الأشكال المصورة التي بدأت إسلامية وأضحت محلية، وأصبح معناها مرادفا للسيادة الإسبانية، ولمّا كانت إسبانيا تسعى إلى تثبيت وجودها في مستعمراتها في امريكا الجنوبية والوسطى، فقد اختارت هذا الفن ممثلا لهذا الحضور، لإنتشاره الواسع زمانيا ومكانيا بوصفه تراثا فنيا بدأ بمجئ الحكم الإسلامي إلى إسبانيا.

وقد بدأت فنون المدجنين على أساس تماثيلها الواعي مع المجتمع الإسلامي تاريخا ورعاية ومشاهدة. ولكن فكرة الإسترداد وما صاحبها من تملك سياسي حوّلت هذا الفن إلى أساطير ومبادئ انفصلت عن أصولها، وسياقها الإسلامي2، فصار هذا الفن يعبر عن فكرة الإمارة والثراء والرمزية والأهلية،.. وأضحى في النهاية إسبانيًا...

فنـون الأندلـس:3

كانت الأندلس منذ القرن الثاني الهجري / الثامن الميلادي إلى القرن التاسع الهجري / الخامس عشر الميلادي، تمثل الحد الغربي للدولة الإسلامية، وهي أرض ذات ثراء تجثم عند فم المحيط الأطلسي في شبه جزيرة تمتد بين أوروبا وشمال إفريقيا .ورغم بعدها عن مركز الحكم الإسلامي، ورسوخها في شبه جزيرة ترغب دائما أن تبقى تحت السيادة المسيحية ، ظل رعاة الفن الإسلامي في إسبانيا، وكذلك الفنانون، يعتمدون إلى حد كبير على الفن والعمارة لإعادة تأكيد الصبغة الثقافية الإسلامية. ومع أن

[1]– شاخت وبوزورث "تراث الإسلام"، ترجمة حسين مؤنس وآخرون، الكويت، ص69، 1978 م.

[2]– رضوان البارودي "دراسات وبحوث في تاريخ وحضارة المغرب والأندلس"، مركز الإسكندرية للكتاب ص63، 2006 م.

[3]– قام بترجمة هذا الفصل "جاسر أبو صفية".

التراكيب الشكلية والأهداف الواعية التي تختفي وراء الأنماط الفنية العديدة التي برزت إبان القرون السبعة تختلف اختلافا بيّنا، لتنتظم الفنون الأندلسية بفعل التوتر نفسه الناجم عن حاجتها إلى إبداع أشكال إلزامية لتنصهرصلتها بالمراكز الإسلامية، وتتحدّى مظاهر ثقافية ودين غريبين في آن معا.

الإمارة والخلافة وملوك الطوائف

1-حقبة الإمارة: كانت الأندلس منذ سنوات الفتح الإسلامي الأولى تعد الحد الأقصى للإمارة، فلم يكن يعرف إلاّ النزر اليسير عن الفن فيها، ما عدا القليل عن صناعة الفخار فيها قبل بداية حكم **عبد الرحمن الأول** (الداخل). ومع وصول الأمير الشاب **المقدام** تأكّدت صورة الحاكم المسلم، الراعي للفنون بتشجيع من البلاط. وقد باشر هذا الشاب الأموي، الذي نجا من مذبحة الأمويين على يد خلفائهم، في تنفيذ خطة بناء وإعمار فور استتباب الأمر له في النصف الجنوبي من شبه الجزيرة الإيبيرية.

ومنذ البداية كانت هذه الحركات الإيمانية إلى الماضي تتصدر صورة الإبداع عند مسلمي الأندلس، فعمدوا إلى خلق صورة وصفية له، تذكرهم بما فقدوه من ملك وسؤدد. ومن المعروف أنّ أول قصر **لعبد الرحمن** كان دارا (فيلا) ريفية في ضواحي مدينة **قرطبة** عرف بـ **"الرصافة"** تيمّنا بقصر جدّه الريفي الخليفة **هشام بن عبد الملك** والإسم عندنا رمز لفكرة متواترة في ولاية حكم الأندلس طوال ثلاثة قرون، تمثل الحنين الكبير إلى بلاد الشام بوصفها وطنا وخلافة مسلوبة. ولكن ذكراها ظلت تشع في نفوس الحكّام الأمويين في الأندلس. وستظل إنجازات **عبد الرحمن الأوّل** معروفة من خلال بنائه **مسجد قرطبة الكبير**، المَعْلَمْ الفكري الحضاري، ومنارة السلطة والنفوذ الذي يعدّ بحق نقطة ارتكاز المجتمع الإسلامي كلّه في الأندلس، ومن أهم معالم الرعاية الفنية والولاية إبان حكم ثلاثة قرون[1].

بنى **عبد الرحمن الأوّل** مسجدا كبيرا من الطراز المعمّد ذي الأجنحة الأحد عشر التي تتجه إلى القبلة على طراز المساجد الأموية الكثيرة بعامة والمسجد الاقصى في القدس بوجه خاص. أمّا مخطّطه فقد تكرّر تغييره بتوسيعة حاذقة دقيقة في الجناح الأوسط ليطابق بعض مخطّطات المساجد الإسلامية الأولى التي تتّسع لحشود المؤمنين ليصلوا في ساحة واسعة كبيرة متحرّرة من قيود العمارة الصّارمة. وفي حين أن الأجنحة تتجه إلى القبلة، فهناك محور صغير يشكّل جسما ملتزما، وليس ثمة مجال مميز في الساحة الممدة للصلاة.

---

[1]– هناك سؤال مطروح: هل كان الحنين إلى عهد الخلفاء الأمويين في الشام هو الذي صبغ الفنون بهذه الصبغة في عهد "عبدالرحمن الأول" ولا سيما في مسجد قرطبة الكبير؟ ليس من الواضح مثلا فيما إذا كانت كنيسة القديس فينسنت (Vincent) يتقاسمها المسلمون والمسيحيون في الصلاة، أم أنّ هذا مجرد تقليد للتعاطف مع المسلمين الأوائل في دمشق. ولكن المؤكد في هذا الأمر أن المسلمين في قرطبة كانوا يصلون في مكان أقيم على أنقاض كنيسية سنة 169هـ / 785م، وذلك عندما اشترى الموقع الأمير عبد الرحمن الأول من المسيحيين وبنى مسجدا جديدا لسكان قرطبة.

وهذه الأشياء في الواقع علامات تبيّن مبادئ مخطط المساجد الأولى، إذ ترتبط عند جمهور الرعيل الأول من المسلمين بالحاجة إلى مكان تقام فيه صلاة الجماعة دون ترتبية أو وساطة رجال الدّين. ولكنها هنا تستحق المراجعة، لأنّنا نكوّن فكرة عن مدى الازدحام الذي كانت تغص به المساجد الإسلامية في الأندلس1، التي يغلب عليها الطابع الغربي لبعد موقعها وغربتها، وما يحيط بها من مظاهر محلية، ممّا أحدث ارتفاعا فريدا ما كان تصميم المسجد المألوف مألوفا.

إن تصميم مسجد **عبد الرحمن الأول** التكراري المتناغم النسق يكشف عن سموّ في الألوان والتشكيل، والأجنحة تحدّدها أروقة مزدوجة تعلوها القناطر، ويدعم كلّ منها مسطحين عموديين على شكل حدوات الحصان المقنطرة. وفي المقابل خففت القناطر لتتناسب مع أجزائها المتصلة، فيم تفتقر عقودها الحجرية عن تعاقب الآجر والحجارة في بنائها، فاللّونان الأحمر والأبيض يقسمان البناء من الداخل إلى عدة أجزاء، متحولا بذلك إلى صورة معقدة مجردة.

وينشأ هذا الحل المعقد المدهش من موقع الحاجة إلى إنكار محتوى داخلي لإمارة جديدة تعد معلما أخّاذا لا تعتمد على زخرفة الشكل بسبب قوتها البيانية. ولكن الصور المجردة لم تكن بلا معنى عند عبدالرحمن وأتباعه. ومع أن العقود الحجرية المتعاقبة كانت تتألف من الآجر والحجر، فإنها كانت تحاول أن تستحضر، بما يتوافر من المواد، روائع زخرفة المباني في الهلال الخصيب، ولا سيما مسجد **دمشق الكبير** و**قبّة الصخرة المشرّفة**. وهكذا بتجلّى الشوق الكبير إلى حكم ضائع وأرض بعيدة، وإن غلفت المباني في الأندلس بشكل قد يبدوغريبا عن دمشق الوطن الأم.

ويتضح أن القوس الموجود على شكل حدوة الفرس قد إستخدم هنا بثبات لأوّل مرة في بناء إسلامي، إنه تراث إسبانيا الموروث الذي كان يتمثل في بناء الكنائس، وهوالنمط الفيزقوطي (Visigothic)، وتذكرنا بالمستوى الذي وصل إليه الحرفيون وتراث البناء، إذ قد تأثر به الشكل الأول للمسجد. فالقناطر الرائعة ذات الخلفية الثقيلة ليس لها سابقة في فن العمارة الإسلامية، واستخدامها هذا يفسح مجالا لسطح القاعة المحمول في أن يكون أكثر ارتفاعا ممّا هو متوقع له، لو أنّ إنجازه تم على نحو مخالف.

وهذا ما يجعل من هذا المسجد نوعا من المعالم التاريخية مختلفا عمّا تم إنجازه في مسجد دمشق الكبير.

كان الطراز الأول جديدا ذا صبغة محلية، فالقنوات الرومانية الصناعية، كالتي ما تزال قائمة حتى اليوم في مريدا (Mérida)، تجمع بين نظام القناطر المتطابقة ونظام البناء المتعاقب الألوان.

---

[1]– خليل إبراهيم السامرائي وآخرون "تاريخ العرب وحضارتهم في الأندلس" ص 137، 2000 م.

وهكذا يتضح إلى أي مدى استطاعت الإمارة الإسبانية تسخير الأشكال المحلية لتحقيق أهدافها في بنائها العظيم. ويبدو أن التردّد بين التراث الأموي وتنسيق الأشكال المحلية يؤكد اهتمام ولاّة الأمر بالمسجد1 ورعايته. وقد قام **عبد الرحمن الثاني** بتوسعة قاعة الصلاة بمقدار ثمانية أروقة إلى الجهة الجنوبية سنة 222هـ / 836م، محدثا طولا في المخطط مع الحفاظ على الإرتفاع والزخرفة التي تمّت في عهد سلفه. واستكملت الزيادة في عهد ابنه **محمد الأول** الذي رقم باب **القديس ستيفنس** (St Stephen). وتتكرّر الملاحظة في ما يتصل بإحترام الماضي، فالنمط المعماري يصبح تجسيدا للحنين الكبير للوطن والسلطة الذي أنتجه عبد الرحمن الأول، مع ميل غريب إلى إعلاء المسجد، وهو ما حافظ عليه كلّ حاكم عن طريق إدخال الزيادات عليه، وكأن إرثه الخاص من السلطة يكمن في إكمال هذا البناء.

حقبة الخلافة

بنى **هشام أول** منارة للمسجد، أمّا المنارة التي نشاهدها اليوم فهي من عمل **عبد الرحمن الثالث** الذي أمر بإزالة المنارة الأصلية، ليكن بذلك أول أمير أموي خليفة. فأما عمله كان يستهدف إلى جعل المسجد معلما حضاريا يستحضر معاني معروفة. كما أن إعادة بنائه لصحن المسجد سنة 340هـ/951م جعل من أعمدته وأسطواناته بدائل تذكارية من دمشق، وهو أمر ليس مستغربا من أمير أعاد بناء صلة أسرته بسيادة الأمويين القديمة.

وعلى أيّة حال، فإن إبنه **الحكم الثاني** هو الذي أعطى للمسجد رسومه المعتمدة اليوم، إذ عمل على زيادة قاعة الصلاة بمقدار اثني عشر رواقا من الجهة الجنوبية، وأسّس محرابا جديدا مزخرفا ينتهي بمقصورة ذات قبة بإتجاه القبلة لها ثلاثة أبواب مطليّة بالذهب والفسيفيساء الخضراء والزرقاء. ويبدو المسجد اليوم وكأنه نظم ليحجب الخليفة واهتماماته، فالرواق المحوري للمقصورة يقضي إلى رواق مقبّب مدعّم بسترة من الأقواس المزينة الضفرة تكمّل الطراز التقليدي للمسجد في ما يتصل بالأقواس المتطابقة والألوان المتعاقبة، ولكن بأسلوب مختلف في التضفير، ممّا جعل هذا الجزء من المسجد متميزا عن قاعة الصلاة. وقد عمل هذا الرواق على تنظيم الفراغ حول المقصورة ليصبح أشبه بمستطيل له نهاية مستديرة كقاعات الإستقبال في قصر **عبد الرحمن الثالث** في **مدينة الزهراء** ولكن بإضافة الأبواب الثلاثة المشار إليها آنفا. هذا كلّه يذكّرنا بصالون ريكو (Salon Rico) في مدينة الزهراء، فكلا الأثرين يمسكان، دون وعي القوة البيانية للنّمط المسيحي المعاصر في ما يتّصل بساحات القدّاس، ولا سيما الزيادة في المسجد حيث يوجد ثلاثة أقواس مفتوحة ومحراب على شكل غرفة ومقصورة عميقة، وكل ذلك منظم على شكل الجزء الشرقي من كنيسة على طراز فن المستحربين.

[1]– ابن عذاري "البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب "ج 2 ص 98، "المقري" ج 1 ص 316.

لعل ذلك يذكرنا بأن جزءا من نسبة النمو في سكان **قرطبة** كان في أوساط المولدين أو النصارى الذين إعتنقوا الإسلام، كما يذكرنا إلى أي مدى كان سكان المدينة على دراية بالقوة البيانية في الإحتفالات المسيحية وهندسة العمارة التي لها مكانتها.

إنّ التواترالناشئ عن الجمع بين تبنّي فن إسلامي جديد، وآخر محلّي قديم يلح لإثبات مكانته يساعدنا في فهم هذا الطراز الفني. لكن مشهد الفسيفساء اللمّاع الذي يغطي القبلة يدين بوجوده إلى المعنى المحوري الذي يحدد الصّلات القوية شكليا وعقديا بدمشق. وبحسب رواية **ابن عذاري** فإن **الحكم الثاني** طلب عامل فسيفساء من ملك الروم كما فعل **الوليد بن عبد الملك** عندما بنى مسجد دمشق1. ويكمن التشابه بين المسجدين في الزخرفة من حيث الفن واللون. ومع ذلك، إذا قابلنا بين صورة الفسيفساء في مسجد دمشق الأموي وصورتها في هذا المسجد، وجدنا تجاوزا في وضع النباتات المختلفة ونماذج هندسية أدخلت فيها النقوش. وقد أوضح **غرابار** (Grabar) أن الإستشهادات القرآنية على الجدران وبعض القطع التي تبيّن تاريخ البناء هي من أقدم المحاولات لإيجاد فن زخرفي تصويري للمساجد2.

وقد تمّ توسيع المسجد والباحة ذات السطح المرتكز على الأعمدة في عهد **المنصور** (377هـ/987-988م)، إذ أضاف ثمانية أروقة إلى الجهة الشرقية، محدثا إنحرافا كبيرا في خط الطول لخطّة **الحكم الثاني** الأصلية للمسجد، ولكنّه أبقى على سائر الواجهات الأصلية التي عملها **عبد الرحمن الأول**.

وهكذا فإن اهتمام الخلافة الدقيق قد استقر، لكن استمرار الأشكال المتشابكة وجد ليخدم دولة إسلامية جديدة، ممّا جعل ذلك يبقى محفوظا في الذهن. وفي عهد **المنصور** أصبحت الأشكال المحلية، كالقوس المبني على شكل حدوة الفرس، كجزء من الأسلوب الإسلامي الإسباني في الأبنية الدّينية بوصفه صدى للأسلوب الدمشقي.

إن الأهمية الرمزية للمسجد الكبير في قرطبة تكمن في كونه مركزا فكريا لإسبانيا الإسلامية، ويؤيد ذلك الدراسات التي قام بها **إيوارت** (Ewert) في ما يتصل بالمسجد الخاص في باب المردوم في **طليطلة**3.

فهذا المسجد ذو الأروقة التسعة يعدّ مطابقا لما جاوره من المساجد الصغيرة في الإسلام. ولكنه يكشف عن حداثته المتمثلة في إرتفاعه واتساق نظامه. فأسطواناته الأربع تدعّم مجموعة من القباب المنمنمة بزخارف مضلعة تثير في النفس قباب الحكم الثاني في مقصورته. ويبدو أنّ المسجد كان صغيرا

---

[1]– أبوعبد الله محمد بن عذاري المراكشي "البيان المقرب في أخبار الأندلس والمغرب"، ص 65 ترجمه فاغنان (E. Fagnan) (الجزائر، 1901، 1904)، ج2، ص 392.

[2]- Olog Grabar, « Notes sur le mihrab de la grande Mosquée de Cordoue, » papier présenté à : Le Mihreb dans larchitecture et la religion musulmanes : Acies de colloque international tenu à Paris en mai 1980, édité par Alexandre Papadopoulo (Leiden, New York : E.J. Brill, 1988), pp. 115-122

[3] – Christien Evert, eDit Monchee von Ban al-Mardoum la Tolodo-ein “Kopir” der Monchee von Cordoba,” Madrider Mittielhenger, vol. 18 (1977), pp. 287-354

للمقصورة نفسها ليوحي بمهابة **مسجد قرطبة** وجلاله وما يحمله من مغزى1. وبهذه الطريقة نرى الذوق الفنّي الأندلسي متداخلا، فالأساليب التي تولدت من المزج بين الشكل المحلي والتقليد الإسلامي، هي الأساليب الهجينة التي صبغها مسلمو إسبانيا برؤيتهم الخاصة للعالم. إن إسبانيا الإسلامية اليوم تنظر إلى مراكزها الفنية، فباب المردوم انعكاس حاجة إسبانيا إلى ايجاد مجموعة من الأشكال المرئية لتكون هداية لثقافة إسبانيا المسلمة.

وفي الوقت الذي كان فيه بناء المساجد مزدهرا، خصصت أموال طائلة لبناء المساجد ورعاية فنّها، لا سيما رعاية **عبد الرحمن الثالث** لواحدة من المدن الخاضعة له لتكون محيطة بأطراف **قرطبة،** وهي **مدينة الزهراء** التي أنشئت سنة 325هـ/936م كما أكّدت ذلك الحفريات التي أجريت في موضع المدينة وكشفت عن عدد من النباتات التي أعيد تشكيلها.

ويمكن أن تكون مدينة الزهراء استمرار لذلك التقليد الذي أوحى للخلفاء الأمويين ببناء الرصافة. وكانت الزهراء مدينة منتشرة قائمة على ثلاثة أسطح مستوية مقطوعة إلى جانب التل بمقدار خمسة أميال إلى غرب قرطبة. وتتألّف من قصور وأبهاء وسراديق وحدائق ومساجد ومبان ضرورية للحياة الملكية والذوق الرفيع كالحمامات والمعامل والثكنات العسكرية.

وكانت **مدينة الزهراء** ذات ثراء وفخامة، ومدينة تحت السيطرة الكاملة، إذ كان على من يريد الوصول إلى الخليفة أن يخوض في متاهاتها. فقد كانت قاعة عرش الخليفة محمية بمجموعة من المبادئ المدهشة كالقصور والأبهاء والغرف والدهاليز، ممّا يوحي بقوة الحاكم ورغبته في العزلة داخل نظام هندسي مكتظ، فإذا وصل المرء إلى قاعة العرش، عندها يمكنه مشاهدة الخليفة. وممّا يجدر ذكره أنّ تصميم **مدينة الزهراء** يشبه تصميم المدن العباسية **كسامرّاء** التي يغلب عليها طابع المتاهات لتأكيد صورة حكّامها المقدسة. وهو ما كان يدركه **عبد الرحمن الثالث،** الذي نصّب نفسه خليفة ليكون ندًا للدعوة العباسية. فكانت هذه هي الحال في العمارة الأموية القديمة التي كانت ترمز إلى هدف سياسي، **فعبد الرحمن الثالث** كان عليه أن يقيّد نفسه بصورة الخليفة الغامضة وسط رسوم الخلافة المعقدة ليضفي صبغة الشرعية على سلطته الخلافية. ولكن هذه المدينة الفارهة تذكرنا بإحكام السيطرة السياسية واستمرار الحوار مع الأحزاب السياسية فيما يتصل بشعور المسلمين الإسبان تجاه تثبيت الخلافة أو معارضتها.

ومع أن تخطيط مدينة الزهراء يبرز الأثر العباسي، فإن الزخرفة تطورت بشكل واضح من التقليد المحلي الإسلامي والإسباني. ولعل أوضح مثال على ذلك **صالون ريكو** المشهور ذو المحاور الأسطوانية الثلاثة بغرف جانبية على الطراز المحلّي الذي عرف به سكان حوض البحر الأبيض المتوسّط، وهو

[1]- Terry Allen, Five .

طراز يقوم على قواعد كورنثية ومزين بالنقوش النافرة والتماثيل على قاعدة من اللفائف على شكل الدالية، ولكنها هنا قد سطحت وتنمنمت أجزاؤها وجعلت متساوية، فجاءت التصاميم معقدة، ذات قشرة مجرّدة تلتصق بسطح الواجهة محوّلة المعمار الهندسي إلى موضوع دقيق من الفن الرفيع، فهذه الزخرفة في **صالون ريكو** تذكّرنا بمقصورة **الحكم الثاني** في **جامع قرطبة الكبير**، إذ كان **الحكم بن عبد الرحمن الثالث** هو المشرف على بناء **مدينة الزهراء**، فبنى الأجزاء الخاصة به في مدينة الخلافة. وقد أصبح هذا النمط الزخرفي رمزا لمشجعي الفنون من الحكام الأمويين في الأندلس.

وممّا يلاحظ في عهد الخلافة أن مسار الفنون قد تحوّل، فأشكال البحر المتوسط والملامح الشامية أدمجت في طراز إسلامي إسباني واحد يحمل معنى رمزيا للميراث الشامي والتقليد المحلي، لأن الأندلس أصبحت إسلامية مستقلة وقويّة. وقد أخذ الأمويون في إسبانيا عدّة أفكار ثقافية من العباسيّين في بغداد لتكون حافزا لهم للوصول إلى السلطة، وليكون لمنافستهم الثقافية معنى. ففي عهد **عبد الرحمن الثاني**، أغري الموسيقار العباسي **زرياب** بالذهاب إلى البلاط الإسباني حاملا معه الذوق العباسي الرفيع في فن الموسيقى والرياش والأثاث واللباس والطبخ.

ويتضح الإعجاب بالفنون العباسية المتطورة في الخزف الأندلسي، إذ يشكل جزءا من الشخصية الجديدة للفن الإسلامي الإسباني. ونجد تقليدا للخزف الصيني العباسي، ذي الطلاء المزوق اللماع، والخزف المصقول الأبيض المدهون باللونين الأخضر والأسود، وهوالمعروف بخزف **إلفيرا** Elvira أو **مدينة الزهراء**، مع أن صناعته كانت منتشرة في مختلف أرجاء الأندلس في القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي. وقد وقر في أذهان الدارسين أن غايات هذه الفنون وموضوعها ليست ذات قيمة فنية وليس لها معنى. ولكننا نعتقد أنها حافلة بمفهوم الثروة والسيادة.

إن المضمون الكلي للطبق أو الحوض الواحد يكون صورة واحدة، كالفرس المسرج مع عقاب باسط جناحيه على مؤخرة الفرس، وهو موضوع يشير إلى التملك والأيام الخوالي للأرستقراطي أوالملك. وأن يكون الموضوع مشتملا على صور عدّة حيوانات كالأرنب البري أو الغزال لتكون حلقة وصل بالصيد ومفهوم ملكية الأرض. ونجد في عدّة قطع فنية أنّ النقش الكوفي فيها تكثر فيه كلمة الملك، وهو ما يؤكد مسألة ارتباط الجمال ورعايته بالإمتياز الملوكي.

ومن مكتشفات **مدينة الزهراء غزال برونزي كبير**، قد يكون رأسا لفوارة، ما يزال يحتفظ في قاعدته بالأنبوب الذي كان يندفع منه الماء خلال جسده خارجا من فمه. وقد يكون جزءا من إحدى الفوارات التي تحدث عنها **المقري** في روايته تاريخ **مدينة الزهراء**، فقد قال:

"وأمّا الحوض المنقوش المذهب الغريب الشكل الغالي القيمة، فجلبه إليه **أحمد اليوناني** من **القسطنطينية** مع ربيع الأسقف القادم من إيلياء. وأمّا الحوض الصغير الأخضر المنقوش بتماثيل الإنسان فجلبه أحمد

من الشام، وقبل من القسطنطينية مع ربيع الأسقف أيضا... ونصّبه **الناصر** في بيت المنام... وجعل عليه اثنى عشر تمثالا من الذهب الأحمر مرصعة بالدر النفيس الغالي ممّا عمل بدار الصناعة بقرطبة صورة أسد إلى جانبه غزال إلى جانبه تمساح، وفي ما يقابله ثعبان وعقاب وفيل. وفي المجنبتين حمامة وشاهين وطاووس ودجاجة وديك، وحدأة ونسر، وكلّ ذلك من ذهب مرصع بالجوهر النفيس، ويخرج الماء من أفواهها..."1.

إن الأسلوب الذي صنع به الغزال الجميل يذكرنا بالغموض الذي كان ملازما لمفهوم الملك الإسلامي. ويمكن أن نجد تعريفا له في أنّه رمز إمتياز خاص للحكام الذين يرعون الفنون ويقومون بتشجيعها بإمتلاك النفائس وإحاطة أنفسهم بوسائل عصرية بأساليب تتحدى المواقف الإسلامية المحافظة تجاه الفنون2، أساليب هي أقرب إلى ما عهد عن الرومان والفرس في فن التماثيل والصيد والشراب وإقامة نصب تذكارية مزينة بتماثيل مجسمة وليست تجريدية. ولن تجد الصلة وثيقة، في أي مكان، بين الرعاية الفنية والملك كما هي في الصناعة العاجية التي راجت أثناء حقبة الخلافة في **قرطبة**. فيحول عهد **عبدالرحمن الثالث** تدفق الذهب السوداني على الأندلس، وربما العاج أيضا، إذ تبين أن مجموعة من صناديق العاج قد صنعت في ذلك الوقت في **قرطبة** و**مدينة الزهراء**.

ومع أن الصناديق العاجية كانت تصنع لأفراد الأسرة المالكية، فهناك حالات قدمت فيها هذه الصناديق. إثنان صنعا سنة (349هـ/960م و351هـ/962م) لإبنة **عبد الرحمن الثالث** يشيران إلى تميز وأناقة في هذا التقليد الذي كان في أوجه، إذ كانت صناعتهما منمنمة تشبه الجواهر، بقطع زخرفية دقيقة من الأسفل، ونقش ظاهر في مقابل القمر المظلل. إن التفاعل اللوني بين النقش والزخارف النباتية يبدع نوعا من الغموض في الشكل، مما يذكرنا بالطريقة التي أصبحت فيها الكلمة جزءا من نمنمه محيرة وتحول في المعنى كما هوالحال في محراب الجامع الكبير.

ومن أشهر صناديق العاج في عهد **الحكم الثاني** ذلك الصندوق الصغير الذي صنع **للأميرة صبح**، أم **الحكم الثاني**، حيث نرى فيه تصويرا خياليا متشعبا، وهومغشى بأوراق نباتية متشابكة منقوشة في سطح واحد، وقطع من الأسفا ليبدو محلقا فوق جرم الوعاء. فإذا دقق الإنسان النظر، رأى الطواويس وطيور الصيد وغزلانا تخرج من الأشجار والدوالي وكأنها حية، وقد جاءت معمّاة لتبدو متوافقة في صورتها مع

[1]– أبو العباس أحمد بن محمّد المقّري "نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب"، تحقيق إحسان عباس، 8ج بيروت: دار صادر، 1968، ج1، ص 1968، ج1، ص 568–569. [المترجم. وعدد التماثيل هنا ثلاثة عشر وليس اثنى عشر تمثالا].

[2]– خالد بن محمد القاسمي "تاريخ الحضارة في الأندلس"، ص 45 ، دار الفجر للنشر والتوزيع 1995 م.

الأشكال النباتية. فيلاحظ المرء ثمة أجنحة بصرية في النقوش، وهي علامة هذا الفن التي يدع بها تحديا فكريا لليوائم بين العقل والتصاوير الحسية.

ومن أفضل المصنوعات العجية في عهد الخلافة الصندوق الذي يعود **للأمير المغيرة،** الأخ الصغير **للحكم الثاني** الذي طالب بالسلطة في ما بعد. ونجد على هذا الصندوق صورة تمثل حياة الرغد، الصورة نفسها نجدها في أسطورة أخرى من تمتع الأمراء و يعبر عنها في صورة يجلس الأمير على الأريكة يشرب ويستمع إلى الموسيقى. وإلى جانب هذه الصورة صورأخرى لمطاردة أميرية تمثل الصيد بالبازي، كما يوحى ذلك بحس وقت الحصاد والحيوانات والصّيد والقتال مما قد يكون له صلة بتملك الأرض وسلطة الحكم عدا ما يمثله من رعاية لفن الصناعة العاجية الثمينة.

وهناك صندوق ماجي مستطيل الشكل، صنع **لعبد الملك بن المنصور،** وهوآخر قطعة فنية بديعة، إذ انتهى عملها في أواخر عهد الخلافة، ونقوشها أقل بروزا من الأمثلة المتقدمة. وصور هذا الصندوق الثماني متشابكة توحي بحس مشابه لما تمثله الدعة عند الأمراء في صندوق المغيرة، ولكن هذه متصلة بصورة سلطوية لوجه العاهل، تمثله وهو يصارع الأسود كأنّه ملك آشوري، إلى جانب ذلك صور لمحاربيين يقاتلون من على ظهور الجمال والفيلة. ويحس المرء أنّ صورة الأمير النافذ قد تغيرت بشكل واضح منذ عهد الخلافة الأوّل، وأنّ اللباس في الحرب –وهورمز له جذور عند الحكام المسلمين في العراق– قد حلّ محل النقوش الحسية. وفي الواقع، فإن الطاغية الذي ساد في عهد **هشام الثاني** ما لبث أن أصبح قائدا عسكريا فذا، فقد استطاع، في حملات عسكرية متتابعة، أن يصدّ هجمات المملكة المسيحية المتنامية، ملهما بذلك ثقافة الخلافة الأموية في إسبانيا في لحظاتها الأخيرة.

حقبة ملوك الطوائف

شهد القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي/ إعادة تنظيم سياسي في الأندلس، لا سيما بعد أن تولى الحكم عدد من الخلفاء لم يستطيعوا الإحتفاظ بنفوذهم وسلطتهم، إذ إضمحلت الخلافة على يد الأرستقراطية القرطبية. وطوال خمسين عاما كانت الأندلس مقسمة إلى ثلاث وعشرين ولاية صغيرة يحكمها ملوك الطوائف[1]، اتخذ كل منهم لنفسه لقب **"حاجب"** ليبدو في صورة من يحكم بصفته رئيسا لوزراء خليفة أسطوري. وظهرت في هذه الحقبة أيضا تغيرات واضطرابات في التحالفات المعمول بها بين الدويلات الإسلامية نفسها، وبينها وبين جيرانها من الدويلات المسيحية، ولم يكن بمقدور أي طائفة أن توسع من نفوذها السياسي. وعوضا عن ذلك فقد تجلت عبقريتهم في صناعة الأساطير ومحاولة

[1]– دوزي "ملوك الطوائف" ترجمة كامل كيلاني، ط 1 ص45، مكتبة عيسى الحلبي 1933م.

تفسير تراث الخلافة الثقافي، ولمّا كان ملوكهم يزعمون أنّهم حماة الخلافة، فقد حفلت بلاطتهم بالفنون والحرف اليدوية.

ففي قصر الجعفرية في سرقسطة قام **المقتدر** ببناء قصر ملكي منيع يحيط به سور مستطيل الشكل وأبراج أسطوانية وأبراج أخرى مستقيمة للدفاع عن القصر. وفي داخل القصر غرف مرتبة حول صحن القصر الذي يفضي إلى مسجد صغير فيه محراب على شكل حدوة الفرس، وهو أوّل محراب إتخذ الشكل القرطبي في ذلك الوقت. أمّا قوس المدخل فمرصّع بنقوش قليلة التنوءات، وهي ميزة للنحت والنقش القرطبي كما هوالحال في العاج أيضا.

ولكن هناك تصميما قام به المعماريون في قصر الجعفرية، وهو فصل الأقواس المتشابكة في مقصورة الحكم الثاني، إذ يظهر كل قوس من هذه الأقواس وكأنه نموذج من الخط العربي. كما جعلت للأقواس رؤوس مخروطية ممّا زاد في طولها وأكسبها دلالة خاصة، عدا ما تميزت به من تيجان بأشكال ورقية نباتية مزخرفة متداخلة بشكل شائك. كما تميزت الأقواس بفصوص عديدة بها طنف ونتواءات وهي ميزة معمارية تجميلية.

وهذه النزعة تتجلى في نقش جصي من القصر محفوظ في الآثار الوطني **بمدريد**، فإن جانبي القوسين لا يلتقيان، بل يفصل بينهما عدد كبير من الأعمدة المزخرفة مدعمة بأعمدة صغيرة وتيجان، وفي تلك الحقبة شاع إستخدام الزخرفة المقولبة التي تتحد في نقطة واحدة كالدوامة، وترمز إلى الفن الأسطوري.

وقد تعهد حكام سرقسطة الفن القرطبي بالرعاية، إذ أعجبوا به أيّما إعجاب لما يحمله من دلالات عميقة.

ولا نستطيع أن نعدّ كل الآثار التي خلفها ملوك الطوائف ذات قيمة فنية، فمن بين الحصون العديدة التي خلفها هؤلاء الحكام ما يعرف بالقصبة العامرية التي تحيط بها أسوار لإطلاق النيران منها. أمّا قصبة ملقاMalaga التي شيدت عام 433هـ/1040م، فتحتفظ برواق أقواسه الثلاثة على شكل حدوة الفرس برؤوس وفصوص ثلاثية تشبه إلى حد بعيد غرف مدينة الزهراء.

وما تزال الرغبة في نحت الحجارة قائمة في عصر الطوائف، وإن لم يرق هذا إلى درجة عليا كما كان الحال في العهود التي سبقته، مع إستثناء يسير هوالنافورة الرخامية التي ترمز إلى الخلافة والسلطة، وهي مزخرفة بتماثيل أسود تهاجم قطعانًا من الغزلان، بأعداد أكثر منها في الزخارف السابقة. ولكن التحفة الفنية المدهشة هي نافورة **شاطبة(Gàtiva)** المسماة على اسم المدينة الموجودة فيها، فتلك الفوارة مغطاة بنقوش نافرة تمثل أشياء خيالية تعبر عن قصة ما.

وترمز المشاهد المألوفة للمحاربيين والحيوانات إلى نوع من الملكية، فعند الرومان يرتبط الفن بملكية الأرض، ناهيك عن الرسومات النافرة لإمرأة عارية تعتني بطفل. وهما مشهدان لابد أن يرمزا إلى العطاء والخصب عند صاحب ذلك الرسم، بإعتبار أنّ المرأة آلهة الخصب قديما عند كثير من الشعوب.

ومما لا شك فيه أن هذه الرسومات مبتكرة، ولكنها مرتبطة ضمنا بموضوعات تمت للخلافة بصلة، كصندوق مجوهرات المغيرة. إنّ إمتلاك القطع والأعمال الفنية في ذلك العهد أصبح علامة النفوذ والسلطة.

وقد إنتقلت حرفة صناعة صناديق المجوهرات العاجية من قرطبة إلى قونقة (Cuanca) حيث أنشئ مصنع يخدم كبار رجالات الدّين، فصندوق المجوهرات المصنّع في مشغل **عبد الرحمن بن زيان** ويعود إلى حاكم يدعى **حسام الدولة،** يظهر تغيّر الفكرة التصويرية والخيال الذي واكب تغيّر السلطة، إذ أصبحت الزخرفة هي المقصودة لذاتها ولا تحمل أي معنى أو دلالة أخرى كالإمارة أو السلطة مثلا، وإنّما لمجرد ملء الفراغ. كما قلّل الحرفيون من إستخدام الطّيور والحيوانات مع الإحتفاظ بدلالاتها الرمزية دون أن يكون ذلك واضحا كما في الماضي، وينسب هذا الأمر على الزخارف النباتية والأزهار.

ولكن ما تزال هناك آثار جميلة تذكّرنا بملوك الطوائف وقصورهم كزجاجة العطر الفضية في **"طورويل"** (Teruel) التي صنعت لملك **البراسين** (Al-barracin) في عصر الطوائف، وهي من أثمن وأجمل المصنوعات في إسبانيا. وتبدوالزخرفة فيه بارزة بعض الشئ وتنهي بحيوان صغير يمثّل كثيرا من أساطير زمن الطوائف.

1 - المرابطون والموحدون والنصريون

مع بداية القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي حدثت تغيرات سياسية واجتماعية كبيرة في الأندلس انعكست آثارها على طريقة استخدام الفن ليكون في خدمة المجتمع والقصر، ولأوّل مرة في ذلك الوقت، أصبح الحاكم يستمد رمزا للشرعية من مقتنايته من القطع الفنية الفاخرة، وهودليل على حسه وتذوقه للفن1، ورعايته للفنانين بطريقة ضمنية.

وهكذا أصبح الفن ذا مكانة اجتماعية وثقافية عالية، وفي الربع الأخير من القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي، تعرّض الوجود الإسلامي في شبه الجزيرة الإيبيرية إلى الخطر، بسبب تقدم الملك **ألفونسو السادس،** فقام ملوك الطوائف في غرناطة وإشبيلية وبطليوس بطلب النجدة من المرابطين في شمال افريقيا. فاستجاب المرابطون ونصروا ملوك الطوائف، ولكنهم أحكموا سيطرتهم على الأراضي الأندلسية إعتمادا على فتوى فقهية من أنّ ملوك الطوائف كانوا فاسدين، وأنّهم ابتعدوا عن الدّين الإسلامي الحنيف، وتساهلوا في التعامل مع الدويلات المسيحية المحيطة بهم.

---

[1]– سامية مصطفى مسعد "العلاقات بين المغرب والأندلس في عصر الخلافة الأموية"، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والإجتماعية، ص84، 2000 م.

وقد كان المرابطون على درجة كبيرة من التّدين وحب الاسلام والشّريعة والقرآن. وكانوا على حذر من البذخ الذي سيطر على ملوك الطوائف الذين كانوا في نظر المرابطين دنيويين لإبتعادهم عن الدّين. وقد أثير عن المعتمد بن عباد، حاكم إشبيلية، أنّه قال: "أفضل أن أرعى الإبل عند المرابطين على أن أرعى الخنازير عند **ألفنسو السادس"**. وهذا التمازج بين العقيدتين سيؤثر في الفن الأندلسي في ما بعد.

الفن المعماري المرابطي

رسخ في أذهان خبراء تاريخ الفن فكرة التديّن عند المرابطين وإلتزامهم بالقرآن والسنّة، ورفضهم لكلّ مظاهر البذخ والتّرف الذي ساد قصور ملوك الطوائف في الأندلس، ولهذا كان لابد أن تتغيّر الأذواق الفنية لتتلاءم والإسلام وحكم المرابطين لإسبانيا[1]. وإبان حكم المصلح **يوسف بن تاشفين** (453 – 500 هـ/ 1061م– 1106م)، لاحظ الدّارسون والخبراء أن الفن إتصف بالبساطة والتقشّف، ولكن عندما خلفه إبنه **علي بن يوسف،** الذي تلقى تعليمه في الأندلس، لم يسر على نهج والده الدّيني، ففتح المجال للفنانين والمعماريين الأندلسيين للعمل في شمال إفريقيا.

وهناك أنشئت أعظم المراكز الفنية المرابطية، حيث وجد الفنّانون الإسبان ضالتهم في نهاية القرن الخامس الهجري /الحادي عشر الميلادي، وإمتد ذلك حتى بداية القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي، وذلك في **تلمسان** و**مراكش** و**فاس،** حيث نجد المساجد المتواضعة ذات الشّكل المحافظ، وأشهرها **مسجد تلمسان الكبير**، الذي شيّده **علي بن يوسف** سنة 531هـ/ 1136م، ويشتمل على باحة مكوّنة من ثلاثة عشر عمودا محوريا، تقضي إلى ساحة صغيرة هي ساحة المحراب، وتعلوه قبّتان. وكما هو الحال في شمال إفريقيا، فإنّ المحراب عبارة عن غرفة، ولكنّه أصبح في هذا القرن مكانا قدسيا وأساسا من أسس بناء المساجد.

وعند إلقاء نظرة سريعة على الزخرفة في **مسجد تلمسان** نجد فيه محرابا يعلوه مصباح تعله أقواس، مما يظهر التّباين في الذوق بين المرابطين وملوك الطوائف، فالزخرفة صارت أبسط وأقلْ، وتمتاز بواقعية وعقلانية أكثر. ومنذ ذلك الوقت، شاع ما يعرف بالفن المعماري الحري الذي كان يعاد بناؤه وتجديده من قبل خلفاء المرابطين، وهم الموحدون، وقد أظهرت الحفاريات قلعة تدعى **مون إجيدو** (Monte agudo) تقع في ضواحي مرسيةMurcia، ويبدو أنّها كانت مقر إقامة زعيم المرابطين **ابن سعد بن مردنيش.** وهي واقعة في منطقة زراعية واسعة، فيها بحيرة صناعية وحدائق غنّاء، ويحيط بها سور مستطيل الشّكل وأبراج يمكن العيش فيها.

[1] – سعدون عباس "دولة المرابطين في المغرب والأندلس"، ط1، ص 150 دار النهضة العربية.

كما تشتمل على ممرّين يقسمان الحديقة إلى أربعة أقسام مكوّنة شكلا هندسيا معروفا في العالم الإسلامي، وعلى جانبي الممرين وحدات سكنية متقطعة من الساحة يعتقد أنّها كانت سرادقات1 تكشف عن فناء مخطط قد يكون إرهاصا لقاعة الأسود في **قصر الحمراء**، وتشبه هذه الرياض إلى حد ما تلك التي وجدت في حفريات قصر **علي بن يوسف** في مراكش سنة (526-527هـ/1131-1132م) الذي يمكن أن يكون قد شيّد على غرار قصر إسباني في **سرقسطة**. ويكمن السرّ هنا في تشابه الأشكال الفنية في شمال إفريقيا وإسبانيا والصلة الوثيقة بين الحديقة ومحل الإقامة، وهي بدورها تستمد تلك الميسرة في البناء من الفن العباسي في العراق2.

إن بقايا الزخارف الجصية في قلعة **مونتي أجيدو** ورسوماتها الهندسية المعقدة خير شاهد على التّصميم الهندسي في الزخرفة والأشكال المعمارية، ومنبتة بقدوم حقبة تجريدية معقدة في الزخرفة، ومع ذلك، فإن الزخرفة الهندسية قد وجدت في بداية الحكم الإسلامي في الأندلس، ودليل ذلك كمية وافرة من نقوش الخلافة التي بقيت حتّى اللحظة الأخيرة من سيادة المسلمين على شبه الجزيرة.

وقد كان المرابطون يستهلكون كميات كبيرة من الخشب المجلوب من قرطبة لأغراض النّحت، فالمنبر الموجود في مسجد الكتيبية في مراكش، يعدّ من أفضل الأخشاب وأجملها، وهوخير شاهد على الإبداع الحرفي لدى القرطبيين في الحفر على الخشب والعاج، وهو لا يختلف عن غيره من المنابر الإسلامية ذات الشكل المحافظ، فهو يتألف من درج ينتهي بالمنبر، وهو مطعّم بالعاج، ومزخرف بشكل هندسي فريد ومبتكر، ويعد بحق أجمل عرف من أيّام المرابطين والموحّدين في إسبانيا. وكتب على الجزء العلوي من المنبر بالخط الكوفي أنّ هذا المنبر قد صنع في قرطبة لمسجد مراكش، وتعود هذه الكتابة إلى عصر **عبدالمؤمن** (هـ525-559هـ/1130م-1163م)، ويعد هذا المنبر مدرسة لدراسة الفنون الإسبانية في حقبة الحكّام الأفارقة، ومنهم المرابطون والموحدون. ويقدم لنا هذا المنبر مثالا للحرف اليدوية والمعمارية على طراز الأندلس التي كان عليها أن تغيّر من أسلوبها ليتلاءم والواقع الدّيني الجديد للمرابطين. وقد عرف المرابطون بولعهم الشّديد بالأقمشة الثمينة ذات الجودة العالية المصنوعة في **ألمرية**.

وهذا يعني أنّ المرابطين سرعان ما أصبحوا مولعين بالفن والتحف الفنية الترفيّة والقطع الجميلة كملوك الطوائف، فقد أعجبوا باللوحة التي تمثل "صارع الأسد" المحفوظة في قبر سان برناردوكالغو (San

---

1– يشرف على الحفريات الجاترية الآن خوليونافاروبلازون(Gulio Navarro Palazon)، وقد تحل هذه الحفريات كثيرا من المشكلات المتصلة.

2– قام بتشبع هذه المؤسسات:.Julio D. Hong, blamie

History of Word Architecture(New York : H. N. Abrama, 1977), pp. 104-105.

(Berenardo Calvo في فيش (Vichy) وهي لوحة ترمز إلى القوة والوجاهة، وتلك الأقمشة الفاخرة أصبحت تعد تحديا للتعاليم الدّينية عند مجيئ الموحّدين خلفا للمرابطين حيث قاموا ببيع أقمشة المرابطين، وبذلك نجد تيارين فكريين أحدهما يمثل التعاليم الدّينية المتشددة وهم الموحّدون، والآخر لا يجد غضاضة في الإبقاء على الأدوات والفنون.

فنون الموحدين وعمارتهم

في سنة (540هـ/1145م)، قام القائد الموحدي **المهدي عبدالمؤمن** بقيادة قواته إلى مسجد المرابطين في **فاس**، حيث قام الجنود بإزالة الزخارف من المسجد، ثم توجه بقواته إلى إسبانيا بعد أن ثبّت ملكه في شمال إفريقيا واستغل فرصة تشتّت المرابطين في الأندلس الّذين أضعفهم التّدخل المسيحي في شؤونهم وإنشغالهم بالنساء.

وليس مستغربا أن يقوم القائد الموحدي في حملته على **فرناندوالثالث** (Fernando III) بإحتلال مدينة **طولوز** المشهورة بأفضل الأنسجة في ذلك الوقت، وهو المعروف بقماش **لاس نافاس** (Las Navas)، وكانت هذه الأقمشة موشاة بالحرير والخيوط الذهبية. مرة أخرى نجد أنّ حركة بناء المنشآت العسكرية وتأمينها تؤكد أن جيرانهم المسيحيين كانوا يشنون الغزوات عليهم، ومن هنا فقد بنوا الحصون الّتي أطلقوا عليها اسم "بربكانا" (barbacanas)، كما أنشأوا أبراجا إستراتيجية جديدة الطراز.

وقد عمل المهندسون المعماريون المدنيون والعسكريون معا في إنشاء المؤسسات الدينية والعسكرية، ويتضح هذا من خلال عمل واحد من المهندسين[1] المعماريين القلائل الذين عرفوا إبان السيادة الإسلامية على الأندلس، وهو المهندس **أحمد بن باصو** (Ahmed b. Baso) الذي قام ببناء عدد من المنشآت للموحّدين في إشبيلية وفي جبل طارق وقرطبة، كما بنى مسجد إشبيلية الكبير وقصر الموحّدين، والمعروف أنّ مسجد إشبيلية الكبير هوالمسجد الموحدي الوحيد ذوالمكانة الفنية. والخليفة الموحدي **أبو يعقوب يوسف** (559-580هـ/1163-1184م) هوالذي أمر ببناء هذا المسجد في عاصمتهم الجديدة إشبيلية، فقد إجتمع الخليفة مع ابن باصو وعدد من البنّائين لبناء ذلك المسجد، الذي بدئ في بنائه سنة (568هـ/1172م)، واستمر عشر سنوات، وما تزال منارته **الجيرالدا**La giralda قائمة حتى الآن بالإضافة إلى أجزاء من صحن المسجد.

أمّا سائر المسجد فقد حول إلى كاتدرائية في عصر النهضة، وكان المسجد مكوّنا من سبعة عشر رواقا مستقيما بإتجاه القبلة، مع اتساع في صحنه نحوالمحراب على شكل حرف (T)، وهو طراز أصبح شائعا

[1]– دونالد هيل "العلوم والهندسة في الحضارة الإسلامية"، ترجمة: أحمد فؤاد باشا، سلسلة عالم المعرفة، عدد 305، يونيو، 2004 م.

في المساجد الموحدية1، منذ أن شيّد مسجد تنمال (Tinmal) سنة (548هـ/1153م). وقد غدا نموذجا لفن الزخرفة في ذلك الوقت، لأنه يجعل إمكانية الزخرفة أكبر عند المحراب، ومما يلاحظ في مسجد تنمال والكتبية الثاني في مراكش أنّ الواجهات المبنية بالآجر يمكن طلاؤها بالجير، في حين تزخرف أعمدة المنحنى الداخلي للقوس بالصلصال حتى منتصف العقد بطريقة هندسية. أمّا الباب الشّرقي للصّحن فعقده مقرنص. والمقرنص نظام زخرفي ذو أبعاد ثلاثة تكوّن شكلا خروطيا، وطريقة زخرفته معقّدة، واستخدامه في عهد المرابطين والموحّدين يعدّ أمرا غاية في الإبداع، فالأقواس مشتملة على عدة فصوص تتخللها نتوءات وحفر في الجص بشكل هندسي، واستخدام نظام العقود المقرنصة في مسجد قرطبة الكبير، أمّا في مسجد الموحّدين فإن العقود المقرنصة مفنّنة وموضوعة بإحكام لتحدث نوعا من الطّبقات المزخرفة لتؤكد تصميم طراز الحرفT الذي يشير في نهايته إلى القبلة.

ويتضح من المنارة التي بناها **ابن باسو** لمسجد إشبيلية اهتمامه الكبير بالبساطة والدّقة والشّكل الهندسي في الزخرفة، وتتعانق فيها الأشكال الزخرفية بتناسق عجيب، فكل جزء به هالة مزخرفة، والزخارف متداخلة ومتشابهة إلى حد كبير، وهي مقتبسة من الأقواس المشهورة في قصر الجعفرية في سرقسطة، ولكنها فقدت كل سماتها المعمارية وكل صلة لها بالعقود الصّغيرة التي تدعمها.

وقد أصبحت الزخارف المعمارية في هذه الحقبة مشاكلة لما يطلبه رعاتها الصّارمون من رصانة في الأعمال، وفي بداية الحكم الإسلامي لإسبانيا كان التّداخل واضحا بين الشّكل المحلي وفن العمارة الوافد، ثم أصبح فن العمارة المحلي إسلامي الصّبغة، وكذلك الحال في سائر الفنون التي أصبحت تحمل دلالات سياسية وعقيدية.

وأوضح مثال على العمارة المتأثّرة بالعقيدة في عصر الموحدين2، هو فناء "دل يسو" (Patio del Yeso) في قصر إشبيلية، إذ لم يكن بالمتانة نفسها التي كانت للقصر، فقد كانت له قاعة على جانب واحد لها سبعة أقواس، واستعمل في الفناء النّمط الذي شاع في زمن الخلافة في إنشاء الأعمدة، أمّا في تصميم المسجد فقد اختفت تيجان الأعمدة، وأبدلت بتيجان استعملت في عهد الخلافة أيضا.

إن العقود الزخرفية في "دل يسو" لا تدعم الجدران، ولكنها تزيّن الواجهات الجصية المفتوحة، وهنا يتشابه تصميم القصر ومنارة المسجد الكبير، وهي غير خاصة لأي من الأسس التي تمنع المظاهر الحسّية والحرية في الشّكل، ولكنها تسمح بتسلل الضّوء والهواء.

---

[1]– المراكشي "وثائق المرابطين والموحدين"، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة ص 12، 1997 م.

[2]– يوسف أشباخ "تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين"، ج1، ترجمة محمد عبد الله عنان، ط3 ص132، مكتبة الخالجي، 2002 م.

وقد جرى الحديث حتى الآن عن الفن المعماري في القصور ومنازل الحكّام التي كانت تحظى بالنّصيب الأكبر من فنون الأندلسيّين، إلاّ أنّ بعض الدّراسات كشفت عن وجود بعض الفنون في منازل أناس أقل جاهًا ونفوذا من الحكّام، وهي تشير إلى تنوّع المساكن الشائعة وطبيعتها في الأندلس، وفي هذه البيوت يمكن أن نلاحظ تنوّع أشكال الخزف في الحياة اليومية من **ملقا Malaga**إلى **بلنسيةValencia**.

ويعد الحمّام من الأشكال المعمارية المشتركة بين العامّة والخاصّة، وهو من المنشآت التي يعود الفضل في إنشائها واستخدامها إلى الوجود الإسلامي في إسبانيا1.

وكان الغرض من إنشائه أن يغتسل المرء قبل ذهابه إلى الصلاة. ثمّ أصبح مؤسسة اجتماعية مهمة يستفيد منها اليهود والمسيحيون، وكان طابعه إسلاميا وليس على النّمط الروماني الإسباني القديم. وأقدم الحمامات الموجودة في غرناطة ويعود تاريخه إلى القرن الخامس الهجري /الحادي عشر الميلادي. ويتكون الحمّام من ثلاث حجرات: واحدة للماء البارد وأخرى للسّاخن والثالثة مكان دافئ كما هو الحال في القصور الأموية في بلاد الشام.

وبعد احتلال المسيحين للأرض الإسلامية ظلت الحمامات مرتبطة بالحياة الاجتماعية المسيحية، ولا سيما في الحمام المسيحي الموجود في "جيرونا" (Gerona)، ممّا يدل على مدى تأثّرهم بوجود المسلمين في إسبانيا.

الفن والعمارة عند النصريين

كانت مملكة النصريين آخر مملكة إسلامية في الأندلس قامت بعد سقوط الموحّدين، فمنذ قيامها في القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي وحتى سقوطها في سنة 897هـ/1492م، عاش حكامها على الأتاوات والتّحالفات، بما فيها تحالفهم مع مملكة قتشالة المسيحية، مما يدل على ضعفهم.

ومع ذلك، فقد ابتكر النصريون الأعمال الفنية ذات الصّبغة التّرفيهية المتقنة، ومن الواضح أن هذا الفن تطوّر في عهد الموحدين، ولكنّه في عهد النصريين إزداد تطوّرا ونموا وجنح إلى زخرفة والتجريد مبتعدا عن الأشكال الرّصينة التي انتشرت في عهد الموحّدين، إن مزهريات قصر الحمراء المشهورة الموجودة في غرناطة وبالرمو (Palermo) تدلّ على مستوى رفيع من التطوّر والإبداع في تقنية الخزف. وقد كانت هذه المزهريات تستخدم في أغراض عملية، ثم أصبحت تصنع لغايات جمالية فنية بحتة، فقد استخدموا الخزف البرّاق المشع لإضفاء صيغة جمالية على التّحف، ويتراوح طول هذه المزهريات بين 120سم و170 سم لتلائم طبيعة الأثاث الذي ستوضع معه، وهي مطلية باللون الأزرق اللّماع، ومزيّنة بكتابات زخرفية وأشكال نباتية متداخلة، إلى جانب بعض الحيوانات كالأسود، كما

[1]– يوسف أحمد بني ياسين "بلدان الأندلس" في أعمال ياقوت الحموي، مركز زايد للتراث والتاريخ، ط1 ص112، 2004م.

هوالحال في غرناطة، فتلك المزهريات لا تشتمل على موضوع فني واحد، بل على عدة موضوعات، وهوما يميز الفن النصري عن غيره.

ومن أبرز القطع الفنية المحفوظة في متحف الجيش (Museo del Ejército) **بمدريد**، سيف بغمده، وهومزركش ومغطّى بالفضة ومطعّم بالعاج، ومن المصنوعات الفنية في هذا العصر أقمشة حريرية فاخرة، كالستارة المأخوذة من الحمراء المحفوظة الآن في متحف كليفلاند (Cleveland)بامريكا، وغيرها من الأقمشة التي كانت توضع مع جثمان الميت في الشمال المسيحي، وهي في حقيقتها أقمشة إسلامية.

إنّ هذه المزهريات والأقمشة الحريرية وغيرها من الفنون العملية، ولا سيما ذلك المقعد الجميل المرصّع المحفوظ في متحف الآثار الوطنية بمدريد. كلّ ذلك يدل على معالم من نمط الحياة اليومية في القصر التي كانت تتصف بالبذخ والترف.

ولعلّ **قصر الحمراء** الملوكي يعزّز هذا الوصف، فقد بني القصر فوق القلعة الحمراء التي يعتقد أنّ الوزير اليهودي **يوسف بن النغريلة** (Yehoneph b. Naghrilla) الذي كان وزيرا لأحد ملوك الطوائف قد سكنها قبل بني نصر، ثم حوّل بناؤها على الطّراز النصري في القرن الثامن الهجري/الرابع الميلادي، وذلك حين أصبحت حاضرة ملكهم، تضم بين جنباتها **جنّة العريف** (Generalife)، وقصورا ومساجد ومدارس وغيرها من المرافق الأزمة لمثل هذه الحاضرة الملكية الرفيعة.

وقد نشأ جدال حول وظيفة الأجزاء المختلفة في قصر الحمراء، ولا سيّما بوجود سبعة قصور، من بينها قصر عام آخر خاص في قلب مجموعة من القاعات والأبهاء في القصر الملكي القديم، ويشكّل إثنان من هذه القصور قلب القصر الملكي القديم. ومع أنّ إنشاءهما يمتد إلى حقبتين ماضيتين، فإنهما ما يزالان يحتفظان بفكرة ثابتة ذات هدف غامض.

وكما هو الحال في مدينة الزهراء، فإن المداخل إلى غرف القصر الدّاخلية متعرجة، والغرف متراصة ومرتبطة بأبواب مشتركة لإظهار قوة الحاكم وهيبته. ويتضمن ما تبقى من الموقع الرئيسي للحمراء قصرين هما: قصر **قمارش** (Comaros) وقصر **الأسود**.

وكانت واجهة قصر قمارش هي بوابة القصر، وفي هذا القصر كان يعقد مجلس العرش حيث تصدر الأحكام، وهو تقليد مستعار من العباسيين في **سامراء**[1]، ويحيط بالقاعة من جانبيها فراغ يشبه الأروقة وفيه نوافذ تطل على المدينة، وتتخلل هذا الفراغ عقود تفضي إلى قاعدة بلا سقف.

وهذا يعني أنّ الإحساس بالغموض جزء من رسوم القصر، وهو متمثل هنا في واجهة القصر وكأنه ستارة خلفية تحجب الملك نفسه، وهذا الجدار متماثل الجانبين وفيه بابان كبيران تعلوهما نافذتان

[1]– توفيق برو "التاريخ السياسي والحضاري العباسي الأندلسي"، ص 200 جامعة حلب 1996 م.

رمحيتان مزدوجتان وبينهما نافذة صغيرة قوسية الشّكل، وتكسو الجدار زخارف جصية بأشكال هندسية رائعة الجمال ورسومات نباتية متداخلة، وزخارف مقرنصة على العقد، ونقوش كتابية.

وينشأ سؤال حول هذين البابين المزخرفين بطريقة مبهوجة: هل يغضي كل منهما إلى غرفة الملك؟ أم هل يفضي أحدهما إلى قصره دون الآخر؟ وأي المدخلين أعظم؟ وهو سؤال لا نملك إجابته، لأنّ مكوّنات واجهة القصر لا ترشدنا إلى شئ سوى السؤال.

ولذلك يقف المشاهد حائرا يقلّب الطّرف في هذه الزخارف والبهرجة التي تتبدل أمام عينيه، ممّا يخرج إلى حسّ فنّي رفيع لفهمها لما يكتنفها من الغموض، وتتّضح المفارقة حين تكتشف أنّ أحد البابين يؤدي إلى قاعة الإنتظار الفخمة، والآخر يؤدّي إلى القاعات الخاصّة وحجرات الملك النصري.

وعلى هذا فللأبواب صيغة طبقية واضحة، ولكنّها متشابهة في شكلها وزخارفها ولا يستطيع مكشف سرّها إلا من يدخلها، وممّا يشير إلى أنّ لتصميم قصر الحمراء طبقة ذات امتيازات وأخرى مجردة من هذه لإمتيازات، إنّ النوافذ العليا في القاعة الذهبية (Cuarto Dorado) تساعد على تهيئة عزلة تامّة لمكان الحريم.

وقد كانت الغاية من قصر الحمراء أن يجتمع فيه السمو والزخرفة لإضفاء مزيد من الغموض والتعقيد على صورة هذا القصر، فهو لم يكن مجرد استمرار لمزاج نفسي في بناء القصور يمتد إلى القصور الأولى في الشرق الأوسط، بل هوإستحضار واع للحس الأسطوري في القصور1، إنّها في الواقع أسطورة القوّة والثروة التي كانوا بحاجة إليها لتعزيز النشاط الثّقافي لآخر حكم إسلامي في شبه الجزيرة الإيبيرية، فالواقع السّياسي كان يشعرهم أنّهم مهدّدون بالزوال، ولا سيما أنّهم أصبحوا أذلاء بسبب المعاهدة والأتاوة التي يدفعونها لكفّار كانوا في الماضي تحت الحكم الإسلامي في إسبانيا.

أمّا فناء الريحان (Patio de los Arrayanes) أو قاعة الآس (Court of the Myrtles) فهي مأوى للملك **المنعم** وزوجاته، وأمّا قاعة السفراء فهي قاعة العرش التي تحكي قبتها قصة **قبة السماء** لما فيها من زخارف نجومية، ونقوش من الآيات القرآنية والشّعر العربي، وهوتقليد قديم كان متّبعا في الطّراز الرومي الأوّل للقصور في الشرق الأدنى، وهذا ينسحب أيضا على الغرف الصغيرة التي تحيط بقاعة الأسود، أمّا قاعة الأختين فتمتاز بقواررها البديعة وزخارفها المقرنصة التي بلغت الغاية في التعقيد بأشكالها الهندسية المثمنة، وتزدان جدرانها بآيات شعرية جميلة **لإبن زمرك** تصف عظمة هذا البناء، منها قوله:

به القبّـة الغراء قل نظيـــرتـها * ترى الحسـن فيهـا مستكنـا وباديـــا

[1]– التحليلات التالية اعتمدت على عدد من العلماء المختصين بالحمراء، ولا سيما غرابار:

Oleg Grabar, the Alhambre, Architect and Sodety (London

وتهوي النّجوم الزهر لوثبتت بها * و لم تكن فــي أفـق السّمــاء جواريـا

فـبين يـدي مشـواك قامت لخـدمة * ومن خـدم الأعلى استغـاء المعـــأيـا

ويستقر في النّفس إحساس قوي بأنّ الملك حين يجلس في هذه القاعة فكأنّه يجلس تحت قبة السّماء، ولكن بشكل أكثر تعقيدا وبلغة قوية مؤثرة، ممّا يذكرنا بأن الهندسة المعمارية يمكنها أن تخلق جوّا تاريخيا ممزوجا بالأسطورة التي تعمل على إضفاء صورة بابوية قيصرية على الملك، ولكن بمفهوم متأثر بالعبّاسيين في بغداد التي كانت مدينة الأساطير وحكايات القصور المثيرة ومركز السلطة الإسلامية التي لا تقهر، ومن هنا استمدت الحمراء معناها ووجودها لتكون أثرا خالدا يحاول التثبت بقوة تؤول إلى زوال سريع.

وهكذا نجد أن القبّة و السماء قد اجتمعتا حول شخص السلطان. وهوإعتراف واع بما يحدثه التعقيد في عقود القرصنة المعمارية من أثر في نفس المشاهد، فمبادئ الهندسة المعمارية والزخرفة التي تحمل في طياتها طابع الغموض كانت جزءا من البحث عن الجمال المستكن والبادي، ولا يكشف المرء مدى قوتها في ذلك إلا بعد تأمل كبير، حتى و إنْ أدرك ذلك فلن يقدر على فهمه لشدّة تعقيده. لقد كانوا يدركون أنهم جزء من النظرة الكونية التي تنشد العزاء في الإعتقاد بنظام علوي، مما قد يفسر سبب الإنهيار الوشيك للحكم الإسلامي في إسبانيا الذي دام سبعة قرون.

لقد إستطاع النصريون أنْ يبدعوا في تصميم قصر ذي طابع أسطوري يتحدّى قوتهم السياسية المتقلقلة، مع شئ من المغالاة في البهرجة والزخارف والإقتباسات الشعرية، مستروحين عبق من التخطيط الإسلامي الفخم والزخرفة. وكأنما أريد لقصر الحمراء أن يكون محاولة لتحدّي الحالة المتردية للمسلمين في إسبانيا لكونه ممثلا خالدا لقوتهم الثقافية القديمة الفعالة على رغم ضعف قوتهم السياسية والعسكرية عند بنائه. ومن الواضح أنّ نشرهم الخفي المتسبب في هذا التحول هوالحكم المسيحي الذي أخذ يستولي على ممتلكاتهم بسرعة.

ومن هذه المغالاة ما أشار إليه **غرابال** من وجود نقوش في القصر تمجد بسالة الملوك النصرنيين في معركة لهم مع القوات المسيحية في الجزيرة الخضراء، إذ جعل هذا النقش من معركة صغيرة نصرا كبيرا للحكم الإسلامي الذي لم يكن قادرا على أن يخضع هؤلاء الكفار سياسيا. وهذا النقش عبارة عن بيت شعر **لإبن زمرك** هو:

فكم بلدة للكفر صبّحت أهلها * وأمسيت في أعمارهم متحكما1

Grabar, Ibid.pp.140-141 –[1]

ولكن بناء الحمراء ينكر خطر التهديد الثقافي والنفوذ السياسي للمسحيين، وكأنّه بهذا الإنكار يبعد إسبانيا المسيحية عن طريق آخر مملكة إسلامية في الجزيرة الإيبيرية1. إن قصر الحمراء في غرناطة والمسجد الكبير في غرناطة والمسجد الكبير في قرطبة يشكلان أهمية فائقة للفنون في إسبانيا في العصر الوسيط، فالمسجد الكبير يمثل قصرا للعبادة عمل على تعزيز الشخصية الإسلامية في إسبانيا، البلد الغربي البعيد. والحمراء يمثل مشهدا فاتنا متقن الصنع لآخر القصور الإسلامية في الأندلس، فهو يحاول المحافظة على الشخصية الإسلامية وتاريخها لمنع سقوط إسبانيا المسلمة. إن هذين الأثرين يمثلان معلمين لحقبتين تاريخيتين مختلفتين2، ولكنهما يذكر أنّنا بما هو باق من الفنون والعمارة الأندلسية، من منطلق الحاجة إلى الإبداع الفني للإبقاء على الصبغة الثقافية، وإدراك وجود الطرف الآخر وقوته، وتبادل المواقع بين المسلمين والمسيحيين، ممّا لم يتح لأيّ من حكّام المسلمين أن يستريح ليعمل على تثبيت ثقافة في الجزيرة. وكان من وسائل الخلفاء وملوك الطوائف لتكوين الشخصية الإسلامية إستخدام الأشكال المحلّية في الفنّ. أما المرابطون والموحدون فقد عقدوا العزم على تنقية التقليد الإسلامي، الذي كان يعتمد إعتمادا كبيرا على الحياة المسيحية السياسية وتقاليدها الثقافية الوافدة من حوض البحر المتوسط، فهذه التقاليد ليست ضرورية في بلد يحكمه الإسلام. وكان لهذا الموقف أثر واضح في النظر إلى الأعمال الفنية بوصفها تنتمي إلى الثقافة الإسلامية. وقد كان لتسييس الأساليب الفنية ومضامينها أثر في الفنون النصرية ومضامينها، الذين كانوا مهددين وضعفاء، استغلوا التاريخ والأسطورة ليكون لهم موقع في رد محاولة المسيحيين طمس معالم إسبانيا المسلمة. لقد قدّموا لنا، في معرض دفاعهم، مزيجا من الصبغة الثقافية الأندلسية والتقليد الفني الإسلامي الإسباني الذي تميّز بالتعقيد والبهرجة.

النشوة و الإنضباط في الفن الأندلسي: خطوات نحو مقترب جديد (ج.ك. بيرغل)1

النشوة والإنضباط عنصران أساسيّان في الفن الإسلامي، يرتبطان بالبعدّين أوالقطبين في الدّين الإسلامي وهما الشريعة أوالنظام القانوني من جهة، والتصرف من جهة أخرى، ولو أنّ هذين المظهرين، كما سيمر بنا، هما في الواقع متشابكان أكثر من كونها منفصلين. والدور الرئيسي الذي تلعبه الأنساق الهندسية، والشكل عموما، في الفنون الإسلامية، يمكن أن يرى على أنه الوجه الآخر المنظور لصامة الشريعة.

[1]– حول ذلك، انظر Jurrilyun Dodds , « Paintings from the Sala de Justicia de la Alhambram : loonography and Loonology, » Art Bullarin ? Vol, 16, no. 2 (1979), pp. 186-198.

[2]– صاعد الأندلسي "طبقات الأمم" النشر الأب لويس شيخو، بيروت، 1912 ص 75 – 77 – يقصد بالجملة الأخيرة انه عاش المدة المذكورة.

فهذه الأشكال المجردّة تعكس المفهوم الإسلامي للنظام الذي يحكم الكون، ويجب أن يسود على الأرض، فيشكل بنية لا تقتصر على الأفعال الدينية وحدها، بل تنسحب على الفنون والعلوم والعادات الفردية والجماعية، وعلى الحياة العامة عند الجماعة الإسلامية، وعلى الحياة اليومية لكل مسلم.

لكن سيادة هذه الأشكال المجردة في تزيين المنظور ممّا يتعلق بالعمارة، أوالمصنوعات اليدوية، تصدر بالطبع كذلك من تحريم الصورة، ولو أنّ هذا التحريم يقوم في الواقع على حديث نبوي لا على أي نص قرآني يأمر بذلك صراحة.

لماذا غدا هذا الحظر على هذه الشدة في الإسلام؟ يجب أن نتذكّر، قبل كل شئ أنّ موقف الشريعة من التحديد لم يقتصر على إنتاج الصور وحسب، فقد كانت الفنون الجميلة الثلاثة، الشعر والموسيقى والرسم، بإستثناءات قليلة، موضع شك كذلك، بل رفض من جانب ممثلي القانون والنظام في الإسلام. لقد دارت أفكار كثيرة حول أسباب هذا الموقف، من بينها نظريات مختلفة لتفسير الدوافع وراء ذلك1 لكن قناعتي أنّ السبب الداخلي الأعم يكمن في كون الفنون قوى أوطاقات نفسية، بينما تنص العقيدة الإسلامية أن لا قوة ولا طاقة يمكن أن تصدر إلا من عند الله2.

إن الوعي بقوة القنون أوما أسميه "قدرة" لدى المجتمع الإسلامي التقليدي يتضح في شهادات كثيرة عن قوة الشعر والموسيقى والصور ممّا يوجد في المصادر القروسطية3.

قبل ظهور الإسلام، كانت هذه القوى وثنية، في بلاد العرب على الأقل، ولا تخلو من عناصر سحرية. كما كانت تمثل انتهاكا للدين، أو أنها بدت كذلك، في حضارات البلاد التي سيطر عليها الإسلام. فمن المفهوم، لذلك، أن تغدو الفنون، بما فيها من "مقدرة" لا يمكن السيطرة عليها، مثار شكّ من جانب النظام الجديد الذي كان يسمى لفرض سيطرته المقدمة وحكمه الدّيني على كل شئ.

وفي البدء ظهر هذا الإهتمام في الأحاديث النبوية الشريفة حول الرسم والشعر ثم جاءت النتائج الواضحة بعد ذلك4. تمثل العمارة الإسلامية المبكّرة، في وقارها القريب من الكآبة، دليلا على هذا الموقف.

وكان الإسلام ينطوي منذ البداية، ولو بشكل أقل وضوحا، على بعد آخر في كلام الله المنزل والأحاديث المبكّرة: ذلك هو بعد الوّجد. فلو بحثنا عن مواقع في شعور الوجد "النشوة" في الإسلام قبل ظهور

[1]- المصدر نفسه، ص 13 وما بعدها.

[2]- هذا يعبر عنه على أفضل وجه عبر المقولة الكلية الوجود "لا حول ولا قوة الا بالله".

[3]- قارن المصدر نفسه.

[4]- من الأمثلة تسمية محمد الشعر بأنه "قران الشيطان"، أو لمن المصوّرين والنساء اللواتي يتمن انفسهن ويتعايشن من الرا والسحر، للمزيد من التفاصيل، انظر: المصدر نفسه.

الصوفية لرأيناها في بعض الشعائر: صراعة الصيام، الصلاة الوسط جماعة كبيرة، مناسك الحج، وفي الجهاد. وبعض هذه الشعائر يكشف عن بنية من التكرار، تمثل العلائق مع الإنضباط والنشوة.
وقد يحضرنا مثلا بعض الأفعال المتكررة في الحج، مثل الطواف حول الكعبة سبع مرات، ورمي سبع جمرات ثلاث مرات في مواضع متعددة في منى.... الخ. وينطوي النص القرآني كذلك على أمثلة بارزة من بنى التكرار، وبخاصة في السورة [الرحمن] وفي بعض الروايات المشهورة المتعلقة بالنبي صلّى الله عليه وسلم، مثل حديث الشفاعة، وحديث المعراج، والتي تكشف عن **بنى التكرار** توجد في الزمان والمكان حسب نظرة الإسلام إلى العالم: تاريخ مقدس من تواتر الأنبياء، وعالم قرآني من سبعة أفلاك، عدّل منها بعد ذلك المفهوم الجلمي البطليمي.
لا بد أن يدهش المعنيّون بالفن الإسلامي، عاجلا أم آجلا، بالأهمية القصوى التي تمثلها بنى التكرار في جميع مظاهرها تقريبا، سواء في العمارة أو الزخرفة أو الخط أو الفرش أو غير ذلك. والتكرار أبعد ما يكون عن بعث الرتابة، كما قد يظن الغربي، فهومصدر بهجة متزايدة قد تبلغ حد الإنتشاء، أو الوجد. لكن هذا لا ينطبق، بالطبع، على كل تكرار مهما كان.
ففي الفن يجب أن يكون الموضوع المتكرر جميلا، وفي الدّين يجب أن يكون مقدسا، وفي الفن الدّيني يجب أن يكون مقدسا وجميلا في آن معا. وهذا ينطبق على النصوص المقدسة – إذ يعتقد المسلمون أنّ النص القرآني يمثل معجزة فذّة بحدّ ذاته – كما ينطبق على الموسيقى الصوفية أو الزخرفة المستعملة في عمارة الأماكن الدينية[1].
ويغلب أن يدعّم أثر التكرار بوسائل إضافية، مثل التسارع في الإيقاع أوالتقصير التدريجي في العناصر المكرّرة، وهو نمط من البنية يقع في الأساس من ترتيب السوّر في القرآن الكريم، وقد اقترحت وصفه بصفة "مخروطي". ثم إن الربط بين التكرار والتركيز الإيقاعي، وهو من الخصائص البارزة في الأداء الموسيقى الإسلامي، يمثل واحدا من الأمثلة الكثيرة على تركيب نظامين- مثلا يمكن أن يرى فيه رمز توحّد صوفي أو جسدي، فيكون ثانية، على صلة شديدة بالوجد.
ويعود الفضل إلى جهود التصوّف، بموقفه الموجّه نحو دواخل الذات، إن الفنون، ومنها رسم المنمنمات، والأدب والشعر بخاصة، قد غدت قادرة ومقبولة في التعبير عن المشاعر الدينية في الإسلام. وراح المتصوّفة يؤكدون أن الله ليس ربّ الجلال وحسب، بل هو رب الجمال كذلك، و"إن الله جميل يحب الجمال" وهوالحديث المنسوب إلى النبي صلّى الله عليه وسلم قد غدا بين الأحاديث الأثيرة في حلقات المتصوفة وكتاباتهم يكشف الله عن ذاته في خلقه بفضل فيضه الإلهي، وهي فكرة أفلاطونية محدثة غدت في اللبّ من سياق المشاعر

[1]– أنور الرفاعي "الإسلام في حضارته ونظمه"، ص 302، (دار الفكر 1973).

والجماليات الصوفية1، وهكذا غدا بوسع الفنان أن يتعاطى بالجمال دون خشية من إثارة متاعب، مطمئنا إلى أنه يساهم في فعل الخالق في الكشف عن الجمال الإلهي على وجه الأرض.

2 – العمــارة في الأنــدلس

برزت العمارة الإسلامية بإعتبارها فنا متميزاً له طابعه الذي يعبر عن خصوصيته، فهو ذاك الفن الذي يبعث في النفس هدوءًا وسكينة فترتاح العين لرؤيته، ويأخذ النفس بعيدًا لتسبح في الأجواء الروحية لإرتباطه بالعقيدة الإسلامية السمحة...

"فلقد فتح المسلمون ممالك شاسعة وإنضوت تحت راية الإسلام شعوب متنوعة عُرِفت بالعراقة في المعمار مثل: الفرس والرومان والآشوريين والمصريين.. ولكن المعمار في تلك البلاد كان يقوم على عقائدهم الدّينية، ويتمثل في التماثيل والصور والمحاريب والأديرة، فكان لا بُدَّ للمسلمين من فن معماري خاص بهم يختلف في جوهره ومظهره وأهدافه عن المعمار السابق.

وهكذا لم يمض القرن الأوّل للهجرة حتى كان المسلمون قد شيّدوا الجوامع الشاهقة والقصور الفاخرة، وبنوا البيمارستانات (المستشفيات) الضخمة والحمّامات والمطاعم الشعبية والإستراحات، وبنوا القلاع العسكرية والحصون والرباطات والأسوار حول المدن، وبنوا القناطر والخزانات والسدود للري، وبنوا المراصد والجامعات العلمية، كل ذلك بأسلوب الفن المعماري الإسلامي المتميز، وإذا كان الكثير من تلك المباني الإسلامية قد اندثر بفعل الزمن أوالحروب الصليبية فإن القليل المتبقي يدلّ على ذلك الماضي التليد".فإذا أردنا استعراضا لكل ذلك، وأردنا بيان الصورة الحضارية الرائعة لفن العمارة الإسلامي2 فإن هناك من العناوين ما يلي:

العمارة قبل الإسلام

تعدّدت أشكال العمارة في الحضارات قبل الإسلام وتنوعت، وإن كانت العمارة الدّينية هي القالب والمحور الذي إلتفّت حوله كل هذه الحضارات وصبّت فيه، وكان ذلك على النحو التالي: بصفة عامّة، كانت العمارة في الحضارات السابقة على الإسلام مقتصرة - في الغالب كما رأينا- على العمارة الدّينية متمثلة في بناء المعابد وتشييد الكنائس والكاتدرائيات، وصناعة التماثيل الكبيرة التي يعبدونها، وبناء المقابر للموتى وزخرفتها وتزيينها؛ إيمانا منهم بالبعث بعد الموت، بخلاف ما ندر من بناء الصروح والأبراج3.

---

[1]– المقّري، "نفح الطيب" ج1 ص 162.

[2]– منز "الحضارة الإسلامية"، ج 2، ص 355.

[3]– عبد العزيز بن عبد الله "معطيات الحضارة المغربية" ج 2 ص 67، ليفي بروفنسال: كتاب وصف إفريقيا للحسن الوزان ص 91.

العمـــارة في الإســـلام

لا نكون مبتدعين إذا قلنا بأن الحضارة بساط نسجته وتنسجه أيدي أمم كثيرة؛ إذ أنها متواصلة العطاء، وإن قيمة كل أمة في ميزانها يساوي ما قدمته مطروحًا منه ما أخذته من الحضارات التي سبقتها، وإذا لم ينكر عاقل أن الحضارة العربية الإسلامية أخذت من حضارات سبقتها، فإنه أيضا لا ينكر أنها واصلت العطاء، ووشّت بساط الحضارة الإنسانية بكل ما هو راقٍ وجميل.

وفي هذا المضمار فإنه إذا كان المسلمون قد أقاموا صرحهم المعماري بالإعتماد في البدايات على المهندسين والبنائين والصناع الإغريق والبيزنطيين والفرس والقبط وغيرهم، فإنهم قد إستطاعوا بعد ذلك أن يقدّموا للبشرية فنًا منفردا أصيلا ينطق ببراعتهم المتميزة وعبقريتهم الفريدة، وفي العناصر التالية تتضح معالم هذا الفن عندهم: إستعمل المعماريون المسلمون في مبانيهم كل أنواع مواد البناء كالحجارة والطوب المحروق والرخام والخزف، واستعملوا الخشب والحديد والنحاس، وكانت الخلطة اللاصقة من الجبس، أما الجير فكان يستعمل في المباني التي تحتاج إلى مقاومة الماء، كالأسقف والقنوات والمصارف، وكذلك في لصق الرخام. وكانوا يستعملون خلطة من الجبس والجير في صناعة الطوب المحروق، ويختلف عمق الأساس في الأرض حسب المبنى، ففي بعض المباني الضخمة كانوا يصلون إلى عمق عشرة أو أَحَدَ عَشَرَ متراً تحت مستوى سطح الأرض، وكانوا يستعملون أنواعاً من الحجارة الصلبة كالجرانيت أوالبازلت في الأساس.

وقد إستفاد المعماريون من شتّى العلوم والمعارف المعروفة في عصرهم وطبّقوها في مبانيهم، ومن أهم هذه العلوم علم الحيل (علم الميكانيكا) وعلم الكيمياء وعلوم الطبيعة مثل: الصوت والضوء والتهوية.

وقد إبتكروا أنواعا من الآلات الميكانيكية لرفع الثقل الكبير بالجهد اليسير أو لجرّه، منها أنواع من الكران، وآلات مثل المكحال والبيرم والمنخل والسفين واللولب والقرطسون، وكانت الحجارة الكبيرة ترفع إلى أعلى المبنى بحبال معلّقة على مجموعة من البكرات بحيث يجرها ثور واحد فيرفعها بسهولة إلى أعلى.

كذلك استفاد المعماريون من علم الكيمياء الذي تفوّق فيه المسلمون وطوّروه، فصنعوا أنواعا من الدهانات والأصباغ التي تتميز بالثبات والبريق، ومن المعروف أن المسلمين أوّل من استعمل الزجاج الكريستال الذي ابتكره العالم الأندلسي **عباس بن فرناس** سنة 887م، كما استعملوا في النّوافذ الزجاج الملوّن والمعشق في أشكال هندسية.

العمـــارة الإسلاميــة فى الأنـــدلس

عندما يعن للمرء الحديث عن أنواع وطرز العمارة في أصقاع المعمورة، يتبادر لذهنه على وجه السرعة صور عديدة لروائع عمارة المسلمين في الأندلس التي لبثوا فيها زهاء ثمانية قرون يشيدون فيها الصروح المعمارية، التي لا تزال من أكبر الشواهد على عظمة حضارتهم في قارة أوروبا.

فعندما وصل المسلمون إلى شبه الجزيرة الإيبيرية، كانت تحفل بكثير من آثار العمارة التي تعود إلى حضارات مختلفة كالإيبيرية والرومانية، بعض هذه الآثار ذات وظيفة دينية كالمعابد، وبعضها ذات وظيفة دفاعية كالقلاع والحصون، ومنها ذات الوظيفة المدنية كالقصور والمسارح والقناطر ونحوها.

ولقد صبغ المسلمون مدنهم المفتوحة بطابع إسلامي مميز[1]، وذلك بإقامة المساجد التي تعدّ نواة لعمارة المدن وتمدّدها، حيث أنّ المسجد يصبح بمرور الزمن مركز المدن والحواضر وقلبها النابض فمنه تتفرّع الطرق الكبيرة المؤدية إلى أبواب المدينة، ثم تتفرع منها الشوارع والأزقة الموصلة للأحياء.

وحول ساحة المسجد تقام الأسواق والحمامات والفنادق والقيساريات. وبداخل المسجد تعقد الإجتماعات السياسية، وتوزع ألوية الجيش، وتدرّس العلوم الدينية والعلوم العامّة. وهكذا نجد أن للجامع أثراً إيجابياً على حياة المجتمع السياسية والإقتصادية والإجتماعية. ولقد كانت هذه الظاهرة تتّبع في كثير من المدن التي يفتحها أو يختطّها المسلمون في شتى أصقاع المعمورة، فهذا هو حال دمشق والإسكندرية وقرطبة وإشبيلية وطليطلة وغيرها.

ولقد كانت بلاد الأندلس بمآثرها المختلفة، العلمية والعمرانية والفنية، مركز إشعاع مستديم للحضارة الإسلامية منذ أن توطّدت جذور الحكم الإسلامي فيها، ولا سيما في عهد **عبد الرحمن الداخل** ذلك الأمير الذي كرّس حياته لبناء الدولة الإسلامية في الأندلس. فبعهده بدأ فن العمارة يتلمس طريقه في الأبنية الدّينية والمدنية. ومازالت في الأندلس إلى يومنا الحالي شواهد حيّة على صدق تلك الحركة الكبرى في البناء والتشييد. ذلك أن عناصره المعمارية والزخرفية تؤلّف البذور الأولى للفن الأندلسي، حتّى أخذت زخارفه تشع في المشرق والمغرب، بل أثّرت في الزخرفة المسيحية المجاورة.

ولا شك أن عهد الإنطلاقة المعمارية هذا يشفّ عن مثل من أروع أمثلة العمارة الإسلامية بل العالمية في العصر الوسيط. وبعد ذلك العصر أي عصر الإمارة، وذروته - عهد الأمير الداخل- تتابعت العهود على بلاد الأندلس، وكلّها كانت تولي إهتماما بالغا بالفن ومظاهرالعمارة المختلفة المدنية والدّينية والدّفاعية.

[1]– ابن القرضي، "تاريخ العلماء ورواة العلم بالأندلس"، ع1، ت 15 –1، ابن حزم، جمهرة انساب العرب، ص 95 –96.

ومازالت قائمة منذ تلك العهود شواهد معمارية حيّة تميز بين عهد وآخر، وعلى الرغم من قلّة هذه الشواهد المعروفة المتكاملة البناء في عصرنا الحاضر كجامع قرطبة والحمراء وغرناطة، ومنارة اشبيلية[1] وبرج الذهب فيها، إلاّ أنّ هناك الكثير من الآثارالأندلسية المتناثرة في مدن وقرى إسبانيا.

بل أنّنا لا نبالغ إذا قلنا أن العمارة الإسبانية في معظم بلدان وسط وغرب وجنوب شبه الجزيرة الإيبيرية هي ذات طابع أندلسي يسهل تمييزه من خلال بعض العناصر المعمارية والزخرفية ذات الأصل الإسلامي التي قدّر لها أن تتطوّر في إسبانيا.

وممّا يؤسف له حقاً أنّه عند التعرض لبلاد الأندلس في أي مجال من مجالات المعرفة فإن ضرب الأمثلة وطرح الشواهد ينصب على عدد محدود من المدن الإسلامية في إسبانيا، لكن الواقع خلاف ذلك تماماً.

إذ يحلو للكثير الحديث في مجال العمارة مثلا عن حواضر ومدن كبيرة وشهيرة كطليطلة ومالقة وقرطبة وغرناطة ونحوها، لكن هناك العشرات بل المئات من البلدان التي تحتوي على آثارإسلامية لا تقل أهمية عن آثار تلك الحواضر، سواء كانت مساجد أومنازل أوقلاعا أو أسوارا أوقناطر وغيرها.

وينبغي أن نوجّه العناية لتلك البلاد المنسية ونبرز آثارها الحضارية كلّما سمحت الفرصة لتناول حضارة المسلمين في الأندلس.

هذه البلدان التي تحتوي في الغالب على أنواع العمارة الأساسية الثلاثة الدينية والمدنية والدفاعية، تزخر بكمّ هائل من طرز العمارة وعناصرها التي تميزت بها بلاد الأندلس. ولقد نبع وترعرع تميّز عمارة هذه البلاد من جذور إسلامية قد يراها المرء في معظم حواضر ومدن الأقاليم الإسلامية، لكن عمارة بلاد الأندلس تفرّدت بمميزات أملتها ظروف عديدة من أهمها نماذج الحضارات وتتابعها في حقبة تاريخية غير طويلة، إلى جانب توافر العديد من الإمكانات التي تساعد المعماري والفنّان المسلم على الإبداع والتفوّق من قبيل توفر المادة الخام من الأحجار والرخام والأخشاب، وكذا توفّر الظروف الجغرافية المناسبة التي تدفع إلى الإبتكار والتطوير.

وقد يتمكّن المعاين عند إلقاء نظرة سريعة فاحصة التعرّف على أبرز مميزات العمارة الأندلسية[2] وذلك على النحو التالي:

* المبالغة ببسط مساحات الجوامع والقصور عند تصميمها يرافق ذلك إرتفاع وسمك جدرانها، حتى ليخيّل للمشاهد أنّ هذه الأبنية ليست قلاعا أوحصونا حربية.

[1] – ابن عبود "التاريخ السياسي والاجتماعي لإشبيلية في عهد دول الطوائف"، ص 99، تطوان 1983 م.

[2] –R. Arié, L’Espagne Musulmane PP. 300 - 363

* الإهتمام برفع أسقف المساجد وعمارتها على عقود وأعمدة رخامية جميلة، مع الإهتمام برواق القبلة والبلاطة الوسطى على وجه الخصوص، إلى جانب غرس صحن المسجد بأنواع الأشجار المثمرة والإستفادة منها كظلل للمصليين.

* الإهتمام قدر الإمكان برفع منارات المساجد، وذلك حتى يصل صوت المؤذن إلى أقصى مسافة ممكنة، إلى جانب اعتبارها معلما يهتدي بها الناس إلى البلدان.

* تصميم الدور الأندلسية انطلاقا من فناء مركزي تطلّ عليه وحدات المنزل السفلية والعلوية، بحيث يخدم الفناء كمتنفس للمنزل مع إستخدامه لمزاولة العديد من النشاطات العائلية.

* بناء المنازل على أزقة ضيّقة كي تستجيب لأهداف اجتماعية وأمنية شتى كالإهتمام الأسري والتكاتف الإجتماعي والأمني.

* الإهتمام بالزخارف الداخلية الكتابية والنباتية والهندسية، مع الحرص على تغطية الأسقف والقباب بالقرميد.

* الحرص على إستخدام المياه كعنصر جمالي إلى جانب استخداماته الوظيفية.

هذه لمحة عاجلة عن العمارة الإسلامية في الأندلس التي كانت مركز الإتصال الدائم بين آسيا وإفريقيا من جهة وبين أوروبا من جهة أخرى. والتي كانت بمثابة الجسر الذي عبرت خلاله تأثيرات الحضارة الإسلامية إلى أوروبا.

3- العمارة الإسلامية في الأندلس شاهدة على تاريخ إسلامي عريق

كانت فترة الحكم الإسلامي بالأندلس[1] من أهم فترات ازدهار فن العمارة والهندسة بالعالم، وكانت الأندلس في ذلك الوقت من أهم نوافذ النور والحضارة للعالم كله. إنّ التراث الإسلامي والحضارة الإسلامية بائنان للزّائر لإسبانيا الحديثة، هذا الإرث الحضاري بدأ بعد الفتح الإسلامي للبلاد في سنة 711 م والذي استمر حتى تمَّ إجلاء المسلمين من طرف الملوك الكاثوليك سنة 1492م بسقوط آخر إمارة أو دولة لهم في غرناطة، وكانت إسبانيا أثناء تلك الحقبة الزمنية تسمى الأندلس.

وقد ترك المسلمون طابعاً فنياً ومعمارياً غنياً على كامل التراب الإسباني، إلا أنّ أبرز هذه الآثار المعمارية ما هو موجود في إقليم الأندلس الحالي أي جنوب إسبانيا، كما هو الحال بالنسبة إلى مسجد قرطبة الجامع وقصر الحمراء والزخارف الرائعة في غرناطة.

---

[1]– عبّر ابن سعيد المقّري عن ذلك بقوله: "كانت سلطنة الأندلس في صدر الفتح على ما تقدّم من اختلاف الولاة عليها من سلاطين إفريقية واختلاف الولاة داع إلى الاضطراب وعدم تأثر الأحوال وتربية الضخامة في الدولة، ولما صارت الأندلس لبني أمية وتوارثوا ممتلكاتها وانقاد إليهم كل كل أبي وأطاعهم كل عصي عظمت الدولة بالأندلس وكبرت الهمم وترتبت الأحوال"، المقري، "نفح الطيب"، ج 1 ص198.

فـــن الزخـرفـــة

رغـم إستفـادة المسلمين فـي فـن الزخـرفة في بعض عناصره مـن حضارات الإغـريق والرومـان القديمة، إلا أنّ المسلمين طـوَّروا بـل وبلْـورُوا نـمطـاً فـنياً جديداً، كما يـبـدو ذلك للعيـان في الزخرفـة والعمـارة. وحقيقـةً فقد ذاع صيت الفن الإسلامي أكثر فيما يتعلـق بالزخـرفـة وفنـونها، أكثـر من غيره من الفنون الأخرى كالتشكيلية مثلاً. ومع كلّ ذلك، فإن جميع الزخـارف الإبـداعـيـة الإسلامية كانت تشمـل كلّ مجالات الحيـاة وكلّ المـواد والأحجـام مع تـوظيـف كلّ التقنيـات المتوفـرة آنـذاك. وكانت هنالك أربعـة عناصـر رئيسية لهذا الفـن هي: الخط العربي، الزخـارف النباتية، الأبعـاد الهندسيـة ثم الأشكـــال والأنـمـاط الجمالية.

هذه العناصـر تشكّل في نهاية المطـاف زخـرفة غـزيرة فيَّـاضة، والتي تجعـل المـرء يشعـر بالخـوف أمام فضـاء فارغ أو ظـاهــرة ما يسمّى بِـ "الخـوف الأجـوف" فالفُسَـيْـفِسَـاء الزخـرفية في مدينة غـرنـاطـة تعتبر علما هندسيا مهما ومهـما جداً في الفن المعماري الإسلامي، إذ أن هذا الفـن سُخّـر لإثبات وحـدانيـة الله ـ سبحانـه وتعالى ـ. وقد استخدمت الدوائر المتقنـــة المضبوطة كمعيار نموذجي ممّا يفسح المجال في إبداع موضوعات فرعيـــة ذات صلة بالموضوع الأصلي.

أمّا في الرسم فقد طبِّقت مبادئ الإعــادة التناظــرية والتكثير أوالتقسيـم أوكليهمـا معاً، حيث تـمَّ التعامل مع الرسم كَـفـَنٍ عقـلاني ذهــني أكـثـر ممّا هـــوعاطفي انفعالي طبقاً لمبادئ الرياضيـات. وقد استخدمت في هذا الفـن إطـارات ذات خطـوط متشعّبة ومتقاطعة فيما بينها مكونة أشكالاً (رسما)أو أشرطة ضفائرية، منعطفات، رسوم تعرجية وشطرنجية وعقد وروابط مكوّنـة فيما بينها نجـوم .

يعتمد جانب من فن العمـارة بمدينـة غـرنـاطة على تكرار عناصر بسيطة متشابكة أومعقدة للحصول على معاييـر تستخـدم كنمـاذج زخـرفية. ثم يتـمّ إعـادة هـذا النمـوذج بالتنـاظـر حسب الـذوق أوالحـس الفـني، وتتمّ متـابعـة هذه النتيجـة بصفـة دينـاميكيــة ومتنـاسـقـة، بحيث لا تطـغى التفاصيـل على الأصـل العام ولا تضـــارب ولا اضطـراب بين الموضوعات، وهوما يسمّى بظاهـرة التـــوازن الحسـي. فالتكـرار اللامتنــاهي للمواضـيع ما هـو إلا عـبـارةً عن استعارة سرمدية أزلـيـة تمـلأ الفضـاء. وعموماً الدّين الإسلامي الحنيف يحـرّم تصويـر ذوات الأرواح كالإنسان والحيوان، ولا سيما في دور العبـادة كالمساجد والجوامع، إلا أنّنا نجد في القصور الأندلسية مناظـر ضخمة للصيد سواء أكانت من الفسيفسـاء أولوحات تصويرية عملاقة: ففي الحمامات نرى مناظـراً ممتعـة لطيفـة وأحياناً غير محتشمـة، كما هوالحال في قصـر عميـرة، أومُـزينة بفسيفساء صيد أومطـاردة ولوحات رمزية كما هومحفوظ في قصر الـمَفْـيَــار El Mafiar.

فــن العمــارة الأندلســـي

المساجد: إن نمط العمـارة ذي الطابع الإسلامي[1] المحض هو الذي أستخـدم في تشيـيد المسـاجـد، حيث أنّ الآجر العربي والرّخام والمرمـر والجـبس الزخـرفـي هي المـواد المفضـلة لبناء بيوت الله.

وقد كان الأصل المتبع في بناء المساجد جميعها هومتشابها لمسجد النبي **مُحمَّد رسـول الله صلى الله عليه وسلم**، والذي كـان عبـارة عن جناحيـن إحـداهما مغـطّى والآخـر مفتـوح على الـهـواء الطلـق. هذا المخطط البسيط تمّ تطويره تدريجياً إلى أن تحوَّل إلى مسجد جامـع بكلّ ما تعني هذه الكلمة من معنـى، بُـغـيَة أدائـه المطلوب لجميـع الوظـائـف المنوطـة به من صلـوات وغيرها، خدمةً لعامة المسلمـين على الوجه الأكمـل.

وكلّ المساجد كانت مستقبلة للقِبْلـة أي بإتجـاه بيـت الله الحـرام في مكة المكرمة، وكان في جدرانها الأمامي يوجد محـراب، من أيـن يَـؤُمُّ الإمام المصلّيـن. كما كانت تحتوي على منـارة أوصـومعـة، من أين ينادي المـؤذن للصلاة خمس مرات في اليـوم والليلـة. وكانـت هذه المسـاجـد مـزوّدة بفنـاء أوصحـن، أين توجد عدّة ينـابيع للوضوء أومـواضـئ. ويسمى الجزء المغطّى من المسجـد حَـرَمـاً، وهوعبارة عن قاعة كبيرة واسعة ذات أروقـة عمودية متجهـة نحـوالقِبْلَـة.

هذه الأروقــة تطـول للغايـة في بعض الأحـيـان لتتحـوّل في نهايتها إلى دائـرية متصلـةً بصحـن المسجـد. ومن أبرز المسـاجـد الكبـرى ذات الشهـرة في الأندلس يأتي بلا جدال في المرتبة الأولى مسجـد قـرطبـة الجـامـع، أمّا أصغرهـا فهـوالمسجـد الملكي المناصير الذي لم نعثر على اسمه العربي. فمسجد قرطبة الحالي رائع ورائع جداً، إذ يترك انطباعاً مؤثـراً لدى الزائـر. هذا المسجـد الجامـع يحتوي على حوالي 500 عمـود وقوس في منتهـى الروعة. بدأ تـشـييده إبَّـان عهد الخليفة **عبد الرحمـن الأول** ثم **عبد الرحمـن الثاني** ثم **عبد الحكيـم الثاني** وأخيراً **الخليفة المنصور** في عام 987م.

ويعـتـبر مَـعْـلَـمـاً حضارياً راقياً لا مثيل له ويُـعَـبِّـرُ بحـقّ في ذات الوقت عمّا وصل إليه فـن العمارة من براعة خيالية في عهـد خلفاء الأندلس. فتلكم الغاية المنَـمَّـقـة من الأعمدة والأقواس الجبارة بين أركان المسجد الأربعة لـتُـعَـدُّ ـ بما لا يدع مجالاً للشك ـ من أفخـر وأروع بنيان رحـب شُـيِّـد على مَـر التاريـخ لأداء مناسـك العبادة. إلاَّ أن محـراب هذا المسجـد يميل بعض الشيء عن اتجـاه القِبْلَـة في مكة المكـرمـة.

[1]– شاخت وبوزور "تراث الإسلام" (الجزء الثاني)، ترجمة حسين مؤنس واحسان صدقي، سلسلة عالم المعرفة، عدد 234، الكويت أغسطس 1978 م.

المدارس الإسلاميـــة في الأندلـس

ومن ضمن المباني المعماريـة المميزة للعـالـم الإسلامي عن غيره تأتي المدارس الإسلامية التي تـؤدي وظيفة التعليم الشـرعي وغيره من العلـوم الأخـرى. وتبنى هذه المدارس عـادة حـول فنـاء فسيـح رحـب، بحيث تـفتـح أربـع قاعـات كبـيـرة أفـواهـها في ذلك الفنـاء، وتسمى كلّ قاعة إيـوان، وفوق هـذه الأخيرة توجد حجرات سكنية للطلاب. ولا زال جزء كبير باقي كما هو من **مدرسة غرناطة،** غير أنّ أكثـر ما يثير الدهشـة هي مدارس القضـاء في فـاس بالمغـرب الأقصى، وخاصـة مدرسة **العينانية** بالإضافة الى تحصـيـن المـدن كينبوع بلاط الريّان بقصر الحمراء في غرنـاطـة.

أمّا في مجال الفنون الحـربية فقد ازدهر فن تحصين المـدن، عن طريق إحاطـتهـا بأسـوار مزودة بقلاع دفاعية على طول مسار هذه الأسوار، يتقـدم هذه الأسوار حصن لحمايتها ذو متـاريـس مسـنـنـة، أبواب مداخـله عادة ما تكـون في أحد زوايــاه. ومن ضمـن الأسوار ذات الأهمية البالغة التي تقع في **نـيبلـةNevella** و**إشبيليةSevilla**. بالإضافة إلى الأسـوار، هنالك نوع آخر من التحصينات الدّفاعية لا تقل أهمية عن سابقاتها، ألآ وهي القصبات المحصنة، وهذه القصبات تعتبر بمثابة ملاجئ في المدن الكبرى ذات الكثافة السكّانية، كما هو الحال في مدن **مالـقة** Malagaو**العامريةAlmeria**.

القصبة بمدينة مـالـقـة Malaga(البَـسْـتَـنَـة وفَـنْ الـرَّي)

إنّ هناك جزء هامٌ للغاية من الحضارة الإسلامية في الأندلس1 لم يكتشف بعد ولم يتطرق له الباحثون، وهذا لا يتجلى بوضـوح في مجال هنـدسـة الحدائق العامرة والبسـاتين الخلاّبة فقط، بل وفي بناء النافـورات الزخرفية واليـنـابيع والعيـون المائية، أين تمّ استخدام أرقى تقنيـات وفن الفلاحة. وقد أبدع المسلمون في هذا المضمـار أيّمـا إبـداع، وعلى وجه التحديد في فن الفلاحة والري وعلم النبات .

إنّ الماء هو أهم مـادة في الفن المعماري الإسلامي، فقيمته ليست مجرد رمزية فحسب، بل حتى أنه يعتبر شعيرة من شعائر الدّين الإسلامي و هذا ما تريـد أن تشـيـر إليه الآية الكـريمـة:

"وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾ "سورة الأنبياء.

وقد استخدم أهل الأندلس الضوء وخصائصه الفنّيـة في إجـراء تعديـلات في عنـاصـر الزخرفة وأيضاً في استحداث صيغ وأنماط جديدة في الزّخرفة والتزيـين. وكلا الأمران ـ أي التعديلات والإستحداث ـ أدّى إلى بلورة وحركية فن الزّخرفة بصفة عامة، وإلى زيادة الإستعجاب والإنبهار لدى الزائر عند رؤيته للمعالم الآثار الأندلسية .

---

[1] – عبد الحميد حسين "تاريخ حضارة المغرب والأندلس في عهد المرابطين والموحدين"، ص 160، دار شموع الثقافة 2002م.

لقد بنيت أحياء القصبة في مدينة **مالقةMalaga** و**العامرية Almeria**على تلّ مرتفع، بحيث تشرف هذه الأحياء على الحدائق والبساتين من أعلى، وعلى أن يكون مصدر الماء في مركز الرؤية، حيث السواقي والبرك والعيون الجارية و الينابيع الرقراقة والنافورات المنهمرة، هذه الأخيرة تكسب الحي منظراً رائعاً بديعياً، حيث الماء الصّادر والوارد من وإلى خزاناته ومواضع السّقاية والري.

وبعد إجلاء المسلمين من الأندلس من مدينة **مالقة Malaga** كتب **واشنطن إيرفينغ** Wachington Irfing واصفاً المدينة: **"**إنّ الحدائق المعلّقة الخلاّبة وبساتين البرتقال والليمون والرمّان وشجر الأرز المتدلّي والنّخيل الشامخات، كلّها تتعانق فيما بينها البين مرتكزةً على قواعد من الحجارة والصّخور ومحاطة بالأسوار المسنّنة والقلاع المتغطرسة لتجبر المرء على الإعتقاد بأنّه في بحبوحة رغد العيش وأن اليسر والتّرف والرّفاهية قد ساد وسيطر على ما بداخل الموقع**"**.

إنّ معالجة التّناسق بين الماء والنّبات في قصر الحمراء وجنّة الرّيف Generalife لهي إبتكار مستحدث من جميع النّواحي لا مثيل له، فمناظر الواجهة تُرى وكأنّها وراء جدران الأسوار وهذا بالطّبع خلاف الواقع مما يُكوّن مشهداً حسن الإيقاع والتّرابط بين فن العمارة والطبيعة1.

فسماع خرير الماء المتضافر مع عبير الأزهار والورود وشذي النّخيل والأشجار ينعشك ويجذبك نحوه، بل ويستدعيك لزيارته، وجدير بالإشارة إلى أن الإلتحام والتّكامل بين عناصر علم التّناسق والتّداخل الحضري أكثر انفتاحاً من فن البستنة التقليدية الإسلامية، فهو في ازدهار مُطّرد.

إنّ الإعمار على عدة مستويات ومدرجات وتقاليد الحديقة، البستان أوالجُنَينَة ذات المصدر المائي في مركزها المنتشر على أوسع نطاق في كلّ الأندلس برمّته.

المدن الأندلسية : إن مقر إقامة الخليفة **عبدالرحمن الثّالث** في مدينة الزهراء عبارة عن مَعْلَم عمراني فريد من نوعه، إذ هو بمثابة المبنى الوحيد من بين القصور الفخمة العديدة والتي لا زالت تشهد على عظمة حضارة دولة الأمويين في قرطبة2 فبهوه على سبيل المثال ثري محاط ببساتين خلابة يميز مدينة الزهراء.

وعلى غرار الفن المعماري الشّائع في العالم الإسلامي فإنّ مهندسي مدينة الزّهراء استفادوا من معالم الأرض الطبوغرافية، فعند وضع الأسس الأولى لتشييد هذه المدينة تمّ اختيار آخر سلسلة جبلية متفرعة عن الجبال السّوداء Sierra Morena على بعد 5 كيلومترات من مدينة قرطبة، بحيث اتخذ حزام حائطي مستطيل الشكل يسوّر المدينة من كل الجهات، وتمّ بناء المدينة في ثلاثة أحواض نباتية، والّتي هي في ذات الوقت بمثابة شرفات تنتهي بتداخلها مع جدران الأسوار ومُعدة للتّناسق الجمالي مع

---

[1]– عبد الإله بنمليح "الرّقي في بلاد المغرب والأندلس"، ص 98 ، مؤسسة الانتشار العربي، 2004 م.

[2]– محمد أبو الفضل "دراسات في تاريخ وحضارة الأندلس"، دار المعرفة الجامعية ص100، 2000 م.

المنظر الجبلي ومتخذة من سفاح الجبال ركائز ودعائم تتكئ عليها. وبعض الشّوارع ذات جسور وأرصفة مجصّصة في عمق الجبال، أمّا المنحدرات والمنعطفات فمزودة بسلالم ومدرّجات لتيسير الإتصال داخل المدينة، ومن ميزات العمارة الأندلسية إبّان الحكم الإسلامي لإسبانيا كثرة وتنوع الحمامات المتخصّصة في نظافة البدن والرّوح، وبعضها مشتقّ من الينابيع الحارة الرومانية ومزودة بحجرات عديدة ذوات درجات حرارية مختلفة: من الباردة جدّاً حتى الشديدة الحرارةً، مع الإشارة إلى أنّ الغلايات كانت توجد تحت سطح الأرض، ويمكن ذكر بعض هذه الحمّامات العجيبة كالتي توجد بمدينتي خائن Jaen والروندا Ronda .

القيصريات والفنادق: لا يمكننا هنا إلاّ أن نشير إلى الغرف القيصرية أو القيصريات والّتي هي عبارة عن غرف مقصورة مسدودة بإحكام منعاً لدخول الهواء، بداخلها سوق غني، أين تباع البضائع والسلّع الغالية، مثل القيصرية المشيدة في مدينة غرناطة.

كذلك يوجد ما يسمى بالفنادق وهي بنايات مخصصة ـ على خلاف سابقتها ـ لإدّخار وتخزين الغلاّت والمحاصيل وأيضاً محل إقامة التجّار الكبار.

وهناك ما يسمّى بالفناء الفخمي أوالنّزل في غرناطة وهوعبارة لون آخر من الفنادق الذي يستخدم فقط كمأوى للتجار العرب، وهذا النّوع هوالوحيد الذي احتفظ به في إسبانيا الحديثة كما كان سابقاً من نظام الفندقة العربي .

الإرث الأندلسي

كلّ المساجد كانت مستقبلة للقِبْلة أي بإتجاه بيت الله الحرام في مكة المكرمة، وكان في جدرانها الأمامي يوجد محراب، من أين يَؤُمُّ الإمام المصلين، كما كانت تحتوي على منارة أوصومعة، من أين ينادي المؤذن للصلاة خمس مرات في اليوم والليلة، وكانت هذه المساجد مزودة بفناء أوصحن، أين توجد عدة ينابيع للوضوء أومواضئ. ويسمى الجزء المغطى من المسجد حَرَماً، وهوعبارة عن قاعة كبيرة واسعة ذات أروقة عمودية متجهة نحوالقِبْلَة.

هذه الأروقة تطول للغاية في بعض الأحيان لتتحوّل في نهايتها إلى دائرية متّصلةً بصحن المسجد، ومن أبرز المساجد الكبرى ذات الشّهرة في الأندلس يأتي بلا جدال في المرتبة الأولى مسجد قرطبة الجامع، أمّا أصغرها فهو المسجد الملكي المناصير.

4- معالم معمارية أندلسية

آثـار المساجـد: يقترن عصر الفتوحات الإسلامية بإنشاء مراكز عمرانية إسلامية، كان الغرض منها أن تكون قواعد حربية ومراكز للجيش من جهة، وسبغ البلاد المفتوحة بالسّبغة العربية الإسلامية من جهة ثانية، أولى هذه المدن التي أنشأها العرب بعد فتح العراق مدينة **البصرة** التي أسست على يد **أبي موسى الأشعري** سنة 15هـ و**الكوفة** التي اختطّها **سعد ابن أبي الوقاص** بأمر من الخليفة **عمر بن الخطاب** سنة 17هـ[1].

كما أتيح لمصر بعد أن إمتدت إليها أشعة الإسلام سنة 21 هـ أن تشهد عصبية جديدة هي الفوسطاط بدلا من الإسكندرية العاصمة القديمة، ولمّا تولّى **عقبة بن نافع الفهري** قيادة جيوش المسلمين على برقة وطرابلس وإفريقية، اختطّ سنة خمسين هجرية قاعدة إسلامية هي مدينة القيروان.

هكذا تميّز عصر الفتوحات بإنشاء المدن الإسلامية في سائر أنحاء العالم الإسلامي بإستثناء الشّام الذي كان يسخر بأخاذده، وهي الدّور المهجورة التي تركها أصحابها من الروم فيرارا من جيوش العرب، فأصبحت أخادد العرب. ونزل العرب في مدنهم التي اختطّوها وفي المدن القديمة التي فتحوها وصبغوها بالسّبغة الإسلامية وذلك بإقامة المساجد الجامعة التي كانت تتحكّم في تخطيط المدينة وفي عمرانها، على نحوما ففعلوه في **دمشق** و**الإسكندرية** و**قرطبة،** وبذلك كانت المساجد هي الأساس الذي يعتمد عليه العرب في سبغ المدن المفتوحة بالسّبغة الإسلامية، إذ أنّ المسجد الجامع يصبح بمرور الزّمن مركز المدينة وقلبها النّابض، فمنه تتفرّع الطّرق الكبرى المؤدية إلى أبواب المدينة، وحول ساحته تقام الأسواق والحمّامات والفنادق والقيساريات، وفيه تعقد الإجتماعات السياسية، وتوزع ألوية الجيش، وتدرس العلوم الدّينية وغير الدّينية.

فليس غريبا أن يسير الجامع على الحياة الإجتماعية والسياسية والإقتصادية في المدينة الإسلامية[2]، وليس غريبا أن تتحول هذه المدن التي افتتحها العرب إلى مدن إسلامية قلبا وقالبا، ولا تختلف عن المدن التي اختطّها العرب إلاّ بكثرة أبنيتها القديمة الدّالة على الحضارات الدّارسة القديمة، كالجسور الرومانية، وأقواس النّصر، والحمّامات، والملاعب، والأسوار.

وهكذا كان بناء المسجد الجامع في الإسلام أساس العمران في المدن الإسلامية، فكان يراد طبعها بالطّابع الإسلامي، حيث كان المسلمون منذ الفجر الإسلامي وزمان الفتوحات الكبرى، يشيّدون المسجد الجامع بادئ دي بدء رغبة في إطفاء السّبغة الإسلامية على المدينة، كما كانوا يبدأون بإنشائه قبل أيّ بناء

[1]– عبد العزيز سالم (جامع الكوفة)، مقال للجزء الثاني من كتاب "مساجد ومعاهد"، كتاب الشعب، عدد 78 القاهرة، 1960م، ص 219 وما يليها.

[2]– انظر مقال (التخطيط ومظاهر العمراني في العصو الإسلامية الوسطى)، بمجلة "المجلة"، العدد 9 سبتمبر 1957م.

آخرعند تأسيسهم للمدن الإسلامية، وما يلبث العمران أن ينمو حول المسجد بدور ومختلف الأبنية، ويشدّ النّاس الرّحال إلى المدينة.

أمّا بالنسبة للمدن المفتوحة، فقد كان المسلمون يكتفون بمشاركة النّصارى في كنائسهم، كما فعلوا في الشّام حين شاطروا نصارى دمشق في كنيسة بوحنا المعمدان، وحدث في الأندلس ما حدث في الشّام إذ امتثل المسلمون الفاتحون لقرطبة ما فعله **أبوعبيدة بن الجراح** و**خالد بن الوليد** عن رأي **عمر بن الخطاب** من مشاطرة النّصارى في كنائسهم، فشاطروا نصارى قرطبة كنيستهم العظمى التي كانت تقع داخل مدينة قرطبة نفسها بالقرب من السور الجنوبي الذي يحيط بالمدينة، قبالة باب القنطرة Alcantarra، وابتنوا في هذا الشّطر جامعا بسيط البناء غير منتظم التخطيط، أسّس **حنش الصنعاني** و**أبو عبد الرحمن الحلبي** التابعان قبلته بأيديهما، وتركوا النّصف الآخر للنصارى يقيمون فيه شعائرهم الدينية1، كذلك أقيم جامع الجزيرة الخضراء على يد **عبد الله بن خالد** على انقاض كنيسة، كما أسس **جامع طليطلة** هوالآخر على أساس كنيسة قديمة.

كلّ ذلك يدلّ دلالة واضحة على الدّور الذي لعبه المسجد الجامع في المدينة الإسلامية، وعلى أهميته بالنسبة للمراكز العمرانية الأخرى في المدينة2، فكانت الأسواق العامرة بالثّياب والديباج، والحوانيت الزّاخرة بالعطور وأنواع الطّيب، والصّاغة والعطّارين تقام في ساحة المسجد ورحبته المحيطة به، وكانت تتفرع من هذه السّاحة طرق المدينة الرئيسية ودروبها وشوارعها التي تفضى إلى الأبواب الخارجية، وهكذا صار المسجد نقطة التّحول في دراسة الطبوغرافية التّاريخية للمدينة الإسلامية.

وإذا تحدّثنا عن المساجد الأموية في الأندلس فإنّنا نقصد بذلك ما أقامه أمراء بني أميّة في قرطبة وغيرها ولكننا سنقصر الحديث على أهمْ هذه المساجد بالنسبة لما يحتفظ به من آثار أي أنّنا سنتحدث عن المساجد التي بقيت منها آثار هامّة وأولها المسجد الجامع قرطبة، وجامع إشبيلية وجامع طليطلة.

المسجد الجامع بقرطبة

كان جامع قرطبة من الوجهة الفنّية أروع أمثلة للعمارة الإسلامية والمسيحية على السّواء في العصر الوسيط، ومن الوجهة العلمية أكبر جامعة إسلامية تدرّس فيها العلوم الدّينية واللغوية، ويفد إليها الطلاّب المسلمين والعجم للدّراسة والتحصيل، لذلك اشتهرت مدينة قرطبة لإشتمالها على المسجد الجامع " الذي ليس في بلاد الأندلس والإسلام أكبر منه3".

---

[1]– ابن عذاري ج 2ص 341 وبما يليها – المقري، "نفح الطيب"، ج2، ص 26 (عن الرازي).

[2]– Torres Balbàs, los Edificios Hispana-Musulmanes, Revista del i Instituto Egipcio, N°1 , 1953, p.92 – 98.

[3]– المقري نقلا عن الرازي أحمد بن محمد بن موسى الكتاني المؤرخ الاندلسي، "نفح الطيب" ج 2 ص 8.

ويقول عنه **الحميري** أنّه الجامع "المشور" أمره، الشّائع ذكره، من أجمل مصانع الدّنيا أكبر مساحة، وأحكم صنعه، وجمال هيئة، وإتقان بنية، تهمّم به الخلفاء المروانيون، فزادوا فيه زيادة بعد زيادة، وتتمما إثر تتميم، حتى بلغ الغاية في الإتقان، فصار يحار فيه الطّرف، ويعجز عن حسنه الوصف، فليس في مساجد المسلمين مثله تنميقا وطولا وعرضا1"، ويقول عنه الشريف الإدريسي في كتابه "نزهة المشتاق في اختراق الآفاق: "...وفيها المسجد الجامع الذي ليس بمساجد المسلمين مثله بنية وتنميقا وطولا وعرضا2".

هكذا أصبح يضرب بهذا المسجد الجامع المثل في العظمة والإتّساع وفي كثرة الزخارف والجمال، وقد بالغ مؤرخو العرب في المغرب والأندلس في وصفهم له، فصوّروه تصويرا أقرب إلى الخيال، واختصّوه بعنايتهم، وعظّموه وأجلّوه، وكتبوا في تاريخه ووصفه فصولا طوالا3 تعد من أهم المصادر عن هذا الأثر الخالد الجليل.

ويرجع هذا التّعظيم والإجلال لجامع قرطبة إلى أن **حنش بن عبدالله الصنعائي**، و**أبا عبد الرحمن الحبلي التّابعين** قد تولّيا تأسيسه بأيديهما، وقوّما محرابه، وقد احتفظ الأمير **عبد الرحمن الأوسط** بهذا المحراب النّفيس عند زيادته لبيت الصلاة، فنقله من موضعه القديم، وركزه في مكانه من القبلة الجديدة4، كذلك احتفظ المسجد الجامع في سائر زياداته بإتجاه القبلة الذي حدّده **حنش الصنعائي**، رغم انحراف هذا الإتجاه عن الإتجاه الصحيح.

ولمّا شاور الخليفة **الحكم المنتصر** العلماء في رغبته في تصحيح اتجاه القبلة نحو الشّرق، عندما شرع في النّظر زيادته الكبرى بالجامع، كما فعل أبوه **النّاصر** في قبلة جامع الزهراء، قال له الفقيه **أبو إبراهيم: "**يا أمير المؤمنين، انّه قد صلّى إلى هذه القبلة خيار هذه الأمّة من أجدادك الأئمة، وصلحاء المسلمين وعلمائهم، منذ أن افتتحت الأندلس إلى هذا الوقت، متأسين بأوّل من نصبا من التّابعين **كموسى بن نصير وحنش الصنعائي** وأمثالهم رحمهم الله تعالى، وإنّما فضل من فضل الإتباع، وهلك من هلك بالإبتداع. فأخذ الخليفة برأيه وقال: نعم ما قلت؟ وإنّما مذهبنا الإتبّاع5".

---

[1] – الحميري ص 152

[2] – Ach-CharifF al-Idrissi-Wakf el –Masjid al- Jamiaa bi-quort'uba, description de la grande mosquée de cordo, éd.dessus lamare, Alger, 1949, P2

[3] – كرس له الإدريسي فصلا هامّا، كما جعل له المقري في كتابه "نفح الطيب" فصلا خاصا، وكذلك فعل غيره من المؤرخين العرب.

[4] – الرسالة الشرقية في الأقطار الأندلسية، ص 116 – 117، يقول: "وورد في الأثر أنّها (القبلة التي ركزها حنش) روضة من رياض الجنة، وبقيت إلى بني أمية وبني بنيانا آخر لم يهدم المحراب ومشى على حصر خشب إلى أن وقف في موضعه اليوم تبركا به".

[5] – المقري، ج 2 ص 98.

ومن مظاهر إجلال المسلمين وتعظيمهم لهذا الجامع ما نعته به مؤرخو العرب، فقد سمّاه **عبد الواحد المراكشي** بالجامع الأعظم1، وكذلك **ابن بشكوال**2، و**لسان الدّين بن الخطيب**3، وقد بلغ من إجلال أهل الأندلس وتعظيمهم لمسجدهم بقرطبة أن جعلوه مركزا دينيا هامّا يحج الناس إليه، وفي ذلك يقول **ابن المثنى** شاعر الأمير **عبد الرحمن الأوسط** في قصيدة:

بنيت لله خير بيت * يخرس عن وصفه الأنام

حجّ إليه بكلّ أدب * كأنّه المسجد الحرام

كأنّ محرابه إذا ما حفّ به * الرّكن والمقام4

وكان تعظيم قرطبة عند المسلمين سببا في قدومهم إليها لزيارته، والإحتفال في بيت الصلاة فيه بالمناسابات الدّينية الهامّة، بإعتباره أكبر مساجد المغرب والأندلس قاطبة وأعظمها.

وقد حفظ لنا **المقري** نصّا **لأبي محمد بن صاحب الصلاة الولبي** يصف فيه المسجد، عندما جاء إلى قرطبة لحضور الإحتفال بليلة القدر في جامعها، فيقول: "وإنّي شخصت إلى حضرة قرطبة -حرسها الله - منشرح الصّدر ليلة القدر، والجامع – قدّس الله بقعته ومكانه، وثبت أساسه وأركانه قد كسى ببردة الإزدهاء، وجلى في معرض البهاء، كأنّ شرفاته5، فلول في سنان أو أشرفي أسنان، وكأنّما ضربت على سمائه كلل، أو خلعت على أرجائه حلل، وكأنّ الشّمس خلقت فيه ضياءها، ونسجت على أقطاره أفياءها، فترى نهارا قد أحدق به ليل، كما أحدق بربوة سبل، ليل دامس، ونهار شامس".

ثم يتحدث عن الثريات النّحاسية التي تتعلّق فيها الكؤوس الّتي بداخلها المصابيح فيقول: "وللذبال تألّق كنصنصة الحيّات، أو إشارة السبابات في التحيات، قد أنزعت من السليط6 كؤوسها، ووصلت بمحاجن الحديد رؤوسها، ونبطت بسلاسل كالجذوع القائمة، أو كالتّعابين العائمة، عصبت بها تفاح7 من الصفر8 كاللّقاح الصفر، بولغ في صقلها وجلائها، حتى بهرت بحسنها ولؤلؤها، كأنّها جليت باللّهب، وأشربت ماء الذّهب، أنّ سمّها9 طولا رأيت منها سبائك عسجد، أو قلائد زبرجد، وإن أتيتها عرضا رأيت فلاكا

1- عبد الواحد المراكشي، المعجب في تلخيص "أخبار المغرب"، ص 372.

2- المقري، ج2، ص 99.

3- ابن الخطيب "أعمال الإعلام"، ص 43 – 48.

4- المقري ج1 ص 325، 326.

5- يقصد الشرفات الهرمية التي تشبه أسنة المنشار، والتي تعلو جدران الجامع.

6- السليط نوع من الزيوت التي تستخدم في المصابيح.

7- يقصد بالتّفاح الكرات النحاسية الصفراء.

8- الصقر نوع من النحاس.

9- قصدتها.

ولكنّها غير دائرة، ونجوما ولكنّها ليست بسائر، تتعلّق الفرط من الذفرى1، وتبسط شعاعها بسط الأديم حين يفرى".

ثم يصف **الولببى** مئذنة الجامع وقد زينت بالشموع، فيقول: "والشّمع قد رفعت على المنار رفع البنود، وعرضت عليها عرض الجنود، ليجتلي طلاقة روائها القريب والبعيد، ويستوي في هداية ضيائها الشّقي والسّعيد، وقد قوبل منها مبيض بمحمر، وعورض مخضر بمصفر، تضحك ببكائها، وتبكي بضحكها، وتهلك بحيلتها، وتحي بهلها".

ثم ينتقل هذا الأديب إلى وصف رائحة البخور وهو يتصاعد من المجامر والمباخر المكعّبة الشكل فيقول: "والطيب تنغم أفرائحه، وتتنسّم أرواحه، وقنار الألجوج والند2، يسترجع من الحياة ما ند3 وكلّما تصاعد وهو محاصر، أطال من العمر ما كان قد تقاصر، في صفوف مجامر، ككعوب مقامر".

ثم يصف قباب المسجد من الداخل والخارج ويصف زخارفها التي تكسوالضلوع البارزة وما بين هذه الضلوع، كما يصف المحراب وما يحيط به من نقوش وزخارف، فيقول: "وظهور القباب مؤللة4، وبطونها مهللة5، كأنّها تيجان، وضع فيها ياقوت ومرجان، قد قوّس محرابه أحكم تقويس، ووشم بمثل ريش الطواريس، حتى كأنّه بالمحبرة مقرطق، وبقوس قزح ممنطق، وكأن اللازورد حول وشومه وبين رسومه، تقف من قوادم الحمام، أو كسف من ظلل الغمام"6 هذا الوصف الرائع البليغ الذي سجله قلم أحد كتّاب الأندلس في عصر الموحّدين، يصوّر لنا المكانة التي كان يشغلها جامع قرطبة عند المسلمين ومدى تعظيمهم لبنائه، وإعجابهم بزخارفه ونقوشه، وإقبالهم على الدروس الدّينية التي كانت تعقد بين بلاطه وحول أساطينه.

كذلك وصف هذا الجامع جمهرة من مؤرخي العرب وجغرافييهم، وأصبح ذكر الجامع لا يخلو من جميع تواليفهم، ولولا أن هذا الأثر العظيم لا يزال راسخا في مكانه اليوم، تشهد عناصره بصدق أقوالهم، لكُنّا قد اعتبرنا هذه الأوصاف ضربا من الخرافة، أو نوعا من المبالغة الخيالية.

وليس معنى هذا أنّ كل ما جاء في أقوالهم حقيقة يجب الأخذ بها، فكثيرا ما تختلط في أقوال بعض المؤرخين العرب قصص خيالية، وذلك تفخيما للجامع أو تعظيما له، مثال ذلك ما ذكره **عبد الواحد**

---

[1]– الذفري شحبة الأذن.

[2]– البخور.

[3]– ما ذهب وول.

[4]– مسنمة الشكل أو هرمية.

[5]– تشبه الأهلة ويقصد هنا الأقواس والعقود أو الضلوع المتقاطعة في داخل القبة أو باطنها.

[6]– المقّري ج 2 ص 90.

المراكشي، من أنه لمّا دخل **ألفونسو الأول** ملك أرغون مدينة قرطبة سنة 503 هـ "دخل النصارى في هذا المسجد بخيلهم، فأقاموا به يومين لم تبل دوابهم، ولم ترث حتى خرجوا منه"1، وروى **ابن القوطية** أن النورمنديّين لمّا أرادوا إحراق جامع إشبيلية وجمعوا الخشب والحصر في أحد البلاطات ليدخلوا النار ويتصل بالسقف، فخرج إليهم من جانب المحراب فيء(ظل) فأخرجهم من المسجد، ومنعهم دخوله ثلاثة أيام حتى حدثت الوقيعة بينهم "2. وذكر **ابن بشكوال** في رواية إستشهد بها للدلالة على بقعة جامع قرطبة المقدسة فقال أن "موضع الجامع الأعظم بقرطبة كان حفرة عظيمة يطرح فيها أهل قرطبة قمامهم وغيرها، فلمّا قدم النبي **سليمان ابن داود** –عليهما السلام– ودخل قرطبة، قال للجن: اردموا هذا الموضع وعدّلوا مكانه، فسيكون فيه بيت يعبد الله فيه. ففعلوا ما أمرهم به وبنى فيه بعد ذلك الجامع المذكور"3.

وذكر **المقري**: وقد شاع وذاع على ألسنة الجمع الغفير من الناس في هذه البلاد الشرقية وغيرها، أن في جامع قرطبة ثلاثمائة ونحو ستين طاقا على عدد أيام السنة، وأنّ الشمس تدخل كل يوم من طاق إلى أن يتم الدور ثم تعود"4.

وذكر **ابوحامد الغرناطي** الأندلسي في كتابه "عجائب المخلوقات"5 أنّ "بهذا الجامع ثلاثة أعمدة حمر، مكتوب على الواحد اسم **محمّد**، صلّى الله عليه وسلم، وعلى الثاني صفة عصا النبي **موسى** عليه السلام وأهل الكهف، وعلى الآخر صورة غراب النبي نوح عليه السلام، الثلاثة خلقه ربانية" ويستبعد **المقري** هذا القول6.

هذا كله يؤلّف موضوعا من موضوعات القصص الشعبي الأندلسي الذي تواتر على مرّ العصور، فأورده المؤرخون نقلا عن ألسنة العامة، ومع ذلك فقد أوضحوا في كثير من الأحيان، أنّه ممّا يشاع بين الناس، حتى يميّزوا بين ما يقولونه هم أنفسهم طبقا لما شاهدوه في رحلاتهم، وبين ما قاله عامة الناس.

وكان الجامع موضع إجلال المسلمين والمسحيين على السواء، إذ كان ينظر إليه على أنه من الآثار الجليلة، التي تزدان بها الأندلس، ثم أنه كان يعدّ أعظم جامعة عربية في أوروبا في العصر الوسيط، وقد قيل أن الرّاهب "جيل بير"Gilbertالذي أصبح فيما بعد البابا "سلفاست الثانيSylvestre" ، أتم

[1] – عبد الواحد المراكشي ص 373.

[2] – ابن القوطية ص 66.

[3] – المقري ج2 ص 99.

[4] – المقري ج3 ص 90.

[5] – مخطوطة محفوظة اليوم بمكتبة أوكسفورد تحت رقم Hunt 565.

[6] – المقري ج2 ص 61.

دراسته في جامع قرطبة ولا شك أن كثيرين من نصارى الأندلس من أهل الذّمة قد تعلّموا فيه علوم العربية، واستوعبوا، أي تثقّفوا بالثقافة العربية – إذ وجدوا أنفسهم مضطرين إلى مشاركة المسلمين في حياتهم، رغبتا في تقلّد المناصب الكبرى في الإدارة ودواوين الحكومة، وقد نبغ منهم كثيرون في آداب اللغة العربية، وظهر منهم الشعراء والكتاب.

المسجد الجامع في عهد الأمير عبد الرحمن الداخل

لمّا فتح المسلمون بقيادة مغيث الرّومي مدينة قرطبة، اختاروا كنيستها الكبرى المعروفة "بشنت بنجنت" St. Vincent التي كانت تقع داخل مدينة قرطبة نفسها بالقرب من السور الجنوبي الذي يحيط بها، قبالة باب القنطرة، لإقامة مسجدهم الجامع، فشاطروا نصارى قرطبة في هذه الكنيسة، وأقاموا في شطرهم مسجدا بسيطا ساذج البناء، أسس **حنش الصنعائي** قبلته بيديه، وكان من الطبيعي أن يقتنع الفاتحون بهذا المسجد البسيط. إذ كانوا مجرد محاربين وافدين، حديثي عهد بالبلاد، وليس منهم من كان عارفا بفن البناء، ثم أنهم كانوا يجهلون مواطن الحجر ومصادر استخراج الرخام وغيره من مواد البناء، وتمضي الأيام، ويتكاثر عدد المسلمين الوافدين إلى حاضرة الأندلس بوصول الطلائع العربية المتتابعة إلى الأندلس، ونزول جند الشام في قرطبة، ويضيق مصطح بيت الصلاة عن الإتساع لجموعهم الكثيفة، وأصبح الجامع لا يتسع لأعدادهم الهائلة، فجعلوا يعلّقون فيه سقيفة إثر سقيفة أو ظلّة بعد ظلّة يسكنون تحتها كل ما تزايد عددهم، وكان ارتفاع هذه السقائف يقل تدريجيا لإرتفاع مستوى سطح الأرض كل ما اتجهنا شمالا لأن أرضية الجزء القبلي من المسجد كانت منحدرة نحو النهر ولما كان المسجد يحتل الجزء الشمالي من الكنيسة، فقد كان طبيعيا أن يكون تعليق السقائف من الجهة الشمالية وليس من الجهة القبلية حيث يوجد المحراب، وعلى هذا، فقد سبّب تطامن السقائف وانخفاظها مضايقات كثيرة للمصلين، حتى كان أغلبهم لا يمكنه النهوض في اعتدال لتقارب السقف من الأرض.

ثارت هذه المشكلة في الوقت الذي دخل **عبد الرحمن ابن معاوية** الأندلس، وأسّس دولة بني أمية، وجعل قرطبة دار إمارته، فقد شاهد ما يعانيه المصلّون من متاعب بسبب قلّة ارتفاع السقائف المقامة في جوف المسجد، و من ضيق بيت الصلاة، فعزم على حلّ هذه المشكلة، وذلك بضم الأرض التي تشغلها الكنيسة إلى الجامع وبناء مسجد جامع جديد يتّسع لجميع المصلّين، ويتناسب بعظمته وروعته مع فخامة دولته، فدعا رؤساء النصارى بقرطبة إلى مقابلته، وساومهم في بيع نصيبهم من الكنيسة ليدخله في المسجد، وأوسع له البذل وفاء بالعهد الذي صولحوا عليه، فأبوا في بادئ الأمر بيع ما بأيديهم، وطلبوا منهم بعد إلحاحه المتواصل أن يبيح لهم بناء كنيستهم شنت أجلح1 خارج الأسوار San Asciclo التي خرّبها المسلمون عند الفتح، فوافق الأمير على طلبهم، وتمّ الأمر على ذلك في عام 168 هـ (784 م)، فخرجوا

[1]– "فتح الأندلس" ص9 – 10، أنظر مقالنا: "Cronologia de la meaquita de Córdoba, op, cit..".

من كنيستهم، فأدخل أرضها في الجامع الأعظم. وكان شروع **عبد الرحمن الداخل** في هدم الكنيسة والمسجد القديم، وبناء جامع قرطبة بأسلوبه الجديد، عام 169 هـ (785 م)، فتمّ بناؤه واكتملت أسواره في عام 170هـ (786 م)، وأنفق **عبد الرحمن** في بناء هذا المسجد نحو ثمانين ألف دينار، وفي ذلك يقول الشاعر **دحية بن محمد البلوي** من قصيدة:

وأنفـــق في ذات الإله ووجهـــه * ثمانين ألفا من لجين وعسجد

توزعها في مسجـــد أسه التقـــى * ومنهجه دين النبي محمّد

ترى الذهب النارى فوق سموكــه * يلوح كبرق العارض المتوقد[1]

وينقسم الجامع الجديد الذي بناه الأمير الداخل – شأنه في ذلك شأن المساجد الجامعة الأولى – قسمين: قسم مسقوف هو بيت الصلاة، وقسم مكشوف هو الفناء أو الصحن[2]. وكان بيت الصلاة في هذا المسجد يشتمل على تسعة بلاطات تتجه عمودياً على جدار القبلة، ممتدة على اثنى عشر عقدا (قوسا) في كل بلاط، وتقوم هذه العقود على عمد من الرخام جيء بها من كنائس الحرية، وكان اتساع البلاط الواحد 6,86 مترا، غير أنّ البلاط الأوسط يزيد اتساعه عن ذلك بقليل إذ يبلغ 7,85 مترا. وكان سقف المسجد كلّه يتألف من لوحات خشبية مسطحة مصفوفة عرضا (سماوات)، ومثبتة في عوارض خشبية طولية وعرضية(جوائز)[3]. و تكسو هذه اللوحات والعوارض زخارف هندسية ملونة ومنقوشة من دوائر وفصوص ومسدسات ومثمنات[4]. وكان يعلو هذا السقف المسطح هياكل مسنّمة هرمية الشكل، تمتد على امتداد البلاطات، تاركة فيها قنوات مقعّرة لتجري فيها مياه الأمطار. ويحيط بالأسقف من الداخل إزار خشبي منقوش بالآيات القرآنية. وقد عثر المهندس الأثري **بوسكو** Bosco على بعض هذه اللوحات الخشبية المسطّحة والعوارض الطولية والعرضية بين الهياكل الهرمية، وبين القبوات الجصية التي أقيمت بدلا من الأسقف المسطحة في القرن السابع عشر، ونجح بوسكو في إعادة تركيب جزء منها في سقف البلاط الأوسط بالمسجد، كما كان في عهده الأول.

---

[1]– ابن عذاري ج 2 ص 342 – "المقري"، ج 2 ص 97.

[2]– الإدريسي ص 2 – "الحميري"، ص 153.

[3]– أنظر مقالنا: بعض المصطلحات العربية "للعمارة المغربية" في "مجلة معهد الدراسات الإسلامية" بمدريد سنة 1957.

[4]– في ذلك يقول الإدريسي: "وسقفه كله سماوات مسمّرة في جوائز سقفه... والسماوات التي ذكرناها هي كلّها مسطحة، فيها ضروب الصنائع المنشأة من الضروب المدمة والمؤربى "وهي صنع الفص وصنع الدوائر، والمداهن، لا يشبه بعضها بعضا بل كلّ مماء منها مكتف بما فيه من صنائع. قد أحكم ترتيبها وأبدع تلوينها بأنواع الحمرة الزنجفرية والبياض الإسفيداجي والزرقة الازروردية، والزرقون الباروق، والخضرة الزنجارية والتكحيل النقسي، تروق العيون وتستميل النفوس بإتقان ترميما ومخلفات ألوانه وتقسيمها" ص4.

وعقدت بين العمد الرخامية على أعلى رؤوسها قسي أوعقود متجاوزة على شكل حدوة الفرس، تقوم مقام الأوتار الخشبية، وظيفتها ربط الأعمدة فيما بينها، كما أقيمت فوقها عقود نصف دائرية تحمل الجدران التي يتكئ عليها السقف، وتزيد في الوقت نفسه من ارتفاع السقف، وتستند العقود على كوابيل ملفوفة مؤلفة من ثلاثة أو أربعة فصوص متراكبة الواحد فوق الآخر، ويتناوب في جميع العقود العليا والسفلى اللونان الأصفر الشاحب والأحمر، نتيجة لتناوب الحجارة والآجر الأحمر تؤلف سنجة أخرى، وهكذا تمكّن مهندس الجامع من إحداث تأثير جمالي من هذه الحلية المعمارية البسيطة. ويتكون العمود من رأس رخامي (تاج)، وبدن، وقاعدة من الرخام، وكان بعض هذه القواعد مدفونا في أرضية المسجد، والبعض الآخر ظاهرا فوق مستوى سطحها على نحو غير مستقيم، وجميع أعمدة المسجد الذي أقامه **عبد الرحمن الداخل** القديمة، قوطية أو رومانية، استغلها بناة المسجد من الكنائس الخربة، وأعادوا استخدامها في المسجد الجامع. ويتوج الجدران الخارجية للمسجد إفريز من الشرفات المثلّثة المسنّنة، وتسند الجدران ركائز قوية وظيفتها إكساب المسجد صفة القلاع، إذ أن صفوف العقود ترتكز مباشرة على جدار القبلة.

وحين يتّخذ المرء طريقه داخل بيت الصلاة مارا بين صفوف الأعمدة الممتدّة إلى ما لا نهاية بعقودها المزدوجة، توحي إليه هذه العمد والعقود المتكرّرة بالطبيعة الحيّة تحت ظلال في لون الشفق بحيث تمثل غابة من النخيل، ويتسلّل الضوء من شبكات النوافذ الخارجية بائنا داخل مسطح بيت الصلاة، ويحدث تأثيرا عميقا في النفس، للتطلع إلى ما وراء الحس، في صلاة خاشعة، مؤديا لله فرضه، مقرّا لعبوديته حياله، ولا سبيل إلى أن يكون الخلق المعماري أكثر كمالا ممّا يوحي به هذا المثل الدّيني في بساطته وتجرده1.

وقد بحث مؤرخو الفن الإسباني في أصل فكرة ازدواج العقود بجامع **عبد الرحمن الدّاخل** وأرجعوها إلى عقود الجسور الرومانية التي تقوم على طابقين، وقارنوا نظام عقود جامع قرطبة بعقود الجسر الروماني بماردة، وهو الجسر المعروف **بلوس ميلاجروس** Palos Milagrosأو جسر المعدزات2، وإذا بحثنا عن وظيفة كلّ من هذين النوعين من العقود، وجدنا أنّهما يختلفان، ولا شك أن عقود قرطبة ابتكرها مهندس **عبد الرحمن**، وأملت صورتها عناصر البناء ومواده التي كانت في متناول يده، وبخاصة الأعمدة القصيرة التي جمعها من الخرائب.

[1] - Gomez Moreno, Ars Hispaniae, t. III, Madrid p 961, p.18.

[2] - georges Marçain, Manuel d'art Musulmanan, t. I ? L'architecture en Tunisie, Algerie, Maroc, Espagne et Sicile, Paris sgz6, p. ags-Marçais, L'architecture musulmane d'occident, Paris. 1954, P, 147 – Craweli, Eacly Muslim architecture, t. II, p. 157.

وكان صحن الجامع مغروسا بالأشجار، فقد عهد **عبد الرحمن الداخل** إلى **عبد الرحمن بن صعصعة بن علام** (توفي سنة 192 هـ)، صاحب الصلاة بالمسجد، بأن يغرس صحن المسجد بالأشجار، ففعل، واتبع أمراء الأندلس وحلفاؤها هذا التقليد بعد ذلك، فطبّق في بقية مساجد الأندلس.

وتوفي الأمير **عبد الرحمن** سنة 179م قبل أن يتم بناء مسجده، فلم يكن للمسجد مئذنة ولم تكن فيه سقائف لصلاة النساء، فأتمّه ابنه **هشام** من بعده، وأقام مئذنة من خمس فيء أربونة، بلغ ارتفاعها إلى موضع الأذان نحو20 مترا، كما أقام بنهاية المسجد ممّا يلي الجوف سقائف لصلاة النساء، وأمر ببناء ميضأة بشرق الجامع. ولكن مئذنة **هشام** لم يكتب لها أن تبقى طويلا، إذ تصدّعت في أواخر عهد الأمير **عبد الله**، فهدمها الخليفة **عبد الرحمن بن محمد** وأقام صومعة أخرى جليلة بدلا عنها. وقد تمكّن المهندس الأثري دون فيلث هرناندث من Don Hernandezالاهتداء إلى أسسها، وكان طول قاعدتها يبلغ ستة أمتار.

المسجد الجامع في عهد الأمير عبد الرحمن الأوسط ومن خلفه من أمراء بني أمية

لما تولّى الأمير **عبد الرحمن بن الحكم** الإمارة بعد وفاة أبيه **الحكم بن هشام** (822 – 852م)، رفع من شأن قرطبة وجعلها عاصمة تليق بالإمارة، وفي عهده تكاثر الناس في قرطبة وتوافدوا إليها من كل حدب و صوب حتى ضاق عنهم بيت الصلاة بالمسجد، وكانت بلاطات المسجد الذي بناه **عبد الرحمن الداخل**1 تسعا فأنشأ **عبد الرحمن الأوسط** حفافيها من ابتدائها شرقا وغربا بلاطين زائدين عليها، ممتدين معها، سنة 833 م فأوصل عدد بلاطات المسجد أحد عشر بلاطا استوسع به المسجد، ورفه عن حاضريه، ووصل هذين البلاطين في سقيفتين، ووصلهما بالسقائف التي كانت معدة يجوف المسجد الأقدم لصلاة النساء، عقد على كل سقيفة منها على 19 سارية، وابتنى الأمير **عبدالرحمن** في مؤخر الصحن سقيفة جوفية، نظمها بالسقيفتين الذين ابتناهما حفافي صحنه بشرقية وغربية، وفي سنة 848 م زاد الأمير **عبد الرحمن بن الحكم** في بيت الصلاة بجامع قرطبة أول زيادة في عمقه أو اتساعه أجريت فيه، وهي الزيادة الأولى البارزة من بين البنية الأولى التي ابتناها أبو جدّه **عبد الرحمن بن معاوية الداخل** إلى الأندلس، ورسم أن يكون ذلك من قبل قبلته في الفضاء ما بينها وبين باب المدينة الراكب للقنطرة بحيث تكون محدودة من الأرجل الحجرية الضخامْ الماثلة اليوم في وسط أبهاء المسجد، والمتخلفة من جدار محراب فاخر الآلات لبنائه، واستكثر من عدد حذاق الفعلة لإحكامه، ووكّل ببنائه أكبر فتيانه الخاصيين **الأثير بن لديه** نصرا وصاحبه مسرورا، رغبة في إيشاك التمام مع إحكام الصنعة، وأشرف له ذلك أيضا **محمد بن زياد** قاضي قرطبة وصاحب الصلاة بها. ويبلغ طول زيادة عبد الرحمن الأوسط، 50 ذرعا،

[1]– المقري "فلمّا مهّد ملكه شرع في تنظيم قرطبة، فجدّد معانيها وشيّد مبانيها وحسّنها بالسور وابتنى قصر الإمارة والمسجد الجامع، ووسّع فناءها، وأصلح مساجد الكور، ثم ابتني مدينة الرصافة"، المقري، ج 2 ص 84.

وعرضها مائة وخمسين، وعدد سواريها ثمانين سارية1، ذلك أن الأمير مدّ جميع بلاطات الجامع نحوالجنوب ما يقرب من ستّة وعشرين مترا، أي أنّه مدّ الصفوف العشرة للعقود على ثمانية عقود جوفية، ثم نقل المحراب القديم إلى نهاية جدار القبلة الجديد الذي وصلت إليه زيادته.

ولقد سايرت زيادة **عبد الرحمن الأوسط** أسلوب عبد الرحمن الداخل في البناء والزخرفة، ولم تشزعنه إلا في الكوابيل التي اقتصرت هذه المرّة على بروز محدّب، وفتح في بيت الصلاة بابان في جانبي المسجد الشرقي والغربي، بالإضافة إلى البابين القديمين، فأصبح للجامع أربعة أبواب: اثنان منها في الجهة الغربية، واثنان في الجهة الشرقية، ولم يتبق منها سوى بابا الجدار الغربي المواجه للقصر، وهما باب **سان استبان** San Esteban2 وكان يعرف بباب الوزراء، وباب **دي لوس ديانيس** de Los Deanes وكان يطلق عليه اسم باب الأمير. أمّا البابان الآخران فقد هدّما عند شروع **المنصور أبي عامر** في زيادتها شرقي بيت الصلاة ثم مات الأمير **عبد الرحمن الأوسط** قبل أن يتمّ زخرفة المسجد، وخلفه ابنه **محمد،** فأمر سنة 855 م بإتقان طرر3 الجامع، وتنميق نقوشه، ثم أقام سنة 864 م مقصورة خشبية حول المحراب وجعل لها ثلاثة أبواب، فلمّا كمل ما أمر به دخله وصلّى فيه ركعات خشع فيها، فقال في ذلك **موسى بن سعيد**:

لعمرى لقد أبدى الإمام التواضـــعا	*	فأصبح للدنيا وللدين جامــــعـــــا
بنى مسجدا لم يبن في الأرض مثله	*	وصلّى به شكرا لذى العرش راكـعا
فطوبى لمن كان الأميـر محمـــــد	*	له إذ دعـــا فـيـــه الله شـــافـــعـــــا4

وما زالت تزين عقد **باب سان استيان** كتابة كوفية تسجل أعمال الأمير **محمد** في الجامع نصها: (بسم الله الرحمن الرحيم. أمر الأمير، أكرمه الله، **محمد بن عبد الرحمن** ببنيان ما حكم به من هذا المسجد وإتقانه، رجاء ثواب الله عليه وذخره به، فتمّ ذلك في سنة إحدى وأربعين ومائتين على بركة الله وعونه، مسرور ونصر فتياه)5.

ثم زاد الأمير **المنذر بن محمد** البيت المعروف ببيت المال، فأقامه في صحن الجامع على غرار بيوت المال في مساجد **عمرو بن العاص** بالفسطاط، والجامع الأموي بدمشق، وجامع حماة، وجامع حمص،

1– ابن عذاري ج2 ص 343.

2– Torres Balbas, Portada de San Estaban, Al-Andalus, Vol. XII, 1964. P. 127. es aqq

3– الطرة هي ما يحيط بالعقد أو الإطار المربع البارز الذي يحيط بالعقد تاركا في محاصرتيه بنيقتين.

4– "ابن عذاري" ج 2 ص 343.

5– Léri-Provençal, Inscripciona arabes d'Espagne, Ip. a et ag. Leiden.Paris, sggi.

وأمر بتجديد السقاية وإصلاح السقائف[1]. ثم زاد أخوه الأمير **عبد الله بن محمد** ساباطا معقودا على حنايا، أوصل به ما بين القصر والجامع من جهة الغرب، ثم أمر بستارة من آخر هذا الساباط إلى أن أوصلها بالمحراب، وفتح إلى المقصورة بابًا كان يخرج منه إلى الصلاة، وهو أول من أتخذ ذلك من أمراء بني أمية بالأندلس، وتابعه في ذلك من خلفه منهم[2].

المسجد الجامع في عهد الخليفة عبدالرحمن الناصر

كانت المئذنة التي أقامها الأمير **هشام بن عبد الرحمن الداخل** قد تصدّعت، كما كان بيت الصلاة قد ازداد اتساعا منذ زيادة **عبد الرحمن الأوسط**، وأصبح الصحن بالنسبة لبيت الصلاة ضيقا للغاية، لا يتناسق مع تخطيط الجامع. وكان في مقدرة الخليفة **عبد الرحمن الناصر** أن يقوم بإصلاح ما تصدّع من المئذنة، ويعدّل بناءها، كما فعل بالنسبة لواجهة بيت الصلاة المطلّة على الصحن، غير أنّه رأى صغر حجمها بالنسبة لمسجد فسيح المساحة، ثم أنّه كان قد تلقب منذ عام 929م بألقاب الخلافة، وشرع في تنفيذ برنامج حافل لتجميل عاصمة خلافته بالأبنية العظيمة، والقصور الفخمة، والمنشآت الجليلة التي تليق بجلال الخلافة، لذلك رأى الخليفة **عبد الرحمن الناصر** أن يقيم مئذنة جديدة تسموعلى سائر العمران بقرطبة، ويراها القادمون من بعيد كأنها المنار يهدي السفن الضالة في مياه البحر. وأمر عام 950 م ببناء مئذنة جديدة، فجمع لها عرفاء المهندسين من كلّ مكان، وأحضر لها الأحجار الضخمة على عجل، وشرع المهندسون في بنائها بعد أن هدموا مئذنة **هشام** إلى قواعدها، وهدموا السور الشمالي للمسجد، وحفروا أساسها حتى بلغ الماء، وأتمّوا بناءها في ثلاثة عشر شهرا، فجاءت رائعة البناء. وكانت مئذنة هشام ذات مطلع واحد، فجعل لمئذنة **الناصر** مطلعين، وفصلوا بينهما بالبناء، فلا يلتقي الراقون فيها إلا بأعلاها وكان لكل مطلع منها مائة وسبع درجات، وبلغ ارتفاعها ثمانين ذرعا حتى مكان المؤذن أي ضعف ارتفاع المئذنة الأولى، ومن مكان المؤذن إلى أعلاها عشرين ذرعا، ثم نصب بأعلى المئذنة سفود بارز، ركبت فيه ثلاث تفاحات من الذهب والفضة[3].

وكان طول كل جانب من جوانب مئذنة **الناصر** ثمانية أمتار ونصف متر، وجدرانها مبطنة جميعها بنوع من الحجر الجيري يعرف **"بادم الكذان الملكي"**، ومنقوشة من أسفلها إلى أعلاها بنقوش متنوعة وزخارف ملوّنة.

وكانت الأوجه الأربعة للمئذنة تزدان بثلاثة صفوف من النوافذ المزدوجة، تحيط بها عقود تشبه حدوة الفرس، قائمة على عمد من الرخام، ويعلو الإفريز شرفات مسنّنة تشبه شرفات الجامع نفسه، وقد اتخذت

---

[1] - ابن عذاري، ج 2 ص 343.

[2] - نفس المرجع.

[3] - الإدريس ص 10-11، الحميري ص 155 ، ابن عذاري، ص344، المقّري ج 2 ص98.

مئذنة **الناصر** نموذجا للمآذن الأندلسية، مثل مئذنة جامع إشبيلية، ومئذنة جامع الكتبية بمراكش ومئذنة جامع حسان بالرباط. ولقد أصيبت هذه المئذنة –يعني مئذنة الناصر- عام 1589م بأضرار جسيمة إثر زلزال عنيف سبب تصدعًا في جزئها الأعلى المعروف ببيت المؤذن، وأوشكت المئذنة على الإنهيار، فقام المهندس القرطبي **هرنان رويث Hernan Ruiz** فيما بين عامي 1593م –1653م بملأ الفراغ الداخلي بالبناء، ثم أحاط الجدران الخارجية للمئذنة بغلاف من الحجارة لتقوى القاعدة على حمل الجسم العلوي الذي توجها به[1]. وقد نجح مهندس الجامع **دون فيلث هرناندث Don Feliz Hernandez** في الكشف عن بقايا جدران مئذنة **عبد الرحمن الناصر** حتى ارتفاع ما يقرب من 22 مترا، كما اكتشف من الدعامتين المركزيتين ما بلغ ارتفاعه 26 مترا، وعثر بفضل أبحاثه على بعض النوافذ التي كانت تطلّ على فناء المسجد بعقودها المتجاوزة وسنجاتها الملونة.

ولم تقف أعمال **عبد الرحمن الناصر** عند هذا الحد، فقد قام بترميم واجهة بيت الصلاة المطلّة على الصحن وكانت قد تصدعت بسبب الدفع المستمر للعقود الداخلية، ثم أصلح باب سان استبان San Esteban، وأقام عليه ظلّة تستند على كوابيل على نمط كوابيل واجهة بيت الصلاة. وقد سجل **عبد الرحمن الناصر** أعماله هذه على لوحة بجوار المدخل إلى البلاط الأوسط نقرأ فيها: (بسم الله الرحمن الرحيم... أمر عبد الله عبد الرحمن أمير المؤمنين الناصر لدين الله –أطال الله بقاه – ببنيان هذا الوجه وإحكام إتقانه، تعظيما لشعائر الله ومحافظة على حرمة بيوته التي أذن أن ترفع ويذكر فيها اسمه، ولما دعاه على ذلك من تقبل عظيم الأجر، وجزيل الذخر، مع بقاء شرف الأثر وحسن الذكر). فتمّ ذلك بعون الله في شهر ذى الحجة سنة ست وأربعين وثلثمائة هجرية على يدي مولاه و وزيره وصاحب مبانيه **عبد الله بن بدر**. و العمل **لسعيد ابن أيوب**[2].

زيادة الخليفة الحكم المستنصر

افتتح الخليفة **الحكم المستنصر بالله** خلافته بالنظر في زيادة المسجد الجامع **بقرطبة**، إذ تضاعف عدد سكان قرطبة في ذلك الوقت، وضاقت المدينة بمن وفد إليها من بربر العدوة من قبيلة زناتة الذين حالفوا الأمويين في الأندلس ضدّ الفاطميين، ولم يعد المسجد الجامع يتسع لجموعهم الفقيرة، ونال الناس ضرر كبير من جرّاء ازدحامهم، فإضطر الحكم إلى توسيع المسجد، وعهد إلى حاجبه **جعفر بن عبد الرحمن الصقلّي**، في اليوم الثاني من خلافته بمهمة الإشراف على إحضار الأحجار من جبال **قرطبة**.

---

[1] –R. Castejón, Córdoba, p.38-42 – Gomez Moreno, op. cit. p. 77. –Torres Balbas, La MEZQUITA de Córdoba y las ruinas de Madinat al – Zahra, colección de « Monumentos Cardinales de España» , t XII Madrid, 1952 p. 97.

[2] –Levi-Provençal inscriptions Arabe d'Espagne, Texte. p.3..

وخرج الحكم بنفسه لتقدير الزيادة وتفصيل بنائها، وأحضر لهذا الغرض الأشياخ والمهندسيين، فحدّدوا هذه الزيادة من قبلة المسجد إلى آخر الفضاء ورسموا أن تكون بمد بلاطات المسجد جنوبا على اثنى عشر عقدا. وقال **ابن سعيد** في هذه الزيادة: "وبها أكملت محاسن هذا الجامع، وصار في حد يقصر الوصف عنه"، واستمرّ بناء الزيادة أربع سنوات أنفق فيها مائتان وواحد وستون ألف دينار وخمسمائة وسبعة وثلاثون دينارا.

وفى جمادى الآخرة عام 354 هـ/964م أتم بناء قبّة المحراب1، وقد سجل ذلك في نقش يدور بعقد المحراب نصه: (... ذلك عالم الغيب والشهادة العزيز الرحيم، هو الحي لا إله إلا هو فادعوه مخلصين له الدّين، الحمد لله ربّ العالمين، موفق الإمام **المستنصر بالله عبد الحكيم** أمير المؤمنين، أصلحه الله، لهذه البنية المكرّمة، ومعينه على بنية الخالدة في التوسع لرعيته، ما إليه وإليهم الرغبة فيما ابتدأ من فضله فيهم، وصلّى الله على محمد وسلّم). أمر الإمام المستنصر بالله **عبد الله الحكم** أمير المؤمنين، وفّقه الله، مولاه وحاجبه **جعفر بن عبد الرحمن** رحمه الله، بتشبيك هذه البنية، فتمّ بعون الله بنظر **محمد بن تمليخ، وأحمد بن نصر**، و**خالد بن هاشم**، أصحاب شرطته، و**مطرق بن عبد الرحمن** الكاتب2. ثم أحاط هذه القبّة بقبتين جانبيتين، وأقام على مدخل زيادته بالجامع، تجاه قبّة المحراب، قبة أخرى تشبه قبة "باب البهو" جامع الزيتونة بتونس وقبّة "جامع القيروان"3.

ثم شرع في تنزيل الفسيفساء بالمسجد، وكان ملك الروم قد بعث بها إليه مع صانع يتقن صناعتها، فأجرى الصانع الفسيفساء على جدار المحراب وفي باطن القبة الكبرى، ومنه تعلم الصناع المسلمون طريقة تنزيل الفسيفساء وحذقوها، وفاقوه في صنعته4. وفي أعلى عقد المحراب نقش كوفي نقرأ فيه: (بسم الله الرحمن الرحيم. أمر **عبد الله الحكم** أمير المؤمنين، أصلحه الله، مولاه وحاجبه **جعفر بن عبد الرحمن**، رحمه الله، بعمل هذه الفسيفساء في البيت المكرّم، فتم جميعها بعون الله سنة أربع وخمسين وثلثمائة5. وفي عام 355 هـ/965م أمر **الحكم** بوضع المنبر القديم إلى جانب المحراب، ونصب في قبلة زيادته مقصورة من الخشب، منقوشة الظاهر والباطن، مشرفة الذروة، طولها خمسة وسبعون ذراعا، وعرضها إثنان وعشرون ذراعا، وارتفاعها إلى الشرفات ثماني أذرع. وأحاط بها خمس بلاطات

1– ابن عذاري ج2 ص354.

2 –Lévi-Provençal, Inscriptione Arabes d'Espagne, texte ,p. 15

3 –Lambert, L'architecture Musulmane du Xe à Cordoue et Tolède pp. 141-161- Les Mosqués de tipe Andalou, p. 281-La mosqué de Cordoue et L'art byzantin, pp.331-332.

4– نفس المرجع.

5 –Levi Provençal, inscription Arabe d'Espagne ,texte, p.18.

من زيادته، وأطلق أطرافها على السنة الباقية، وجعل لها ثلاثة أبواب بديعة الصنعة، عجيبة النقش1، وصنع الحكم لزيادته منبرا "ليس على معمور الأرض أتقن منه، ولا مثله في حسن صنعته، وخشبه ساج وابنوس ويقم وعود قافلي. ويذكر في تاريخ بني أمية أنه أحكم عمله ونقشه في سبع سنين، وكان يعمل فيه ثمانية صناع، وكان عدد درجاته تسعا وعدد حشواته ستة وثلاثين ألف حشوة، سمرت بمسامير الذهب والفضة ورصعت بنفس الأحجار. وكان هذا المنبر يسير على عجل، وكان يوضع بعد صلوات الجمع في غرفة تقع خلف المحراب، وقد اتبعت هذه الطريقة بعد ذلك في المغرب.

وفي عام 356 هـ /966م هدم **الحكم** الميضأة القديمة التي كان قد أسّسها **هشام بن عبد الرحمن** في فناء الجامع، وبنى موضعها أربع ميضآت في كلّ جانب من جانبي الفناء: الشرقي والغربي، وأجرى إليها الماء من عين بجبل قرطبة في قناة حجرية متقنة البناء، أودع جوفها أنابيب الرصاص لتحفظه من كل دنس، وصبت ماءها في أحواض من الرخام. ثم أجرى ما يزيد على حاجة المسجد إلى سقايات اتخذها على أبواب الجامع بجهاته الثلاث: الشرقية والغربية والشمالية. ويقول الشاعر **محمد بن شخيص** في وصف هذه القنوات:

وقد خرقت بطون الأرض عن نطف * من أعذب الماء نحو البيت تجر يها
طهر الجسوم اذا زالــت طهــارتــها * ري القلوب إذا حــرث صواديــها
قرنـت فخرا بأجـر قل ما أقرّنــا * في أمـة أنت راعيها وحاميهــا2

وأختم **الحكم** أعمال البناء ببناء دار للصدقة غربي الجامع، لتكون معهدا لتوزيع صدقاته، كما أقام في ساحة الجامع مكاتب لتعليم أولاد الضعفاء والمساكين، وفي ذلك يقول **ابن شخيص**:

وساحة المسجد الأعلى مكلّلــة * مكاتبا لليتامى من نوحيهــا
لومكنت سور القرآن من كلم * نادتك: يا خير تاليها وواعيهــا3

وزيادة الحكم المستنصر أعظم ما أضيف إلى جامع قرطبة من حيث البناء والزخرفة، وقد زودت المسجد بتناسقه وتعادل أجزائه. وأهم ما في عمارته القباب التي تقوم على هياكل من عقود بارزة متشابكة في أشكال هندسية رائعة: تؤلف نجوما تتوسّطها قبيبات مفصّصة، وكسيت الفراغات بين العقود

1- ابن عذاري ج2 ص 355 –المقري، 2ص 88، ويذكر ابن غالب الأندلسي أن باب هذه المقصورة كانت من الذهب المضروب وكانت عضاداتاها من الأبنوس بينما كان طوله واوصلوه من الفظة (أنظر ابن غالب، نص أندلسي جديد من "فرحة الأنفس"، تحقيق الدكتور لطفي عبد البديع ص28).

2- ابن عذاري ج2 ص 358.

3- ابن عذاري ج2 ص 359.

البارزة بزخارف نباتية آية في الروعة والجمال، وأجري فيها الفسيفساء المذهبة، وقد أوحت قباب الحكم إلى الفنانين الفرنسيين ابتكار القبوات القرطية الشهيرة1.

أما المحراب الجديد الذي أقامه **الحكم** فهو أجمل عنصر معماري في الجامع إذ عنى به المهندسون بإعتباره أنبل مكان بالمسجد، فأقاموا القباب على بلاطه الأوسط ورواقه الأمامي، ونقش هذا المحراب من الداخل والخارج بالتوريقات، وزينت عضادتاه بلوحات رخامية حفرت فيها زخارف نباتية وتوريقات حفرا غائرا على الأسلوب البيزنطي2. والمحراب على هيئة حنية عميقة الفور، مثمنة الشكل، مكسوة جوانبه بثمانية ألواح من الرخام طول كل لوح منها ثماني أذرع تامّة، وتنتمي هذه الألواح الرخامية من أعلى برف مستدير من الرخام، وتزدان لوحاته بنقوش بديعة، كما يزدان الرف الرخامي بزخارف متنوعة، ويعلو هذا الرف البارز ستة عقود محفورة في الجص يتألف كل منها من ثلاثة فصوص، تقوم على أعمدة صغيرة من الرخام في قاعها توريقات مطلية. وبأعلى المحراب قبّة على شكل محارة يسميها **الحميري** خصّة، والأصل في الخصّة أنها حوض كروي الشكل مفصص. ويضيف **محمد بن أيوب ابن غالب الغرناطي الأندلسي** في كتابه "فرحة الأنفس في تاريخ الأندلس" أنّ سقف القبر" من رخامية بيضاء منقورة بالحديد على صفة المحارة، قد أحكمت وأنزلت في موضعها بأتقن صنعة"3، وتنتهي واجهة المحراب بسلسلة من ستة عقود صغيرة كالتي ذكرناها من قبل، تقوم أيضا على عمد حيث تظهر بينها توريقات من الفسيفساء على أرضية مذهبة، ونلاحظ هنا أنّ **الحميري** عندما نقل عن **الإدريسي** أخطأ في نقل بعض العبارات فمثلا يقول: "وكلّ هذه القسى موجهة صنعة القوط4"، بينما نراها في نص الإدريسي ما يلي: "وكلّ هذه القسى مزججة، وصنعة القوط قد أعيت الروم والمسلمين بغريب أعمالها ودقيق تكوينها5"، ومعنى هذه العبارة الأخيرة أنّ الأقواس أوالعقود الصغيرة التي تزين الجزء الأعلى من واجهة المحراب مزجّجة، وأنّها تتّخذ شكل القرط، والقرط هوالفصوص التي تتألف منها العقود المذكورة وهومعنى أصح، وينطبق على الحقيقة.

---

[1]– إرجع إلى كتابي: "المساجد القصور بالأندلس"، ص 32–34 ففيه وصيف مغلول القباب القرطبية ودراسة حول أصلها.

[2]– ارجع إلى كتابي: "المساجد والقصور بالأندلس"، ص37 – 38.

[3]– ابن غالب الغرناطي الأندلسي "فرحة الأندلس في تاريخ الأندلس" قطعة نشرها الدكتور أحمد لطفي عبد البديع في "مجلة معهد المخطوطات العربية"، مجلد 1ج، ص28.

[4]– الحميري ص 154.

[5]– الإدريسي ص 6، تحقيق "ديسيهلاعلر".

ولقد فتح **الحكم** إلى يمين المحراب بابًا يؤدي إلى الساباط الجديد الذي يصل بين قصره ومقصورة الجامع1. ويتصل هذا الباب بمخزن تحفظ فيه العدد والطسوت والحسك الخاص بوقيد الشموع في كلّ ليلة 27 من شهر رمضان، كما كان يحفظ فيه "مصحف يرفعه رجلان لثقله، فيه أربع أوراق من مصحف **عثمان بن عثمان** ، وهوالمصحف الذي خطّه بيمينه رضي الله عنه، وفيه نقط من دمه، وهذا المصحف يخرج في صبيحة كلّ يوم جمعة ويتولّى إخراجه رجلان من قوم المسجد وأمامهم رجل ثالث بشمعة، وللمصحف غشاء بديع الصنعة منقوش بأغرب ما يكون من النقش وأدقه وأعجبه، وله بموضع المصلى كرسي يوضع عليه، ويتولّى الإمام قراءة نصف حزب منه ثم يردّ إلى موضعه2 "، وظلّ هذا المصحف بموضعه في جامع قرطبة، ثم آل أمره إلى الموحّدين إذ أخرج منها في 11 شوال سنة552 هـ /1162م أيّام **عبد المؤمن بن علي،** فاعتنوا به وتبرّكوا به، ثم إلى بني مرين، وكان السلطان **أبو الحسن المريني** لا يسافر موضعا إلا ويحمله معه، إلى أن انهزم **أبوالحسن** في واقعة طريف، فوقع المصحف في أيدي البرتغاليين، ثم تحايل المسلمون على استرداده فوصل إلى فاس سنة 745 هـ /1355م على يد أحد تجّار أزمور، واستمر بقاؤه في الخزانة3 السلطانية.

الزيادة الأخيرة في عهد المنصور بن أبي عامر

شرع المنصور **محمد بن أبي عامر** (377 هـ/ 987 م) في زيادة المسجد حين ضاق بيت الصلاة فيه عن المصلين. ولما كان قصر الخلافة يجاور الجانب الغربي وكان جدار القبلة قريبا من نهر الوادي الكبير، بدأ زيادته بشرقيه على بلاطات تمتد بطول المسجد من أوله إلى آخره، وقصد منها المبالغة في الإتقان، وأحكام البنية دون الزخرفة، وإن كانت لا تقلّ عن سائر الزخارف روعة وجمالا4. وكان أول ما قام به **المنصور،** هو نزع ملكية الدور القائمة شرقي الجامع والتي أدخلها في زيادته، وتعويض أصحابها بالمال والعقّار. ودام العمل في زيادة المنصور عامين ونصف عام، وكان يعمل في هذه الزيادة بنفسه، واستخدم الأسرى المسيحيين في بناء الجامع، كما أنّه جعل من نواقيس النصارى التي غنمها من غزوته لشنت ياقب عام 387 هـ/997م ثريات في زيادته بجامع قرطبة5.

1– ارجع إلى كتابي: "المساجد والقصور بالأندلس" ص 38، ففيه وصف للساباط.

2– الإدريسي ص8، 10. ويشكّ "المقّري" في نسبته إلى "عثمان" إذ يقول: "ربّما توهّموا أنّه خطّه بيمينه فليس بصحيح، فلم يخط عثمان واحدا منها، وانما جمع عليها بعضا من الصحايا (نفح الطيب ج2 ص 135).

3– المقّري ج2 ص 136 – 137.

4– ابن عذاري ج2 ص 128 – 429.

5– "المساجد والقصور بالأندلس"، ص 40.

وأصبح المسجد يتألّف بعد زيادة **ابن أبي عامر** من 19 بلاطا، ففقد المسجد الجامع تناسقه واتزانه وتعادل أجزائه، وأصبح المحراب متطرفا عن وسط جدار القبلة بعد أن كان يقع في محور الجامع[1].

وكذلك هدم **المنصور** أبواب الجامع من الجهة الشرقية قبل أن يشرع في زيادته، وفتح في الجدار الشرقي ببيت الصلاة القديم ثغرات واسعة تصل بين الزيادة الجديدة وبيت الصلاة القديم، وقد تخلف من هذا الجدار الشرقي لجامع **الحكم** بقايا على جانب كبير من الأهمية، أمّا الجدار الشرقي الجديد للجامع فقد فتح فيه المنصور ثمانية أبواب، فأصبح عدد الأبواب الشارعة إلى بيت الصلاة ستة عشر بابًا، يضاف إليها خمسة تنفتح على مجنّبات الصحن، فيكون مجموع أبواب الجامع بصورته النهائية 21 بابًا، كانت جميعها ملبّسة بالنحاس الأصفر ومخرمة تخريما رائعا.

الجامع بصورته الحاضرة

احتفظ المسجد الجامع بقرطبة بصورته تلك طوال العصر الإسلامي، دون أن يطرأ عليه أيّ تغيير في نظام بنائه، ولم تضف إليه أيّة إضافات، إذا استثنينا أعمال الترميم والإصلاح اللازمة للمسجد والتي لا بدّ أن تكون قد أجريت فيه في عصري المرابطين والموحدين. وظلّ المسجد كذلك حتى سقطت قرطبة في يدي **فرناندو الثالث** ملك قشتالة عام 1236م، فتحول هذا البناء الشامخ إلى كنيسة عرفت **بسانتا ماريا العظمى**، وأقيم فيه عام 1371م أي في عهد **دون أنريكي الثاني** ملك قشتالة المصلي المعروف **بسان فرناندو**، وذلك لصق القبة الكبرى التي تعلو مدخل البلاط الأوسط في زيادة **الحكم المستنصر**. وقد كسيت جدران هذا المصلى بزخارف من الطراز المدجن محفورة في الحصن، تشبه كلّ الشبه زخارف قصر الحمراء والقصر بإشبيلية. وتعلو هذا المصلى قبة تقوم على تشابك العقود البارزة، وتختلف عن قباب المسجد في أنها مكسوّة بالمقرنصات الزخرفية الدقيقة. على أن كلّ ما طرأ على الجامع حتى ذلك الحين، لم يكن يعدو إضافات طفيفة لا تمس جوهر البناء ولم تغير في نظامه، ولم تشوّه من عمارته.

ولكن الإسبان منذ أواخر القرن الخامس عشر، بدأوا يشوّهون في بنية هذا الأثر الإسلامي المجيد بإضافات وتغيرات أساسية، ففي عام 1489م، هدم الأسقف **إينجو مارنكي** عقود البلاطات الخمسة الممتدة طولا من مصلى **سان فرناند** – المعروف بمصلى **فيلا فسيوسية** – حتى جدار الجانب الغربي، وأقام جدارين طوليين رغبة في عمل موجاز يغطيه سقف خشبي قائم على عقود قرطبة. ثمّ شرع الأسقف دون ألنسو مانليك Alonso Manlique عام 1523م، في هدم جانب كبير من زيادة **عبد الرحمن الأوسط** وزيادة **المنصور** لإقامة كاتدرائية قرطبة الطراز في قلب الجامع شوهت البناء القديم، وقدت على الوحدة المعمارية للمسجد، وقد أبدى شارلكن Carlos Quinto أسفه حين شاهد هذا التشويه، وندم على موافقته على إجرائه في أثر فريد بين أثار الأندلس بل العالم أجمع.

[1]– يقع محور الجامع من القبلة جنوبا إلى باب التفران شمالا، مارا بالبلاط السادس ابتداء من غرب الجامع.

ثم أشرف على بناء هذه الكاتدرائية المهندس المعماري **هرنند رويث** Hernan Ruiz إلى أن توفي عام 1547م، فخلفه في بناء الكاتدرائية ابنه **هرنان رويث** حتى وفاته عام 1583م. ولم يتم بناء الكاتدرائية إلا عام 1599م على يدي هرنانرويث الحفيد. ثم أقيمت على جدران الجامع من الداخل مصليات عديدة ذات طابع يتبع طراز عصر النهضة، مثل مصلى لوس سيما نكاس ومصلى سان بابلو. وفي عام 1682م أقام الأسقف **فراي الونسودي** مدينة المصلى المعروف بلاكونثبثيونLa Concepcion، وزينه بتماثيل رائعة، قام بعملها المثال الغرناطي بدرو ديمينا Pedro de Mena، وفي عام 1705م أقيم مصلى آخر يعرف بسانتا تربزا Santa Terres، أو بمصلى الكاردينال سالازار. وفي القرن الثامن عشر انتزعت أسقف الجامع الخشبية، بعد أن تآكلت بفعل الزمن، وأقيم بدلا عنها قبوات جصية في جميع بلاطات الجامع.

وفي خلال القرن التاسع عشر أجريت في الجامع عدّة إصلاحات أوّلها ما قام به **دون بدرو ترفيا** Don Pedro Trevia عام 1826م من ترميم المحراب. ثم أعلن المسجد الجامع عام 1882م أثرا قوميا وعهد بالمحافظة عليه إلى مدير مدرسة العمارة بمدريد ركاردوبلسكت بوسك Ricardo Velasquez Bosco، وقد قام هذا المهندس بإصلاح مصلى فيلافسيوسا، وأعاد وضع أسقف جامع قرطبة في البلاط الأوسط واستبدل ببلاط الجامع القديم المصنوع من الآجر بلاطا من الرخام1، ثم رمّم جميع واجهات الجامع من الخارج بأبوابها عام 1909م. وما زالت الحكومة الإسبانية تولي هذا الأثر الإسلامي الجليل نصيبا وافرا من عنايتها، فعهدت إلى مهندسه الحالي دون فينتش هرمندث خمنث D.Felix Hernandez بالعناية به وترميم أجزائه، وقد قام هذا المهندس الآخر بأعمال جليلة في مئذنة الجامع بجمع نشرها قريبا.

وقبل أن ننتهي من الحديث عن هذا الجامع العظيم ينبغي أن نشير إلى تأثيراته في العمارة الإسلامية والمسيحية، ففي العمارة الإسلامية نلاحظ أنّ هذا الجامع الأعظم كان **"أستاذ المساجد"** التي أقيمت بعد ذلك في الأندلس في العصور التالية، فمنه أخذت نظام القباب ذات الضلوع، ومنه اشتقت نظام البلاطات المتجهة عموديا على جدار القبلة، ومن تخطيطه اشتقت تخطيطاتها، فجامع الباب المردوم بطليطلة يظم تسعة قباب وقبوات تقوم جميعا على الضلوع المتقاطعة، وجامع **إشبيلية** الموحّدي أخذ من جامع **قرطبة** مظهره الخارجي، واتساع صحنه بعقوده السبعة في أروقة مجنباته، ونظام عقوده وأسلوب زخارفه2.

[1]– انظر "المساجد والقصور بالأندلس"، ص 19-23.

[2]– انظربحى المآذن المصري: نظرة عامة من أصلها وتطورها، القاهرة 1959 – ومقال من "التأثيرات المعمارية في الأندلس"، بدائرة معارف "الشعب" عدد 64 ص 172. وقد اتضح لي من دراساتي الأثرية في لبنان أنّ التأثيرات الأندلسية القرطبية وصلت إلى مدينة طرابلس حيث تظهر جلية في بعض الآثار مثل عقود المدرسة البرطاسية.

وليس أدل على عظم هذا الجامع القرطبي ونفاذ تأثيراته الفنية إلى مجالات بعيدة من ذكر أثر مصري إسلامي، وصلته تأثيرات جامع **قرطبة،** هوجامع **ابن طولون،** فمئذنة هذا الجامع تجلو علينا عقودا قرطبية من النوع الشائع في جامع قرطبة، ثم إن القنطرة التي تصل بين الجامع تستند على عقدين متجاوزين على طراز القرطبي، وبأسفل القنطرة كوابيل من نفس نظام كوابيل عقود جامع قرطبة[1].

أمّا تأثيراته في العمارة المسيحية، فقد تغلغلت في إسبانيا المسيحية[2]، ومنها انطلقت إلى فرنسا الجنوبية حيث تتجلى بحق في كنائس **جاسكونيا** و**لاتجروك** و**أكيتانيا** و**أنجو** و**أوفرني** و**نورماندي**.

جامع عمر بن عديس بإشبيلية

هذا المسجد لم يبق منه في الوقت الحاضر سوى جزء من الصحن والجزء الأدنى من المئذنة، ومع ذلك فلهذه الآثار القليلة أهمية بالغة إذا توقّفنا على جانب هام من جوانب فن العمارة الأموية في عهد الإمارة.

فقد أمر الأمير **عبد الرحمن الأوسط** قاضيه **عمر بن عديس** بتشييد هذا الجامع سنة (829م – 830 م). وقد سجل تاريخ الإنشاء في نقش كوفي على بدن عمود من الرخام محفوظ اليوم بمتحف الآثار الأهلي **بإشبيلية** نصّه "يرحم الله **عبد الرحمن بن الحكم** الأمير العدل المهتدي الآمر ببيان هذا المسجد على يدي **عمر بن عديس** قاضي إشبيلية في سنة اربع عشر وستين، وكتب **عبد البر بن هرون**[3]".

ويتميز هذا الجامع عن جامع **عبد الرحمن الدّاخل** في أنه لم يضف إليه إضافات بل ظلّ يحتفظ بمساحته الأولى حتى ضاق بعد مضى ثلاثة قرون من إنشائه وأصبح لا يتّسع لجميع المصلين، فأقام الموحّدون جامع القصبة الكبير بإشبيلية بالإضافة إلى جامع ابن عديس المذكور. وكان هذا الجامع يشبه جامع قرطبة في نظامه العام وفي عدد بلاطاته، فقد كان يشتمل على أحد عشر بلاطا تتّجه عمودية على جدار القبلة، وكان البلاط الأوسط أكثر هذه البلاطات اتساعا وارتفاعا، وكان طول جدار القبلة يتراوح ما بين 48، 50 مترا. وكانت لهذا المسجد مئذنة تنتصب في منتصب الجدار الشّمالي. وكانت هذه المئذنة مربّعة من الخارج ومستديرة من الدّاخل، وكان يبلغ طول كل جانب من جوانبها الأربعة 5،88 مترا، وعلى هذا فنظامها يشبه نظام المآذن القرطبية التي ترجع إلى مصر الأمير **عبدالرحمن الأوسط** مثل

---

[1]– المرجع السابق.

[2]– حيث ترى في الكنائس المسيحية مثل كنيسة الميزان بقشتالة وقبوة مصلّى توريس ديل ريونيرة، وفي الكنائس المستغربة بجليقية مثل سانتياجودي بنيالياوسان مرتينيو ديباتو وكنائس ليون مثل سان ميان دي لاكوجويا، وسان ثبريان دي ماثوتي التي بناها القس القرطبي خوان سنة 921 م، انظر المقال: أثر الفن الخلافي بقرطبة في العمارة المسيحية بإسبانيا وفرنسا، المجلة العدد 14 – ومقال بعض التأثيرات الأندلسية في العمارة المصرية الإسلامية، ومقال بمجلة المجلة عدد 12 ديسمبر 157 – والأبحاث الإسبانية الآتية: Gomez Moreno, Iglesiias Mozarabes,Madrid 1919 – Torres Balbas, el intercambio artístico entre España y Egipto, A l- Andalous, 1934.

[3] –Ocana Jinencez, La inscripcion Fundacional de la Mezquita de Ibn Adabbas en Sevilla, Al-Andalus, Vol XII fac. I, 1947 pp. 145-151

مئذنة **سان خوان** ومئذنة **سانتا كلارا**، إذ يفصل بين المركز الأسطواني والجدران الخارجية درج يبلغ عرضه 80 سم، وأقيمت مئذنة الجامع من الأحجار التي تخلفت من السور الروماني القديم الذي تخرّب عند الفتح الإسلامي للمدينة، بدليل أنّه عثر بين أحجار المئذنة المذكورة على حجر عليه نقوش لاتينية ممّا يقطع بأنّ هذه الأحجار اتخذت من آثار رومانية قديمة.

وكان صحن الجامع مغروسا بأشجار البرتقال والنّارنج، ولذلك فالصّحن يعرف اليوم بإسم Fatio de Los Naranjos، وكانت تتوسّطه خصّة من الرّخام تنبثق منها نافورة وقد أصيب جامع **ابن عديس** ببعض الأضرار أثناء غارة النورمنديين على **إشبيلية** سنة 230 هـ /844 م. ثم أصيب المسجد سنة 472 هـ /1079م بزلزال عنيف هدّم الجزء الأعلى من المئذنة، فجدد **المعتمد بن عباد** بناءها في شهر واحد، وتاريخ البناء مسجل على لوحة اكتشفت في الجدار القبلي بقاعدة المئذنة، ويبدو أنّ بناء المسجد قد تأثّر بهذا الزلزال، فتصدّعت جدرانه الغربية ومالت، وتآكلت جوائرسقفه، فظلّ كذلك حتى كانت أيّام **أبي يوسف يعقوب المنصور** الذي أمر في جمادي الأوّل سنة 592 هـ/ مايو سنة 1195 م بترميمه، وإقامة ركاثر قويّة تسند جدرانه الغربية من الميل[1]، وأعاد إليه الصّلاة بعد أن كانت قد انقطعت منه سنة 570 هـ/ 1174م. ولقد تحول جامع **ابن عدبس** إلى كنيسة **سلفادور** San Salvador عقب سقوط مدينة **إشبيلية** على يدي **فرناندوالثالث** سنة 1246 م، ثمّ أصيبت المئذنة للمرّة الثانية في 24 أغسطس سنة 1356 بأضرار جسيمة بسبب زلزال عنيف هدم جزءها العلوي، فأقيم مكانه طابق للنواقيس، ولم يثبق من المئذنة الإسلامية سوى جزء يبلغ إرتفاعه 50،9 متر، أمّا المسجد فقد هدم برمته سنة 1671م وأقيمت مكانه كنيسة **سان سلفادور** التي تم بناؤها سنة 1712 م.

مسجد الباب المردوم بطليطلة

على الرّغم من صغر مساحة هذا المسجد فإنّه يعتبر أهمْ مسجد في الأندلس بعد جامع قرطبة لإحتفاظه بقباب تسعة، قائمة على الضلوع المتقاطعة، تمثل أولى مراحل التطور التي مرت بها قباب جامع قرطبة[2]، ويعرف هذا الجامع اليوم بإسم **مردوم** Bib Mordom نسبة إلى باب مجاور له ما زال قائما ويعرف بإسم الباب المردوم، ويعلو واجهة الجامع نقش كتابي تاريخي من قطع آجرية بارزة في إفريز يقع بين صفين من الأسنة البارزة من نفس هذه المادّة ونصّه : " بسم الله الرحمن الرحيم أقام هذا المسجد **أحمد بن حديدي** من ماله ابتغاء ثواب الله، ثمّ بعون الله على يد **موسى بن علي** البناء وسعادة، ثمّ في المحرم سنة تسعين وثلاثمائة).

---

[1] –Lambert, les coupoles des Grandes Mosquées de Tunisie et d'Espagne : aux Ixe et Xe sigles, Hesparia, je itrmestre, t. XXXII, fac. II,1956-L'architecture.

[2] – ابن بسام الشنّوبي "الذخيرة" المجلد الأوّل قسم رابع ص 118 – "ابن الخطيب"، "أعمال الأعلام" ، ص207.

و**أحمد بن حديدي** هذا كان قاضي في ذلك الوقت، وهو من أسرة معروفة في هذه المدينة، وتولى الوزارة أيام **اسماعيل بن ذي النون** ملك طليطلة وقد انتهى أمر ابن حديدي المذكور بالقتل على يدي **القادر بالله يحي بن ذي النون** بطليطلة (467هـ/1077م – 472 هـ/1082م).

والمسجد مربع الشّكل على نظام الكنائس البيزنطية لا يتجاوز طول الجانب منه ثمانية أمتار، وقد شيّدت جدرانه من الحجر الجرانيتي والآجر وفقا للأسلوب الذي اختصت به طليطلة، وقد حوّل هذا المسجد إلى كنيسة بعد استرداد قشتالة لطليطلة بقليل، وأضيفت إليه في الجانب الشرقي حنية مدجنة، وأطلق عليه اسم **سانتا كروث** Santa Cruz، ووهبه **ألفرنسو الثامن** لإحدى الجمعيات الدينية، ويعرف اليوم بإسم El Cristo de La Lus، ويتكوّن المسجد من ثلاثة أروقة طويلة تقطعها ثلاثة أروقة عريضة بحيث يحدث من ذلك التّقاطع تسعة أساطين، تفصل بينها أربعة أعمدة تيجانها قوطية قديمة، يتفرغ منها عشر قوسا على شكل حدوة الفرس، ويعلو كل أسطوان من الأساطين التّسعة قبة تتقاطع فيها الأقواس على نحو ما رأيناه في قباب قرطبة، والقبّة الوسطى أكثر من القباب الأخرى إرتفاعا، ونظام التّقبيب يقوم على تقاطع الضّلوع المتجاوزة في صور مختلفة، منها يمثل شكلا رباعيا منحرفا ذا أقطار، بحيث يبدو كما لو كان قبوتين من الطّراز القوطي أحداهما داخل الأخرى، ومنها ما يبدوعلى شكل مثمن، ومنها ما يقلّد تقاطع القبة المخرمة الكبرى بجامع قرطبة. وتعرّض قباب جامع باب المردوم تطوّرا لقباب قرطبة نحوالزخرفة، أمّا واجهة المسجد الرئيسية وهي الواجهة الجنوبية الغربية، فتطلّ على الطّريق المؤدّي إلى باب مردوم بثلاثة عقود، وفي أعلاها النّقش الكوفي الذي أشرنا إليه، والقوس الأيمن من هذه الأقواس متجاوز على شكل حدوة الفرس، على مثال عقود جامع قرطبة.

والقوس الأيسر مفصص أما الأوسط فمجدّد، ويعلو الأقواس الثلاثة التي تعتبر أبوابا لبيت الصّلاة، بائكة صمّاء من أقواس متقاطعة ويتوج هذه البائكة الزخرفية إفريز بداخله شبكة مخرّمة من المعينات، أمّا الواجهة التي تطل على صحن المسجد فتتألّف من ثلاثة عقود متجاوزة بمثابة أبواب، تعلوها ستة أقواس متجاوزة صماء يتناوب فيها اللّونان الأبيض والأحمر نتيجة لتعاقب قوالب الحجر والآجر على نظام أقواس جامع قرطبة، وبجانب هذه المساجد الثلاثة تبقت آثار المسجد الجامع بتطلية Tudela، وهي آثار ضئيلة لا تعدو مساند أو كوابيل ذات لفائف، وعقود مزدوجة على شكل حدوة فرس، وتيجان مزودة بتوريقات في غاية الرّوعة والجمال، ولوحة من الحجر أشبه بعضادة الباب تكسوها زخارف هندسية من خطوط معقوفة1.

---

[1]– ابن عذاري ج 2 ص 89.

آثـــار القصــــور

لم يشرع المسلمون في الأندلس في بناء قصورهم إلاّ منذ عصر بني أميّة، وهو العصر الذي نبتت فيه بذور الفن الإسلامي الأندلسي، في هذا العصر حرص الأمراء على إحاطة دولتهم بكلّ مظاهر الفخامة والتّرف، وأبهة الأمراء وعظمة الملوك، فاتجهوا إلى تشجيع البناء، وعملوا على تعمير المدن، وعندئذ نهض فن البناء في البلاد، ونشطت حركة التّشييد والعمران خاصة في أيّام الخليفة **عبد الرحمن النّاصر**، الذي كان يقول:

همم الملـوك إذا أرادوا ذكرها * من بعدهم فبألسن البيـان
أو مـا ترى الهرمين كـم بقيا وكم * ملك محاه حـوادث الأزمان
إنّ البنـاء إذا تعـاظـم قـــــدره * أضحى يدلّ على عظيم الشّأن[1]

وعلى يدي هذا الخليفة العظيم نالت الأندلس ما نالته من مجد رفيع وازدهار، وبلغت حضارتها مستوى لم تبلغه الأمم الأخرى، وعلى الرّغم من كثرة المنشآت العظيمة والقصور التي أسسها أمراء بني أمية وخلفائهم، لم يتبق إلاّ آثار قصور الزهراء، الّتي نفض الثريون الإسبان عن أكفانها، بعد أن ظلّت قرونا طويلة مطمورة في جوف الأرض، ذلك أنّ حياة هذه القصور الخلافية كانت موقوتة، فما أسرع ما نهبت على أثر سقوط الخلافة، ويبدو أنّ السّبب في تخريب هذه القصور يرجع إلى عوامل دينية، فالإسلام يستهجن إضفاء معنى الأزلية على البناء، وبناء قصور لها صفة الخلود أمر خارج عن الدّين، ثم إنّ الفقهاء كانوا لا يقرون الخلفاء فيما يذهبون إليه من الكلف بعمارة الأرض وتخليد الآثار الدّالة على قوة الملك وعزة السلطان وعلو الهمّة، فمضوا في ذم تشييد البنيان والإستغراق في زخرفته والإسراف في الإنفاق عليه، لأنّ "متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتّقى وهي دار القرار ومكان الجزاء".

ولقد وعظ القاضي **منذر بن سعيد** الخليفة **عبد الرحمن الناصر** بعد أن ابتنى مدينة الزهراء، واستفرغ جهده في تنميقها، وإتقان قصورها، وزخرفة مبانيها، وانهمك في ذلك كلّه حتى عطل شهود الجمعة بالمسجد الجامع ثلاث جمع متواليات، وحذّره من مغبة الإستغراق في أمور الدّنيا الزائلة، وخوفه من الموت ودعه إلى الزّهد في هذه الدّار الفانية، وحثّه على اعتزالها والرّفض لها، والندب إلى الإعراض عنها، والإقصار في طلب اللّذات، ونهى النّفس عن اتباع هواها، حتى أبكى الخليفة.

وذكر **النباهى** أنّ **النّاصر** اتخد قبيبه قراميدها ذهب وفضة أنفق عليها مالا كثيرا وجعل سقفها صفراء فاقعة إلى بياض ناصعة تستلب الأبصار بأشعة نورها، وجلس فيها إثر تمامها يوما مفتخرا بما صنعه، وقال لمن حوله: "هل رأيتم أو سمعتم ملكًا كان قبلي فعل مثل هذا أو قدر عليه؟ فقالوا: لا يا أمير المؤمنين، وإنّك لأوحد في شأنك كلّه، وما سبقك إلى مبتدعاتك هذه ملك رأيناه، ولا أنهى إلينا خبره،

[1] – المقري "نفح الطيب"ج2 ص 106.

فأبهجه قولهم وسره، وبينما هو كذلك إذ دخل عليه القاضي **منذر بن سعيد** وهو ناكس الرأس، فلمّا أخذ مجلسه قال له كالذي قال لوزرائه من ذكر السّقف المذهب واقتداره على إبداعه، فأقبلت دموع القاضي تنحدر على لحيته، وقال له: والله يا أمير المؤمنين ما ظننت أنّ الشّيطان لعنه الله يبلغ منك هذا المبلغ، ولا أن تمكّنه من قيادتك هذا التمكين، مع ما آتاك الله من فضله ونعمته، وفضّلك به على العالمين، حتى ينزلك منازل الكافرين، قال: فإنفعل **عبد الرحمن** لقوله، وقال له: أنظر ما تقول: وكيف أنزلني منزلتهم، قال نعم، أليس الله تعالى يقول: **"وَلَوْلَا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فَضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ" (33)سورة الزخرف**، فوجم الخليفة وأطرق مليّا ودموع تتساقط خشوعا لله تعالى، ثم أقبل على منذر و قال له :جزاك الله يا قاضي عنا و عن نفسك خيرا و عن الدّين و المسلمين أجل جزائه، وكثر في النّاس أمثالك، فالّذي قلت هوالحق، وقام عن مجلسه وهو يستغفر الله تعالى، وأمر ينقض سقف القبيبة، وأعاد قرمدها ترابا على صفة غيرها1.

وذكروا أنّه حضر معه يوما في الزهراء، فقال الرئيس **أبوعثمان بن إدريس** فأنشد **النّاصر** قصيدة منها:

سيشهد ما أبقيت إنّك لم تكن * مضيعا وقد مكنت للدّين والدنيا

فبالجامع المعمور للعلم و التّقى * وبالزّهرة الزهراء للملك والعليا

فإهتزّ **النّاصر** وابتهج، وأطرق **منذر بن سعيد** ساعة ثم أنشد:

يا بنى الزهراء مستغرقا * أوقانه فيها أما تمهل

لله ما أحسنها رونقا * لو لم تكن زهرتها تذبل2

كذلك إهتم **المنصور بن أبي عامر** ببناء القصور فأسّس مدينة الزهراء ذات القصور السامقة مثل منية السرور والعامرية وغيرها، ولم يمض عهد طويل حتى خرجت الزهراة بقصورها واستولى النهب على ما فيها من العدة والذخائر والسلاح، وتلاشى أمرها وصارت قاعا صفصفا وعمّ الخراب سائرها، وذكروا أنّ بعض ما نهب منها فببغداد وغيرها من البلاد الشرقية3.

آثـار قصـور الزهـراء

إنّ تاريخ بناء مدينة الزهراء أقرب إلى القصص والأساطير، فقد ذكر المؤرخون **"**أنّ النّاصر ماتت له سرية، وتركت مالا كثيرا، فأمر أنْ يفك بذلك المال أسرى المسلمين، وطلب في بلاد الإفرنج أسيرا فلم

[1]– المقري "نفح الطيب" ج2، ص 108 – 110.

[2]– نفس المرجع ص 119.

[3]– المقري "نفح الطيب" ص 122، يذكر "ابن بسام" نقلا عن "ابن حيان" أنّ قصور بن أمية الرفيعة تهدمت على يد رجل يدعى "ابن باشة"، فقد باع آلات هذه القصور من المرمر والسند الرخامية والأخشاب والنحاس والحديد والرصاص (انظر ابن بسام، القسم الأول، المجلد الثاني ص(111 – 112).

يوجد، فشكر الله تعالى على ذلك، فقالت له جاريته الزهراء – وكان يحبّها حبّا شديدا – اشتهت لو بنيت لي به مدينة تسميها بإسمي وتكون خاصة لي، فبناها تحت جبل العروس من قبالة الجبل وشمال قرطبة، وبينها وبين قرطبة أميال أو نحو ذلك[1]". والواقع أنّ الخليفة **عبد الرحمن الناصر**، كان بطبعه كلفا بالبناء فرأى أن يؤسّس ضاحية خلافية يقيم فيها قصرا يليق بجلال الخلافة وبهائها، فبنى المدينة على بعد خمسة أميال تقريبا إلى الشمال الغربي من قرطبة، أمّا قصة جاريته الزهراء فهي قصة من ابتكار المؤرخين، فهم ينسجون من الحقائق التاريخية قصصا خيالية ويحبكونها حتى تكاد تبدو حقيقية، فيذكرون أنّه نقش صورة الزهراء على باب المدينة مبالغة في حبّه لها، وحقيقة الأمر أنّ التمثال المذكور لا يعدو أن يكون تمثالا رومانيا قديما نصب على أحد أبواب المدينة تقليدا للتمثال الذي يمثل امرأة على باب القنطرة بقرطبة والذي كان يعرف بباب الصورة أو باب العذراء[2]. أمّا اسم المدينة فقد سمي بالزهراء نسبة للقصور الزاهرة التي أسّسها الخلفية في هذه المدينة أو بسبب غرسه لجبل قرطبة الذي تقع المدينة على سفحه، تيناولوزا، وتفتح الأشجار زمان الأزهار[3]، وسرّ المنصور بن أبي عامر يؤسس بدوره مدينة الزاهرة، دون أن يكون لهذا التأسيس قصة مماثلة لقصة الزهراء. شرع **الناصر** في بناء المدينة المذكورة في محرم عام 325 هـ (936م)، وجلب إليها **عبد الله بن يونس** عريف البنّائين، و**حسن القرطبي**، و**علي بن جعفر الإسكندراني**، الرخام الأبيض من المرية، والرخام المجزع من رية، والرخام الوردي والأخضر من إفريقية: من أسفاقس وقرطاجنة، وأسّس قصره الخلافى، وكان يشتمل على مجالس منها المجلس الشرقي المعروف بالمؤنس، وقد زينه الخليفة بحوض منقوش مذهب جلبه **أحمد** الفيلسوف و**ربيع** الأسقف من القسطنطنية، وكان يزدان بنقوش آدمية محفورة، ولما نصه في وسط هذا المجلس، نصب عليه اثنى عشر تمثالا من الذهب الأحمر مرصعة بالدر النفيس ممّا عمل بدار الصناعة بقرطبة، وهي تماثيل لأسد بجانبه غزال ثم تمساح، ويقابل هذه التماثيل الثلاثة لثعبان وآخر لعقاب وثالث لفيل، وفي المجنبتين تماثيل لحمامة وشاهين وطاووس ودجاجة وديك وحدأة ونسر، وكان الماء يخرج من أفواهها[4].

وذكروا أنّه كان يعمل في بناء الزهراء كل يوم من الخدم والفعلة عشرة آلاف رجل ومن الدواب ألف وخمسمائة دابة. أمّا المجلس الثاني المسمّى بقصر الخلافة فكان سمك جدرانه من القراميد المذهبة والرخام الغليظ في جرمه، الصافي لونه، وكانت جدرانه هذا المجلس مثل ذلك، وكان يتوسط هذا

[1] – المقري"نفح الطيب" ج 2 ص65.

[2] – ليفيبرو فنسال"الإسلام في المغرب والأندلس" ص61.

[3] – المقري ج2 ص65.

[4] – ابن عذاري ج2 ص 344، المقري ج 2 ص 104.

المجلس اليتيمة التي اتحف بها **ليون** ملك القسطنطنية الخليفة **الناصر**، نصبت في بركة مملوءة بالزئبق، وكان ينفتح في كل جانب من جوانب هذا المجلس ثمانية أبواب انعقدت على حنايا من العاج والأبنوس المرصع بالذهب وأصناف الجوهر، قامت على أعمدة من الرخام الملون والبلور الصافي، وكانت الشمس تتسلّل من هذه الأبواب فينعكس شعاعها على جدران المجلس فيحدث من ذلك بريق يأخذ بالأبصار1.

ولمّا "بنى الناصر قصر الزهراء المتناهى في الجلالة والفخامة أطبق الناس على أنّه لم يبن مثله في الإسلام البتة، وما دخل إليه قط أحد من سائر البلاد والنحل المختلفة من ملك وارد ورسول وافد وتاجر وجهيذ، وفي هذه الطبقات من الناس تكون المعرفة والفطنة، إلا وكلّهم قطع أنّه لم ير له شبها، بل لم يسمع به، بل لم يتوهم كون مثله، حتى انه كان أعجب ما يؤمله القاطع إلى الأندلس في تلك العصور النظر إليه، والتحدث عنه"2. وكانت مصاريع أبواب القصر كلها ملبسة بالحديد والنحاس المموّه، وكان للقصر حمّام وللعامة حمّام. وأقام النآصر لمدينته مسجدا كان يعمل في بنائه كل يوم الف رجل منهم "30 بناء و200 نجار و500 من الأرجاء وسائر الصناع، فتمّ بناؤه في مدة ثمانية وأربعين يوما، وكان يتكوّن من خمسة بلاطات كان البلاط الأوسط منها أكثر هذه البلاطات اتساعا، وكان صحن المسجد مفروشا بالرخام الخمري اللون وتتوسطه فوّارة يجرى فيها الماء، وكان ارتفاع المئذنة أربعين ذراعا وهي تشبه مئذنة الأمير هشام بجامع قرطبة. أمّا منبر هذا الجامع فقد جاء في نهاية الحسن، وحظرت حوله مقصورة من الخشب3. وإتخد **الناصر** في الزهراء محلات للوحش متباعدة السياج، ومسارح للطيور مظللة بالشباك، واتخذ في المدينة دورا لصناعة الآلات: من آلات السلاح للحرب والحلي وغير ذلك من المهن4.

---

[1]– المقري ج 2 ص 68.

[2]– نفس المرجع ص 101.

[3]– المقري ج2 ص 100.

[4]– المقري ج2 ص 112. ليس أدل على وجود هذه الدور الخاصة بصناعة الحلي من ذكر إحدى التحف التي كشف عنها البحث الأثري في مدينة الزهراء، وهي تمثال لوعل أو غزال أواسد من البرنز محفوظ اليوم في المتحف الأهلي للآثار بقرطبة، ولعلّه أحد التماثيل العديدة التي نصبّها الناصر حول الحوض الروماني بمجلس قصر المؤنس (انظر مقالي من الفنون والصناعات بالأندلس، دائرة معارف الشعب عدد 64 ص 185)، كذلك كشف البحث عن علبة عاجية منقوشة عنها كتابة تنص على أنّ العلبة صنعت في مدينة الزهراء بأمر الحكم المنتصر على يدي درى الصغير سنة 352 هـ (نفس المرجع).

ولم يتم بناء الزهراء في حياة الخليفة **عبد الرحمن النّاصر** وإنما استمر البناء في عهد الخليفة **الحكم المستنصر** من بعده فأتمّها الحكم سنة 365 هـ. ولم يتح لهذه المدينة الخلافية أن تنعم بالحياة طويلا، إذ انحدرت إلى قبرها وهي في مقتبل عمرها، وذلك عقب سقوط الخلافة بقرطبة، على نحوما فصّلناه في الفصل الأخير من التاريخ وأصبحت الزهراء أثرا بعد عين، وفيها يقول الشاعر **السميسر**:

وقفت بالزهراء مستعيــرا * معتبـترا أنـدب أشتاتـــــا

فقلت: يا زهرا ألا فارجعي * قالت: وهل يرجع من مـاتا؟

فلم أزل أبكي وأبكي بهـــا * هيهـات يغـن الدمـع هيهـاتـا

ظلت أطلال الزهراء تتّخذ حتى مطلع القرن الماضي، محاجر غنية تستخرج منها الأحجار والرخام ومواد البناء حتى تنبهت الحكومة الإسبانية إلى أهمية هذه المدينة، وفي عام 1910م أجرى السنيور **فيلاسكث بوسكو** في خرائبها أول حفائر علمية كشفت من الخزف ذى البريق المعدني وقطع كثيرة من الرخام، وأدت إلى الاهتداء إلى قصر **الحكم المستنصر**، وقد نشر هذا المهندس الأثري نتائج أبحاته الأثرية في كتاب، وضّح فيه بالرسوم واللوحات بعض ما اكتشفه فيها[1]. ثم أجرى في أطلال المدينة أبحاتا أخرى نشر نتائجها عام 1923م. ثم تتابعث الأبحات الأثرية في بطء شديد على أيدي كبار الأثريين أمثال السنيور **كاستخون** والسنيور **هرتاندث**[2] فكشفوا عن آثار قصر **الناصر** سنة 1943م، وتمكنوا من قراءة إسمه منقوشا على بعض التيجان، كما تمكنوا من قراءة أسماء مهندسي القصر وهم: **أفلح** و**رشيق** و**نصر** من صقالبة الخلفية **عبد الرحمن الناصر** وفتيانه، وما زالت الأبحاث الأثرية جارية في وقتنا هذا، وما زال السنيور **هرناندث** يواصل ترميماته لقصر **الناصر** في أناة وصبر، فإستطاع أخيرا أن يكسو جدرانه بآلاف القطع الحجرية الزخرفية التي كانت مطمورة في جوف الأرض، بعد أن جمع المتناسق منها وألصقها بعضها ببعض، ونجح في إعادة تنظيم هذا القصر بمثل الصورة التي عليها أيام الخلافة الأموية في الأندلس.

ويمكننا أن نستنتج من الإكتشافات الأثرية بالزهراء أنّ قصورها نوعان: الأول يتبع نظام القصر الريفي الذي تدور غرفة حول بهو مركزي، والثاني يتألّف من بلاطات متوازية يفصل بعضها عن بعض صفوف من الأعمدة تقوم عليها عقود وحنايا كما الحال في المساجد الأندلسية[3].

---

[1] –R. Velasques Bosco, Médina Azahra y Alamíriya, Madrid 1912.

[2] –R. Castejó : excavaciones del plane nacional en madina Azahra, campana 1943 Madrid, 1945-Nuevas excavaciones en Médina Al-Zahra, el salon de AbderrahmaneIII, Al-Andalous, 1945 pp. 147-154.

[3] –Elie Lambert, les mosquées de type Andalou en Espagne et en Afrique du nord, Al-Andalous, Vol. XIV, fasc. 2,1949 pp.273-291.

وكانت أرضيات مجالس هذه القصور وقاعاتها مكسورة جميعا بقراميد الآجر المرصعة بالأحجار البيضاء، بحيث تكون أشكال هندسية غاية في الروعة والجمال، وتكشف لنا تيجان الأعمدة وطنوفها وقواعدها وبعض اللوحات عن فن رفيع في الحفر الغائر، متأثر كل التأثير بالتقاليد البيزنطية التي أخذت تتغلل في الفن الخلافي، منذ أن توطّدت العلاقات بين أباطرة بيزنطة وبين خلفاء قرطبة من الناحية السياسية، فتبادلوا الهدايا والرسائل والسفارات، وبعث إمبراطور بيزنطة إلى قرطبة بعض صناع الفسيفساء علّموا الفنانين المسلمين أسرار صناعتهم، فأربي عليهم صناع المسلمين وفاقهم1.

آثار الأسوار والحصون والأبنية ذات المنافع العامة

– الأسوار: إهتم الأمويون بتحصين مدن الأندلس إهتماما كبيرا، فأقاموا الأسوار والحصون في سائر مدنها، وأوّل هذه المدن قرطبة الرومانية التي فتحت أسوارها عهد الفتح الإسلامي في بعض أجزائها خاصة في سورها القبلي والغربي، وأصبحت على هذا النحو مدينة مفتوحة للداخلين إليها والخارجين منها. ولمّا تولّى **السمح بن مالك** أمر الأندلس، رمّم قنطرة المهدمة بحجارة السور الروماني المهدم من الناحية الغربية، ثم عزم **السمح** على ترميم السور وبناء الثغرة المفتوحة فيه من الجهة الغربية باللبن، ولكن لم يتهيّأ له بناء السور إذ إستشهد في طرسونة قبل أن يشرع في بناء السور، فظلّ السور الغربي دون ترميم حتى قام بترميمه الأمير **عبد الرحمن الداخل** سنة 150هـ/763/2م.

وما زالت بقايا سور **عبد الرحمن** الداخل قائمة إبتداء من المستشفى العسكري بقرطبة، وترتكز هذه الأسوار على أسس من قطع الحجارة المهذبة القطع، وظل سور قرطبة الروماني موضع رعاية الأمراء والخلفاء، وكانت المدينة قد اتسعت بسكانها، فعمرت نواحي قرطبة بالمباني، وتكونت أرباض خارج المدينة، وأصبحت قرطبة تتكوّن من خمسة جوانب أو خمس مدن هي المدينة المركزية أو الوسطى أو القصبة، ثم الشرقية، والغربية، ثم الجانب الشمالي، والجانب الجنوبي، وهو الربض الواقع جنوبي قرطبة على الضفة الأخرى من الوادي الكبير، وقد سبق أن أوضحنا ذلك عند دراستنا لقرطبة حاضرة الخلافة. وكانت هذه الأرباض المحيطة بالمدينة قبل الفتنة بدون أسوار، فلما اشتعلت نيران الفتنة، أقيم لكل جانب منها خندق يدور بها سور مانع يفصلها عن غيرها.

---

[1]– ابن عذارى جزء2 ص 254.

[2]– يقول صاحب "فتح الأندلس" : "في سنة خمسين ومائة أمر الإمام ابن معاوية ببناء سور قرطبة، فبنى ما كان جبر منه بلبن، إذ بنيت القنطرة من صخرة فكمّل بنائه حسب ما أمر به". كذلك يشير "ابن القوطية" وصاحب أخبار مجموعة إلى أنّ السمح تمكن من ترميم القنطرة سنة 101 هـ، ولم يشر أحدهما بأنّه قام بترميم السور (انظر "ابن القوطية" ص13 – أخبار مجموعة، ص 24)، ويؤكد "ابن خلدون" أنّ "عبد الرحمن الداخل" هو الذي قام ببناء سور قرطبة سنة 150 هـ (الجزء الرابع، ص 131)، كذلك يذكر "المقّري" أنّ "عبد الرحمن" أدار السور بقرطبة ("المقري" ج 1 ص 313).

وكان سور المدينة الوسطى أو القصبة على شكل متوازي أضلاع لا يتجاوز محيطه أربعة كيلومترات، وتنفتح في هذه الأسوار سبعة أبواب ذكرناها فيما سبق. وقد جدّدت هذه الأسوار في عصر الموحدين وأحيطت بأسوار أمامية مبالغة في تحصين المدينة، وقد بقيت أجزاء من هذا السور الموحدي قائمة حتى وقتنا على الأخص في الجانب الغربي من المدينة.

وكما تفتحت الأسوار الرومانية بقرطبة عند الفتح، تفتحت أسوار إشبيلية بسبب نمو العمران والتوسع فيه، وعندما أغار النورمنديون على إشبيلية تمكّنوا من الدخول في المدينة دون أن تعترضهم أسوار منيعة، فقد دخلوا المدينة وهي عورة1، واستباحوها سبعة أيّام، فاضطر الأمير **عبد الرحمن الأوسط** إلى تحصين إشبيلية، فأسس سورها بالحجارة2، ثم تهدم هذا السور مرة ثانية بأمر الخليفة **عبد الرحمن النّاصر** سنة 301 هـ (913م) على يدي **ابن السليم**.

ولا يهمّنا ما لحق بهذه الأسوار من تغيرات بعد ذلك لأن أسوار إشبيلية الباقية في الوقت الحاضر ترجع إلى عصر المرابطين والموحدين. كذلك أسّس **عبد الرحمن الداخل** حصن المدور بالقرب من قرطبة سنة 142 هـ (759م) الذي بقيت آثاره حتى وقتنا هذا. ولقد اهتم **عبد الرحمن الناصر** بتحصين المدن الساحلية أمام الخطر الفاطمي، فأسّس مدينة المرية، وأحاطها بالأسوار المنيعة، كما أنشأ برجا بقلعة طريق سنة 349 هـ (960م)، وما زالت هذه القلعة تحتفظ اليوم بمظهرها الخلافي القديم، كما تحتفظ باللوحة التاريخية التي تسجل تاريخ البناء.

وفي عهد **المستنصر بالله** أقيمت أبراج وحصون بنواحي الأندلس المختلفة في الجنوب وفي الشمال، على المرتفعات المطلّة على الطرق الموصلة بين المدن، فقد وزود حصن **بانيوس دي أنثينا** Banos de Encina سنة 357 هـ (968م) ببرج، وسجل ذلك في لوحة محفوظة اليوم **بمتحف الآثار الأهلي بمدريد**. كذلك تبقّى من عصر **الحكم** حصن يقال له حصن **عقبة البقر**، في الطريق الموصل بين قرطبة وفحص البلوط3. كذلك ابتنى قواد **الحكم المستنصر غالب** و**يحي بن محمد التجيني وقاسم بن مطرف بن ذي النون** حصن **غرماج** Gormaz سنة 354هـ4 (965م)، على نشر يبلغ إرتفاعه فوق مستوى "وادي دوبرة" Duero نحو130 مترا، ويقول عنه الأستاذ **ليفي بروفنسال**: "وكان حصن **غرماج**

---

[1]– انظر ابن سعيد المقّري "المغرب" ص 46.

[2]– ابن القوطية ص 65 –الحميري ص 20.

[3] –Lévi-Provençal, L'Espagne Mus.au Xe. siècle p. 149.

[4]– المقّري، ج1 ص 360.

المذكور مفتاحا دفاعيا حقيقيا للخط الإستراتيجي الدّفاعي بين **أوسما** و**برلانجا**، وما زال يقف اليوم مرتفعا إلى عنان السماء كما لو كان حارسا لا يغفل، لفحص مخضر، بقطاعه، ونطاقه الضيّق، ممتدا على مسافة تبلغ نحو كيلومتر واحد، والحصن مزود بنقش كتابي يؤكد الحدائق التاريخية"1.

ولقد قام الأستاذ **جايا نونيو Gaya Nuno** بدراسة هذا الحصن دراسة أثرية2 أشار فيها إلى أنّ المسلمين في الأندلس في القرن الميلادي قد وصلوا في فنْ العمارة الحربية إلى درجة من التقدّم لا يمكن مقارنتها ببقية بلاد أوربا.

ـ القناطر : إهتم أمراء **بني أمية** بتأسيس القناطر وجسور المياه، وأهم القناطر الباقية قنطرة قرطبة التي تصل بين مدينة قرطبة وربضها شقندة، وهي بناء الإمبراطور **أغسطس**، ووجدها الفاتحون العرب عند الفتح الإسلامي لقرطبة مهدمة، قد سقطت حناياها ولم يبق منها سوى دعائمها الراكبة في النهر3، فجدّد **السمح ابن مالك الخولاني** بناءها بأحجار السور المتهدم سنة 101هـ/711م. ثم تعرّضت القنطرة سنة 161هـ/771م لسيل جارف سدّ حناياها وهدم بعضها وزلزلها4، ولم يتهيأ للأمير **عبد الرحمن الداخل** أن يرمّمها لإنشغاله بقمع الثورات المشتعلة في سائر أنحاء الأندلس، فرمّمها ابنه **هشام** من بعده وتولّى بناءها بنفسه، ولكن القنطرة تعرضت مرة ثانية لسيل ذهب بربض القنطرة سنة 182هـ/792م، وتبعه سيل آخر سنة 388هـ/998م هدم دعامة من دعائمها، ولكنها استمرت بالرغم من ذلك تؤدي وظيفتها في وصل **قرطبة** بشقندة، ثم تثلّمت القنطرة سنة 331هـ/ 941م في عهد الخليفة **عبد الرحمن النّاصر** بسبب المدّ الهائل الذي إجتاح الوادي الكبير5، ويبدو أنّ الخليفة قام بترميم هذه القنطرة، ولكنّها تعرّضت سنة 334هـ/944م لسيل عظيم. وبلغ الماء البرج المعروف ببرج الأسد، فهدم الجزء الأخير من القنطرة، وثلم الرصيف6، فأصلح **الناصر** ما تهدّم من القنطرة.

وهكذا ظلّت القنطرة موضع رعاية أمراء بني أمية، وعمل **المنصور أبي عامر** على تخفيف الضغط عن قنطرة قرطبة، فأمر ببنيان قنطرة أخرى على نهر قرطبة سنة 378هـ/988م تمّ بناؤها سنة

---

[1] –Lévi-Provençal, Histoire de l’Espagne musulmane. t.III, p. 64.

[2] –Gaya Nuño, Gomas, Castillo Califal, Al-Andalous, Vol. VIII, pp.431-450.

[3]– المقّري، جزء 2 ص 26.

[4]– ابن خلدون جزء 2 ص 73.

[5]– ابن عذاري، ج 2 ص 316.

[6]– نفس المرجع ص 320.

389هـ/999م، فعظمت بها المنفعة1، ثم أعيد بناء قنطرة قرطبة في عهد الملك دون بدرو الأول، ثم جدّدت في عهد الملكين الكاثوليكيين، وفي سنة 1880م أعيد رصفها من جديد، ثم كسيت سنة 1912م بكسوة من الإسمنت غطّت معالمها الأثرية.

أمّا برج الأسد الذي أقيم في العصر الإسلامي في نهاية ممشى القنطرة، فقد جدّده هنري الثاني سنة 1399م. وعدد أقواس هذه القنطرة اليوم ستة عشر قوسا تحملها سبع عشرة دعامة ولكنّها كانت تشتمل في العصر الإسلامي على عدد أكبر، فقد ذكر **الرازي** أنّ عدد أقواسها سبعة عشر قوسا2، بينما ذكر صاحب مناهج الفكر أنّ عدد حناياها ثمان عشر حنية، وعدد أبراجها تسعة عشر برجا3، أمّا **الحميري** فيضيف إلى عدد حناياها حنية فيذكر أنّ "عدد أقواسها تسعة عشر قوسا بين القوس والقوس خمسون شبرا، ولها ستائر من كلّ جهة تستر القائمة، وإرتفاعها من موقع المشي إلى وجه الماء في أيام جفوف الماء وقلّته ثلاثون ذراعا"4.

أمّا قنطرة طليطلة فقد كانت تربط بين المدينة وبين ربضها الواقع على الضفة المقابلة للمدينة من نهر تاجة، وكانت تتألّف من قوس واحد تكتنفه فرجتان من كلّ جانب، وطولها ثلاثمائة باع وعرضها ثمانون باعا5، ويضيف **الحميري** أنّه أقيمت في نهاية القنطرة ناعورة إرتفاعها في الجو تسعون ذراعا، وهي تصعد الماء إلى أعلى القنطرة ويجرى الماء على ظهرها فيدخل المدينة6. وقد تهدم الجسر الذي كان يصل المدينة بالمياه من النهر في الوقت الحاضر ولكنّنا نحتفظ بصورة قديمة للقنطرة وفيها هذا الجسر. وقد خربت القنطرة أيّام الأمير **محمد** إذ أمر بهدمها سنة 233 هـ/843م7 حتى ينتقم من أهلها الثائرين عليه، وفي ذلك يقول الحكيم **عباس بن فرناس**:

1- نفس المرجع ص 430.

2- المقري، ج2 ص 26.

3- نفس المرجع، ص 26.

4- الحميري، ص 158.

5- المقري، ج 1، ص 153.

6- الحميري، ص 130.

7- ابن عذاري، ج 2، ص 144.

أضحت طليطلة معطلـة * من أهلها في قبضة الصقـــر

ما كان يبقى الله قنطـرة * نصبت لحمل في كتائب الكفر1

وظلّت قنطرة طليطلة مهدّمة حتى أعاد بناءها **خلف بن محمد العامري** قائد طليطلة بأمر **المنصور بن أبي عامر** سنة 387هـ (997 م)، ثمّ خرّبت بعد سقوط طليطلة في أيدي القشتاليين، ولم يبق منها سوى الكتف الكبير للجانب المقابل للمدينة، فرمّمت سنة 1259م، وظلّت على حالتها إلى يومنا هذا.

وعمل أمراء بني أمية وخلفاؤها على تقليد الرومان في تشييد الجسور التي تحمل المياه من الجبال في أنابيب دقيقة إلى المدن، ويذكر **ابن بشكوال** أنّ **عبد الرحمن النّاصر** أكمل سنة 329هـ/939م "بنيان القناة الغريبة الصنعة التي أجراها وأجرى فيها الماء العذب من جبل قرطبة إلى قصر الناعورة غربي قرطبة في المناهر الهندسة، وعلى الحنايا المعقودة، يجري ماؤها بتدبير عجيب وصنعة محكمة إلى بركة عظيمة، عليها أسد عظيم الصورة بديع الصنعة شديد الروعة لم يشاهد أبهى منه فيما صوّر الملوك في غابر الدهر، مطلي بذهب إبريز، وعيناه جوهرتان لهما وميض شديد، يجوز هذا الماء إلى عجز هذا الأسد، فيمجه في تلك البركة من فيه، فيبهر الناظر بحسنه وروعة منظره وثجاجة صبه، فتسقى من مجاجه جنان هذا القصر على سعتها، ويستفيض على ساحاته وجنباته، ويمدّ النهر الأعظم بما فضل منه، فكانت هذه القناة وبركتها والتمثال الذي يصب فيها أعظم آثار الملوك في غابر الدهر، لبعد مسافتها، واختلاف مسالكها، وفخامة بنيانها، وسمو أبراجها التي يرتقي الماء منها ويتصوب من أعاليها"2.

وكذلك أجرى الحكم المستنصر االمياه من عين بجبل قرطبة، سنة 356هـ/966م، خرق له الأرض وأجراه في قناة من حجر متقنة البناء محكمة الهندسة، أودع جوفها أنابيب الرّصاص لتحفظه من كلّ دنس3. غير أنّه لم يتبقّ للأسف من هذه الجسور آثار مادية تذكر.

[1]– المقّري، ج1، ص 153.

[2]– المقّري، ج2، ص 100 – 101.

[3]– ابن عذاري، ج 2، ص 358.

– **الحمامات :** تبقّى من الحمّامات الكثيرة التي كانت تكتظ بها قرطبة آثار حمّامين أشرنا إليهما عند دراستنا لمدينة قرطبة: أحدهما يقع في شارع الحمام Calle del Baño والآخر في شارع **لاسى كوميدياس** Las Comedias بجوار الجامع، وهذا الحمام الأخير ما زال يحتفظ بقاعته الوسطى، وبها عقود مفرطحة وأخرى متجاوزة على شكل حدوة الفرس تحملها عشرة أعمدة تيجانها من نوع التيجان الخلافية، وكانت تعلو هذه العقود قبوة لم يبق منها أي أثر في الوقت الحاضر، إذ تحوّلت هذه القاعة إلى صحن مكشوف للهواء، بينما احتفظت الغرف المجاورة بقبواتها، ولهذا الحمّام غرفة تعلوها قبوة كانت تتخلّلها مضاوئ لإنفاذ الضوء، سدّت جميعها اليوم. كذلك تبقى من طليطلة حمامات يغلب على الظن أنهما يرجعان إلى عصر الخلافة.

الفصل الثالث

تلمسان أعرق مدن شمال إفريقيا

1- تلمســــــــــان جغرافــــتيا وتاريخـــــــيا

2- تلمسان الفترة ما بين الروماني والفتح الإسلامي

3- **محطـــتات في تاريخ تلمسان الثقافي الإسلامـــي**

4- تلمســـــان في العهــــد العثمـــــــــــــاني

1 – تلمسان جغرافيا وتاريخيا

تقع مدينة **تلمسان** على إرتفاع 830م عن سطح البحر ويحيط بها جبال وهضاب صخرية ومرتفعات ترارة ولالة ستّي وفلاوسن وسبع شيوخ وتاسلة، وتشرف على سهول خصبة مثل سهل الحناية ولالّة مغنية، ولا تبتعد عن البحر كثيرا، بحيث تطلّ على موانئ هنين ووهران ورشقون، وتتوفّر على مسطحات مائية عديدة تختزن كميات هائلة، فضلا عن الأودية المحيطة بها مثل وادي متشكانة ووادي الوريط ووادي الصفصيف ووادي يسر.

فقد جعلها موقعها المميّز هذا تفتح أبوابها لتجارة أوروبا والمغرب والمشرق وجنوب الصحراء (بلاد السودان)، اتّخذت مدينة **تلمسان**[1] أسماء عديدة منذ نشأتها وعبر مراحل تاريخها القديم والوسيط، عرفت الإستقرار البشري منذ آلاف السنين، فوجدت بها أدوات الإنسان القديم والآثار الرومانية والبيزنطية، اتخذ منها الرّومان مستقرا لهم بعد تشييد مدينة **"بوماريا"**، ولكن لا يعني هذا أنّ الرومان هم أوّل من سكنوا هذه المنطقة وشيّدوا بها العمران، بل إستقر بها السكان الأصليون من المور وزناته، ولا شكّ أنهم بنوا لهم مدينة يستقرون فيها، ولاسيما وأنّ المدينة ظاهرة قديمة عرفها المغرب الأوسط في الألفية الثّانية قبل المسيح سواء كان ذلك في الساحل أو في الداخل.

بزوال "بوماريا" ظهرت مدينة **أقادير** أو أكادير أو أجادير، فالإيفرنية الزناتية هم الذين أقاموها للإحتماء بها من غارات قبائل الصحراء الرّحل، فالنّصوص تشير إلى أنّها بنيت قبل الإسلام وأنّها أزلية وأنّها جدار يعود إلى عهد موسى عليه السلام وأنّ اسمها "فنيقي" أي أنّها أسبق للوجود من "بوماريا"، فمن خلال ذلك يمكن إعتبارها أسبق من مدينة "بوماريا" في النّشأة، وإن النّطق الصحيح لها هو **"أكادير"** وعليه يمكن ترتيب أسماء المدينة ترتيبا زمنيا: **أكادير، بوماريا، وتلمسان.**

أمّا في العهد الإسلامي فمنذ دخول **تلمسان** في دائرة الإسلام والعروبة في عهد **أبي المهاجر بن دينار،** فقد مرّ عليها القائد **عقبة بن نافع الفهري،** وإستقر بها **موسى بن نصير،** الذي بنى فيها مسجدا ودارا للإمارة، واتّخذ منها **طارق بن زياد** مسكنا مفضّلا يقيم فيها مع زوجته **أمّ حكيم** وجنده وهيئة أركانه، على حدود ولاية **طنجة** الشّرقية يدير منها شؤون المنطقة الغربية لبلاد المغرب، إستقبل فيها إبنتي **الكونت يوليان** حاكم مدينة **سبتة** كرهينتين وضمان لصحة نواياه وصدق كلامه، لأنّه حثّ **طارق** على غزو الأندلس، فأقرّهما طارق إلى جانبه بمدينة **تلمسان،** وقد شارك أهل تلمسان في فتح الأندلس إلى جانب **طارق** وجنوده سنة 102هـ/710م.

---

[1]– القلقشندي "صبح الأعشى"، ج 5 – ص 149، و ياقوت، "معجم البلدان"، ج2 – ص 44، وهامش "النجوم الزاهرة"ج 8 ص 29.

وفي القرن الثاني هجري/ الثامن ميلادي، أصبحت **تلمسان** عاصمة الإمارة مستقلة عن الدّولة الأموية في دمشق والدّولة العباسية في بغداد، إستقل بها زعيم قبيلة مغيلة التلمسانية: **أبو قرة المغيلي الزناتي** الذي إستطاع أن يوفّر الحماية **لعبد الرّحمان الدّاخل الأموي**، الشريد الطّريد من بلاد المشرق، أثناء إقامته في بلاد المغرب وشجّعه وقدّم له يد المساعدة في إستيلائه على إمارة الأندلس سنة 138هـ/755م، لإحياء دولة أجداده في هذه المنطقة بالمال والرّجال التلمسانيين. ثم إنتقل حكم مدينة **تلمسان** إلى زعيم تلمساني آخر هو محمد **بن خزر المغراوي** الزناتي سنة 770هـ/1386م، وحكمها الأدارسة في مراحل من تاريخها.

إنتقل حكم المدينة خلال النّصف الأول من القرن الرّابع الهجري/العاشر الميلادي أيّام الفواطم الشيعة إلى أمراء محليين من مغراوة وبني يفرن وتداولوا على حكمها وقيادتها وأعلنوا ولاءهم للخليفة الأموي **السّني المالكي** الأندلسي وخلعوا طاعة الفواطم، وبالتّالي أعادوا الإعتبار للمذهب السّني المالكي في المنطقة قبل الزيريين والحمّاديين بنحو قرن من الزمن، والمرابطين بنحو قرن ونصف قرن من الزّمن، واستمر التّلمسانيون يمدّون يد العون للدولة الأموية في الأندلس بالفرسان الزناتيين لحماية الخلافة في قرطبة والدّفاع عن حياض الإسلام وبيضته من الإسترداد المسيحي.

استفادت تلمسان من خدمات المرابطين بتشييد مدينة جديدة هي **"تاكرارت"**، وجعلوها مقرا لحكمهم، وهيّأ لها الموحّدون بقيادة **عبد المؤمن بن علي الندرومي** المناخ الملائم لكي تتبوأ مركزا إقليميا هامّا له وزنه السيّاسي والعسكري والإقتصادي والثقافي ومكانة مرموقة في المغرب الأوسط منذ الإستيلاء عليها سنة 547هـ/1152م.

منذ عهود ما قبل التّاريخ، عاش البشر في **كهوف** بمنطقة **القلعة العليا** و**بودغن** لعدّة قرون تحت هضبة **لالة ستي**، وكانت المنطقة بالقرب من تلمسان مأهولة بالسكّان منذ العصر الحجري، كما يتضح من إكتشاف في 1875م من قبل ج .بلايتشر G. Bleicher آثار قديمة منها معاول مصقولة في كهوف **بودغن** تعود إلى العهد الحجري، حيث استوطنت لما يقرب من مائة كهف والّتي تعرف بإسم- قلعة المارجدية Tameradit –تامراديت، أمّا في عام 1941م قام السيّد إيستاوني M. Estaunié بالعثور في باب القرمادين على صاقلة للحجر رائعة تعود كذلك للعصر الحجري وهي حاليا في متحف المدينة، كما إكتشفت في الكهوف في هضبة **لالّة ستي** بقرية **بني بوبلان**، مواقع أثرية غنية تتكوّن من مجموعة 2000 قطعة يعود تاريخها إلى العصر الحجري المتوسط ومختلطة مع عظام بشرية.

إنّ تاريخ تلمسان لم يبدأ كما ذكره **أباديAbady**، في القرن الثالث للميلاد مع الإحتلال الروماني، لأنّه من الصعب الإعتقاد بأن هذه المدينة الغنية والإستراتيجية، والتي سميت بـ"أغادير" (القلعة باللغة

البربرية)، لم تكن واحدة من المدن القويّة في موريتانيا القيصرية وإمبراطورية **صيفاقس**، و**ماسينيسا** و**يوغرطا**.

تلمسان أو تلمسين جمع تلمت بمعنى عين أي ينبوع الماء الذي تحيط به أشجار، فيكون معنى الإسم مدينة الينابيع، وهو معنى يتلاءم مع إقليم **تلمسان**، لكثرة مائها المتفجر من كلّ مكان، أو أنّه مكوّن من كلمتين بربريتين: "تلم" ومعناها تجمع، و"سان" ومعناها اثنان، ومعناهما معا: "تجمع اثنين"، وهما البر والبحر، فهي تقع في سفح جبل ترارة، وتشرف على ساحل بحري غير بعيد عنها هو ميناء الغزوات.

والحديث عن **تلمسان1**، حديث شائق ممتع، يبعث في النّفس نشوة وحبورا، وهو حديث واسع ثري، يحمل في طيّاته جملة من المعاني العميقة الأصيلة، فقد ساهمت المدينة في الحضارة العربية الإسلامية في القرون الوسطى، كما ساهمت في الحفاظ على خصوصية المغرب الأوسط وشخصيته وإستقلاليته، إزدهرت فيها العلوم والفنون، وعرفت الكثير من العلماء والفقهاء والأدباء والشعراء، وكانت مركز إشعاع علمي وثقافي لمدى قرون طويلة، وفتحت آفاقا رحبة وواسعة وأثرت في المناطق المجاورة **فاس**، **بجاية** والقيروان.

قال **المقري** عنها في "نفح الطيب": "**تلمسان** مدينة جمعت بين الصحراء والريف، ووضعت في موضع شريف، كأنّها ملك على رأسه تاجه، وحواليه من الدوحات حشمه وأعلاجه، عبادها يدها، وكهفها كفها، وزينتها زيانها، وعينها أعيانها، هواها المقصور بها فريد، وهوائها الممدود صحيح عتيد، وماؤها برود صريد..."، ووصفها **يحي بن خلدون** في "بغية الرواد" بقوله:

"وهي مدينة عريقة في التمدّن لذيذة الهواء عذبة الماء كريمة المنبت، إقتعدت بسفح جبل، ودون رأسه ببسيط أطول من شرق إلى غرب، عروسا فوق منصة والشماريخ مشرفة عليها، إشراف التّاج على الجبين، تطل منه على فحص أفيح معد للفلاحة..."وقال عنها **ابن خميس التلمساني**:

تلمسان لو أنّ الزّمان بها يسخو * منى النّفس لا دار السلام ولا الكرخ.

وهي مدينة عريقة قديمة، نواتها قرية "أجادير" ـ وهو إسمها الفينيقي القديم، دخل هذا الإسم لغة البربر، ومعناه "الهضبة" ـ التي اختطها بنو يفرن الزناتيون في عصور قديمة، وكانت منطقة التوطن لقبيلة زناتة الكبيرة، ثم جاء الرّومان واختطوا مدينة دعوها "POMARIA " ومعناه "البساتين".

وقد فتح **إدريس الأوّل** مدينة أجادير، فبايعه صاحبها **محمد بن خزر المغراوي**، ودخلها صلحا 174هـ/790م، ثم غزتها الدّولة الفاطمية مدة من الزّمن، ثم دخلت تحت حكم الصنهاجيين مدة، وغزاها **المنصور بن بلكين**، وعاشت أجادير عهدا من الإضطرابات نتيجة الحروب بين الحمّاديين والأمراء من بني يفرن.

---

[1]– عبد العزيز فيلالي "تلمسان" ج1، ص 355.

ثم مدت الدولة المرابطية سلطتها إليها وفي عهدهم تمّ تأسيس قرية "تاقرارت" - وهي كلمة بربرية مؤنثة تعني "معسكر"- على يد **يوسف بن تاشفين الصنهاجي اللمتوني** (500هـ/1110م)، وواجهت في هذه الفترة حروبا مع أمراء قلعة بني حماد، وكانت تاقرارت في بداية الأمر مفصولة بسور عن أجادير ثم بعد مدة أزيل هذا السّور، وضمت تاقرارت إلى أجادير وتكونت منهما مدينة واحدة هي مدينة " تلمسان".

بقيت **تلمسان** تحت حكم المرابطين حتى قامت دولة الموحدين على أنقاضها، وقام **عبد المؤمن بن علي** بغزو مدينة تلمسان عام 540هـ/1150م، وشهدت خلال عهد الموحدين تطوّرا هائلا في الحضارة والعمران، وبرز فيها من الزناتيين: بنو عبد الواد، بنو توجين، بنو راشد، الذين تغلبوا على ضواحيها والمغرب الأوسط، وملكوها، وبلغت أوج عظمتها خصوصا في عهد بني عبد الواد حيث يقول **ابن خلدون**: "نزلها آل زيان واتخذوها دارا لملكهم وكرسيا لسلطانهم، فاختطوا بها القصور المونقة، والمنازل الحافلة، واغترسوا الرّياض والبساتين، وأجروا خلالها المياه، فأصبحت أعظم أمصار المغرب، ورحل إليها النّاس من القاصية"، وصارت تلمسان هي قبلة الجميع.

وقد عمّرت الدولة الزيانية أكثر من ثلاثة قرون أي من 1236م إلى حين دخول الأتراك سنة 1554م.

واشتهرت **تلمسان** بمدارسها العلمية[1] التي كانت تضاهي في مستواها العلمي المدارس النظامية التي أنشئت بالمشرق العربي، وكانت عبارة عن معاهد عليا للتعليم ولتكوين الإطارات السامية في شتى المجالات وهي: مدرسة **أبي حمو موسى الأول** (718هـ/1328م)، ثم بنى إبنه أبو تاشفين الأول (737هـ/1347م) المدرسة **التاشفينية**، بجانب الجامع الأعظم، فكانت تحفة فنية رائعة، ثم شيّدت أيام استيلاء المرينيين على المغرب الأوسط مدرسة بقرية **العباد**، كما أنشأ أبو عنان المريني مدرسة أخرى بجانب ضريح ومسجد الولي الصالح **"سيدي الحلوي"** سنة 754هـ/1364م، والمدرسة الأخيرة هي المدرسة **اليعقوبية**، أسّسها أبوحمو موسى الثاني (791هـ/1401م)، وكان الحكّام يولون أهمية لهذه المدارس، ويجرون الأرزاق والمنح للأساتذة والطلبة والموظفين، ويعهدون بالتدريس فيها لأشهر العلماء.

وقد ظهر بها كثير من العلماء والأولياء، من أشهرهم: **أحمد بن نصر الداودي** (402هـ/1012م)، **وعلي بن أبي قنون** (557هـ/1167م)، وأ**بو عبد الله بن عبد الرحمن التجيبي** (610هـ/1220م)، **محمد بن إبراهيم الآبلي** (757هـ1367م)، **إبراهيم بن محمد المصمودي** (804هـ/1414م)..... وقد خصهم **ابن مريم التلمساني** بتأليف جمع فيه علمائها وأوليائها قبل القرن العاشر الهجري.

كما لعبت **تلمسان** أيضا دورا هاما في التجارة، ويرجع ذلك إلى موقعها بين الشرق والغرب من جهة، وبين الشمال والجنوب من جهة أخرى. فالقوافل التي كانت تأتي من المغرب الأقصى قاصدة المغرب

[1]– محمد بن عمرو طمار "تلمسان عبر العصور" ص 254.

الأوسط أو القيروان لا بدّ لها من العبور بتلمسان، والقوافل القادمة من الجنوب إلى موانئ البحر الأبيض لا بدّ لها من العبور أيضا عن طريق تلمسان، ولهذا إزدهرت التجارة بها.

جعلنا هذا المشهد نتأمل تاريخ المدينة منذ عهد بني يفرن إلى يومنا هذا، ما عرفته من قوة وازدهار ورقي وما عاشته من شدائد ومحن. وربما تكون **تلمسان** المدينة الأكثر تعرضا للحصار والدمار في تاريخ الجزائر بأكمله، وهو ما يفسر لنا كثرة الأسوار بها، وتعدد المدن: أجادير، المنصورة، تاقرارت.

المدينـــــة المصانـــــة

تلمسان التي لجأ إليها العلماء وتغنّى بها الشعراء كانت كذلك مكانا يقصده الرجال الأتقياء والورعين والصالحين، حتى سميت بـ"المدينة المصانة".

وتشهد على ذلك قصة وردت في "البستان لإبن مريم وتعود إلى عام830هـ/ 1427م، وفحواها :

..."أنّه لما نزل السلطان **أبو فارس** بتلمسان وكان يحكمها السلطان ابن أبي تاشفين، قاتله هذا الأخيرمع أهل تلمسان فغضب السلطان أبو فارس غضبا شديدا وضيّق بأهلها وحلف إن لم يفتحوا الباب بالغد لآمرن بالنّهب فيها ثلاثة أيام، فلما جاء الغد لم يفتحوا له الباب فضيق بأهلها تضييقا عظيما ورماهم بالأنفاط وهدم المسافات حتى صارت الحجارة تصل إلى سوق منشار الجلد وكذلك السهام، وسمع صوت حجر ضرب به من تسالة، وأخبرنا بعض الصالحين من أصحابنا أنّه كان بمسجد درب مسوفة فلمّا رمى السلطان بحجر عظيم سمعنا صوته كالرعد القاصف فوقع بعض الناس على وجهه وصار يقول "سبحان من يسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته"، فلمّا رأى الناس ذلك وأيقنوا بالهلاك إن دام ذلك الأمر جاؤوا إلى علمائهم ومشائخهم وطلبوا منهم أن يخرجوا مع الأولاد الصغار بألواحهم يطلبون من السلطان **أبى فارس** العفو عن أهل البلد فهبط الشيخ سيدي **عبد الرحمان السنوسي** و**ابن عبد العزيز للشيخ سيدي الحسن** وطلبا منه أن يخرج معهما للشفاعة فأبى وألحا عليه فأبى فلما أكثرا عليه قال لهما الشيخ كأنه لم يكن هنا رجل إلاّ أبو فارس لا أخرج إليه والله سبحانه يحكم بيننا وبينه أو كلاما قريبا من هذا فلمّا رأى أبو فارس في محلّته أمرا عظيما ورأى الأولياء يعني أولياء تلمسان قادمين عرف فيهم الشيخ **أبا مدين** رضي الله عنه شتت الثلثين من جيشه والشيخ سيدي الحسن شتت الثلث وقد حكى بعضهم أنه رأى الشيخ سيدي الحسن في تلك الليلة[1] وبيده سيف وهو صاعد نازل في مدارج البيت فلما رأى السلطان أبو فارس ذلك تاب إلى الله ورجع عمّا عزم عليه ومن تلك الليلة عرف مقام سيدي الحسن وصار يعظمه الناس كثيرا..." .

---

[1]– ابن مريم "البستان" تحقيق: محمد بن أبي شنب، تقديم: عبد الرحمن طالب، "الجزائر"، "ديوان المطبوعات الجامعية"، 1986، ص 79–80.

الأصول العريقة لسكان تلمسان

يبدو أنّ الأصول العرقية لعناصر سكان مدينة **تلمسان** كانت متشعبة، بحيث يصعب على الباحث الإلمام بكل مكوّناتها، ويعود السبب في ذلك إلى نقص الوثائق من جهة وإلى التمازج الذي حدث بين السكان الأصليين من البربر، وبين الأجناس الأخرى، التي حلّت بها منذ الفتح العربي الإسلامي في نهاية القرن الأول هجري، السابع ميلادي كالعرب اليمنيين والمصريين والشاميين والعراقيين والأندلسيين والفرس والأغزاز، والقبط، والأعلاج المماليك، والعبيد السود، فضلا عن جنسيات مختلفة أخرى من أوروبا، ويهود، وغيرهم ممّن تسربوا إلى مدينة تلمسان وحطّوا رحالهم فيها، في شكل مجموعات كبيرة أو صغيرة، أو فرادى على مر السّنين والقرون.

هذه هي العناصر الأساسية، التي كان يتشكل منها المجتمع التلمساني، خلال العهد الزياني بما فيها عناصر الهجرة الداخلية والخارجية المستمرة إلى مدينة تلمسان، للإقامة بها قدمت جلّها من أقاليم وأقطار مغربية وإفريقية وأندلسية، ومشرقية ومسيحية أوروبية على شكل قبائل وجماعات وأسر وأفراد، فكثيرا ما لمح في تراجم علماء تلمسان وأدبائها ووجهاء القوم فيها، وكتب الطبقات انتساب العديد منهم إلى قبائل ومدن متباينة، كالآبلي والجيسي والتنسي والسبتي والفاسي والوهراني والبجائي والمصمودي والصنهاجي والتونسي والمصري والكردي، والعقباني وغير ذلك.

الأعـــلاج والصقالبـــة: إستخدم **بنو زيان** الأعلاج أو الصقالبة في بلاطهم، كغيرهم من الدول الإسلامية المتعاقبة في بلاد المشرق والمغرب والأندلس، وهم عناصر من جنسيات أوروبية مختلفة يجلبون من ألمانيا وإيطاليا وفرنسا وكتلونية Catalunia وجليقية Galicia، في شمال إسبانيا، بواسطة الشراء أو الغارات والغزوات للشواطئ الأوروبية وجزر البحر المتوسط أو عن طريق الهدايا. نشأ **الأعلاج** في دار الإسلام تنشئة إسلامية، ودرّبوا على أعمال القصر لخدمة الحريم، وتكونت منهم فرق خاصة في الجيش وحرس السلطان، وتقلدوا القيادة وخطط الوزارة والحجابة ..

وقد إشتهر منهم في البلاط الزياني **هلال القطلاني** الذي سماه المسلمون، و هو من نصارى كتلونية، وجلبوه إلى غرناطة حيث أهداه السلطان الغرناطي **محمد الثاني الأحمر** (671هـ-701هـ/1273م-1302م)، إلى السلطان الزياني **عثمان بن يغمراسن** (681-703هـ/1283-1303م)، ثم صار **هلال القطلاني** بعد ذلك إلى **أبي حمو موسى** (707هـ-718هـ/1307م-1318م)، الذي دفع به إلى إبنه **أبي تاشفين**، ومعه بعض الأعلاج يقومون بخدمته وتربيته، وكان هلال من ألصق الأعلاج وأقربهم إلى أبي تاشفين، حتى أصبح من خلصائه، وثقاته فقلّده الحجابة والوزارة، عندما تولى العرش الزياني وأطلق يده في خطط الدولة، حتى صار بيده الحل والعقد فكان مهيبا صارما عنيدا إتخذ كتّابا وضياعا، وصار له مال كثير وسفينة لنقل التجارة، وقام بزحزحة منافسيه، وتصدى لمعارضيه في البلاط الزياني، وبرزت

معه مجموعة من الأعلاج كان لها مركزها السياسي والإجتماعي في المجتمع التلمساني، بحيث شكّلوا فريقا مهمًّا، من القادة والضباط في الجيش الزياني مثل: القائد **مسامح**، و**فرج بن عبد الله**، و**ظافر مهدي** و**علي بن تاكرارت**، و**فرح** الملقب **بشقورة**، وغيرهم من الأعلاج الذين صاروا عنصرا من عناصر المجتمع التلمساني، في العهد الزياني.

الأغــــزاز: إشتمل المجتمع التلمساني على بعض العائلات التي قدمت من بلاد المشرق1، وهي من القبائل التركية التي كانت تسكن قبل إنتشار الإسلام، أواسط آسيا من أطراف الصين شرقا إلى البحر الأسود غربا، كانت هذه القبائل تعيش في معظمها على الرعي وتربية المواشي. إشتهرت بالفروسية والرمي بالقوس والنشاب، وقد إعتنقت الإسلام في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري /العاشر الميلادي، عرفت لدى المؤرخين المسلمين بإسم (التركمان)، وعند الروم بإسم "OUZOI" ومن أشهرها السلاجقة، الذين تمكنوا من الإستيلاء على شبه جزيرة الأناضول (آسيا الصغرى)، وأخذها من أيدي البيزنطيين 464هـ/1071م، وتمكّنوا من السيطرة على معظم أراضي الشرق الأدنى، في نهاية القرن الخامس الهجري (الحادي عشر ميلادي)، ويعتبر الأتراك العثمانيون، أقرباءهم ومن أبناء عمومتهم، ذكرهم المؤرخون المغاربة، بإسم "الغز" و"الأغزاز"، ويبدو أن جالية الأغزاز قد حلت ببلاد المغرب على عدة مراحل، وفي فترات زمنية متعاقبة، فالنصوص التاريخية تشير، إلى أن الطّالعة الأولى منهم، وصلت إلى الديار المغربية في عهد **يوسف بن تاشفين** (هـ500-450هـ/1088م-1106م)، الذي يعد أول من أدخل الأغزاز الرماة، إلى جيشه سنة 454هـ/1062م، وقدمت الطالعة الثانية إلى إفريقية سنة 488هـ/1095م، في عهد الأمير **تميم بن المعز الزيري** 453هـ-501هـ/1061م-1107م)، وهناك صادفوا التوسع الموحدي بقيادة **عبد المؤمن** (524هـ-558هـ/1129م-1162م)، الذي لم يتوان في إحتضانهم وضمهم إلى الفرقة العسكرية، فساعدوه على الإستيلاء على إفريقية سنة (553هـ/1158م).

لكن الموحدين بقيادة الخليفة **المنصور** (580هـ-595هـ/1184-1193م)، كانوا لهم بالمرصاد فأوقعوا بهم بعد ستة أشهر فقط، من إنتصارهم **بقفصة،** فإستسلم الأغزاز بعد طلب الأمان، فأمّنهم المنصور على أنفسهم، وما ملكت إيمانهم، مقابل الخدمة في جيشه، وصاروا بعد ذلك فرقة مميزة في الجيش الموحدي و في هذا المقام يقول أحد الشعراء.

[1]– ابن خلدون ج1، ص 452، و"نفح الطيب"، ص 420.

وما أغنت قسي الغز عنها * فليست تدفع القدر السهام

غدوا فوق الجياد وهم شخوص * وأمسوا بالصعيد وهم رمام[1]

ويقول أيضا:

أنحى الزمان على الأغزاز وإجتهدت * في قطع دابرهم أحداثه السود

أنتم سليمان في الملك العظيم وفي * طول التهجد في المحراب داوود

وقد إستعملهم الموحدون[2]، في جهادهم ضد المسيحيين في إسبانيا، وكان للأغزاز دور كبير في هذه الحرب المقدسة، وبلوا بلاءا حسنا فيها، لما كانوا يتميزون به من خفة الحركة وسرعة الكر والفر، والمهارة في الرشق بالنبال والخبرة في القتال فقد كانوا يستطيعون الرمي بالنشاب، بدون توقف خيولهم وهم على ظهورها.

وحلّت الطالعة الرابعة، من الأغزاز أو الأكراد ببلاد المغرب(660هـ/1261م)، إثر غزو المغول لمدينة بغداد والإستيلاء عليها سنة (656هـ/1257م)، وقتلوا فيها آخر خلفاء **بني العباس**، ونزلت هذه الجالية الجديدة بمراكش في عهد الخليفة **المرتضي الموحدي** (هـ640-665هـ/1248م-1266م)، فأحسن إستقبالهم ومنحهم الجراية والإقطاعات الواسعة، وجعل لهم مزية ظاهرة في كل شهر تدعى البركة أو الجامكية، بينما كان الموحدون يأخذونها ثلاث مرات في السنة، أي مرة كل أربعة أشهر، وأجازهم مع الجيوش الموحدية إلى بلاد الأندلس للجهاد.

ولما إنتفض أمر الموحدين، خدم الأغزاز في جيوش الدول التي قامت على أنقاض دولتهم، في الديار المغربية، وقد إلتحق بعضهم بجيش يغمراسن، ابتداء من سنة (633هـ/1235م)، وهي السنة التي تولّى فيها شؤون دولته النّاشئة أو بعدها بقليل، ولكن- فيما يبدو- اختلط الأمر على المؤرّخين، فاختلفوا في إنتماءاتهم العرقية فذكرهم **يحي بن خلدون** بالأغزاز، بينما جعلهم أخوه **عبد الرحمن** أكرادا، ولعل هذا الإختلاف جاء نتيجة وجود فرقتين في جيش **يغمراسن الزياني**، الأولى من الأغزاز والثانية من الأكراد، الذين لم يظهروا على مسرح الأحداث في بلاد المغرب إلاّ بعد سنة (656هـ/1257م)، فقد كان للأكراد أشياع وحامية ترابط في مدينة **تلمسان** إلى جانب فرقة الأغزاز، وقد اشتهر من بينهم، في عهدي **أبي حمو موسى الأول** وابنه **أبي تاشفين الأوّل**، **علي بن حسن**، وإبنه **موسى بن علي**، اللذين تقلّدا وظائف سامية، في الدولة الزيانية، وولّيا قيادة جيوشها.

وكان **موسى بن علي** القائد الحاجب، من كبار قواد الجيش الزياني، عقد له **أبو حمّو الأوّل** على قاصية شرق المغرب الأوسط، وأوكل له قيادة الجيوش الزيانية عدة مرات، لضرب المناوئين في الداخل، وكلّفه

[1]– المنصور بن أبي بكر بن مجب "الطويل".

[2]– ابن الخطيب "أعمال الأعلام" ص 77.

بمهام حربية خطيرة، وهي الهجوم على أراضي **بني مرين** في الغرب، وحصار المدن الغربية الحفصية، وإستمر في هذه الوظيفة في عهد **أبي تاشفين الأول**، واستطاع أن يحرز إنتصارات هامة في سجلماسة سنة (722هـ/1322م) وفي بجاية وقسنطينة، وبلد العناب وتونس، ما بين سنتي (714هـ - 730هـ/1314م-1330م)، دوّخ فيها جيوش **بني حفص**، وشدّد الخناق عليهم فترة زمنية زادت عن خمس عشرة سنة. وتمكّن من مد نفوذ بني زيان في هذه المناطق لعدّة سنوات، وكان هذا القائد الغزي الكردي، كثيرا ما يثير الدسائس بين السلطان والقادة الآخرين، كما فعل مع ابن عمّ السلطان **محمد بن يوسف بن يغمراسن**، فتسبب في عزله من ولاية مليانة، أما إبنه **يحي بن موسى**، فكان له في **"**سوق الدولة نفاق**"** حسب تعبير **ابن خلدون**.

والظاهر أن فرقة الأكراد، على قلّتها تكون قد اندمجت مع الأغزاز في آخر الأمر، ولعل هذا هو السبب الذي جعل بعض المؤرخين، يخلطون بين انتماءات المماليك في الجيش الزياني1، ولا يفرّقون بين الأغزاز والأكراد.

أما فيما يتعلق بأثرهم الإجتماعي والثقافي في **تلمسان** فغير واضح، لأن النصوص التي بين أيدينا لا تشير إلى ذلك، إلا أنّهم- فيما يبدو- يكونون قد اندمجوا شيئا فشيئا، في المجتمع التلمساني، وانصهروا مع مرور السنين، لأنهم يشكّلون أقلية قليلة، فتأثروا هم وأولادهم بطبائع أهل تلمسان، وتخلّقوا بأخلاقهم وعاداتهم ونمط عيشهم.

الأندلسيــون في تلمســـــان

عرف المغرب الأوسط، توافد العديد من الأسر الأندلسية، خصوصا في فترة الأزمات السياسية للأندلس، فقد شيّدت جالية مدينة تنس سنة 262هـ/876م، ومدينة وهران سنة 290هـ/903م، واستقر في الأولى أهالي البيرة Elviraوتذمير Tedmer، وأعادوا الحركة التجارية لمرسى الحجاج، المنفذ البحري الرئيسي للدولة الرستمية، التي كانت لبني أمية معها علاقة طيبة وتعاون سياسي ودبلوماسي، وتجاري وعسكري مشترك.

وكان لهم وجود في بني جدليداس القريبة من مدينة تنس، وفي مدينة المسيلة في أوائل القرن الرابع هجري أي العاشر ميلادي، وكذلك استقرت طائفة منهم في مرسى أرزيو، كانت تقوم بتصدير ملح سباخها، إلى العدوة الإسبانية.

[1]- توفيق المدني "كتاب الجزائر" ص 86 – 202، و"هنا الجزائر" للمدني ص 63.

ولعل الوجود الأندلسي المبكر في بلاد المغرب[1]، يرجع إلى أن الدولة الأموية، كانت تبحث لها عن قاعدة أندلسية أمامية في بلاد المغرب، تقف بها في وجه المد الفاطمي، ولهذا لجأت إلى الشواطئ المغربية، وأسّست فيها عدّة قواعد لها، لضرب مخططات الفاطميين والحد من توسعهم وإنتشار مذهبهم.

والظاهر أن الأندلسيين ظلّوا يهاجرون إلى المدن الساحلية، خصوصا في فترة الأزمات السياسية للأندلس، حيث وجدت في بلاد المغرب ظروفا ملائمة للإستقرار والأمن. ويبدو أنّ نسبة كثافتهم تختلف من مدينة إلى أخرى، حسب أهميتها التجارية وموقعها الإستراتيجي والسياسي.

ولعلّ بعض الأندلسيين قد إستقروا بمدينة **تلمسان** في العهدين المرابطي والموحدي[2]، في ظل الوحدة السياسية، التي جمعت العدوتين المغربية والأندلسية، ما بين القرنين الخامس والسابع الهجريين أي الحادي عشر والثالث عشر الميلاديين، فقد جاءت وفود عديدة في هذه الفترة، تطلب الأمان والسكينة في مدينة تلمسان عاصمة المغرب الأوسط، وإلى مدن وحواضر أخرى في بلاد المغرب.

وقد عمل الفقهاء والأدباء والعلماء منهم، إلى جانب الأمراء المرابطين والموحدين[3] وأصبحوا مستشارين لهم، لأن الأمراء شجعوهم على الرحلة والهجرة، سواء كان ذلك طوعا أو كرها، وأنّ بصمات المهندسين والفنيّين الأندلسيين في مدينة تلمسان، كانت واضحة، ولا سيما في الصناعة والعمران في العهدين المرابطي والموحدي.

وتضاعف عدد المهاجرين الأندلسيين لبلاد المغرب[4]، حينما تمكن الإسبان من الإستيلاء على مدن الشرق الأندلسي وغربه مثل لوشةElche، سنة 622هـ/1225م وماردةMérida، سنة 626هـ/1928م وقرطبة 636هـ/1238م، وبالنسية Valencia636هـ/1248م، في النصف الأول من القرن السابع هجري الثالث عشر ميلادي، وفي هذا الصدد يقول **ابن خلدون** (فلمّا تكالب الطاغية على العدوة والتهم ثغورها، واكتسح بسائطها وأسف إلى قواعدها وأمصارها، أجاز الإعلام وأهل البيوت إلى أرض المغربين الأوسط والأقصى وإفريقية، وكان قصدهم تونس أكثر لإستفحال الدولة الحفصية).

وقد كان أوّل من غادر بلاد الأندلس، من المسلمين عماتها ونخبتها مستبدلين بالأهل أهلا وبالأوطان أوطانا، ففي منتصف القرن التاسع هجري الخامس عشر ميلادي، نزلت جالية كبيرة أرض المغرب الأوسط، حطّ معظمها عصا الترحال، في عاصمة بني زيان حيث وجدوا الترحيب والتعضيد من قبل

---

[1]- ابن خلدون،ج 7، ص 106 –129

[2]- توفيق المدني "كتاب الجزائر" ص 86 – 202، و"هنا الجزائر" للمدني ص 63.

[3]- الكعّاك "موجز"، ص 415.

[4]- ابن الخطيب "المغرب العربي"، و"تحقيق المبادئ"، الكتاني، ص 61، و"نفاضة الجراب"، ابن الخطيب، تحقيق العبادي، ص 220.

الأسرة الحاكمة، وفضّل آخرون التوجه إلى مدينتي **الجزائر** و**بجاية**، بينما تفرّق الباقي بين مدينتي **نـــــدرومة** و **هنين**.

ومهما يكن من أمر فالجدير بالذكر هو أنّ المهاجرين الأندلسيين، الذين نزلوا بمدينة **تلمسان** كانوا من الأعلام وأهل البيوتات، ومن وجوه القوم وأعيان الأندلس، إستعان بهم أمراء **بني كانو** في تسيير دواليب الدولة ومؤسساتها وأجهزتها، وقيادة الجيوش وخاصة الذين كانوا لهم خبرة، في مجال الإدارة والكتابة والسياسة والتدريس.

عـــرب تلمســـان

أما عن العناصر الشرقية، فقد حطّت عصا الترحال بمدينة **تلمسان**، منذ دخول الفاتحين المسلمين لها، في عهدي **أبي المهاجر بن دينار** (65هـ-62هـ/675م-681م) والقائد **موسى بن نصير** (هـ86-96هـ/705م-715م) الذي جعل من منطقتي طنجة وتلمسان إقليما إداريا واحدا، وعيّن عليه **طارق بن زياد**، وكان هذا الأخير يقسم وقت إقامته بين مدينتي **طنجة** و**تلمسان**، ولا شك أن بعض الأسر العربية والمستشارين العرب لطارق بن زياد، فكانوا يقيمون معه في تلمسان وإن كنّا لا نعرف شيئا عن الإنتماءات الجغرافية لهذه الأسر المشرقية وللقبائل التي إستقرت بها .

غير أن خلفاء بني أمية في دمشق، حرصوا على طبع الدولة الإسلامية المترامية الأطراف، شكلا ومضمونا بحيث قلّدوا الوظائف السامية، والمراتب العالية، وقيادة الجيوش لعشيرتهم والقبائل العربية المتحالفة معهم، ولا سيما منها القحطانية اليمنية والعدنانية المصرية.

فقد حلت فروع وأحفاذ من هاتين القبيلتين، ومن غيرهما ببلاد المغرب مع الجيوش الفاتحة واستقرت في حواضره وبواديه، بإستقرار الفتح فيه، وكانت بمدينة تلمسان حامية عربية من هذه الجيوش تقيم بها وترابط فيها.

إستمر العنصر العربي في التدفق إلى بلاد المغرب، في عهد الولاة خلال القرن الثاني الهجري أي الثامن ميلادي، من الحجاز ومصر وخرسان، والشام والعراق، مع القواد **كلثوم بن عياض** (123هـ/740م) و**حنظلة ابن صفوان** (هـ124-742م)، و**محمد بن الأشعت الخزاعي** (155هـ-772م) و**روح بن حاتم** (172هـ-790م) ولا يعني أن هذه الطلائع هي الجيوش والقبائل العربية كلها1، التي قدمت إلى بلاد المغرب، قصد الفتح والإستقرار و إخماد الثورات والفتن، في هذه الربوع، وإنما كانت هناك جيوش وقبائل وأسر عربية ومشرقية أغفلتها النصوص التاريخية .

[1]- "الميلي" ج الثاني، ص 352.

والجدير بالملاحظة أنّ معظم القبائل والجيوش، التي قدمت إلى بلاد المغرب، كانت تتكوّن أغلبها من العرب اليمنية والمصرية، وأنّ التسمية الشامية والمصرية والحجازية والخراسانية، لا تعني بالضرورة انتماءات عرقية بقدر ما هي انتماءات جغرافية.

وإلى جانب هذه القبائل، فقد عرفت مدينة **تلمسان** فئة من الأشراف الحسنية، من أبناء **سليمان بن عبد الله بن الحسن**، أحد إخوة مؤسس دولة الأدارسة بفاس سنة 172هـ/788م الذي اهتم بمدينة تلمسان، وجعلها قاعدة من قواعده الهامة في المغرب الأوسط سنة 173هـ/789م، ومنذ هذا التاريخ صارت تلمسان مقرا مفضلا للأشراف الحسنين، وفي القرن الخامس الهجري، الحادي عشر ميلادي اكتسحت قبائل بني هلال وبني سليم العربية بلاد المغرب، واستقرت في مناطق كثيرة، وعندما أقام **يغمراسن بن زيان** الدولة العبد الوادية سنة 633هـ/1235م. حالف أغلب قبائل بني هلال.

وإستقدم العديد منها، إلى ضواحي مدينة تلمسان، للإستفادة من خدماتها، في بناء دولتهم وتوسيع رقعتها وخاصة منها قبائل زغبة، والمعقل وحميان وبنو عامر، الذين ازدادوا حظوة عند سلاطين بني زيان، وقد ظل بنو عامر مخلصين لبني عبد الواد إلى أن اضمحلت دولتهم في القرن العاشر هجري أي السادس عشر ميلادي، فمنحوهم أراضي الإقطاع التي كانت للجماعات العسكرية، في عهد الموحدين مقابل ولائها وخدماتها الدفاعية، فإنتقلت بذلك الأرض من إقطاع استغلال إلى إقطاع تمليك وأسكنوا بعضهم إلى جانب القبائل الزناتية في بعض أحياء المدينة، وفي أرباضها، حتى سميت هذه الأحياء (بسقائف القبائل).

وكان لبني عامر بربض تلمسان يقطنون فيه، وأنزلوا البعض الآخر، بظهير المدينة وضواحيها، ليكونوا ذرعا واقيا للدولة الفتية، وحصنا حصينا لها، وتعد هذه الإجراءات، في حدّ ذاتها امتيازات خاصة لهذه العناصر، وبالرغم من غياب المعطيات الإحصائية، عن عدد هذه الجالية بدقة فإنها تمثل العنصر الثاني، في المجتمع التلمساني خلال العهد الزياني.

بـــربـــر تلمســـــان

وكان غالبية سكان مدينة تلمسان يتشكّلون من زناتة، ولا سيما منها مغيلة ومغراوة وبني يفرن، الذين اختطوا مدينة أكادير، قبل الفتح العربي لها، وبقيت هذه القبائل تهيمن على المدينة والغرب الجزائري، وتتداول السلطة عليها عدة قرون، حكمها بنويفرن ومغيلة ومغراوة، ولحق بها فلول من بني زيري وأقاموا بها، وسكنها المرابطون الصنهاجيون وشيّدوا محلتهم بتاكرارت، وبقيت فيها جماعة من مسّوفة، وانتقلت إليها بعض العائلات الموحدية وخاصة من هنتاتة ومصمودة وكومية، وتكونت من هذه الأسر شبه أرستقراطية عسكرية بالمدينة، فكانت تلمسان انذاك العهد نزلا للحامية الموحدية ومقرا للحاكم وقرابته.

ولمّا صارت مدينة تلمسان عاصمة بني زيان، عاد إليها نفوذ زناتة فاحتكرت حمايتها من جديد، ونقل إليها بنو عبد الواد عشيرتهم وقبيلتهم، وقبائل أخرى من بني عمومتهم بني توجين، وبني راشد، وبني زردال، وبني عصاب وجماعة من أولاد منديل، وغيرهم من الزناتيين، الذين تركوا خيامهم وسهولهم، ووفدت إليها جالية من هواة يتزعمها القائد **يوسف بن حيون الهواري**، الذي قدم خدمات جليلة للدولة الزيانية، إلا أنّ اندماج مثل هؤلاء اللاجئين السياسيين في المجتمع التلمساني واستقرارهم في المدينة قليل وغير ثابت .

ونقل السلطان **أبو حمو**1 **الأول** (707-718هـ/1307-1318م) إلى مدينة تلمسان، جالية كبيرة من (رهائن الوطن كلّه حضرا وبدوا)، (وأشياخ بدو البلاد وحضرها)، ورهائن من بطون توجين وأسكنهم جميعا بقصبة المدينة في حي خاص بهم، حتى لا تخرج قبائلهم عن الطاعة، ولا تتجرأ على معارضة السلطة والإمتناع عن دفع الجباية، وكان الرهائن يمثلون انتماءات قبلية وجغرافية مختلفة.

ويؤكد ذلك ابن خلدون بقوله (واستبلغ **أبو حمو** في أخذ الرهائن من أهل العمالات وقبائل زناتة والعرب، حتى من قومه، بني عبد الواد... وكان يأخذ الرهن المتعددة، من البطن الواحد والفخذ الواحد والرهط، وتجاوز ذلك، إلى أهل الأمصار، والثغور من المشيخة والسوقة.. وأنزلهم في القصبة فملأ تلك القصبة، بأبنائهم وإخوانهم وشحنها بالأمم بعد الأمم).

وهذا يبين أن المجتمع التلمساني كان يتشكل من إنتماءات مختلفة من قبائل المغرب الأوسط، وقد سمح لهم السلطان ببناء المنازل وإنشاء الدور، واتخاذ النساء، وتشييد المساجد، وإقامة المصانع والأسواق بالقصبة.

ولا شك أنّ الناس كانوا يأتونها من كلّ قاصية للإستقرار بها، فظلّ النزوح مستمرا إليها في عهد بني زيان، لأن التحرك بين أجزاء المغرب والعالم الإسلامي، بصفة عامة والرحلة في طلب العلم، والوظيف والتجارة كانت من الأمور المحمودة عند المسلمين، حتى صارت مدينة **تلمسان** تعج بالعلماء والطلاب والتجار وأرباب المهن.

لقد كان العنصر البربري هو الغالب على سكان مدينة تلمسان ولاسيما من زناتة، التي ظهرت فيها طبقة ميسورة تصدرت المجتمع التلمساني، في هذه الفترة وتبوأت القيادة والمخزن، وامتهنت الوظيف، واحترفت الصناعة والتجارة والدراسات الفقهية وغيرها.

---

[1]– نجد أفضل وصف لهذه المرحلة وأكثره تفصيلا في "البغية"، 2: 21–23، والواسطة: 23.

تلمسان مدينة من بين أعرق مدن التاريخ والحضارة في المغرب العربي، تزخر بآثار كثيرة خلفتها حضارات الأمم والشعوب التي تعاقبت على المنطقة وظلت شاهدة على عمق ماضيها وعظم شأنها بين المؤرخين والرحالة والجغرافيين.

تتميز بموقعها الجغرافي الإستراتيجي، فهي تقع في ملتقى الطرق الرئيسة التي تربط الساحل الشمالي للمغرب العربي وموانئه بالصحراء الكبرى من جهة، وتصل شرقه بغربه من جهة أخرى. اشتهرت تلمسان بكونها مركزا عسكريا وتجاريا وحضاريا وسياسيا بارزا في منطقة الشمال الإفريقي عبر العصور، ممّا دفع بكل الدول التي حكمت هذا الفضاء الجغرافي إلى السعي الدّؤوب للسيطرة عليها وضمها إلى حظيرة ممتلكاتها .

إتخذها السكان الأصليون من البربر موطنا لهم منذ أزمنة غابرة قبل أن يجعل الرومان منها، في القرن الثالث الميلادي، ثغرا محصنا تقطنه العشرات من فرقهم العسكرية المكلفة بالدفاع عن الحدود الغربية لدولتهم في شمال إفريقيا. فتحها العرب المسلمون على يد أبي **المهاجر بن دينار** حوالي عام 55هـ /648م وأقام بها القائد **عقبة بن نافع** لفترة قصيرة بعد فتحه لمدينة تيهرت عام 62هـ/675م.

ظفر بها خوارج بني يفرن ومغراوة، فأسّسوا بها إماراتهم قبل أن تقع في حكم الأمويين. حاصرها الملثمون والأدارسة والحمّاديون والحفصيون وبنومرين وغيرهم عدة مرات، وانتزعها الموحدون من المرابطين بعد صراع مرير، واتخذها بنو زيان عاصمة لدولتهم ومقرا لحكمهم وملجأ لقبيلة زناتة. ولم تسلم تلمسان من تحرشات وغزوات الإسبان الصليبيين، فصارت مقرا للأندلسيين ومقصدا لعلمائهم وملوكهم الهاربين من جحيم الأندلس بعد سقوط غرناطة. حكمها الأتراك العثمانيون قرابة ثلاثة قرون بداية من سنة 962هـ-1555م، ولما غزت فرنسا بلاد الجزائر عام 1246هـ-1830م، وقفت تلمسان صامدة في وجه الجيوش الفرنسية الزاحفة وحولها الأمير **عبد القادر الجزائري** إلى عاصمة للجهاد والبطولات طيلة عشر سنوات. ولم يتمكن المستعمر الفرنسي من الإستيلاء عليها إلا في عام 1258هـ-1842م.

ترتفع تلمسان عن سطح البحر بنحو ثمانمائة وثلاثين 830 مترا وتبعد عنه بحوالي ثمانين 80 كيلومترا. بنيت على سفح جبل يقيها من الرياح الآتية من الصحراء في فصل الصيف وعواصف البرد القارص القادمة من الهضاب العليا الجنوبية والغربية في فصل الشتاء.

تشرف على المدينة من الجهة الجنوبية سلسلة جبال لالة ستّي التي يبلغ ارتفاع أعلى قمة بها 1306 مترا، ومن هضبتها المكسوة بغابات الصنوبر تنبع مياه غزيرة وعذبة، شرب منها سكان المدينة على مر الأزمنة واستغلوها لسقي حقولهم وبساتينهم الخصبة. وقد وصف **يحيى بن خلدون**، مؤرخ ملوك بني **عبد الواد**، تلمسان بقوله: "إقتعدت بسفح جبل ودون رأسه ببسيط أطول من شرق إلى غرب عروسا

فوق منصة والشماريخ مشرفة عليها إشراف التاج على الجبين تطلّ منه على فحص أفيح معدّ للفلاحة"1.

تحيط بتلمسان من الجهة الغربية والشمالية والشرقية سهول تمتاز بجودة تربتها ووفرة إنتاجها، تسقى عن طريق شبكة من قنوات الريّ المحكّمة التنظيم، تصل الحقول والبساتين والرياض وتوزع مياه العيون والينابيع الجبلية خلال فصلي الصيف والخريف، الشيء الذي جعل من تلمسان جنة تغص بالمنتجات الزراعية اليانعة والرياض الفيحاء، أمّا أوديتها وأنهارها وجداولها المنصبة من السلاسل الجبلية، فقد تغنّى بها الشعراء وكان خريرها يسمع في كل ناحية، إذ قال عنها الإمام **ابن مرزوق الخطيب** :

بلد الجداول ما أمر نواهـــا * كلف الفؤاد بحبها وهواهـا

يا عاذلي كن عاذري في حبها * يكفيك منها ماؤها وهواها2

وقد شكل عنصرا وفرة المياه العذبة بها طول السنة، والحصانة الطبيعية التي توفرها لها تضاريس المنطقة، عاملين أساسيين دفعا بالسّكان الأوائل إلى اختيار هذا الموقع لبناء التجمع السكني الأول والإستقرار به، قبل أن يمتد العمران في كل الإتجاهات بسبب عوامل تاريخية وبشرية عاشتها حاضرة تلمسان عبر العصور.

يظلّ تاريخ إنشاء تلمسان غامضا إلى يومنا هذا، فنحن لا نعرف من اختط لأول مرة هذه المدينة ولا تاريخ اختطاطها، بل حتى من سمّاها كذلك وفي أي فترة، كلّ ما احتفظ به التاريخ لنا هو أنّ أمراء بني يفرن، بطن من بطون قبيلة زناتة البربرية، ثاني أكبر قبيلة بالمغرب العربي بعد صنهاجة، قد أسّسوا قرونا قبل أن تصبح شمال إفريقيا جزءا من الإمبراطورية الرّومانية، مدينة أطلقوا عليها اسم **"**أقادير " Agadir3، وجاء بعدهم الرومان فاختطوا بنفس المكان مركزا حربيا في القرن الثالث الميلادي أسموه "بوماريا Pomaria4 ". ولا تروي لنا قصص التّاريخ كيف زالت هذه المدينة وضاعت آثارها.

ولمّا حاصر المرابطون مدينة أقادير عام 474هـ-1081م، بنى قائدهم **يوسف بن تاشفين** مدينة جديدة بالمكان الذي نزلت به جيوشه والواقع غرب المدينة المحاصرة، أطلق عليها اسم **"**تقرارت " 5Tagrart، وبسرعة أصبحت المركز الرسمي للحكومة المرابطية إذ نزل بها قادة الجيش والولاة

1– يحيى بن خلدون "بغية الرواد في ذكر الملوك" من بني عبد الواد، تحقيق Alfred Bel:، ج1، "الجزائر":1910، ص9.

2– الأمير محمد بن عبد القادر "تحفة الزائر في أخبار الجزائر والأمير عبد القادر"، بيروت، 1964، ص18 .

3– أقادير أو أجادير (بجيم مصرية) اسم فينيقي قديم دخل في لغة البربر ومعناه الجرف أو الهضبة القليلة الانحدار.

4– وتعني الحدائق والبساتين الغنية بشجر التفاح والمسقية بمياه غزيرة، ولا زالت إلى يومنا هدا قناة للمياه بنفس المكان تدعى "ساقية النصراني" يذكرها الشاعر "ابن خميس التلمساني".

5– لساقية الرومي عندي مزية وان رغمت تلك الرواسي الرواشح.

ورجال الدولة، وبنيت بها دار الإمارة والمسجد الجامع؛ فأضحت بذلك من أهم مدن المغرب الأوسط ينشط بها العمران وتشيد فيها المباني الجميلة، وفي عهد الموحدين صارت تلمسان مقرا لولاة المغرب الأوسط، فعني هؤلاء بتحصينها من خلال إقامة الأسوار وتشييد المنازل والقصور الضّخمة، وقد سلمت المدينة من الثورات التي قامت بالمغرب الأوسط على عهد الموحدين بفضل مناعتها، فلجأ إليها الكثير من سكان المدن الأخرى وتواصلت بها حركة العمران، فكثر فيها الصناع والتجار وعظم شأنها.

ويختلف المؤرخون حول أصل ومعنى كلمة تلمسان، فيرى البعض أنها تتألّف من كلمتين بربريتين هما "تلم" ومعناها تجمع، و"سان" ومعناها اثنان، أي تجمع اثنان: البر والبحر، أو الشمال والصحراء، أو الجبل والسهل، بينما يرى آخرون أن الكلمة عربية مركبة ويقصد بها تجمع الإنسان، وقال الفريق الثالث أنّ الكلمة بربرية محرفة وردت بصيغة الجمع (مفردها تلماس) وتعني جيب ماء أو ينبوع، وهذا المعنى مطابق للواقع . ذكرت تلمسان في كتب المؤرخين والجغرافيين الأوائل بصيغ مختلفة، فوردت بلفظ "تلمسين" عند **بن عبد الحكم** في (فتوح إفريقية والأندلس) و**بن خرداذبة** في (المسالك والممالك)، بينما ذكرها **عبد الرحمن بن خلدون** في تاريخه و **بن حوقل** في (صورة الأرض) بالنون "تنمسان".

ولم تحمل المدينة اسم تلمسان إلا في مصادر القرن الثالث للهجرة ولا ندري من استعمله لأول مرة، في حين احتفظ بلفظ أقادير ليطلق على المدينة القديمة في الجهة الشرقية من تلمسان.

يصفها **الإدريسي** في (نزهة المشتاق) بأنّها "مدينة أزلية ولها سور حصين متقن الوثاقة وهي مدينتان في واحدة يفصل بينهما سور..."1، وتدعى تلمسان أيضا مدينة السور أو الجدار لكونها محاطة بأسوار كبيرة وطويلة قليلا ما نجد مثلها في العالم الإسلامي، حتى أنّ **ياقوت الحموي** نقل في (معجم البلدان) مزاعم خاطئة عن جدارها حيث يقول: "...ويزعم بعضهم أنّه (تلمسان) البلد الذي أقام به الخضر عليه السلام الجدار المذكور في القرآن..."2.

تربعت تلمسان صدارة تاريخ المغرب الأوسط أكثر من ثلاثة قرون، ازدهر خلالها الفكر وأخصبت الحضارة، وتطوّر العمران وانتعش الإقتصاد والتجارة، فاستهوت العديد من رجالات الفكر والدين والسياسة، وجلبت الرحالة والجغرافيين والمهاجرين، فأكسبها ذلك ألقاب "مدينة التاريخ والثقافة والفن".

---

[1]– الشريف الإدريسي "نزهة المشتاق في اختراق الأفاق"، ج1، القاهرة مكتبة الثقافة الدينية، 2002، ص238

[2]– ياقوت شهاب الدين أبو عبد الله الحموي "معجم البلدان"، ج1، القاهرة، 1906، ص424 .

نصارى تلمسان القديمة

إنّ وجود جالية من النّصارى، تتشكّل من الجند المرتزقة والتجّار والأسرى بمدينة **تلمسان** خلال العهد الزياني وإقامة الشّعائر الدينية المسيحية تتطلّب ضرورة حضور رجال الدّين الممثلين للكنيسة الرومانية لأنّ التّجار يتمتعون بمعاهدة تضمن لهم حرية بناء الكنائس الصغيرة في الفنادق التي يقيمون فيها، ويؤكد **طلك** Talkما جاء في المعيار: "جدّد بعض النصارى كنيسة في فندقهم وعلا عليها شيء يشبه الصومعة، فطلبوا بذلك، فأتوا بكتاب العهد، فوجدوا فيه أنه لا يحال بينهم وبين أن يبنوا بيتا، لمتعبداتهم".

كان مسموحا لهم بإنشاء مقبرة لدفن موتاهم حسب طقوسهم الدّينية، وكانت لرجال الدّين مهمة إنسانية أخرى، إلى جانب المهمّة الدينية وهي افتداء الأسرى، ويتم الإفتداء بمقتضى رخصة صريحة من طرف الوالي أو السّلطان، وكانت مهمة هؤلاء القساوسة تتم تحت رعاية السّلطة المحلية الرسمية، حتى لا يتجاوزوا حدود صلاحياتهم ويتحوّلوا بذلك إلى مبشرين بالدّين المسيحي في الأوساط الإسلامية، لأنّ البابوية حمّلتهم مشروعا لإعادة النصرانية إلى ربوع المغرب، وأنّ دراستهم للغة العربية وتعليمها في المدارس المسيحية تعدّ وسيلة من وسائل التبشير في أوساط سكان بلاد المغرب من القرن السابع هجري/ الثالث عشر ميلادي.

وكانت بعض الكنائس المتواجدة بفنادق مدينة تلمسان، يؤمها التّجار المسيحيون وبها بعض رجال الدّين، كما كانت لهم مقبرة مسيحية خارج أسوار المدينة، بينما أوضحت المعاهد الأرغونية التلمسانية Tlemcen Aragón/المبرمة سنة 685هـ/1286م، وظيفة الكاهن أو القسيس، في هذه المعابد. والجدير بالملاحظة هو أنّ هذه العناصر التي كانت تقيم بمدينة تلمسان لم تكن لها علاقة واسعة مع العناصر الأساسية الإسلامية في المجتمع التلمساني1، وأنّ الإندماج فيه كان قليل، إلاّ أولئك الذين يعتنقون الدّين الإسلامي.

اليهـود في تلمســان

كثيرا ما يطلق اليهود على تلمسان اسم " قدس شمال إفريقيا "، لما لها من أهمية في تاريخها بالمغرب الإسلامي، من كثافة بشرية، ونشاط اقتصادي، وأماكن مقدّسة، لم تتوفر لهم في المدن الجزائرية الأخرى، ورغم بعض الإشارات الأدبية للوجود اليهودي في المدينة السابق لعهد دخول الرومان، فإنّ تاريخ المدينة لا يقدّم لنا أدلّة مقنعة، سواء عن هذه الحقبة أو حتى تلك التي ما بين العهد الروماني والفتح الإسلامي، بإستثناء التّسامح الوندالي معهم للإقامة2، أمّا بعد الفتح فيروي مؤرخهم: بأنّهم تعرّضوا

[1]– عبد الحميد ابن باديس "نصوص تاريخية حول المغرب العربي" تقديم عبد العزيز فيلالي، ص 5.

[2]– "الموسوعة اليهودية " التي نشرت ما بين (1901م)، و(1906م)، التي تحتوي على 15000 : انظر في http://www.jewishencyclopedia.com/view.jsp ?artid=1221§lettre=A

للطرد، والمضايقات والمحن التي مرّت بالمدينة ككلْ، وبحالتهم على وجه الخصوص، فالمرينيون – الذين ينحدرون من قبائل زناتة البربرية و الذين امتد حكمهم ما بين (1244م – 1265 م) – قاموا بحصار المدينة لمدة تسع سنوات، قد طردوا اليهود من داخل المدينة، ليقيموهم منذ ذلك الحين خارج الأسوار، أمّا الأدارسة فقد كرّسوا جهودهم لمحو التّأثير اليهودي في المنطقة، ممّا حدا بهم إلى التّنكيل بهم، بينما كان عهد الأغالبة زمن رخاء وحظوة لهم لما كان لهم من مكانة عند الحكّام1، وقد كان متاع التسامحي في عهد المرابطين الذين إعتبروهم أهل الكتاب وأهل ذمة، في حين كان عهد الموحدين عهد سخط عليهم، حيث بدأت مأساتهم مع **عبد المؤمن بن علي** الذي كان يرمي إلى إجبارهم على التحوّل إلى الإسلام.

وقد كان وجودهم في المدينة هامشيا إلى غاية الهجرات الأندلسية الكبرى، التي كانوا إحدى ضحاياها بجانب المسلمين الذين خيّروا خلالها بين اعتناق المسيحية قسرا مقابل البقاء أو الخروج من جزيرة الأندلس، وقد كانت تلمسان بجنب مدن ساحلية بشمال إفريقيا مثل: مستغانم، وتنس، وشرشال والجزائر وبجاية وتونس، وجهة كثير من هؤلاء المهاجرين، الذين جاءوا على دفعات متعددة، بدأت منذ سقوط غرناطة سنة (1492م)، بل وقبلها إلى (1610م)، التي تقرّر خلالها انتهاء سياسة الطرد بزوال المسلمين نهائيا من الأندلس، وقد أصبح اليهود في مدن شمال إفريقيا بذلك صنفان: القادمون من الأندلس التي أصبحت تشكل الطبقة العليا والنافذة وآخرون من أهل البلد الذين أقاموا منذ زمن في منطقة شمال إفريقيا وهم المستضعفون وذوا الحرف المتواضعة، وقد انتهت رئاسة اليهود في كل مدن شمال إفريقيا في الدّين والدنيا للصنف الأوّل.

إرتبط دخول اليهود إلى مدينة **تلمسان** بقصة الربّي **إبراهيم عنقارة**، ذلك اليهودي الأندلسي الذي هاجر من طليطلة إلى المغرب، ثم إلى تلمسان، ليصبح فيما بعد أحد أقطاب الجالية خلال حياته الطويلة، وأحد أوليائهم الذي تحوّل قبره إلى مزار مقدّس وحج سنوي بعد وفاته2 سنة 1442م، وقد بدأت رحلته من الأندلس سنة 1391م التي قضى خلالها والده نحبه3.

أمّا عن هجرته فقد كانت فردية، حيث تروي الأساطير اليهودية بأنّه نجا بمعجزة من الموت، وهام على وجهه متوجها إلى المغرب الأقصى بداية ثم إلى تلمسان. أعطيت لهذا المهاجر رخصة الإقامة له ولليهود الذين شفع لهم داخل المدينة، ويبدو أنّ هذا الحي السكني الجديد كان مقتصرا على الطبقة الراقية، التي

[1] – "الموسوعة اليهودية" المصدر نفسه.

[2] – "أليير ابن سوسان" الذي أقام في المدينة في طفولته.انظر الموقع:
http://www.terredisrael.com/wordpress/ ?p=14422

[3] – دارمون "يهود تلمسان" المجلة الإفريقية رقم 14 سنة 1870، ص ص 376 – 183.

أصبح من أغصانها من كان يتقلد مهاما في قصر الحاكم، بينما كان بقية اليهود في حي "أقادير"، الذي كان عبارة عن أحد رياض المدينة، ويكون بذلك لليهود بتلمسان حارتان، أحداهما حديثة داخل المدينة، بالقرب من مقر الحكم أو المشور، والثانية قديمة بمنطقة أكادير وخارج الأسوار.

متوسط عمر أهل تلمسان

ذكرت بعض النصوص التاريخية، أن معدّل عمر سكان أهل مدن وحواضر المغرب الإسلامي، في القرن التاسع هجري الخامس عشر ميلادي، يتراوح بين خمس وستين سنة وبين سبعين سنة، ويزيد بعضهم عن هذا المعدل إلى ثمانين سنة في المتوسط.

أمّا القرويون وأهل البادية، فيصل معدل أعمارهم، إلى مابين ثمانين ومائة سنة، وعلى رغم كبر سنّهم، فإنهم كانوا يتمتعون بشيخوخة قوية ومرنة، بحيث كانوا يقومون بالأعمال الشّاقة في الحقول كالحرث، والنقش وتقليب الأرض وبذر البذور، وحصد المحاصيل الزراعية بكل خفة ونشاط، ويعيدون الزواج في كثير من الأحيان.

العهد الروماني القرطاجي: **من مآثر بوماريا الرومانية في تلمسان**

في سنة 201م أسّس أوّل مركز عسكري روماني على صخرة تطل على سهل شتوان بـ7 هكتارات وسمي ببوماريا " Pomaria وهي كلمة لاتينية بمعنى "البساتين"، إشارة للأراضي المخضرة المهيمنة على المنطقة ليشكّل نقطة ولادة مدينة ستلعب دورا مهما حيث تمركز مجموعة من السكان والتجار فبنوا مساكنهم على الحواف الجنوبية لقلعة بوماريا ولتصبح بوماريا معسكرا رومانيا ثابتا، وكما كانت تبنى المعسكرات الرومانية كان لها أربعة أبواب على شكل مستطيل "الباب الأول" أو "الباب البريتوري" نحو الشّرق و "الباب الثاني" نحو الغرب ويسمى ب"الباب الديكومي" زائد بابان على الناحيتين المتبقيتين، كما كان للمدينة سورا يحيط بها ومركزا للقيادة وسوقا وكان لها أيضا مخزنا للأسلحة والموارد الثمينة، كما لعبت المدينة دورا دينيا كبيرا حيث أصبحت مقرا لأبرشية الأسقف الكاثوليكي حيث اشتهر من خلال تدخلات أسقفها **لوجيونيس بوماريانسيس** الّذين شارك في العديد من المجالس وانتهى به المطاف بعد رحلات الذهاب والإياب بأن قتل في إحداها.

واعتبرت هاته القلعة العسكرية بمثابة الخط الأخير للدفاع عن الأراضي الخاضعة لروما كما اعتبرت نقطة التقاء للجحافل الرومانية المتوجه نحو موريتانيا التنجيتانية، كما أنّ موقع هذه المدينة جعل منها مفترق طرق ما بين طريقين مهمين في هذا العصر: الأوّل يربط (ألبولاي) Albulae عين تموشنت ويؤدي نحو مينائي (بورتوس ديفينيس) Portus Divini وهران والمرسى الكبير والثاني (سيقا سيق)، عاصمة إمبراطورية صيفاقس ومرفقها البحري عند مصب وادي التافنة (رشقون).

بوماريا هذه المدينة القديمة التي تقع شرق تلمسان الحالية لا نعرف حدودها حيث أصبحت تحتلها اليوم الحدائق والمساكن والعمارات وكذلك محطة السكك الحديدية ومع ذلك فإنّ بعض الأحجار المنحوتة والتي أعيد استخدامها في المباني هي كل ما تبقى من تلك البيوت الجميلة والآثار العامة والتي كانت تفتخر بها تلك المدينة والتي أعيد استعمالها كقاعدة لمئذنة "مسجد أغادير" العتيق والتي لا تزال موجودة حتى الآن والتي تعطينا بنقوشها اللاتينية بعض المعلومات عن نشوء هته المدينة.

خلال القرنين الخامس والسادس بوماريا لم تعد جزءا من روما، وتغيّرت تبعيتها مرتين في 429هـ تحت سلطة ملك **الوندال جينزريك** القادم من إسبانيا، والذي قام بموطئ قدم على الساحل المغربي وبعد عشر سنوات دخل قرطاج وبعد مائة عام الإمبراطور **جيستينيان** أرسل من القسطنطينية جيشا بقيادة **بيليساريوس** الذي أخرج من دون جهد يذكر البلاد من سلطة الوندال.

هؤلاء الأسياد الجدد قد أعادوا إلى المنطقة التقاليد الرومانية كما ادخلوا المنطقة إلى المسيحية ليضعوا حدا للهرطقة الآرية التي فرضها الوندال على أهالي المنطقة، عانت بوماريا من الإضطرابات والفوضى التي قام بها 80000 الوندالي، واحدة من عصاباتهم شوهدت في ألتافا على بعد 30 كم من تلمسان، ولم تسلم بوماريا من الدّمار.

ولكنّ الإحتلال البيزنطي بقي متمركزا في وسط الجزائر دون سيطرة حقيقية على المناطق الغربية للبلاد، أين بقيت تلك المنطقة تحت سلطة ملوك برابرة كما حوت المدينة خليطا من مختلف الديانات: الوثنيين واليهود والمسيحيين.

الدولة النوميدية

لم تظهر الممالك الأمازيغية في شمال إفريقيا[1] إلاّ في القرن الثالث قبل الميلاد وكانت الأسرة الميسايسوليا أو(المازيسوليا)، تسكن نوميديا الغربية، وكان من أهم ملوكها **صيفاقس** و**فيرمينا**.

و حسب الخرائط الموجودة في جل الكتب الجغرافيا فهناك الدولة النوميدية الغربية و التي يشار اليها بلون الأخضر و الدولة النوميدية الشرقية بالأصفر، التي كانت تحت حكم **سافكس** و**كالا** على التوالي، ويعدّ الملك **صيفاقس Syphax** أو**سفك** عند **ابن خلدون** من الملوك الأمازيغ الأوائل الذي عمل على توحيد ساكنة تامازغا إلى جانب الملك **ماسينيسا** والملك **باكا** والملك **فيرمينا**، واتخذ من **سيقا** عاصمة له (عين تموشنت) و**نوميديا الغربية** تمتد من نهر شلف شرقا إلى نهر ملوية غربا، وكانت لتلك الدولة علاقات دبلوماسية مع كل من **قرطاجة** و **روما**.

وفي الحروب البونية الثانية استطاعت روما، أن تتحالف مع **ماسينيسا**، وتوسّع هيمنتها بإتجاه الغرب إلى أن قضت على الممالك كلّها، ولم تبق إلاّ بصورة شكلية في مملكة موريتانيا.

[1]– مارمول كربخال "إفريقية" ترجمة: محمد حجي وآخرون، الرباط دار نشر المعرفة، 1988–1989، ج.2، ص 299.

وبعد وفاة الملك **صيفاقس،** تولّى ابنه **فيرمينا** وراثة الحكم، وعاش بعد أبيه بضع سنوات، وبعد سقوط دولة صيفاقس اندلعت ثورات أمازيغية مضادة للرومان اتخذت صبغة عسكرية كمقاومة **يوغرطة** وكذلك مقاومة **تاكفاريناس** نحو17م حيث أثار قبائل زناتة ضد الرومان، وتوفي في بوماريا.

2- تلمسان الفترة ما بين العهد الروماني والفتح الإسلامي

من نهاية الحكم الروماني إلى الفتح الإسلامي، لا نعرف سوى القليل عن تاريخ هذه المنطقة، وهذا ما دعا **فيليكس إميل غوتييه** بدعوة هته الفترة بـ"القرون الغامضة للمغرب العربي"، حيث تميّزت بالفوضى والتجزئة السياسية وظهور الإمارات البربرية1 المحلية التي كان يديرها سلاطين محليين.

الفترة الرومانية: بوماريا POMARIA اسم المدينة التي جعل الرومان من موقعها ثغراً محصناً قطنته حامياتهم العسكرية منذ أوائل القرن الثالث الميلادي. لم تفدنا كتب التاريخ باسم المدينة القديم، ولا شك أنها أقدم من الوجود الروماني لأن موقعها الجغرافي والطبيعي والجميل من شأنه أن يجعل منها أرض استقرار وإقامة القبائل البربرية قبل مجيء الرومان، ولعل اسم بوماريا الذي يعني الحدائق والبساتين الغنية بشجر التفاح، ما هو إلا ترجمة لاسمها البربري القديم.

لم يبق من بوماريا إلا آثاراً قليلة، فهي بقايا من سور كان يحيط بها وأحجار ملقاة هنا وهناك استعمل بعضها في تشييد الجزء الأسفل من المئذنة التي أمر ببنائها الأمير يغمراسن بن زيان في القرن السابع الهجري بجانب مسجد أقادير العتيق أو ما تبقى منه، ويبدو من خلال هذه الآثار أن المدينة الرومانية كانت محصنة وتضم معسكرات للجند وبعض المنازل، وحمامات، سوق ومخازن واسطبلات وغيرها من المرافق الضرورية في كل مدينة.

لعبت بوماريا دوراً هاماً في الاستراتيجية العسكرية الرومانية بغرب شمال إفريقيا، فكلفت بتأمين الطريقين اللذين اختطهما الرومان والمؤديان إلى طنجة (موريطانيا الطنجية): الأولى تخترق السهول والجبال الشمالية مروراً بشرشال ووجدة، والثانية نحو الجنوب إلى ورجلان ثم غرباً نحو طنجة، ويلتقي الطريقان حتماً ببوماريا، الممر الوحيد بين الشرق والغرب، وقد أقام الرومان بها حصناً حشدوا فيه جنودهم لصد غارات قبائل زناتة البربرية في البداية، ثم تحول إلى حصن شيئاً فشيئاً إلى مدينة عملوا على تعميرها وتزيينها بعدما استتب لهم الاستقرار بالمنطقة، خاصة في عهد القيصر سيفر اسكندر SEVERE ALEXANDRE جلب الرومان إلى بوماريا المياه العذبة بواسطة قنوات ينهي بعضها إلى وادي الوريط في شكل شلال، ويسمي سكان تلمسان هذه القنوات "ساقية الرومي"، ذكرها ابن خميس في قصيدة يقول فيها :

لساقيـــة الرومـي عند مزيـــة * و ان زغمت تلك الرواسي الرواشح

[1]- عبد العزيز فيلالي "تلمسان"،ج 1 ص 256-257.

فكم لي عليها من غدو و روحة * تساعــدني فيها المثنــى و المنائـــح

بالإضافة على الطريقين المذكورين، ارتبطت بوماريا بالمدن الشمالية والساحلية بطرق أخرى، أهمها الطريق المؤدي إلى سيجة) SIGA جيم مصرية) بمصب نهر التافنة، وطريق وهران المعروفة باسم مرسى الآلهة (Portud Divini) والمؤدي كذلك إلى الميناء الكبير (أرزيو) التي كانت تحمل اسم (Portus Magnus)مروراً بعين تموشنت .(Albulae) أما من الشمال الغربي، فقد وجدت طريق الغزوات (ميناء) المعروفة باسم.Ad Fratres لا شك أن نهاية بوماريا كانت على يد الوندال الذين حلوا بالمنطقة عن طريق الغزوات، فانتشروا في البلاد تاركين وراءهم الدمار والخراب أينما حلوا، فمروا ببوماريا وألحقوا بها خراباً كبيراً قبل الزحف شرقاً نحو نوميديا، وكان ذلك في نهاية القرن السابع الميلادي (617م).

العهد الإسلامي: يعد بربر مغراوة هم أوّل من تفاوض مع الخليفة **عثمان بن عفان** خلال ظهور الإسلام أيّام الفتوحات الإسلامية وساعدوا **عقبة بن نافع** في فتوحاته وكان **زمار بن صولات** أوّل سفير لهم عند الخليفة الذي عينه ليحكم زناتة، وبعد سقوط الخلافة الراشدة وبداية الدولة الأموية بعث معاوية **بن أبي سفيان، معاوية بن خديج السكوني** من مصر لإفتتاح افريقية سنة 45هـ/675م ثمّ عقبة بن نافع إلى أنّ ولى **يزيد بن معاوية أبو المهاجر دينار** واليا على إفريقية وكانت رياسة البربر يومئذ **لكسيلة** وكان مسيحي فأسلم أوّل الفتح ثم ارتد عند ولاية أبي المهاجر واجتمع إليه القبائل وزحف بهم حتى نزل عيون **تلمسان**[1] وهزمه أبو مهاجر وظفر به وبه سميت عيون أبي المهاجر ثم استفتح الحصون مثل **ماغانة** و**لميس** و**لقيه** ملوك البربر **بالزاب** و**تاهرت** فغلبهم جميعا.

وبعد الفتح الإسلامي عندما وقفت حدود دولة بني العباس عند وادي شلف قامت في إقليم تلمسان دولة خارجية هي دولة **أبي قرة اليفرني** الذي اتخذ لنفسه لقب **الإمامة.**

دولة بني يفرن : منطقة **تلمسان** كانت لقبيلة زناتة (المتكونة من بنويفرن ومغراوة) قبل وصول الأمويين في 767 م قام **أبو قرة** والذي كان إلى قبيلة بني يفرن في تلمسان ليصبح قائدا لقبيلته، ثمّ توحّد جميع القبائل الخارجية في المغرب العربي تحت إمارته ليقوم بثورة ضد الأمويين أيام **هشام بن عبد الملك** كنتيجة للضرائب المرتفعة وجشع أمراء الأمويين المحليين واضطهادهم للسكان المحليين، أين دعا لنفسه بالإمارة، وهو الذي أسّس سنة 790م مدينة **أغادير** كعاصمة للدولة الصفرية الخارجية على أنقاض بوماريا الرومانية، حتى جاء **إدريس الأول** من سلالة **علي** إلي أغادير، أين فرّ إليها من بطش الأمويين.

---

[1]– ابن المرزوق "المجموع الورقة" 44.

الدولة الإدريسية: بعد انتهاء معركة فخ التي جرت في الحجاز بين العباسيين والعلويين بسيطرة العباسيين من جديد، نجا من قادة هذه المعركة **"إدريس بن عبد الله بن الحسن"**، واتجه إلى مصر ومعه خادمه **راشد،** حتى وصلا إلى **تلمسان** سنة (170هـ /786م)، وأقاما بها عدّة أيام طلبًا للراحة، ثم استأنفا سيرهما نحو الغرب، وبعد مبايعته بالخلافة في (14 من رمضان 172هـ - 15 من شباط 788م) دخلت في دعوته قبائل :زناتة، وزواغة، وزواوة، ولماية، وسراته، وغياشة، ومكناسة، وغمارة. في منتصف رجب 173هـ/ تشرين الثاني 789م، قدّم صاحب أغادير العاصمة القديمة لمملكة **أبي قرة، "محمد بن خرز"** البيعة للملك الجديد **إدريس الأول** دون أي قتال، مكث هناك بضعة أشهر وأوّل عمل قام به بناء المسجد في مكان المعبد أوسليفا، ويعدّ مسجد أغادير، واحد من أوائل المساجد في المغرب العربي سنة790 هـ/1403م وبعدما أخطِر إدريس الأول بمؤامرة العباسيين عليه، نصب أخوه **سليمان** حاكم على أغادير، وتوجه إلى فاس1 حيث اغتيل هناك، وظلت أغادير خلال القرن التاسع قطب نفوذ للأدارسة في القرن العاشر.

وقد جدّد **إدريس الثاني** عام 199هـ/814م مسجدها وأصلح منبرها، وأقام بها ثلاث سنين بسط نفوذه فيها على بلاد زناتة، فاستوثقت له، وعقد عليها لإبن عمه **محمد بن سليمان بن عبد الله،** واستمر حكم أبناء محمد بن سليمان في تلمسان وما حولها حتى تغلّب الفاطميون على المغرب الأوسط سنة 296هـ/908م وأخرجوا أعقاب محمد بن سليمان من تلمسان، فتوجه هؤلاء إلى الأندلس ودخلوا في طاعة الأمويين، وخليفتها **عبد الرحمن الناصر لدين الله** في سنة 955م .

فترة الدولة الفاطمية: وعند أفول الأدارسة، أصبحت أغادير تحت إمارة شيوخ مغراوة من (بني خزر)، وبني يفرن (والذي كان يرأسهم **يعلى بن محمد** هذا الأخير وحّد قبيلتي مغراوة وبني يفرن تحت عباءة الخليفة الأموي في الأندلس **عبد الرحمن الناصر** الذي عقد له عليها وعلى تلمسان سنة 340هـ/951م على أن يصد طمع الفاطميين ورجالهم من الزيريين، وأصبح كل المغرب الأقصى وغرب الجزائر الحالي تحت سيطرة هاتين القبيلتين والذي جعل **فاس** عاصمة له، لتخسر **تلمسان** صدارتها، ولكن سيطرة بني يفرن على إقليم تلمسان لم تدم طويلاً، لما قتل يعلى على يد **جوهر الصقلي**(القائد الفاطمي)2.

قام بأمر زناتة بعده **محمد بن خزر،** داعيا لحكم **المستنصر**ر وملك تلمسان أعوام 360هـ/971م، وسرعان ما أرسل الخليفة الفاطمي جموعا من بني هلال وبني سليم ليتعرض بنو يفرن لهجوم شرس

[1]– محمد إبراهيم حسن "البيان المغربي في أخبار الأندلس والمغرب"، ص 100، الدار العربية، 2000 م.

[2]– أحمد عبد اللطيف حنفي "المغاربة والأندلسيون في مصر الإسلامية من عصر الولاة حتى نهاية العصر الفاطمي"،ص 240، الهيئة العامة لقصور الثقافة، 2006 م.

تحالفت فيه الحمّاديون وبنو هلال ضد أمراء بني يفرن أين يعتبر **أبو السوداء** من بني يفرن آخر قائد لقوات زناتة يقوم ضد التحالف الحمّادي الهلالي، أين تغلبا عليه وسيطرا على المنطقة، ومن آثار هته الهجمة دخول قبائل بربرية جديدة وهي لواتة وهوّارة ومن بينهم بنو عبد الواد الذين يعدّون في الزناتية الجدد أي المتأثرين بالهلالية واستقروا فيها واختلطوا مع بني يفرن.

وممّا يذكر هنا أنّه في 973م وبعد إستيلاء الفاطميين وأتباعهم الزيريين وأبناء عمومتهم الحمّاديين على تلمسان، نفى نحو10.000 نسمة من سكانها إلى أشير(جنوب الجزائر العاصمة) حيث بنوا مدينة هناك بالقرب من أشير تحت تسمية تلمسان والتي يرجح أن تكون بما يعرف اليوم بتسمسال استقرت ولاية تلمسان في عقب ي**على بن محمد** إلى أن انقرض أمرهم بعد مجيء المرابطين ومعهم قبيلة لمتونة الصحراوية، وفي سنة 468هـ/1075م دخلت تلمسان وما حولها ضمن نطاق سيطرة المرابطين.

الدولة المرابطية: قدر أغادير سيرتبط منذ 1069م حتى 1143م بالمرابطين، وهم بدو من قبيلة لواتة من بربر صنهاجة الجنوبيين وزعيمهم **يوسف بن تاشفين**، وعند محاصرته لمدينة أغادير عام 474هـ-1081م، بنى مدينة جديدة بالمكان الذي نزلت به جيوشه والواقع غرب مدينة أغادير، أطلق عليها اسم "تقرارت "وهي كلمة بربرية بمعنى "المعسكر"، وبعد دخوله المدينة قام بقتل كل سادة زناتة والقائمين على حمايتها، وأوّل ما قام به السادة الجدد هو بناء جدار للمدينة.

إنّ المملكة المرابطية[1] امتدت من المحيط الأطلسي إلى الجزائر العاصمة، ثمّ سيطروا على الأندلس بعد انهيار خلافة قرطبة، وظهور ملوك الطوائف ولتسمتع مدينة تقرارت، هذا المركز الجديد من سحر الأندلس. وبدأ بتشييد المقر الرسمي للحكم والإدارة (القصر البالي) وشرع كذلك ببناء المسجد الكبير والذي انتهي من بناءه في 1136، بعدما كانت الوظيفة الأولى لتقرارت تسيير وحكم مدينة أغادير مع ربطها بالإمبراطورية المرابطية إلا أنّه مع الوقت أخذت تؤخذ في التوسّع لتلتقي مع جارتها أغادير لتتحول تدريجيا من **اغادير وتقرارت** إلى **تلمسان**، ويمكن تقسيم هذا التحوّل عبر هته المراحل:

المرحلة الأولى: وهي مرحلة بناء الأحياء السّكنية التي تتألّف من باب زير، وباب علي، درب سلسلة، درب النعيجة، وبيني جملة، الصبانين، جامع الشرفة، القُرَان، أي كلّ المدينة السفلى لتلمسان، وتم تجهيز كل حي بمكان للصلاة (المصلى) وبعض المرافق الضرورية كالمخبزة والحمام والتي يتم مزجهم بذكاء داخل ذلك **النسيج العمراني**.

المرحلة الثانية: مرحلة إضافة الوظائف التجارية والحرفية وكذلك الوظائف الإدارية، وفي هذه المرحلة بدأت تقرارت لا تعتمد كثيرا على أغادير، وخاصة بعد بناء المسجد الكبير والذي يعد مقدمة لتوسيع

[1]– إبراهيم القادري بوتشيش "مباحث في التاريخ الاجتماعي للمغرب والأندلس خلال عصر المرابطين"، ط1، دار الطليعة، 1998 م.

تقرارت نحو الجنوب الشرقي، من خلال بناء أحياء درب السجان(إنتاج الأقفاص) بساحته الطحطاحة، درب سيدي حامد، درب مسوفة (خليط من المساكن والمتاجر)، ثمّ إلى الشّمال من المسجد الكبير، تجمع سيدي سعد، ومولاي عبد القادر ودرب الحوّات (منطقة تقاطعية)، وفي الشمال الغربي: حي باب اللان يحدّها شرقا قصر الحاكم (القصر البالي)، ومع التوسّع البنايات السكنية كان لا بد من ظهور أوّل مراكز التسوق التقليدية: سويقة، الصاغة، الصبّاغين، الخرّاطين، الحلفويّين، سوق الغزل.

وعدت تلمسان في هذه الفترة من أهم المراكز المتخصصة في علوم الفقه ولم يبق من كل مباني مملكة بن تاشفين سوى الجامع الكبير الذي بناه **علي بن يوسف**، لتصبح بعد مراكش العاصمة الثانية للإمبراطورية المرابطية التي شملت المغرب الأقصى والغرب الجزائري ولنبدأ بإستخدام كلمة **تلمسان.**

الدولة الموحدية 1143م/1235م: فلمّا ضعف أمر المرابطين قام **المهدي ابن تومرت** وهو عالم ولد في الأطلس بالإستيلاء على إرث المرابطين، وقائده ثم خليفته **عبد المؤمن البربري** وهو من منطقة تلمسان (جبل تاجرة من جبال ترارة بجوار ندرومة) والذي سوف يكبح تقدم الإسبان في الأندلس ويوحّد المغرب العربي، دخل عبد مؤمن تلمسان سنة 540هـ/1145م، بعد تدمير أسوارها.

تلمسان وبموقعها الإستراتيجي أصبحت عاصمة المقاطعة الشرقية للملكة، أين استثمر فيها الموحدين بسخاء، فقاموا ببناء القلاع والمنازل الكبيرة والقصور بأسوار الصلبة، ممّا أسهم في تطوّر تلمسان وضربوا فيها عملتهم كما قاموا ببناء الفنادق (مكان استراحة القوافل) وميناء هنين للتّجارة ليسهل التجارة ما بين إفريقية وشمال المتوسط وفي هته الفترة دخل بنو عبد الواد في طاعة الموحدين واكتسبوا نظير ذلك حق الإستيطان في منطقة وهران وما يليها غرباً حتى تلمسان وكان رؤساؤهم يتقاضون من الموحدين نصيبا من المال لقاء معاونتهم إياهم في حماية هذه النواحي من أعداء الموحدين، ثم شيئا فشيئا عهد إليهم خلفاء الموحدين في أخريات أيامهم بعمالة تلمسان فإستقروا فيها وفيما حولها وحصنوها وأصبحت إقطاعاً خالصا لهم.

دولة بني عبد الواد: إنّ قبيلة بني عبد الواد إحدى بطون زناتة وكان بنو عبد الواد يرتادون منطقة الأوراس ويشغلون إقليم الزاب بقسنطينة فإنّهم شاركوا مع جيش **عقبة بن نافع الفهري** سنة 62هـ/ 682م، أثناء حملته الثّانية المشهورة وقد شملت أراضيهم بالأوراس وقد أبلوا بلاء حسنا في مهمتهم إلى جانب المسلمين، وهذا دليل على أنّ بني عبد الوادي اعتنقوا الإسلام مبكرا1.

في سنة 627هـ/1230م عقد لهم الخليفة الموحدي **أبو العلاء إدريس** المأمون على ولاية **تلمسان** فتولّى الحكم **جابر بن يوسف** فقام يدبر شؤونها، ويدخل تحت نفوذه جميع بطون بني عبد الوادي ثم خلفه ابنه **الحسن** سنة 629هـ/1242م، ولكن بعد سنتين من ولايته ثار عليه أهالي تلمسان وخلعوه من منصبه، وحل محله عمه **زغوان بن زيان بن ثابت** سنة 637هـ /1250م الذي قتل أثناء صراع شب بين قبائل

[1]– أحمد طالب الإبراهيمي "مذكرات جزائري"ج 1، ص 24 –30.

بني عبد الوادي، فخلفه أخوه **يغمراسن بن زيان** 633هـ/1246/2م، والذي يعتبر المؤسّس الحقيقي لدولة بني عبد الواد الزيانية واستطاع أن يظهر على الساحة السياسية في المغرب الأوسط فجعل من تلمسان قاعدة لحكمه الفتي ومقر إدارته وبعد وفاته تولّى إبنه **أبو سعيد عثمان بن يغمراس بن زيان** (681هـ-703هـ) (1294م/1316م) الحكم ولم يكن أقل من أبيه صلابة وحزما، فقضى سنوات حكمه القليلة في الدّفاع عن بلده ومحاولة توسيع رقعته، ثم خلفه **أبو زيان بن أبي سعيد** ما بين (703هـ-707هـ)/ (1316م – 1320م) وقد عزم على الخروج إلى الجيوش المرينية وقاتلها حتى جاء بعده **أبو حمّو موسى الأول ابن أبي سعيد** ما بين (707هـ – 718هـ)/ (1320م – 1331م)، إنه كان ملكا عصاميا شديدا وقد اعتنى بأمر رعيته إلى أن قتله ابنه **أبا تاشفين الأول**، واعتلى الحكم ما بين (718هـ-737هـ) (1331م – 1350م) ورغم ما كان عليه من العزم كان لا يخلو من الميل إلى أمور الدّنيا وملذاتها حتى جاء بعده **أبو حمّو موسى الثاني** ما بين (760-791هـ) / (1373م – 1404م) ورجعت دولة بني زيان إلى عهد استقلالها بفضل هذا السلطان إلى أن ولي عهده أبو تاشفين الثاني ما بين (791هـ-795هـ) / (1404م – 1408م)، كانت ولايته تابعة للسلطان المريني، إلى أن مضت مدّة حكمه، وتولّى **أبو ثابت بن أبي تاشفين** الحكم سنة 796هـ/1410م، ولم تدم مدة حكمه، فقد قام ضده أحد أعمامه وهو **أبو الحجاج يوسف بن أبي حمّو الثاني**، فخلفه وقتله شر قتله في قصر المشور[1]، ولم تدم مدة حكمه طويلا هو كذلك، وتوالت الحكام من بعده إلى أن جاء حكم **أبو محمد عبد الله** ما بين (934هـ-947 هـ) / (1547م – 1560م) الذي تولّى الحكم من بعد أخيه **أبو حمّو الثالث** وكانت مدة حكمه سلاما وهناء بحيث طرد الأسبانيين من بلاده حتى حكم الدولة الزيانية **أبو زيان**، ويعتبر هو آخر ملوكها. وكان هم جل سلاطين بني عبد الواد النهوض بعاصمة ملكه إلى مصاف حواضر الغرب الإسلامي، فبدؤوا يجذبون إليهم الوجوه الفكرية والعلمية وخاصة من الأندلس ولذلك كان عليهم خلق مناطق حضرية وعمرانية جديدة بجوار النسيج العمراني القديم ويبين الترتيب الزمني التالي ذلك:

يغمراسن بن زيان 1236م/1282م وهي مرحلة التوسع نحو الجنوب الشرقي بدأها بتهيئة منطقة وسيطة وهي حمام الغولة (حارة الرمة) ودرب الشولي (حاليا بالقرب من سينماتك) مرورا بدرب حلاوة (شارع الفاطميين)، درب سيدي عبد اللي، درب اقطوط، درب املالة وفي الأخير درب القاضي، وعلى الشرق من إقامة منطقة سكنية مخصصة لإستقبال الأندلسيين الفارين من فتوحات الإسبان ويتكوّن من: حي باب الجياد، حي الرحيبة، درب الفوقي حتى درب السرور على الحدود الشرقية للمشور.

[1]– عثمان الكعاك "موجز تاريخ العام للجزائر من العصر الحجري إلى الاحتلال الفرنسي "دار الغرب الإسلامي 2003 الطبعة الأولى ص 120.

كما بنى قصرا للحكم "المشور " على مساحة 3 هكتارات، وهو ملتصق بالسور الجنوبي للمدينة، وبقرار يغمراسن تشييد القصر الملكي بمقابل المسجد الكبير يكون قد جمع بين الحياة العلمية والحياة السياسية ممّا أسهم في ازدهار المنطقة الواقعة بينهما لتصبح أكبر مركز للتسوق في قلب مدينة تلمسان، وهذه المنطقة ستعرف لمدة قرنين من الزمن (من نصف القرن الثالث عشر إلى منتصف القرن الخامس عشر) ساحة القوافل (وخاصة قوافل الذهب والتي ساهمت في ازدهار تلمسان).

كما قرر **يغمراسن بن زيان،** في 1254م بناء مئذنتي الجامع الكبير ومسجد أغادير إلى الغرب في 1268م مؤسس الدولة الزيانية وبهدف دفاعي بنى باب كشوت (باب سيدي بوجمعة) ممّا سيشجع حفيده **أبو حمو الأول** ليعمر المنطقة المحيطة به.

فترة **أبو سعيد عثمان**1299م / 1282م وهي مرحلة تثبيت الدور التجاري الذي بدأت تلعبها تلمسان على الساحة الجهوية. وبدأت هاته المرحلة بالتوسع نحو الجنوب عن طريق بناء مراكز تجارية إما نحو الغرب فكان ببناء مناطق سكنية. في 1286م عقدت معاهدة تجارية بين المملكة الزيانية ومملكة أراغون الإسبانية أين تمّ بموجبه بناء مركز تجاري إسباني في منطقة الشمال الشرقي للمشور وهي سوق القيصرية أو سوق قيصر (والموجودة ليومنا هذا). وكان مزودا بمدخلين، الأول في الجنوب والثاني في الغرب. أما بناحية الغرب، فقد تمّ بناء مسجد سيدي بلحسن في 1296م، ممّا مكّن معماري المدينة من سد الفجوة بين حي باب اللان وقصر الحكام السابق (القصر البالي) عن طريق بناء حي وسيط في الغرب من المسجد (درب الحجامين)، ومنطقة حرفية (درب الصاغة الجديد) المعروف بإسم رأس الصاغة وهو على الجنوب من المسجد.

فترة **أبو حمّو موسى الأوّل** 1318م – 1307م وهي مرحلة التوسع العمراني، من الشمال الغربي إلى الجنوب الغربي. ففي الجنوب الغربي، وبهدف تثبيت سلطة بني عبد الواد على مختلف القبائل سواء العربية أو البربرية، تمّ استدعاء جميع ممثلي القبائل للمساهمة في تدشين مسجد المشور سنة 1310م. وكانت المنطقة السكنية الجديدة تبدأ من باب كشوت والعرعار مرورا بالمشور وامتدت حتى درب رأس القصبة (في أعلى شارع باريس حاليا)، وفي الشمال الغربي، تمّ تأسيس أول مدرسة خاصة من طرف **أولاد الإمام** لتكون كمحور أساسي للنسيج الحضري الجديد الذي يربط بين منطقة باب اللان (حي المرابطين والذي بني في المرحلة الثانية لتوسع تقرارت) مع الحي الذي أسّسه أبو سعيد عثمان (درب الحجامين). فترة **أبو تاشفين الأول** 1336/1318م المرحلة التي اهتمت بتجميل المدينة[1]، وهذا ترجم ببناء أربعة قصور صغيرة محيطة بالقصر الملكي **ليغمراسن.**

[1]– محمد ابن مرزوق الخطيب المجموع، مخطوط، الرباط: الخزانة العامة، ميكروفيلم رقم 20، ورقة 2.

كما بنا أجمل مدرسة في الساحل الجنوبي للمتوسط: المدرسة التاشفينية والتي كانت تفصل ما بين سوق القيصرية الإسباني وساحة القوافل، كما أنّ الدور الذي لعبه الحوض الكبير حوّل مركز تلمسان نحو الغرب.

فترة **أبو حمّو موسى الثاني**1359م -1389م تميز بإنشاء المجمع الثقافي للمدرسة اليعقوبية في 1363، ومسجد سيدي إبراهيم المصمودي والذي بني حول ضريح سيدي عبد الله الشريف التلمساني كما ربط أبو حمّو الثاني المشور بحي أولاد الإمام.

فترة **أبو عباس أحمد** 1430م-1462م في فترة حكمه رفعت أسوار المشور سنة 1446م . وكان البرتغاليون قد حوّلوا طريق الذهب ليمر عبر سواحل المحيط الأطلسي عوض مروره عبر تلمسان، ولهذا لم يكن للساحة المخصصة للقوافل في قلب تلمسان أي داع الآن، وتمّ استغلالها بإدخال الحي اليهودي إلى داخل المدينة.

وتذكر بعض الأساطير بأنّها نتيجة لمعالجة ابنة سلطان من الطرف الطبيب و**الحاخام اليهودي إفرايم أنقوة** بعد أن استعصى مرضها على أطباء المدينة؛ فتقديرا لذلك، أتاح للجالية اليهودية للسكن في وسط تلمسان وبناء كنيس يهودي والذي كان في عهد الموحدين خارج باب القرمادين في منطقة قباسة أين توجد المقبرة اليهودية إلى يومنا هذا وبها قبر الحاخام إفرايم أنقوة والذي يعدّ مزارا للجاليات اليهودية في العالم. وربما عتبارات أمنية فإن الحي اليهودي كان يلاصق المباني الحكومية: فمن الجنوب قلعة المشور وفي الشمال المسجد الكبير وأول مطعم خيري سمى بقوت القلوب **لسيدي بلحسن الغماري** سنة 1430م، وفي الشرق فهناك المدرسة التاشفينية والمحكمة أما في الغرب مسجد سيدي إبراهيم والمدرسة اليعقوبية الممتدة والتي كانت حتى مسجد سيدي بلحسن.

كما لعب يهود **تلمسان** دورا مهما ولا سيما في الصناعات الحرفية كالذهب والأدوات المنزلية والتجارة، بعيدا عن التجارة والصناعات اليدوية، فإن تلمسان اشتهرت كذلك بجامعاتها بإعتبارها أصبحت ملتقى للعلماء والطلاب من جميع أنحاء العالم. حيث بلغ عدد سكانها حوالي 125000 نسمة، وكما أصبح للمدينة عدة بناءات عمومية: 60 مسجدا، وخمس مدارس، عدة حمامات، فنادق و ثلاثة أسوار، العديد من خزانات المياه لري الحدائق منها الحوض الكبير الذي كان يروي ما لا يقل عن 14000 حديقة، 100 طاحونة، الخ... لتصبح تلمسان في ذلك الوقت واحدة من أفضل المدن تميزا ومن أكثرها تمدنا.

ولهذا أسالت لعاب جيرانه، خاصة المرينيين، وعليه تحملت مشاق الحصار والذي استمر أكثر من ثماني سنوات 1299م – 1307م. وأصل ذلك أنه طلب السلطان المريني[1] **يعقوب يوسف بن يعقوب** من السلطان الزياني **أبي سعيد عثمان** أن يسلمه الوزير **ابن عطوش** الذي كان ثأر مع أحد أبناء السلطان

[1]– البكري "المغرب" ص 21.

المريني ضده ولجؤوا هاربين إلى تلمسان ولما عفا السلطان عن ابنه أبى **أبا سعيد** تسليم الوزير ممّا أثار ذلك حفيظة **أبي يعقوب،** فقرر المسير إلى تلمسان وحاصرها واحتشد في ذلك احتشادا لم يسمع بمثله.

وتعرضت تلمسان بسبب ذلك لخطر من أشد ما مرت به في تاريخها أين بنى السلطان المريني المرافق لعسكره على المرتفعات الغربية لتلمسان ما كان في أول الأمر مخيم عسكري مؤقت ليتخذ مع مرور الوقت شكل مدينة حيث بنى السلطان المريني قصرا ومسجدا كبيرا ومبان للقضاء وبعض الخدمات الأخرى وسمّاه بالمنصورة وتربعت هته المدينة الجديدة على حوالي 100هكتار.

ومع ذلك فإن تلمسان لم تفتح رغم هذا الحصار الطويل ووجب الإنتظار سنوات أخرى حتى تمكن المرينيون من إدخالها تحت سلطتهم أي ما بين 1337م - 1348م ثم 1352م-1358م. والنشاط المعماري الذي قام به الأمير المغربي هذه هي خارج نطاق منصورة إلى قرى القاعدة العباد سيدي الحلوي فيها بنى مسجدين، على التوالي، في 1339م و1357م. هذا لم يستغرق سوى خمسة وعشرين عاما وفإن بني عبد الواد انتقل إلى تلمسان، وهكذا فإن المملكة إستعادت إستقلالها، لكنّه خرج المستفيد للغاية من هذه التجارب. ومع ذلك ينبغي أن نتذكر أن آخر ملوك غرناطة **أبو عبد الله** حياته انتهت سنة 1494م في تلمسان. ضعفت قوة الزيانيين مع التدخلات الإسبانية لأمور الخلافة في قصر المشور .وأخيرا تمّ نقل عائلة أحد آخر ملوك بني زيان وحلفائها إلى قشتالة في 1550م، والعديد من سكانها الحاليين ما زالوا متعلقين بهذا النسب.

العلاقات الثقافية بين الدولتين الزيانية والمرينية خلال القرنيين 7 – 9 هجريين

بعد سقوط دولة الموحدين، ظهرت على أنقاضها ثلاث دويلات بالمغرب الإسلامي: **الحفصية، الزيانية، المرينية،** دخلت كلها في صراع سياسي مستمر وتنافس حول بسط النفوذ وفرض السلطان على كافة أرجاء المغرب الإسلامي، وسعيا منها إلى توحيده تحت لوائها بإعتبار أحقية كل واحدة منها في وراثة الموحدين.1 كان الصراع على أشده بين الزيانيين والمرينين خاصة، لجوارهما في الموطن والملك، ومنافستهما على الإستقلال برئاسة زناتة. ولتحقيق ذلك راحت كل واحدة منهما تبذل جهودها في مختلف المجالات، مستغلة كل الطرق والوسائل، فكان بذلك تاريخهما السياسي منذ نشأتهما إلى غاية سقوطهما حافل بالأحداث التاريخية التي تراوحت بين الحرب والسلم، والمعاهدات ونقضها والمؤامرات والخيانات والصراعات الداخلية في الأسرة المالكة حول العرش، والحصارات وغيرهما.

[1]– تأسّست دولة الموحدين سنة 524 هـ /1129 م على يد "المهدي بن تومرت" في شكل دعوة دينية وفكرية روحية، تطورت إلى كيان سياسي على يد خليفته "عبد المؤمن بن علي" الذي بسط نفوذ دولته على كامل المغرب الإسلامي وبلاد الأندلس، بعد مقاومة الإسبان والتصدي لزحفهم المستمر على الديار الإسلامية، قد عرفت هذه الدولة العديد من النزاعات الداخلية والخارجية إلى أن سقطت على يد "بني مرين" سنة 668 هـ/1269 م.

لكن وعلى الرغم من أن علاقات الزيانيين والمرينين السياسية كانت بين مد وجزر إلا أنّ علاقتهما الثقافية لم تتأثر بذلك الصراع السياسي والعسكري، وتاريخهما الثقافي الزاخر خير شاهد على تلك الروابط الثقافية والفكرية التي أغفلتها العديد من المصادر التاريخية التي أولت التاريخ السياسي كل اهتماماتها، لذلك كان من الضروري نفض الغبار عن هذا الجانب الذي يثبت وجود علاقات ثقافية كانت قائمة بين الدولتين والتي ترجمتها مجموعة من النشاطات العلمية والفكرية التي أثرت الحياة الثقافية في الإقليمين.

- فما هي صور وأشكال هذه الروابط؟
- وما نتائجها؟
- فما طبعة هذه العلاقات؟
- وما العوامل التي ساعدت على إثرائها؟

ومن الأمثلة الحية عن هذا التواصل الفكري، الرحلات العلمية لعلماء الدولتين وتنقلهما بين العواصم العلمية للإنتهال والتحصيل والتدريس والإجازة كذلك، وما نتج عنها من حوار فكري ومناظرات علمية هامة بين أجلة العلماء للخروج بالعلوم من قوقعة المحلية والركود إلى الخوض في مختلف العلوم حتى التي كانت فيما مضى علوما محظورة بالإضافة إلى المنشآت العمرانية الدينية والعلمية التي خلّدها بنو مرين في تلمسان والتي كانت شاهدا حيا على رقيهم العلمي والحضاري، وصورة واضحة عن إسهاماتهم في التطور الفكري والعلمي بالمغرب الإسلامي ككل، والذي يمثله ذلك الجيل الهام من العلماء والفقهاء والأدباء الذين أنجبتهم هذه المدارس العلمية.

لكن وبما أنّ هذه العلاقات الثقافية لم تتأثر بذلك الصراع السياسي الذي كان مستمرا بينهما، فقد كانت هناك عوامل ساعدت على إثرائها وازدهارها في الإقليمين.

ولعل أهمها تلك المنافسة الشديدة بين ملوك البلاطين الزياني والمريني في تقريب العلماء والأدباء والفنانين من مجالسهم، وإجراء الأرزاق عليهم، وإنزالهم أحسن المنازل والرفع من شأنهم، ذلك لأن سلاطين الدولتين كانت لهم رعاية مستمرة بالعلم والأدب ومختلف العلوم حيث كان من بينهم الفقيه والشاعر والأديب والفنان، مثل السلطان **أبي تاشفين الأول** المولع بالفن والعمران[1] والأمير الفقيه **أبي عبد الله بن عثمان بن يغمراسن** الشهير بأبي حفص، والأمير الفقيه **أبي سليمان داوود** علي كبير بني عبد الواد وشيخ دولتهم، والفقيه **أبي عبد الله محمد بن السلطان** و **أبي يحيى يغمراسن** المعروف ب"ابن شانشة"، والسلطان الشاعر الأديب **أبي حمو موسى الثاني**، والسلطان **أبي زيان محمد الثاني**.

[1]– إبن خلدون أبو بكر زكرياء يحي بن محمد "بغية الرواد في ذكر الملوك" من بني عبد الواد، ج 1، تقديم وتحقيق وتعليق عبد الحميد حاجيات المكتبة الوطنية، الجزائر، 1985، ص216.

أما سلاطين بني مرين فقد تفوّق منهم في هذا المجال السلطان **أبو الحسن** المريني وابنه **أبو عنان** فارس اللّذان كانا من علماء عصرهما، لما أحرزاه من ثقافة متينة، حيث أسهما في مجالس العلم وأحاطاها برعاية فائقة ولعل ما خلفاه من منشآت علمية خير شاهد على اهتمامهما البالغ بالعلم وأهله. فقد أنشأ السلطان أبو الحسن المريني مدرسة العباد سنة 748 هـ/ 1348 م أثناء استيلائه على المغرب الأوسط وجلب لها الأساتذة وأجرى على طلابها المنح والأرزاق، واقتدى به ابنه أبو عنان في تشييد المدارس، فأضاف لتلمسان مدرسة أخرى بجانب مسجد وضريح الولي الصالح سيدي أبي عبد الله الحلوي سنة 754هـ/ 1343م، وقد وصف لنا **ابن مرزوق** اهتمام **أبي الحسن** بدراسة الحديث وكتب السيرة وتقريبه للعلماء ومحاورتهم ومشاركتهم في المجالس العلمية بقوله: **"**وكان أبر الناس بأهل العلم وأعرفهم بقدرهم استخلصهم لنفسه، وجمع من سائر بلاده في حضرته إذا سمع بمن له رسوخ قدم في العلم أقدمه على حضرته، وجعله من خواص أهل مجلسه وأجرى عليهم الجرايات التي تكفيهم حضرا وسفرا، فإجتمع بحضرته أعلام، ثم ضمّ لهم من كان بتلمسان وأحوازها حين استيلائه عليها ثم استمر هذا العمل في دخوله بلاد إفريقية**"**. مع هذا الإهتمام والتشجيع نشطت الحركة الفكرية والتعليمية في" تلمسان و فاس" وتوافد عليهما أجلة العلماء، وتنافس أهل العلم على الإنتهال من ينابيع الثقافة والعلوم من العاصمتين (فاس وتلمسان) لإستفادة من علمائهما المقيمين والزائرين بصفة مباشرة، حتى صار لهم كما ذكر **ابن خلدون "**حصول الملكات عن المباشرة والتلقين أشد استحكاما وأقوى رسوخا، فعلى قدر كثرة الشيوخ يكون حصول الملكات ورسوخها**"**.

ممّا أتاح فرصة للتلاقح الفكري والحوار بالمناظرة والتعمق في البحث، والإقبال على دراسة مختلف المؤلفات الفقهية وغيرها، حتى صارت تلمسان وفاس مراكز إشعاع ثقافي تستقطب الطلاب وأهل العلم الوافدين عليها من الشرق والغرب ويضاف إلى ذلك الموروث الثقافي والحضاري للمرابطين والموحدين وكذا التأثير الثقافي الأندلسي خصوصا بعد توافد المهاجرين الأندلسيين على حواضر بلاد المغرب بعد ازدياد حركة الإسترداد الإسبانية في الأندلس واضطهادهم، فأقبلت أفواج كبيرة منهم فكان منهم العلماء الذين نقلوا علومهم ومصنفاتهم، وكذا أصحاب الحرف والصنائع وقد ساهموا جميعهم بشكل كبير في إثراء الحياة الثقافية بحواضر المغرب، وجلبوا عاداتهم وعلومهم وفنونهم ولقنوها للمغاربة وقد برزت واضحة من خلال المنشآت الدّينية والتعليمية التي حملت الكثير من الفن الأندلسي العريق.[1]

إضافة إلى ظاهرة التصوف[2] وآثارها على المجتمعين الزياني والمريني، وكذا الرحلات العلمية التي كانت قائمة بين العاصمتين.

[1]– عبد الرحمن بن خلدون كتاب "العبر وديوان" "المبتدأ والخبر في تاريخ العرب" و"العجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر"، ج7، دار العلم بيروت، 1968، ص 297 وأيضا، "المقدمة"، ص 308و660 وأيضا عبد العزيز سالم: "تاريخ وحضارة الإسلام في الأندلس"، مؤسسة شباب الجامعة للطباعة والنشر الإسكندرية، 1985 ص 249–250.

[2]– عبد العزيز فيلالي "تلمسان في العهد الزياني"، ج2، موقع للنشر والتوزيع، الجزائر، 2002، ص 383،406.

الرحلة في طلب العلم

كانت الرحلة في طلب العلم من المسائل المحمودة في المغرب الإسلامي عموما بإعتبارها عاملا هاما في تمتين العلاقات والروابط مع أهل المغرب خاصة والمشرق والأندلس على وجه العموم، إذ تضاعف الإتصال عن طريق النشاط الديبلوماسي وتبادل الرسائل الإخوانية، وعن طريق الرحلة العلمية والحج إلى البقاع المقدسة بالحجاز وبيت المقدس، فأتاحت هذه العوامل تلاقحا فكريا ودعما للروابط الثقافية بين علماء **فاس** و **تلمسان**.

ونظرائهم من حواضر المشرق والمغرب والأندلس، على الرغم من التجزئة السياسية التي عرفتها الأقطار الإسلامية حينذاك، فنتج عن هذه الرحلات تبادل المعارف والآراء في مختلف العلوم العقلية والنقلية، حيث كان علماء المغرب يتصلون بعلماء المشرق والأندلس ويتبادلون معهم الكتب والمصنفات وشتى ألوان المعارف ويتدارسونها، فكانت الحركة مستمرة بين فاس وتلمسان وتونس وغرناطة والشام ومصر والعراق والحجاز للإستزادة من العلوم والإجازة والتعمق أكثر في دراسة الفقه وأصوله وسائر العلوم. فكان التأثير الثقافي والفكري واضحا من خلال مجموعة كبيرة من العلماء والفقهاء والأدباء المغاربة والأندلسيين الذين تزودوا بمعارف المشرق لينقلوها إلى بلادهم، ومن بين المؤلفات الهامّة التي أدخلت إلى بلاد المغرب عن طريق الرحلة "مختصر ابن الحاجب في الفروع" الذي جاء به إلى المغرب **أبوعلي المشذالي** (646 هـ /1259م)1، كما أدخل الفقيه **محمد بن الفتوح التلمساني** (818 هـ / 141 م) مختصر **خليل بن إسحاق المالكي** إلى بلاد المغرب، فنتج عن ذلك تكوين نخبة من العلماء الذين تميزوا بغزارة العلم ووفرة التحصل، حتى أصبحوا حجة في العلوم نقلية كانت أم عقلية2، لينقلوها إلى أوطانهم وليلقنوها لأبنائهم مما ساعد على ازدهار الحركة الثقافية والفكرية وتنشيطها بين دويلات المغرب الإسلامي عامة وبين المغربين الأوسط والأقصى خاصة، والأمثلة كثيرة لا تحصى كالأخوين **ابن خلدون** و**الآبلي** وغيرهم.

وعلى الرّغم من الصراع السياسي الذي كان قائما بين الإقليمين إلا أنّه لم يمنع من تنقل الدارسين التلمسانيين لطلب العلم والإستزادة منه بجامع القرويين ولقاء كبار شيوخه المشهورين، فقد كانوا لا يكلون عن السعي في سبيل الدرس والتحصيل، وتبادل الآراء في مختلف العلوم كما ذكرن سابقا، ومد جسور العلم والثقافة عبر الأجيال، ولعل الفائدة المرجوة من هذا الإتصال تكمن في تداول المعارف

[1]– المقري المصدر السابق ج 5، ص 212.

[2]– ابن خلدون "المقدمة"، ص 322.

والكتب وتبادل الإجازات، اعترافا متبادلا فيما بين الشيوخ أنفسهم لما يجدونه من معارف، ولما يحصلونه من علوم بعضهما سواء كان باللّقاء المباشر أو عن طريق المكاتبة[1].

فتنافس لذلك جميعهم في المداومة على المجالس والحلقات العلمية على اختلاف حظوتهم من التحصيل على أعلام المغربين والمساهمة من جهة أخرى في نشر ما عندهم من علوم ومعارف لطلاب هذين الإقليمين بمراكزه الثقافية الهامة[2]، كفاس وتلمسان ومراكش وغيرها من المدن، فكان لهم باع طويل في هذا المجال، فتركوا آثارا علمية وبصمات فكرية وسمعة طيبة في المغرب والمشرق الإسلاميين، ومهما كانت دوافع هذه الرحلة ونوازعها، فان المقصد العلمي كان أقواها وأشملها، حيث كان طلاب العلم من أهل تلمسان يشدون رحالهم إلى مختلف الحواضر المغربية والمشرقية والأندلسية متجسمين مشقة السفر في سبيل الدرس والتحصيل والتعمق في العلم والمعارف.

حتى صاروا شيوخا وأساتذة وعلماء ساهموا بقسط كبير في إثراء النهضة الفكرية والتعليمية في أقطار المشرق والمغرب، وخاصة في المغربين الأوسط والأقصى، فجعلوا بذلك العهدين الزياني والمريني من العهود المزدهرة ثقافيا وفكريا في تاريخ المغرب الإسلامي، وأعطوا صورة واضحة عن رغبة بني زيان وبني مرين في طلب العلم والسفر من أجله وركوب صعابه، خاصة أهل تلمسان، **كآل مرزوق**، **وآل التنسي**، و**آل الإيمام**، و**آل المقري**، و**آل الشريف التلمساني**، و**آل النجار**، وبنو **أبي الحسن**، وبنو **أبي العيش**، و**آل زاغو** و**السراغنة** وغيرهم من البيوتات والأسر التي أنجبت العديد من العلماء والفقهاء والأدباء، حتى أن بعض فقهاء تلمسان وعلمائها قرءوا في مختلف المدن التي زاروها قصد لقاء مشيختها، كما درسوا فيها تطوعا ورفضوا المرتب والجرايات[3].

والأمثلة كثيرة عن علماء تلمسان وفاس الذين تنقلوا بين الحاضرتين نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر هذه الفئة، وإن كان عددها قليل إلا أنها كافية لإعطاء صورة واضحة عن دورهم في تمتين الروابط الثقافية وتمتين العلاقات الفكرية والمساهمة في النهضة العلمية بالمغرب عامة ومنهم :

1- **الفقيه أبو إسحاق إبراهيم بن يخلف التنسي (680 هـ/ 1281 م)**: ولد ونشأ بتنس، جاب أقطار المغرب والمشرق طلبا للعلم والإستزادة، درس بمسقط رأسه بتنس وبمليانة وشلف[4]، كما قرأ بتلمسان

---

[1]- عبد العزيز فيلالي المرجع السابق، ج2، ص 327.

[2]- "التعريف بابن خلدون"، مصدر سابق، ص 37.

[3]- عبد العزيز فيلالي المرجع السابق، ج2، ص329.

[4]- درس أبو إسحاق بمسقط رأسه تنس وبمليانة وشلف ثم انتقل إلى تلمسان حيث قرأ على الشيخ واضح وبلال الحبشي خادم الشيخ أبي مدين القطب، راجع ترجمته في البستان، ص 71.

وبجاية1، وتونس والقاهرة والشام فأخذ عن فطاحل علماء هذه الأقطار مثال **الأصبهاني** و**القرافي** و**السيف الحنفي**، ثم رجع إلى المغرب، واستقر بتلمسان للإقراء إلى أن توفى سنة 680 هـ / 1281 م، وكان أبو إسحاق كلما زار مدينة فاس سواء في مهمة خاصة أوفي إطار المهمات الدبلوماسية، التي كانت يقوم بها بين العاهلين الزياني والمريني، يجتمع به فقهاء المدينة ويطلبون منه دروسا في الحديث، وقد كان يدرس هذه العلوم بمكة والمدينة، وكان يحضر مجلسه عالم فاس في ذلك الوقت **أبو الحسن الصغير** وصار يعد من أساتذته بهذه الديار، ترك أبو إسحاق سمعة علمية طيبة في الأقطار التي زارها، وكانت له هيبة عند الفقهاء والأمراء، فقد قال عنه السلطان المريني **أبو يعقوب "**ما صافحني أحد قط إلا أحسست بإرتعاش يده لهيبة السلطان، إلا الفقيه أبو إسحاق التنسي، فعندما يصافحني تدركني منه مهابة فكانت يدي ترتعش من هيبته**"**.

2- **أبوعبد الله محمد النجار(24) (750هـ / 1349 م): مراكشي** الأصل ولد ونشأ **بتلمسان،** أخذ العلم عن الكثير من مشيختها **كالآبلي،** ثم انتقل إلى المغرب الأقصى، فدرس على يد **أبي عبد الله محمد بن هلال** شارح **"**المجسطي**"** بسبتة، ثم أخذ بمراكش عن **أبي العباس ابن البناء،** فنبغ في العلوم العقلية والتعاليم، ثم عاد إلى تلمسان بعلم غزير حتى صار إمام علوم النجامة وأحكامها2، ثم التحق ببلاط **أبي الحسن المريني** لأيام استيلائه على المغرب الأوسط، فصحبه إلى إفريقية حيث توفي سنة 749هـ/1362م أو 750هـ/1363م بالطاعون، ومن تلامذته: **أبو عبد الله الشريف**، و **المقري الكبير**، و **ابن الفحام**3.

3- **أبو عبد الله محمد بن إبراهيم الآبلي: (757 هـ / 1356 م) :** هو شيخ العلوم العقلية والنقلية في عصره، أصل أجداده من **آبله** بالأندلس ولد **بتلمسان** سنة 681 هـ /1282م، ونشأ بها حيث أخذ على **أبي موسى بن الإمام** وعلى جده، و **أبي الحسن التنسي**4، ولمّا استولى **يوسف بن يعقوب المدني** على تلمسان استخدمه، إلا أنّه قبل الوظيفة على مضض، لكن سرعان ما تركها5، وأثناء رحلته إلى الحجاز لأداء فريضة الحج مر بمصر والشام والعراق، حيث التقى بعلمائها **كإبن رقيق العيد** و **ابن الرفعة** و

---

[1]– ودرس ببجاية على مجموعة من معاصديه كالشيخ أبي فارس عبد العزيز بن كجيلا وأبي علي ناصر الدين المشذالي، أنظر، البستان، ص 67.

[2]– "التعريف بابن خلدون"، ص 47.

[3]– "التعريف بابن خلدون"، ص 48، وأيضا، "نيل الابتهاج"، ج1، ص 239، وأيضا، "نفح الطيب"، ج7، ص 162 وأيضا، "بغية الرواد" ج1، ص 119.

[4]– "نفح الطيب"، ج5، ص 244 وأيضا "البستان"، ص 215 وأيضا، "نيل الابتهاج"، ج1، ص 66.

[5]– "التعريف بابن خلدون"، ص 34، 35 وأيضا "بغية الروا"، ج1، ص 17.

الصفي الهندي، و **التبريزي** وغيرهم1، ثم عاد إلى تلمسان حيث عرض عليه السلطان **أبو حمّو موسى** ضبط جباية أمواله، غير أن الآبلي أعرض عن ذلك، ففرّ إلى فاس، حيث اختفى عند شيخ التعاليم **خلوف المغيلي اليهودي**، الذي هيأ له كل الظّروف لإستكمال دروسه والتبحر في مختلف العلوم، ومنها توجه إلى مراكش سنة 710 هـ/1310م، ونزل عند العلامة الإمام **أبو العباس أحمد بن البناء** الذي أخذ عنه فنون التعاليم، فلازم الآبلي علماء فاس ومراكش وانظم إلى مجلسهم وانتصب للتدريس في عواصم بلاد المغرب وحواضره، فأنهال عليه طلبة العلم من كل ناحية، فإنتشر علمه واشتهر ذكره، وكان قد أقام في رحلته إلى تونس ثلاث سنوات، درس خلالها **لعبد الرحمان بن خلدون** وأجازه في علم الأصليين والمنطق، وسائر الفنون الحكمية والت- **أبو علي منصور بن علي بن عبد الله الزواوي، نزيل تلمسان** (770هـ/ 1368 م) :

ولد **ببجاية** سنة 710هـ/1323م ونشأ بها، فأخذ عن والده وشيوخ مدينته، منهم: **منصور المشذالي و أبي العباس أحمد بن عمران** و **يوسف الزواوي**، و قاضي الجماعة ببجاية **أبي عبد الله محمد بن يوسف**2. و بتلمسان درس على **أبي محمد عبد المهيمن الحضرمي**، و **أبي إسحاق بن أبي يحيى**، و **على العباس بن يربوع** وغيرهم. إرتحل إلى الأندلس فأقرأ بها، وأخذ عن **ابن الفخار البيري** الذي أجازه، ثم انتقل إلى المغرب الأقصى، فأخذ عن القاضي **الشريف الحسني السبي** الذي قرأ " تسهيل الفوائد **لإبن مالك"**3، وبعدما استفتني في مسألة شرعية، خالف فيها فقهاء الفروع في زمانه في الأندلس، أشتد هؤلاء، في معارضته وإذايته فإضطر إلى الإرتحال إلى تلمسان سنة 765هـ/1378م حيث استقر بها يقرئ ويدرس4.

5- أبو عبد الله محمد الحسيني الشهير بالشريف التلمساني(771 هـ/ 1369 م): ولد **بتلمسان** سنة 710هـ/1323م و نشأ بها شغوفا بطلب العلم يتردد على المجالس العلمية، أخذ بها عن مشيختها **كإبني الإمام** و**الآبلي**، ثم ارتحل إلى تونس فاجتمع **بإبن عبد السلام أبو عبد الله**، و **ابن عرفة** وغيرهما، ثم عاد إلى تلمسان في عهد السلطان **أبي عنان فارس**، فقربه منه واستصحبه إلى فاس حيث تتلمذ بها على يد العالم **السطي**، فدرس عليه أحكام عبد الحق الصغرى، و التهذيب والموطأ والصحيحين، ومن فاس راح

1- "البستان"، ص 214، 215.

2- علي علواش "معجم مشاهير المغاربة"، تنسيق أبو عمران الشيخ، تقرير ناصر الدين العبدوني، إعداد فرقة البحث العلمي، جامعة الجزائر 1995، ص 267.

3- "نيل الابتهاج"، ج1، ص 310 وأيضا، "بغية الرواد"، ج1، ص 132 وأيضا، "البستان"، ص 293 وأيضا، "الإحاطة"، ج3، ص 328.

4- "الإحاطة"، ج3، ص 325.

يجوب سبتة و سجلماسة طلبا للعلم والتحصيل، ومنها إلى مصر و الحجاز " فهرت إليه رباط الإبل شرقا وغربا"، حيث كانت تأتيه الأسئلة من غرناطة فيجيب عنها وكان الفقيه الكبير **موسى العبدوسي** شيخ فقهاء فاس في عصره، يبحث عما يصدر عن **أبي عبد الله الشريف** بتلمسان، من تقييد أو فتوى فيقيده وهو أكبر سنا، و بتلمسان استقبله **أبو حمّو موسى الثاني** استقبال حسنا وأنكحه ابنته وابتنى له المدرسة اليعقوبية، حيث استقر أبو عبد الله يلقي الدّروس ويحضر مجلسه طلبة كثيرون إلى أن وافاه الأجل سنة 771هـ/1369م، وهو الذي ملأ بلاد المغرب معارفا وتلاميذ.

6- **أبو إسحاق التلمساني إبراهيم بن أبي عبد الله بن موسى الأنصاري:** ولد سنة 609هـ/1222م **بتلمسان،** ثم انتقل مع أبيه إلى الأندلس، فإستوطن **غرناطة** ثم **مالقة** التي قرأ فيها على **أبي بكر بن دحمان** و **أبي صالح محمد بن محمد الزاهد،** و **أبي عبد الله بن حفيد،** و **أبي الحسن بن سهل بن مالك،** و **أبي بكر بن محرز،** و **أبي الحسن بن طاهر الدباج،** ثم انتقل إلى **سبتة** واستقر بها ولقي بها **الحسن بن عصفور الهواري** و **أبا المطرف أحمد بن عبد الله بن عميرة،** و **أبا يعقوب يوسف بن موسى الغماري المحسني** فأصبح حينئذ فقيها عارفا مبرزا في الفرائض والعدد، متضلّعا في الأدب له أرجوزة محكمة بعلميها، ضابطة، عجيبة الوضع1، وله منظومات في السير والمدائح النبوية وقصائد في المولد النبوي، وأرجوزة في علم الفرائض تعرف بالتلمسانية لم يصنف في فنها أحسن منها2.

7- **أبو عبد الله محمد بن أحمد بن مرزوق الخطيب (781هـ/ 1379 م):** ولد **بتلمسان** سنة 711هـ/1324م، وارتحل مع والده إلى المشرق سنة 718هـ/1331م، فأقام بالقاهرة وأخذ على **برهان الدّين الصفاقصي** ثم عاد إلى بلاده سنة 733هـ/1346م فوجد **أبا الحسن المريني** محاصرا لتلمسان، فإلتحق ببلاطه ونال حظوة عنده، فصحبه في سائر تنقلاته، وفي سنة 752هـ 1365م أجاز إلى الأندلس، فحطب بجامع الحمراء **بغرناطة** وتناوب الخطابة مع قاضي الجماعة **أبي القاسم الشريف،** كما تناوب الخطابة مع آخرين على منبر المسجد الجامع بغرناطة مدة ثلاث سنوات، ودرس بمدارسها فخطب على منبر مسجد مالقة و فاس و مراكش و تونس و القاهرة3.

وتشير المصادر إلى أنّه خطب على أكثر من ثمانية وأربعين منبرا في المشرق و المغرب و الأندلس، وبعد عودته إلى تلمسان اتصل بالسّلطان **أبي عنان فارس** ومكث في بلاطه، وفي أيام **أبي سالم المريني،** عظم نفوذ **ابن مرزوق الخطيب،** وأصبح زمام الأمر في الدّولة المرينية بيده، ولما قتل أبو سالم

[1]- "بغية الرواد":ج1، ص 109.

[2]- "الإحاطة": ج1،ص 326 وأيضا لخضر عبدلي: "الحياة الثقافية للمغرب الأوسط في عهد بني زيان" (633-962هـ/1236 -1554م) ، دكتوراه دولة في "التاريخ الوسيط"، قسم التاريخ، جامعة تلمسان، 2004- 2005، ص243.

[3]- "نفح الطيب"، ج5، ص 415 وأيضا، "التعريف بابن خلدون"، ص 49-50.

سجن ابن مرزوق بأمر من الوزير الثائر **عمر بن عبد الله** سنة 762هـ / 1375م وبعد إطلاق سراحه توجه إلى تونس، واستقر بها خطيبا بجامع الموحدين ومقرئا ببعض مدارسها، ومن أهمّ مؤلفاته كتاب "المسند الصحيح الحسن في أخبار المولى أبي الحسن"، توفى بالقاهرة سنة 781هـ/ 1379م.

8- **عبد الله بن محمد بن أحمد الشريف التلمساني (792 هـ/ 1389م)**: من أكابر علماء **تلمسان** ومحققيهم، ولد سنة 748هـ/1361م، نشأ حريصا على طلب العلم والإستزادة منه، قرأ على مشيخة تلمسان، ثم انتقل إلى فاس حيث أخذ عن الأستاذ النحوي **أبي عبد الله بن زيد النجدي**، و **أبي عبد الله ابن حياتي** و **أبي عمران موسى العبدوسي**، و **أبي العباس القباب والونشريسي**، و **أبي العباس بن الشماع** وغيرهم من الشيوخ والعلماء[1]، له مشاركة في العلوم العقلية والنّقلية، دخل غرناطة فأخذ عن شيوخها وتوفي غريقا وهو عائد إلى تلمسان[2].

9- **محمد بن عمر بن الفتوح التلمساني (818 هـ/ 1415 م):** ولد ونشأ **بتلمسان** وتعلم بها ثم انتقل إلى فاس سنة 805هـ/1418م لدراسة الفقه والتعمق فيه، وهو أوّل من أشاع فيها "مختصر خليل"، وبها أخذ عن **أبي موسى عيسى بن علال المصمودي** الذي أجازه ودرس بمدرسة **أبي عنان فارس،** وعرضت عليه رئاسة الفقه بمدرسة العطارين، فإعتذر ورحل من فاس إلى مكناسة الزيتون فتوفى بها عام 818هـ/1331م.

10- **محمد بن الحسن اليحصبي : (747 هـ / 1333 م):** هو أبو عبد الله محمد بن الحسن اليحصبي الشهير **بإبن الباروني**، ولد ونشأ **بتلمسان**، ثم انتقل إلى فاس فأخذ عن **أبي الحسن الصغير** و **أبي زيد الجزولي** و **يوسف الجزولي** و **أبي زيد الرجاجي**، ثم عاد إلى تلمسان ومكث بها إلى أن توفى سنة 747 هـ/ 1333 م، فكان من أعلام الفقه وصدوره[3].

11- **أبو يحيى عبد الرحمان بن محمد بن أحمد الشريف التلمساني**(826هـ / 1422م):

درس **أبو يحيى بتلمسان** ثم توجه إلى **فاس** للإستزادة في التحصل والإحتكاك بعلماء فاس، فقرأ على والده، ودرس أصلي ابن الحاجب عن **سعيد العقباني** وكذلك التفسير والنحو والمنطق، وأخذ العربية عن **ابن حياتي،** فكان من طلاب العلم الذين ظلّوا يشدون الرحال متنقلين بين الحواضر الإسلامية المغربية والمشرقية والأندلسية، من أجل الظفر بحضور المجالس العلمية التي كان يديرها كبار المشايخ والإنتفاع

---

[1]- "البستان"، ص ص 117-120.

[2]- نفسه، ص 120.

[3]- "نيل الابتهاج"، ج2، ص 228 وأيضا، محمد بن رمضان شاوش، "باقة السوسان" في التعريف بحضارة تلمسان عاصمة دولة بني زيان ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1995، ص 423.

من علمهم، متحملين مشقة السفر ومصاعب الطرق،1 وقد نتج عن هذا الإختلاط والإمتزاج تواصل فكري وتأثير ثقافي، وصارت المشيخة متبادلة، فقد ذكر **المقري** أن تعداد أساتذة **ابن الخطيب** من بلدان المغرب، بلغ أكثر من ثمانية وأربعين أستاذا كان قد تتلمذ عليهم فضلا عن أساتذته من الأندلس وكذلك ذكرا بن مرزوق الخطيب بأن عدد أساتذته بلغ مائتين وخمسين أستاذا من مختلف حواضر الأندلس والمغرب والمشرق....

12- **أبو عبد الله محمد بن مرزوق الحفيد** (842هـ/ 1438م): ولد **بتلمسان** سنة 766هـ /1354م، ونشأ بها ينهل العلم عن والده وعميه **ابن مرزوق**2، وعن علماء عصره **كأبي إسحاق المصمودي** و **أبي الحسن الأشهب الغماري** و **أبي محمد عبد الله الشريف التلمساني** و **سعيد العقباني** ثم ارتحل إلى تونس فأخذ عن **ابن عرفة،** وحج رفقته سنة 790م هـ وأخذ عن الشيخ **القصار** ثم توجه إلى المشرق فدخل مصر وأخذ عن أجله علمائها **كأبي السراج البلقيني** و **الزين الحافظ العراقي** و **الفيرو زيادي** صاحب "القاموس"، و**ابن هشام النويدي** صاحب "النهاية" وغيرهم، ثم سافر إلى فاس فأخذ عن مشايخها أمثال: **ابن حياني**، و**أبي زيد المكوري**، والحافظ **محمد بن سعود الفيلالي** أشهر بفضله وبعلمه في الأمصار التي زارها حتى أحبته قلوب العامة والخاصة.

13- **أبو عبد الله محمد بن محمد المقري**: ولد ونشأ **بتلمسان**، وبها درس علمائها أمثال **ابني الإمام** و **أبي موسى عمران المشذاني**، و **أبي محمد المجاصي**، و **ابن هدية**، **فأبي عبد الله التميمي**، رحل إلى بجاية وتونس وأخذ عن كثير من علمائها ثم توجه نحو المشرق، فلقي بها **أبا حيّان النحوي** و **شمس الدين الأصبهاني** و **ابن عدلان** ثم رحل إلى الشام فلقي **ابن قيم الجوزية** و **صدر الدّين الغماري المالكي** وغيرها.

وأثناء الإحتلال المديني للمغرب الأوسط سنة 737هـ/1350م، اصطحب السلطان **أبو الحسن** جمع كبير من العلماء معه، فإنتقل **المقري** إلى فاس، فأخذ عن علمائها، **كأبي زيد عبد الرحمن بن عفان الجزولي** و **أبي العباس المكناسي**، ثم انتقل شمالا إلى سبتة، وبعد رحلة إلى المشرق عاد إلى تلمسان، ومنها توجه إلى الأندلس، ثم رجع إلى المغرب الأوسط فصحبه السلطان **أبو عنان** إلى فاس فولاه القضاء بها والتدريس إلى أن توفي بها سنة 759هـ/1372م فحمل إلى مسقط رأسه تلمسان ودفن بها.

14- **أحمد بن مسن بن علي الخطيب بن قنفذ القسنطيني**: هو والد **ابن قنفذ** صاحب "الفارسية"، ولد سنة 740هـ/1353م، عاش متنقلا ما بين بجاية وإفريقية والمغرب الأقصى، وزار الحجاز3، ومكث

[1]- عبد العزيز فيلالي المرجع السابق، ج 2، ص 334.

[2]- "نفح الطيب"، ج5، ص 415.

[3]- "نيل الابتهاج"، ج 1، ص 110 وأيضا عبد الحميد حاجيات، وآخرون، المرجع السابق، ج3، ص 441.

بالمغرب الأقصى ثمانية عشر عاما، فحصل علوما كثيرة، وقد التقى بالمغرب **بالشريف أبي القاسم السبتي**، وأخذ عنه، وقال في وفاته، وبعد الثناء على علمه: **"**وبالجملة فهوممن يحصل الفخر بلقائه**"**1.

15- أبو العباس أحمد بن يحي بن محمد بن عبد الواحد بن علي الونشريسي التلمساني:

ولد سنة 834 هـ/1447م **بتلمسان** ونشأ بها، أخذ عن كبار شيوخها كالإمام أبي الفضل **قاسم العقباني**، وولده **أبي سالم**، وحفيده **محمد بن أحمد بن قاسم العقباني** و الشيخ **أبي عبد الله الجلاب**، و **ابن مرزوق الكفيف**، وغيرهم2، وفي سنة 874 هـ/1487م حصلت له كائنة من جهة السلطان، فإنتهبت داره ففر إلى مدينة فاس، فإستوطنها فكان عالمها ومدرسها ومفتيها، وأخذ عنه خلق كثير من العلماء كالفقيه **أبي عماد بن مليح اللمطي**، والشيخ **أبي زكرياء السوسي** و الفقيه المحدث **محمد بن عبد الجبار الورتيدي** و الفقيه **عبد السميع المصمودي**، والفقيه **محمد بن قاضي** البلد الجديد الفرديس التغلبي3.

16 – أبو عبد الله محمد بن عمر بن عثمان بن منيع بن عياشة بن سيد الناس بن أمين الناس الغياري المغراوي الشهير بسيدي الهواري: هو فقيه متصوف، زاهد متقشف ذائع الصيت في أقطار المغرب4، ولد سنة 751 هـ/ 1351 م **بمغراوة** ونشأ بها وأخذ علومه الأولى، ثم ارتحل نحو بجاية فأخذ عن **عبد الرحمن الوغليسي**، و **أحمد إدريس**، ثم انتقل نحو مدينة فاس، وفيها أخذ عن الشيخ موسى العبدوسي المتوفي سنة 776 هـ، والشيخ **القباب** الذي أخذ عنه الكثير من العلوم الدينية والدنيوية، ومن فاس ارتحل إلى المشرق للحج وزيارة حواضره العلمية للأخذ عن علمائه، كما أخذ عن الشيخ **إبراهيم التازي** المتوّفى سنة 866 هـ الذي لازمه طويلا، والشيخ **أبركان بن مخلوف المزيلي الراشدي**، وكان قد أخذ عنه الكثير من الطلبة خاصة عندما زار مدينة فاس، حيث كانوا يقرؤون عليه القرآن والعربية والفقه ويتحدثون أنهم ما رأوا وأبرك من قراءته توفي سنة 843هـ/ 1439م.

17- علي بن محمد بن أحمد بن موسى بن مسعود الخزاعي أبو الحسن التلمساني: من أسرة **أندلسية**، ولد **بتلمسان** عام 710 هـ وبها نشأ وتعلم وقد برز في التاريخ والفقه والحساب فتنافس عليه ملوك المغربين الأوسط والأقصى، فإتخذه أولا السلطان **إبراهيم بن علي المديني** صاحب علامته ثم انتقل إلى

1– "نيل الابتهاج"، ج1، ص 110.

2– "نيل الابتهاج"، ج1، ص 110 وأيضا "البستان"، ص 53 وأيضا السلاوي الناصري، "الاستقصار لأخبار دول المغرب الأقصى"، ج4 الدار البيضاء، 1956، ص 165 وأيضا، عادل نويهض، مرجع سابق، ص 334.

3– "نيل الابتهاج" : ج2، ص 145 وأيضا، "البستان"، ص 54.

4– "نيل الابتهاج"، ج2، ص 192 وأيضا "البستان"، ص 288 وأيضا "عادل بويهض"، مرجع سابق، ص 337 وأيضا "عبد الحميد حاجيات" وآخرون، المرجع السابق، ص 450.

بلاط بني مرين كاتبا للأشغال قريبا لقلم الدولة، ونال خطوة ما وصل إليها غيره من العلماء لدى الملوك، توفي بفاس سنة 789هـ1، كان قد ألف كتاب **"تخريج السلالات السمعية"** على ما كان في عهد رسول الله من الحرف والصنائع والعمالات الشرعية، ألّفه السلطان المتوكل على الله **أبي فارس المديني،** وانتهى منه سنة 786هـ.

18- **إبراهيم التازي نزيل وهران:** عالم أديب صوفي اسمه الكامل **إبراهيم محمد بن محمد بن علي،** نسبه في **بني لنت** من مضافات قبيلة التسول الزيانية، وهم يتفرعون إلى ثلاثة بطون: الحرشة والخندق ومقورة: ولا يزال اسم ببني لنت معروفا قرب مدينة **تازا،** حيث كان مولده بها في تاريخ ربما يرجع بها في تاريخ ربما يرجع إلى أوائل القرن التاسع الهجري وبنفس المدينة، كانت نشأته ودراسته للقرآن الكريم على أستاذه **الوازعي.**

وبعد هذه المرحلة الأوّلية فإن المصادر التاريخية لا تذكر شيئا عن أساتذته بالمغرب، ومن المؤكد أنه أخذ العلوم الدّينية واللسانية ببلدته أوجهة أخرى من المغرب، قبل أن يتم دراسته خلال رحلته للحج حيث تحصل على ثلاث إجازات من أساتذته2.

وكان التازي قد تتلمذ على يد شيوخ كبار خارج المغرب وهم **أبو الطيب الفاسي** و **محمد بن أحمد بن علي المكي الحسيني الإدريسي** (ت 828 هـ/ 1429 م) **وأبو محمد الزواوي صالح بن محمد بن موسى الحسني الرياحي الدوكالي** (ت 839هـ/1435م) الذي لبس منه الخرقة القادرية والمدينية والشاذية و **أبو الفتح المراغي محمد بن أبي بكر الحسين العثماني المديني** (ت 859 هـ/ 1455)، و **العبدوسي عبد العزيز بن موسى بن معطي الفاسي** نزيل تونس 83 هـ 1434 م)، و **ابن مرزوق الحفيد**3(ت 842هـ /1439 م)، وفي وهران اتصل بشيخه الذي طبع اتجاهه الصوفي، و هو **محمد بن عمر الهواري،** حيث لازمه نحو عشرة أعوام إلى وفاته سنة 843 هـ/ 1439 م)، وبعدما استقر **التازي** بوهران4 يترسم النهج الصوفي لأستاذه، ينشر فضائله وينسخ كلامه بخطه، ويجمع متفرقة في دفاتر، صار يفتتح مجالس إقرائه بتلاوة كتب شيخه فيملها بتعبير مؤلفها، ويفسر مجملها ويفتح مقفلها، فنقل بذلك أهل مدينته عما كانوا فيه من التبدي إلى الحضارة وجلب إليها الماء من مسافة بعيدة بعدما كان

1- عبد الرحمن الجيلالي، "تاريخ الجزائر العام""، ج2، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1982، ص ص 113 – 115.

2- محمد المنوني، الشيخ إبراهيم التازي نموذج بارز للتبادل الثقافي بين المغربين 1519 م "مجلة الثقافة" ص ص 145 148.

3- ترجمته في "نيل الابتهاج"، ج1، ص ص 293–299.

4- محمد المنوني المرجع السابق، ص 149.

قليلا بها، فعظمت بذلك كل عمارتها، وارتحل إليها الكثير من الناس ولعل الزاوية التازية بوهران خير دليل على إنجازات هذا العالم المتصوف1.

روى عنه العديد من العلماء **كالسنوسي محمد بن يوسف بن عمر التلمساني** و **ابن ذكري أحمد بن محمد المغراوي**، و **الراشدي** نزيل تونس و **أحمد حجي الوهراني**2، و **القلصادي**3 الذي سجل اتصاله به وغيرهم كثير.

حركة الجدل والمناظرات العلمية

إذا كانت الرحلة العلمية عاملا من عوامل تمتين الروابط الثقافية بين المدينين والزيانيين، فإنّ المناظرات العلمية بين العلماء والفقهاء وكانت شكلا من أشكال التطور والتفوق العلمي، ومسرحا لإثبات الذات وإبراز القدرات العلمية وإظهار الكفاءات وتأكيد استحقاق الإجازات التي منحت لهم من قبل المشايخة فكانت مظهرا من مظاهر الحركة الفكرية النشيطة التي سادت المغربيين الأوسط والأقصى خلال القرن السابع والثامن والتاسع الهجري (13م،14م،15م)، إذ كانت تتم داخل الإقليمين وخارجهما، ممّا جعلها عاملا أساسيا في توطيد العلاقات الثقافية بينهما وشكلا من أشكال التواصل الفكري والثقافي، حيث جرت بعض المناظرات والمحاورات العلمية المكتوبة والشفوية بين فقهاء تلمسان وغيرهم من رجال الفقه المغاربة والأندلسيين والمشارقة، تناولت الفقه المالكي بالدرجة الأولى فضلا التفسير والتصوف وعلم الكلام واللغة وغيرها من المسائل الفقهية المطروحة للنقاش والجدال4، ونخصّ بالذكر تلك المناظرات التي تمت بين فقهاء تلمسان وفاس، ومن أبرزها تلك التي وقعت بين **أبي العباس أحمد بن قاسم القباب** (ت778هـ/1376م)، **وأبي عثمان سعيد بن محمد العقباني التلماسي** (ت811 هـ /1408 م).

عندما كان هذا الأخير قاضيا بمدينة **سلا** وكانت تدور حول مسألة درهم الإعانة التي أثارها التجار بسبب الضرائب المخزية الثقيلة5، جمع **أبو العباس أحمد الخطيب** الشهير بإبن قنفذ القسنطيني (810 هـ

1- نفسه، ص 149-150.

2- "البستان"، ص 140-141.

3- القلصادي "رحلة القلصادي"، دراسة وتحقيق محمد أبو الأجفان، الشركة التونسية للتوزيع، تونس، 1978، ص 111.

4- عبد العزيز فيلالي المرجع السابق، ج2، ص 412.

5- موسى لقبال "الحسبة المذهبية في بلاد المغرب"، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1971، ملحق رقم 14.

/1408م)، هذه المحاورة في كتاب سماه "لبّ اللباب في مناظرة العقباني والقباب" ذكر **الونشريسي** بأنها كانت متداولة بين رجال الفقه في تلمسان1.

كما جرت مناظرة قصيرة حول عموم الرسالة النبوية، وقعت بمراكش بين الإمام الشيخ **أبي عثمان سعيد العقباني**، وأحد علماء اليهود كان يشتغل بمسائل علمية عديدة2، وقد عقدت مناظرة أخرى بين **أبي عثمان سعيد العقباني** و **أبي العباس القباب** تتضمن مسألة من الإيلاء تتعلق بقضايا الطلاق، كما شهدت تلمسان الزيانية صراعا فكريا دام أكثر من قرنين من الزمن بين فقهاء السنة ورجال التصوف، ولعلّ ظهور هذه الظاهرة كانت في عهد الأديب الشاعر الصوفي المتفلسف **محمد ابن خميس**، والذي تصدى له و لأفكاره بعض فقهاء تلمسان وعلى رأسهم القاضي **ابن هدية القرشي** (737هـ /1337 م) والذي كان له حظوة ونفوذ سياسي وأدبي في الدولة الزيانية، إذ اتّهم ابن خميس بالكفر والزندقة، لأنه ألّف الرسالة المسماة "بالعلق النفيس في شرح رسالة ابن خميس "، و أرسلها إلى المشرف على مدينة فاس والقائم عليها آنذاك، **وأبي الفضل محي بن عتيق العبدري** يدافع فيها عن نفسه ويبرئها بعدما وضعه الفقيه الشريف **أبو البركات** في خانة الكفر والضلالة إبان متوله أمام المحكمة الخاصة، بمدينة فاس والتي حضرها قاضي تلمسان، ابن هدية وشارك فيها وهو الذي كان يضمر الحقد الشديد **لإبن خميس** حب خاطبه قائلا: "ولولا أن الأليق إيثار الأعراض من استتار مقاصدك السيئة، لأومأت من ذلك إلى ما يوجعك مني التثقاف ويرميك بثالثة الأقافي: فإنك من تناولك هذا السجال، وتجوالك في ذلك المجال بين جهل فأضح أو كفر واضح فأختر وما فيهما...." ثم راح يصف أجواء المحاكمة قائلا: "فإتفق أن اجتمع في بعض محالفها الحافلة، ومجالسها العامرة، بأهل الفصل، الأهلة بطائفة من خذاق الأشعرية وجماعة من فقهاء المالكية **كالشريف أبي البركات** وغيرهم، ففتحوا باب المذاكرة وسلكوا سبيل المناظرة وتفننوا في الكلام إلى أن أخذوا في علم الكلام استدراك لإبن خميس واستخراجا لحب مذهبه الفلسفي الحسيس".

فوقف **ابن خميس** موقف الشجعان، حيث دافع عن آرائه، وأفكاره ببلاغة وبحجج قاطعة، أفحم خصومه حتى لم يبق في المناظرة إلا ابن هدية أبو البركات ألد خصومه وكان ابن خميس يصمت في بعض الأحيان أثناء المحاكمة لا لأنّه مدحوض الحجة كما وصفه ابن هدية وإنما تفطن للكمين الذي نصب له من قبل خصومه3.

---

[1]- الونشريسي "المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى علماء إفريقيا والأندلس والمغرب"، خرجه جماعة من الفقهاء بإشراف محمد حجي ج5، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1981 ص 326.

[2]- "نيل الابتهاج"، ج1، ص 306.

[3]- نفسه، ص 131 -132.

وانتهت المحاكمة بإصدار حكم الإعدام ضد **ابن خميس** إلا أنه تمكن من النجاة بالفرار إلى **تلمسان** مسقط رأسه التي عاش فيها، في عزلة وانزواء يترقب مرور الأخطار التي كانت تحيط به، من المراقبة الشديدة التي كانت مفروضة عليه وقد وصف حالة الظلم والإضطهاد التي عاشها في العديد من أشعاره1، حيث عاش مجهولا بين أهله.

الآثار المدينية في تلمسان ودورها في توطيد العلاقات الثقافية

ويضاف إلى كل ذلك عامل آخر ساهم بشكل كبير في توطيد العلاقات بين بني زيان و بني مرين وهو تلك المنشآت الدينية والتعليمية والمدنية والعسكرية التي خلفها بنو مرين في تلمسان والتي خلدت وجودهم فيها، حيث كانت شواهد على اهتمام أمراء مرين بالعمارة والإنشاء من مساجد ومدارس وقصور وغيرها وكلها تحمل معاني الإبداع وروح الإبتكار الموجودة لدى الفنان المريني، لما نلمسه في هذه العمائر من إحساس مرهف ورقة في العمل، كما يعطينا فكرة واضحة عن تلك المنافسة الفكرية والثقافية التي لازمت الجارتين، والتي كانت الوجه الآخر لذلك الصراع السياسي الذي كان دائرا بينهما والذي لم يكن أمرا سلبيا كله بل يحمل في طياته الكثير من المنافع، ولعلها تلك الآثار الخالدة التي حظيت بها مدينة تلمسان، والتي تلتها حركة علمية وثقافية مشهورة لذلك العهد، كانت قد مهدت لها الدولة الزيانية من قبل وساهمت بشكل كبير في تقوية الروابط والعلاقات الثقافية بين الزيانيين والمرنيين، حيث أن هذه المؤسسات الدينية والتعليمية احتوت كبار العلماء والفقهاء والأدباء، الذين تتلمذوا فيها وتخرجوا منها، حاملين أكبر الإجازات العلمية كما كانت تستقطب طلبه من مختلف البقاع خاصة من المغرب الأقصى والذين ساهموا في نشر العلوم بألوانها نتيجة لذلك الإحتكاك والتقارب بين علماء بني زيان و بني مرين، وتبادل العلوم والمصنفات والمناظرات التي كانت تقام في هذه المؤسسات التعليمية ومن أهمها المساجد والمدارس.

1 – المساجــــــــد

لم يترك المرنييون إلا ثلاثة مساجد بتلمسان، وهي توجد في أطراف المدنية لا أحد ينفي روعة عمارتها ورونقها وجمال زخرفها وعظمة دورها التاريخي في نشر الدّين والعلم واستقطاب العلماء وهذه المساجد هي:

مسجد المنصورة: يذكر **ابن خلدون** أن منشئ هذا المسجد هو السلطان **أبو يعقوب بن عبد الحق** وذلك سنة 702 هـ /1302 م أثناء الحصار الذي ضربه، التي يبلغ ارتفاعها 38 م، مما يجعلها أعلى مئذنة شيدت في الجزائر وهناك لوحة أعلى مدخل هذه المتزنة منقوشة نشرها **بروسلار** جاء فيها: **"**الحمد لله رب العالمين والعاقبة للمتقين أمر بناء هذا الجامع المبارك أمير المسلمين المجاهد في سبيل رب العالمين

[1]– للإطلاع على هذه الأشعار أنظر "الإحاطة"، ج2، ص ص 550 –556.

المرحوم أبو يعقوب بن عبد الحق رحمه الله " وقد بني هذا المسجد من الطوب المدكوك على مساحة تقدر ب 5600 م2 وله 13 بابا[1].

مسجد سيدي أبي مدين: شيّده السلطان **أبو الحسن علي بن عثمان بن يعقوب بن عبد الحق المديني** سنة 739 هـ /1339 م بقرية العباد[2]، وأعطاه اسم ضريح الولي الصالح أبي مدين شعيب بن الحسن أحمد منصور في المغرب الإسلامي والأندلس والمتوفى سنة 594 هـ، وقد أشرف على بنائه **أبو عبد الله محمد بن محمد بن أبي بكر بن مرزوق** عم ابن مرزوق الجد صاحب المسند، وهذا المسجد آية في الجمال والروعة ولا يزال بهجة للناظرين وآية من الفن المغربي الأندلسي وقد كتب على أحد سيجان الأعمدة بخط أندلسي: **"**هذا ما أمر بعمله مولانا أمير المسلمين **أبو الحسن** ابن مولانا أمير المسلمين **أبي يعقوب"** التاج الأيمن، أمّا في التاج الأيسر فقد كتب: **"** ابتغاء وجه الله العظيم ورجاء ثوابه الجسيم كتب الله له به أنفع الحسنات وأرفع الدرجات"[3]، وقد أعطى **ابن مرزوق الخطيب** وصفا دقيقا لهذا المسجد .

مسجد سيدي الحلوي: تمّ تأسيس هذا المسجد بأمر من السلطان المديني **أبو عنان فارس** سنة754هـ/1353م، كما ينص على ذلك النقش التأسيسي الذي يعلو واجهة المدخل الرئيسي للمسجد وفيما يلي نصه: **"**الحمد لله وحده، أمر بتشييد هذا الجامع المبارك مولانا السلطان **أبو عنان فارس** ابن مولانا السلطان **أبي الحسن علي** بن مولانا السلطان **أبي عثمان** بن مولانا **أبي يوسف يعقوب بن عبد الحق** أيده الله ونصره عام أربع وخمسين وسبعمائة**"**.

وقد شيده تخليدا لذكرى وفاة العالم الشهير والمنصوف المعروف الشيخ الولي أبو عبد الله الشوذي الإشبيلي المعروف بالحلوي نزيل **تلمسان** المتوفى سنة 737 هـ/ 1337م.

وصفه **ابن الحاج النميري** كاتب السلطان **أبي عنان فارس** قائلا: **"**وكم أبقى يقصد أبي عنان بتلمسان من آثار حسن ومصانع يعجز عن وصفها كل لسان... وهذا أجمل الجوامع قد أحكمت فيه أنواع الصنائع، وأبدى الإحتفال به ما شاء من البدائع..."[4].

---

[1]– صالح بن قربة "المئذنة المغربية والأندلسية في العصور الوسطى" المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1986 ص 115–116.

[2]– العباد، مفردها عابد، أطلقت على هذا المكان منذ القديم لوجود مقبرة دفن بها الكثير من الفقهاء والعلماء، ويمثل هذا المكان حاليا الضاحية الشرقية لمدينة تلمسان

[3]– محمد بن رمضان شاوش المرجع السابق، ص 296.

[4]– عبد العزيز لعرج، "المباني المرينية في إمارة تلمسان الزيانية"، رسالة دكتوراه دولة، قسم الآثار، جامعة الجزائر 1998 –1999 ص 237.

2- المـــــــدارس

ومن حسن الحظ فإن المدارس التي بناها آل مرين لم تعرف نفس المصير الذي عرفته المدارس الزيانية، فلا تزال مثلا مدرسة العباد قائمة إلى يومنا هذا تعاني صروف الدهر وإهمال الإنسان، ومن أهمها مدرسة سيدي أبي مدين بالعباد ومدرسة سيدي الحلوي والتي تخرج منها عدد كبير من العلماء والفقهاء والأدباء الذين أثروا الحياة الثقافية في المغرب الأوسط.

مدرسة أبي مدين بالعباد: قام بتشييدها السلطان **أبو الحسن علي بن عثمان بن يعقوب بن عبد الحق المريني**، عندما استولى على تلمسان سنة 737هـ/1337م، بقرية العباد[1] فوق ربوة مطلة على تلمسان إلى جانب روضة أبي مدين سنة 747 هـ/1347 م أي بعد إنشائه للمسجد بثماني سنوات.

وقد أشار إلى ذلك **ابن مرزوق** بقوله: "وبالعباد ظاهر تلمسان وحذاد الجامع أنشأ مدرسته وبالجزائر مدارس مختلفة الأوضاع بحسب اختلاف البلدان..."[2]، وقد سميت هذه المدرسة أيضا بإسم المدرسة الخلدونية في وقت متأخر ربما بسبب ما أنجبته من فطاحل العلماء **كعبد الرحمن بن خلدون** الذي درس بين جدرانها، وقد ظلت هذه المدرسة قائمة تصارع عوادي الزمن بالرغم من أن كثيرا من زينتها وزخرفتها الأصلية قد اندثرت بفعل الترميم والإصلاحات التي أدخلت عليها على مر العصور فأفقدتها كثيرا من أصالتها[3].

مدرسة سيدي الحلوي: أسست هذه المدرسة من قبل السلطان المريني أبو عنان فارس بعد خمس سنوات من بناء أبي الحسن لمدرسة العباد، فاختار لها موقعا منحدرا يشغله حي سكني، بالقرب من ضريح الولي الصالح **أبي عبد الله الشوذي الإشبيلي** الملقب بالحلوي[4] الذي يقع شمال المدينة، حيث يوجد المسجد.

وبهذا الحي شيّد **أبو عنان** مجموعة بان تخليدا لذكرى العالم الجليل سيدي **الحلوي** وتتكوّن هذه المجموعة من مسجد ومدرسة وزاوية وضريح وكانت الزاوية والمدرسة قائمتين حتى أوائل القرن 10هـ/16م فقد ذكرها **ابن مريم** في ترجمته الفقيهين **سيدي أحمد بن عيسى الورنيدي** المعروف **بأبركان**، و

---

[1]- يذكر الحسن الوزان بأن العباد قرية عتيقة تقع في الجنوب الشرقي من تلمسان، وهي كثيرة الازدهار، وافرة السكان والضياع، بها دفن ولي كبير ذو صيت شهير وهناك مدرسة جميلة جدا... أسسها بعض ملوك فاس من بني مرين أنظر، الحسن الوزان ، "وصف إفريقيا"، ج2،بيروت 1983، ص 24.

[2]- عن "مجموعة منشآت أبي الحسن بالعباد" أنظر : ابن مرزوق ، المصدر السابق، ص 400 وما بعدها وأيضا عبد العزيز لعرج ، المرجع السابق ص ص 233-235.

[3]- عبد العزيز لعرج المرجع السابق، ص 317-318.

[4]- "بغية الرواد"، ج1، ص 127-128 وأيضا "البستان"، ص ص 68، 70 وأيضا عبد العزيز لعرج ، المرجع السابق، ص ص 232-235.

أحمد بن الحسن الغماري(ت 894 هـ/1489 م)، لكن هذه المدرسة لم تنل شهرة كبيرة مقارنة بالمدارس الأخرى.

3- محطات في تاريخ تلمسان الثقافي الإسلامي

تلمسان مدينة مشطة للعلم والمعارف، وخزانا للعلماء والفقهاء، ومنبرا للدعوة الإسلامية، وعاصمة للزهد والتّصوف والفقه المالكي، ومزارا كبيرا لطلاب العلم، وأصحاب الرحلة في طلبه، ومحجا للأولياء الصالحين، ومريديهم، لأحد التصوف وليس الخرفة من شيوخها والوقوف عند ضريح الولي القطب أبي مدين شعيب، وكانت الزوايا منبعا للعلم والفقه، ومنبرا للأخلاق والفضيلة وعاملا من عوامل تثقيف المجتمع وتربيته وتهذيبه وإصلاحه.

وكان العلماء والفقهاء والمتصوفين والمعلمين يد بيضاء وأعمال ناصعة، في نشر العلم والمعرفة والثقافة الإسلامية، في مدارس تلمسان العديدة، ومساجدها الكثيرة وزواياها، وباع طويل في نسج التراث الإسلامي، وإحياء مجده ومآثره، تركوا بصمات فكرية رائدة، وحركة تنويرية واسعة للعلوم الإسلامية والمعارف المختلفة، وسمعة طيبة في مدينة "تلمسان"، وفي حواضر إسلامية أخرى في العلمين المشرقي والمغربي، لأنهم بلغوا من النضج الثقافي والعلمي درجة كبيرة، جعلهم يفرضون وجودهم وحضورهم في المجالس العلمية، والمؤسسات التربوية، وممّا أتحفوه من مصنفات في العلوم والآداب، وفقه التوازل، والتفسير، والحديث، والتصوف، والفنون، والطب، وغيرها من علوم ذلك الوقت.

فكانوا يدرسون المناهج، وأساليب البحث، وطرائق التربية، التي تحقق الأهداف الكبرى والمعاني السامية للثقافة الإسلامية، والنهوض بها والمشاركة في نشرها.

فأصبحت بذلك مدينة تلمسان، منارة للعلم، وقبلة لمن يريد الاستزادة والتعمق فيه، بفضل المشيخة العلمية والفكرية المتميزة، والمؤسسات البيداغوجية التعليمية المنتشرة عبر حاراتها ودروبها1.

إنّ الثقافة والإحاطة بمعناها من بيئة إلى أخرى تخضع في مكونتها المعقدات الدينية، والمذهبية، والسياسية، وللعادات، والتقاليد، والسلوكات، ويعني ذلك أنّها تطلق على كل إنتاج فكري أو علمي أو

[1]- عبد العزيز فيلالي "تلمسان"، ج1 ص ص 141-149، (شيد في مدينة تلمسان عدة مدارس هي مدرسة ابن الإمام، والمدرسة التاشفينية، ومدرسة سيدي الحلوي، والمدرس اليعقوبية، ومدرسة أبي الحسن بالعبّاد، ومدرسة الشيخ صالح الحسن بن مخلوف أبركان وزاويته، ومن المساجد مسجد أكادير، والمسجد الأعظم، وجامع أبي الحسن، ومسجد سيدي الحلوي، ومسجد سويقة إسماعيل، ومسجد القيصرية، ومسجد سيدي الطيار، ومسجد أبي زكريا يحي، ومسجد عين الكسور، ومسجد باب زير، ومسجد حارة البرهان، أما الزوايا، فهي متعددة خلال العهد الزياني مثل: زاوية أبي يعقوب، وزاوية سيدي الحلوي، وزاوية أبي زيد، وزاوية أبي مدين، وزاوية السنوسي، وزاوية أبي عبد الله، وزاوية ابن البناء).

فقهي أو أدبي أو تاريخي أو تراثي حضاري، تجمع بين الأمور المعنوية، والروحية والمادية، وتضمن جميع العلوم والمعرفة الإنسانية1.

ولم يتوال علماء تلمسان في صناعة الثقافة الإسلامية والتحلي بها، إذن فقد كانت مدينة تلمسان حاضرة فكرية جديرة بأن تكون عاصمة للثقافة الإسلامية، وممثلة الجزائر والعالم الإسلامي في هذه السنة لماضيها الإسلامي العريق ولحضارها المميز، بتراثها الإسلامي المادي والروحي والأدبي، أشعّت به على الجزائر، وعلى العالم الإسلامي مغربا ومشرقا وأندلسا خلال العصر الوسيط.

ولاشك أنّ تاريخ تلمسان مفهم بالأحداث والتراث، عرفت الاستقرار البشري منذ آلاف السنين، تقلدت عهدة أسماء منها "بوماريا"، و"أكادير"، و"تلمسان"، مرّت المدينة الإسلامية، بعدة مراحل، منذ دخولها في دائرة الإسلام والعروبة في عهد أبي المهاجر دينار(55هـ – 64هـ)، واستقر بها جند موسى بن نصير(هـ86 – 95هـ)، الذي بنى فيها مسجدا ودارا للإمارة، واتخذ منها طارق بن زيان مسكنا مفضلا له، يقيم فيه مع زوجته أم حكيم، وجده وهيئة أركانه، على حدود ولاية طنجة الشرقية، يدير منها شؤون المنطقة العربية لبلاد المغرب.

استقبل فيها ابنتي "الكونت بوليان" حاكم مدينة سينة، كرهيتين وضمان لصحة لوباء وصحة كلامه، لأنّه حث طارقا على غزو الأندلس، فأقرهما طارق إلى جانبه في مدينة تلمسان2، ويعني ذلك أن مدينة تلمسان في هذه المرحلة، صارت عاصمة للإقليم العربي لبلاد المغرب الإسلامي.

فكانت بالنسبة للمغرب الأوسط في تلك الفترة المبكرة من الإسلام كالقيروان بالنسبة لإفريقية، لأنّها تتمتع بإستراتيجية هامّة عسكريا، وسياسيا، واقتصاديا3، شارك أهلها في فتح الأندلس إلى جانب طارق بن زياد وجنوده بالفرسان الزناتيين والمتطوعين المجاهدين سنة 92هـ/710م4.

وفي القرن الثاني الهجري/ الثامن ميلادي، أصبحت تلمسان عاصمة لإمارة مستقلة عن الدولة الأموية في دمشق، ثم الدولة العباسية في بغداد، استقل بها زعيم قبيلة مغيلة التلمسانية "أبو قرة المغيلي الزناتي" الذي استطاع أن يوفر الحماية لعبد الرحمان الداخل الأموي، الطريد من المشرق، أثناء إقامته في بلاد المغرب، وقدم له يد المساعدة للاستيلاء على إمارة الأندلس سنة 138هـ/755 م، وإحياء دولة أبائه وأجداده في المغرب الإسلامي، بالمال والرجال التلمسانيين5.

[1]– مروان سليم ابوجويح "أصالة التثقيف" ص31.

[2]– ابن عبد الحكم "فتوح إفريقيا"، ص 72.

[3]– ابن القوطية "افتتاح الأندلس"، ص 16، وأخبار مجموعة، ص 74.

[4]– المقري "نفح الطيب"، ج1، ص313، وعبد العزيز فيلالي، "العلاقات"، ص87.

[5]– الأنيس "المطرب"، ص21.

ثم انتقل حكم تلمسان وإقليمها إلى زعيم قبيلة تلمسانية أخرى بقيادة محمد بن خزر المغراوي الزناتي التلمساني سنة 170هـ/786م وحكمها الأدارسة في مراحل من تاريخها،إبتداء من سنة173هـ/789م[1].

انتقل حكم المدينة خلال النصف الأوّل من القرن 4هـ/10م، أيّام الفواطم الشيعة، إلى أمراء محليين، من مغراوة، وبني يفرن الزناتيين، وتداولوا على حكمها وقيادتها، وأعلنوا ولاءهم للخليفة الأموي عبد الرحمان الناصر(300هـ-350هـ) السني المالكي الأندلسي، وخلعوا طاعة الفواطم الشيعة في المهدية، وبالتالي أعاد التلمسانيون الاعتبار للمذهب السني المالكي في هذه المنطقة من المغرب الإسلامي قبل الزيريين والحماديين بنحو قرن من الزمن، والمرابطين بنحو قرن ونصف قرن من الزمن[2].

استمر التلمسانيون يمدّون يدّ العون للدّولة الأموية في الأندلس، بالفرسان الزناتيين، لحماية الخلافة في قرطبة، وللدّفاع عن حياض الاسلام وبيضته من الاسترداد المسيحي، فكان الخليفة الحكم (350-366هـ) معجبا بفروسيتهم، وبطريقة قتالهم فوق صهوات خيولهم، فأنشد بقول:

فكأنّما ولدت قياما تحتهم   وكأنّما ولدوا على صهراتها[3]

استفادت مدينة تلمسان من خدمات المرابطين، بتشييد مدينة جديدة محادية لمدينة "أكادير" القديمة، وتربطها بسور من النّاحية الغربية، وأطلقوا عليها اسم "تكرارت"، وجعلوها مقرا لحكم الوالي وحاشيته والقائد العسكري وجنوده، وعاصمة إقليمية لهم بقيادة يوسف بن تاسفين سنة 473هـ/1080م[4]، وهيأ لها الموحدون، بقيادة عبد المؤمن بن علي الندرومي المناخ الملائم لكي تتبوأ مركزا إقليميا هامّا، له وزنه السياسي والعسكري والاقتصادي والثقافي، ومكانة مرموقة في المغرب الأوسط منذ الاستيلاء عليها سنة 547هـ/ 1152م.

الثقافة الإسلامية في العهد الزياني

نشأت الدولة الزيانية سنة 633هـ/ 1332م بقيادة "يغمراسن"، ومنذ هذا التاريخ لعب الزيانيون دورا كبيرا في شهرة مدينة تلمسان، وتطويرها في مختلف مناحي الحياة، وارتبط ذلك بعهدهم، الذي ازدهرت فيه سياسيا، ونمت فيه اقتصاديا، وتطورت فيه فكريا وثقافيا، وفي ذلك يقول المؤرخ ابن الاعرج: "فلم يزل عمرانها يتزايد وخطتها تتسع، ورحل إليها الناس من القاصية لحسن موقعها، وعذوبة مائها، وطيب

---

[1]- ابن خلدون "العبر"، ج7، ص 24.

[2]- ابن عذاري "البيان المغرب"، ج 1، ص 194.

[3]- عبد العزيز فيلالي "العلاقات"، ص 246.

[4]- يحي ابن خلدون "بغية الرواد"، ج1 ص 170.

هوائها، واختطّت بها القصور، والمنازل العالية، وغرست بها الرياض والبساتين، وفاحت برحابها الأزهار والرياحين، فكانت واسطة سلك وقاعدة ملك"1.

ويقول عنها ابن خلدون: "فاختطوا بها القصور المرتفعة، والمنازل الحافلة، وغرسوا الرياض، والبساتين، وأجروا لها المياه، فأصبحت أعظم أمصار المغرب، ورحل إليها الناس من القاصية، ونفقت بها أسواق العلوم والصنائع، فنشأ بها العلماء، واشتهر بها الأعلام، وضاهت أمصار الدول الإسلامية، والقواعد الخلافية"2.

فكان لبني زيان الفضل في تخليد مآثرها، وتوسيع عمرانها، وجعلوها عاصمة سياسية واقتصادية لحكمهم، ومركز دائرة نفوذهم، وتتجلى هذه المآثر في الآثار المادية والفكرية الباقية، التي عكست نمو العلوم والفنون والآداب وازدهارها، فاكتسب المجتمع التلمساني، ثقافة واسعة ورقيا حضاريا، أخرجته من طور البداوة إلى طور الحضارة، فأعطى بمختلف عناصره الحية أهمية كبيرة للحياة الاجتماعية ومظاهرها، وللحركة الفكرية والثقافية، والنهضة العمرانية وللتعليم والتأليف، والاحتكاك بالعلماء الوافدين والرحلة في طلب العلم، فتغذت بذلك الحياة الفكرية في تلمسان برافدين هامين، رافد الأندلس ورافد المشرق، فضلا عن المشيخة العلمية التلمسانية، التي ضربت بسهم وافر في هذا المجال.

لاشك أنّ الحياة السياسية القلقة التي عاشتها مدينة تلمسان، في فترات من تاريخها الزياني، التي سببتها الفتن الداخلية، أو الحملات الحفصية، والمرينية المتكررة، لم تؤثر بشكل مباشر على الحياة الفكرية السائدة في المدينة، أو تعرقل نموها المطرد، بل ظلت تلمسان تحافظ على مكانتها العلمية، حتى في أحلك ظروفها السياسية والعسكرية، ويعود ذلك إلى عوامل مستمدة من البيئة التلمسانية ذاتها، ومن واقعها المادي والبشري، ومن معطياتها الاجتماعية والفكرية، حتى وإن تعددت واختلفت في مظاهرها، ويمكن الإشارة إلى أهمها:

1 – إنّ المكانة الرائدة التي كانت تحتلها تلمسان، تعود إلى النزعة العلمية والثقافية، التي يتميز بها أهلها وحكامها، ورعايتهم للفنون والآداب والعلوم الشرعية على وجه الخصوص، وتشجيعهم للعلماء والفقهاء والأدباء، واستقطابهم واستقبالهم، من مختلف الحواضر المغربية والأقطار الإسلامية، ولاسيما من الأندلس، لأنّ من بين الأسرة الحاكمة من كان ينتمي إلى الفقه، والشعر، والأدب، والفن، وأدب السياسة.

2 – إنتشار المدارس والمساجد والزوايا، في أحياء مدينة تلمسان وأرباضها، فكانت قبلة للطلاب والدارسين من مختلف الأقطار.

1– "زبذة التاريخ"، ج 3 ورقة 96.

2– "العز" ج 7، ص161 – 162.

3 – الرحلة في طلب العلم، والاحتكاك بالعلماء، والاتصال بهم، والتردّد عليهم، والاستزادة من علومهم ومعارفهم في الحواضر الإسلامية الكبيرة.

4– ازدهار فن النسخ والوراقة بمدينة تلمسان، فكثرت بذلك المصنفات والمكتبات، التي كانت تحت تصرف الدارسيين والطلاب بالمدينة.

5 – انتشار التعليم في أواسط المجتمع التلمساني وطبقاته وفئاته، لأنّ التعليم أساس نهضة الشعوب والأمم، فكان بالمدينة نوعان من التعليم: التعليم الصناعي أو الاحترافي، والتعليم الشعبي التطوعي، فكانت هذه العوامل جديرة بتطوير العملية التعليمية، والدورة الفكرية جعلت من تلمسان حاضرة من الجواضر العالية1.

عينات من علماء تلمسان الزيانية

مثّل هذا العصر كمْ هائل من العلماء في مختلف العلوم والآداب والفنون والطب، ونكتفي بعيّنة منهم على سبيل المثال: العالمان الفقيهان القديران الأخوان **ابنا الإمام**، **أبو زيد عبد الرحمان**، و**أبو موسى عيسى**، اللذان قاما بتنقيح بعض المسائل الفقهية من خلال الأصول، وتوضيح ما جاء غامضا فيها، بالرجوع إلى الأسانيد، وقد ناظرا شيخ الإسلام ورائد السلفية آنذاك الإمام "تقي الدين أحمد ابن تيمية"، وتفوقا عليه في بعض المسائل، فأحدثا له مضايقات، وإحراجات أمام طلابه وزملائه، وكانا يديران المدرسة التي سميت باسميهما في تلمسان ويدرسان بها، وقال عنهما أحد العلماء المشارقة "بهما يفتخر المغرب"2.

ونحا منحاهما الإمام العالم **أبو عبد الله محمد المقري التلمساني**، الذي يتحدر من أسرة اشتهرت بالعلم والفقه والتجارة، ويعد من أبرز العلماء الذين أنجبتهم المدرسة المالكية في تلمسان وبلاد المغرب، له تصانيف عديدة زادت عن "15" مصنفا في الفقه والتصوف، وكانت له مشاركة في الجدل والمنطق3.

ومنهم محمد بن إبراهيم الآبلي التلمساني، الذي انكب على الدراسة والتحصيل على يد أبيه، وعلى علماء مدينة تلمسان، فأظهر تفوقا في العلوم المنقولة والمعقولة، خاصة الفلسفة، والتوحيد، وما وراء الطبيعة، وعلم الحساب، وأظهر مقدرة وذكاء في تحصيل علوم الشريعة، وفهم العلوم والمعارف التي درسها، حتى أصبح شيخا من شيوخها، تنقل ما بين المغرب والمشرق والأندلس، ودرس في مساجدها علم الأصول والمنطق، وهي العلوم التي اشتهر بها وبرز فيها.

---

[1]– فيلالي "تلمسان" ج 2، ص 435.

[2]– التبكني "نيل الابتهاج"، ص 166.

[3]– المقري "نفح الطيب" ج 5، ص 284.

انتقد الآبلي بعض التصانيف في عصره، وكذلك انقسام المسلمين، وتعدّد ملوكهم، وتغلب الهوى عليهم، فكان عالما جليلا، شهد له بذلك علماء عصره1.ومنهم العالم الفقيه أبو عبد الله الشريف الحسني التلمساني، درس التصوف، وتلاخيص أرسطو رشد، والحساب، والهندسة والهيئة، والفرائض، فضلا عن الفقه واللغة العربية، وسائر علوم الشريعة، والتحيم والموسيقى والفلاحة وغيرها من العلوم النقلية والعقلية، حتى صار شيخا من شيوخها، تولى ادارة المدرسة اليعقوبية في عهد السلطان أبي حمّو موسى الثاني الزياني.

ومنهم علماء أسرة ابن مرزوق، التي اشتهرت بالعلم، والفلاحة، والتجارة، والتصوّف، وخدمة ضريح القطب أبي مدين شعيب، والخطابة بمسجد العباد، برز منهم العالم الفقيه أبو عبد الله محمد ابن مرزوق، الذي كان له صيت كبير في عدة علوم.

واشتهر من هذه الأسرة، خطيب الخطباء أبو عبد الله محمد بن أحمد بن مرزوق الشهير بالخطيب، درس كتاب "الصحاح" قراءة وسماها، تعلم على يد نحو"250" أستاذا في مختلف الحواضر الإسلامية، جاور بالحجاز نحو "اثني عشرة سنة"، وختم القرآن الكريم داخل الكعبة، والأحياء في المحراب النبوي، اعتلى خطيبا على "48" منبرا، مشرقا ومغربا وأندلسا، ألّف نحو "30" مصنفا في مختلف العلوم والفنون، وتولّى وظائف سامية في بلاد المغرب والديار المصرية2.

ومنهم محمد بن محمد بن أحمد بن مرزوق الشهير بالحفيد، طار صيته في ربوع المغرب، حتى أصبح يلقب برئيس علماء المغرب بدون منازع، بلغ درجة كبيرة في الاجتهاد، وملك ناصية اللغة العربية والبيان، وألمّ بالتصوف وملك مسلكه، ويعدّ آية في تحقيق العلوم، واسع الإطلاع على المنقول، جمع بين الشريعة والحقيقة على أصح طريقة، ألف ما يزيد عن "33" كتابا ورسالة في مختلف العلوم النقلية، جمع بين العلوم الظاهرة والعلوم الباطنة3.

ومنهم الفقيه أبو إسحاق إبراهيم التّنسي، الذي شرّق وغرّب، وحاضر في معظم المدن الإسلامية الكبرى، في المشرق والمغرب، درس الحديث واشتهر فيه، يزدحم حوله الطلاب حتى يمتلئ المسجد والسكك التي حوله في تلمسان و فاس، ترك مؤلفات لكنها لم تصل إلينا، له هيبة كبيرة، وسمعة علمية طيبة في الأقطار التي زارها، وعند الأمراء الذين قابلوه، عرضت عليه مناصب عديدة في المغرب والقاهرة، لكنه رفضها4.

1- "نيل الابتهاج" ص256، و"التعريف بابن خلدون"، ص ص 21-22.

2- ابن مرزوق "المجموع" ورقة 47، و"نفح الطيب" ج5 ص 414.

3- ابن مريم "البستان"، ص 239.

4- ابن مرزوق "المجموع"، ورقة 44.

ومنهم أبو عبد الله محمد بن أحمد بن صعد الأنصاري التلمساني، صاحب المكانة العالية في علم الظاهر، وعلم الباطن، والتاريخ، ذاع صيته في الأقطار المغاربية والمشرقية، قال عنه أحد العلماء الأندلس:

إذا جئت تلمسـان * فقل لصنديدها ابـن صعد

علمك فاق كل علم * ومجدك فـاق كل مجــد

ومنهم أبوعبد الله محمد النجار، الذي اشتهر بعلوم النجامة وأحكامها، ودرس في حواضر عديدة من بلاد المغرب الإسلامي، ثم استقر بتلمسان بعلم غزير، وانكب على تدريسه لطلابه1.

ومنهم محمد بن يوسف السنوسي، صاحب العلوم الظاهرة، والعلوم الباطنة، والتوحيد، والقرءات، والتفسير، والحديث، والمنطق، قام بتفسير القرآن كلّه في مسجده بتلمسان، على طريقة علم الكلام، مطبوعا بطابع عقائدي، قدّم إنتاجا غزيرا في معارف شتى، ولاسيما في العقيدة، "العقيدة الكبرى"، و"العقيدة الوسطى"، و"العقيدة الصغرى".

وحرّر ابن أبي حجلة التلمساني ما يزيد عن "80" كتابا في الحديث والفقه والأدب والتصوف2.

وصنف علي بن تابث بن سعيد التلمساني أكثر من "28" كتابا أغلبها في الفقه، والحديث، والتاريخ، والطب، والعقيدة3.

وألّف محمد بن عبد الكريم المغيلي التلمساني عدة مصنفات في الفقه، وعلم الحديث، واللغة، وقام بشرح العديد من كتب الفقه. ودرس أحمد بن زاغو في المدرسة اليعقوبية التفسير، والحديث، والفقه، والأصول، والعربية، والبيان، والحساب، والفرائض، والهندسة، والتصوّف، وصنف العديد من الكتب في هذه التخصصات. واجتهد العالم سعيد العقباني في التفسير وعلم الفقه والحساب، ودرس في مدن عديدة، كبجاية، ووهران، وسلا، ومراكش، وتولّى منصب قضاء الجماعة في هذه المدن لمدة أربعين سنة، أطلق عليه: "رئيس العلماء والعقلاء"، وتتلمذ عليه طلاب أصبحوا شيوخا بارزين، مثل: ابنه قاسم العقباني، وأبو الفضل ابن الامام، وعبد الرحمان بن خلدون، ويحي بن خلدون، وابن مرزوق الحفيد، وإبراهيم المصمودي، وأبو يحي الشريف، وأبو العباس أحمد بن زاغو، والحافظ التنسي.

ألف وشرح العديد من الكتب في المنطق، وقصيدة ابن ياسمين في الجبر والمقابلة، والعقيدة البرهانية في أصول الدين، ألّف شرحا علي الحوفي، وبرز في هذه الأسرة العديد من العلماء برعوا في العلوم المنقولة والمعقولة وتولوا منصب القضاء كاتبه قاسم، وأحمد بن قاسم، وإبراهيم بن قاسم، وغيرهم4.

1- "التعريف بابن خلدون"، ص 47.

2- التبكني "كفاية النجاح" ج1، ص 187.

3- الحفاوي "تعريف الخلف" ج 2، ص 268.

4- "البستان" ص ص 106-107.

وفي مجال اللغة والأدب برز من التلمسانيين، ابن خطاب، وابن خميس، وابن هدية، ويوسف التغري، والشاعر الطيب التلاليسي1. وفي التاريخ نبغ فيهم: يحي بن خلدون، والحافظ التنسي، وابن الصعد، وابن القطان، والشريسي.

وفي العلوم العقلية بالإضافة إلى من تحدثنا عنهم، برز أحمد التلمساني المعروف بالحباك، وأحمد بن محمد الشهير بابن زاغو التلمساني، وأبو الحسن علي القلصادي، وعبد الواحد الونشريسي، والشريف التلمساني، ومحمد بن إبراهيم الآبلي، وأسرة العقباني، وقد سبقت الإشارة إلى بعضهم2.

وفي التصوف اشتهرت أسرة ابن مرزوق، وأبو محمد المحاصي المعروف بالبكاه، وأبو إسحاق الطيار، وأبو زكريا بن صقيل، وابن صاحب الصلاة، وعبد الله الهواري، ومحمد ابن فرغوس، وهذان الأخيران سميهما رباط الخوزي بمكة المكرمة، لحوارهما به نحو30 سنة، وابن أبي حجلة، الذي كان يدير رباط سعيد السعدان بالقاهرة3.

كانت الدولة الزيانية تشجع دراسة العلوم التي تتلاءم مع مذهبها وسياستها، ولا سيما بعد أن أصبحت تحرك دواليب الاقتصاد، بحيث تحكمت في عجلة العلم والثقافة والتعليم، عن طريق بناء المدارس المساجد والزوايا، وبالأموال التي تقدمها للعلماء والمدرسين والمتعلمين، وتنفقها على المؤسسات التعليمية ودور العبادة، والمجالس العلمية التي تقدم في البلاط الزياني، وكان الزيانيون يشجعون الثقافة الأدبية كالشعر والتاريخ، ويتدخلون أحيانا في منع تدريس بعض العلوم التي تخالف المذهب المالكي، التي يعدونها من العلوم المشوهة4.

وشجع فقهاء تلمسان تعليم النساء، فبرز منهن في الناصر أبي زيد النجار، والسيدة الصالحة عائشة بنت الفقيه سيدي الأكحل، وتعدّ هذه الأخيرة من أبرز المثقفات، ومنهن المرأة الصالحة المتصوفة الشهيرة بالمؤمنة التلمسانية، التي انتقلت إلى فاس للاعتكاف، وقراءة القرآن الكريم، ومجالسة كبار الفقهاء، ومجادلتهم في مسائل فقهية شتى مثل: محمد المقري، والخطيب ابن قفذ القسنطيني، والشريف التلمساني، ومنهن عائشة بنت الفقيه ابن الحسن المديوني، التي ألّفت مجموعا في الأدعية والأشعار، وكانت لها موهبة تعبير الرؤيا، وذلك لكثرة مطالعتها لعلوم كثيرة، ومنهن أمّ الفتح المدعوة بفتحون الصالحة، كانت مستجابة الدعاء، زاهدة في الدّنيا عاكفة على العبادة والوعظ، وهي أمّ الفقيه أبي إسحاق5.

1– "المجموع" ورقة 4–8، "وبغية الرواد"، ج1 ص 62.

2– ابن خلدون، "المقدمة" ص897، و القلصادي "الرحلة" ص 102.

3– التاغيلي "التشوف" ص ص 436–437.

4– عبد العزيز فيلالي "تلمسان" ج1، ص 355.

5– التنسي "نظم الدر"، ص 132، و"المجموع" ورقة 14–17، وأنس "الفقير"، ص 81، "وبغية الرواد"، ج1 ص 40.

ومن الأطبّاء الذين اشتهروا في مدينة تلمسان للعلاج وصناعة الأدوية والتدريس فيه، أبو القاسم محمد الحكيم التلمساني، جمع بين الفقه والخطابة والطب، كان طبيبا خاصا للعاهل التلمساني أبي تاشفين الأوّل، وأبو عبد الله محمد بن أبي جمعة التلمساني، من أهل تلمسان، كان جراحا ممتازا، وطبيبا محترفا، اختاره أبو حمّو موسى الثاني للبلاط، مزج بين الطب والشعر، له قصائد كثرة في المولديات.

وبرز محمد بن علي ابن فشوش في مزاولة مهنة الطب بكفاءة عالية، وكان يدرس هذا العلم بمدارس تلمسان، تعلم عليه الرحالة المصري عبد الباسط بن خليل، وحضر دروسه، ونقل عنه أشياء مفيدة، وأجازة في علم الطب1.

تميز المجتمع التلمساني في هذه الحقبة من الزمن، بالتضامن الاجتماعي والتكافل والتازر، ولاسيما عندما تحل به سنوات المحن، كالحروب، والحضارات المدمرة، والظواهر الطبيعية القاسية، وكان في مقدمة المتضامين والمحسنين طليعة أهل تلمسان ونحيتها، كالفقهاء، والعلماء والمتصوفة والبيونات الميسورة، بل حتى طبقة الحكام لا تتأخّر في فتح أهراء الدولة ومطاميرها، أمام الضعفاء والمعوزين المتضررين، فصارت للتلمسانيين خبرة طويلة، وعادة حسنة ومهارة كبيرة في مجال التضامن، علمتهم ظروف الحرب، ومقاومة الغزاة والتصدي للمحنات، والحصارات لسنوات عديدة، ودربتهم كيف يتعاملون مع الشدائد، بروح عالية وعزيمة قوية، كما حدث لهم في الحصار الطويل الذي دام تسع سنوات في نهاية القرن(8م)، فكانوا يعيدون التّعمير، ويبنون ويشيّدون ويرمّمون ما أفسدته الحرب، في وقت قياسي، ثمّ يعودون بعدها للحياة الطبيعية(32).

وكذلك كانت لأهل تلمسان مواقف تضامنية مشرفة في استقبال إخوانهم المسلمين المطرودين والفارين من الأندلس، تحت ضربات النصارى.

وكانت الدولة الزيانية لا تبخل عن أهل غرناطة ودولتهم بالمساعادات الاقتصادية، وبالمتطوعين المجاهدين للذود عنهم، وعلى ما تبقى من دار الإسلام، للعلاقة الطيبة المتميزة بين بني زيان وبني الأحمر2. دخلت مدينة تلمسان في نهاية العهد الزياني في فوضى من العنف، وفي موجة، من الفتن الداخلية، والحرب الأهلية، تحركها أطماع الأمراء المغامرين، للاستيلاء على العرش بالقوة، لدرجة أنّهم لم يتورعوا عن الاستنجاد بالقوة الخارجية، كالإسبان والأتراك والإشراف السعديين، وهو الأمر الذي زاد في تنافس الأجانب للاستيلاء على مدينة تلمسان، وتنصيب المولين لهم أمراء بني زيان.

ظلت عاصمة بني زيان على هذه الحال عدة سنوات، من الحرب الأهلية بمساعدة أجنبية، أكلت الأخضر واليابس، إلى أن أجمع علماء تلمسان، وجهاء القوم فيها على وضع حد لهذه الفوضى، والحرب

---

[1]– عبد الباسط"الروض"، ص 44، و"نفح الطيب"ج5 ص، 243.

[2]– "البستان"، ص126–176.

الأهلية،بدعوة صالح رايس (حاكم دولة الجزائر) للتدخل لحماية أهلهم ومدينتهم، فأنهى بذلك دولة الزيانيين سنة 962هـ/1552م، وألحق تلمسان بدولة الجزائر الحديثة1.

هجرة العلماء: كانت هذه الحرب سببا في الهجرة الجماعية لعلماء تلمسان ووجهاتها، ومن لم يرض بحكم العثمانيين، فبدأت هجرة كبيرة نحو مدينة "فاس"، بعد فشل الحملة السعدية على تلمسان، إذ رافق السلطان السعدي عند عودته إلى بلاده خيرة العلماء ورجال التصوف، وبعدها بعشر سنوات قامت هجرة جماعية أخرى في 1560م على إثر حملة عثمانية على مدينة حملة عثمانية على مدينة تلمسان، لأنّ العلماء انقسموا على أنفسهم بين مؤيد للعثمانين ومعارض لوجودهم، ومن بين الذين رفضوا الوجود العثماني، ووقفوا موقفا متشددا ضده العالم القدير أحمد العبادي التلمساني.

ووقعت هجرة أخرى بعد تنصيب باي الغرب، لأنّ العثمانيين كثفوا المراقبة، وشددوها على العلماء ورجال التصوف بتلمسان، فهرب العديد منهم إلى عواصم العلم ومقاصد الحكمة2.

وهاجر بعض علماء مغراوة التلمسانيين إلى مدينة "فاس" بدخول الإسبان لمدينة وهران، فكان منهم قاضي القدير، ومفتي الدّيار، وخطيب الجامع الأعظم، أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمان المغراوي (658هـ/1551م)، فاستقبله السعديون استقبال العلماء، وقلدوه وظائف هامة، منها رئاسة الإفتاء والتدريس والخطابة بجامع الأندلس بفاس، ثم بجامع القرويين، فكان مرجعا أساسيا للإفتتاء، تميز بمقام رفيع في المنطق والعقائد والبيان والفقه والحديث والتفسير3.

ومن الذين فروا من حكم العثمانيين إلى مدينة فاس، الفقيه الحسن بن عبد الواحد الأنصاري التلمساني، المعروف بنبوغه في الرواية والمحفوظات. ومنهم محمد بن أحمد التلمساني، المدعو ابن الوقاد، تولّى القضاء والخطابة في عدة مناطق من المغرب الأقصى، في الريف، وسلجماسة، ومكناسة الزيتون، وكان السلطان السعدي يقول عنه لغزارة علمه: "ليس عندنا أخطب من ابن الوقاد"، توفي في مطلع القرن 11هـ/17م4.

وزادت الهجرة من مدينة تلمسان خاصة في عهد الباي حسن باشا، الذي أكثر من مضايقة العلماء، والتدخل في شؤونهم، ففر العديد منهم بجلودهم، وبحرية أفكارهم وفتاويهم، نحو الحواضر الإسلامية الأخرى، وكان من بينهم "ابن تكوك"، الذي هاجر في ظل هذه الظّروف، ثم عاد إلى الجزائر، وقام بنشر

[1] – أحمد توفيق المدني "حرب الثلاثمائة سنة"، ص ص 248–249.

[2] – كمال الفيلالي"الهجرة والرحلة"، ص 21.

[3]– نفسه ص 22 –25–26.

[4]– نفسه ص 22 –25–26.

الطريقة السنوسية بها، لأنّه كان من مريدي الشيخ محمد بن علي السنوسي، فأسس بالجزائر معهدا، ظل أبناؤه من بعده يتوارثون ويتناوبون على إدارة المعهد1.

بعض علماء تلمسان في العهد العثماني

لقد ألّم بعلماء مدينة تلمسان وفقهائها، في عهد المرحلة، محن متوالية، ومراقبة، وضغط من قبل بعض البايات، إلا أنّ كثيرا منهم ظلوا مقيمين في مدينتهم، للمحافظة على الموروث الثقافي، والتراث الحضاري، الذي تركه الآباء والأجداد، لقد اتسمت هذه الحقيقة بالانحطاط، والاضمحلال الثقافي، الذي بدأ يدب في مفاصل العصر وشرايينه، من الناحية السياسية، والاجتماعية، والفكرية، شأنها شأن الحواضر الإسلامية الأخرى، فاعتمد أهل تلمسان على التقليد، والتنقيد، والتكرار، والحفظ، وهو الإنتاج الذي غلب على هذا العصر، المتمثل في العلوم الشرعية، والأدبية، والتاريخ، والتصوف، فقد سيطرت هذه العلوم على الحياة الفكرية في تلمسان خاصة والجزائر على وجه العموم، لأنّ الاجتهاد والإبداع قلّ نجمه، فأصبحت تصانيف هذا العهد مرآة لعصرها، خالية من التجديد والإبداع الذي اتسم به عهد السلف، وعلى الرغم من الوضعية العامة التي شهدتها المنطقة فقد نبغ في تلمسان رجال كانوا سبب في إبقاء تراث الأسلاف والمحافظة عليه.

اشتهر من بينهم ابن لؤلؤ التلمساني، خطيب الجامع الأعظم بتلمسان، ختم فيه القرآن الكريم، ويعد من الأدباء التلمسانيين المتأخرين، وكان ساخطا على الحكم العثماني2.

ومنهم أحمد الفيلالي التلمساني، الذي اشتهر بالرواية وبكتابة التاريخ، ألّف مصنفا، ضمنه أحداث المعارك التي دارت بين الباي مصطفى بوالشلاغم، والإسبان في مدينة وهران، واسترجاع الباي هذه المدينة إلى نفوذه وتحريرها من سيطرتهم سنة 1014هـ/1605م3.

ومنهم محمد بن أحمد الشريف المعروف بابن مريم التلمساني، صاحب كتاب "البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان"، احترف التعليم، واشتغل بالتأليف، فصنف ما يزيد عن اثني عشر كتابا، تناولت العقائد والأذكار، والحديث، والتاريخ، وحكايات الصالحين، ممّا يدل على ميل ابن مريم إلى الزهد، والاعتقاد بالأولياء الصالحين وكراماتهم كما هو مبين في كتابه البستان4.

ومن أسرة المقري المتأخرين، الذين عاشوا في هذه الحقبة، الشيخ سعيد بن أحمد المقري، أمام العلوم العقلية كالحساب، والفرائض، والمنطق، والهندسة، والطب، والتشريح، والفلاحة، وأمور البناء والعلوم

---

[1]- نفسه، ص 22 -25-26.

[2]- أبو القاسم سعد الله "تاريخ الجزائر الثقافي"، ج2، ص13-14.

[3]- أبو القاسم سعد الله "تاريخ الجزائر الثقافي" ج2، ص 22.

[4]- "البستان" ص 2.

الثقيلة كالحديث، والتوحيد، والفقه، واللغة والشعر، والأمثال، وأخبار الناس ومذاهبهم، وأيام العرب، وسيرهم، وسير الصالحين، والأولياء، ومذاهب الصوفية، مارس التدريس للطلاب بمدينة تلمسان في أغلب هذه المواد[1].

ومنها أبو العباس أحمد المقري الملقب بشهاب الدين، درس بتلمسان، وفاس، ومراكش، حيث التقى بالعلماء والفقهاء، وأخذ عنهم العلوم الدينية واللغوية والأدبية، تولّى خطة الإمامة، والخطابة، والفتوى والتدريس بفاس ومراكش، وكان مغرما بالرحلة في طلب العلم، حيث سافر إلى القاهرة، ومنها إلى الحجاز لأداء فريضة الحج، وزيارة الأماكن المقدسة، ثم عاد إلى القاهرة، فأقام وتزوج بها، اشتغل بالتّدريس بالجامع الأزهر، وبالحرم المكي والنبوي، والمسجد الأقصى، وبالجامع الأموي، ومدرسة الحقمقبة بدمشق، وله عدة مؤلفات زادت عن 12 مصنفا، منها "نفح الطيب"، و"أزهار الرياض"، و"روض الآس"، وغيرها[2].

ومنهم محمد المنور التلمساني، المشهور بالتدريس علم الحديث، الذي برز فيه، وكان لمحمد ابن لوريث العبادي التلمساني، وتلميذه أحمد ابن ثابت مقام رفيع في تدريس علم القراءات، واشتهر أحمد العبادي التلمساني بحفظه للتاريخ، وفنون السير والتراجم، وكان سعيد االمنداسي التلمساني شاعرا ممقوها، تعرض في شعره للعثمانيين وسياستهم بالهجاء والذم[3].

ومنهم المتصوف عبد الله عزوز التلمساني، صاحب التقييد المشهور في علم التصوف، جمع فيه بين الشريعة والطريقة والحقيقة، وهو من أنصار الجمع بين العلم الظاهر(الفقه)، وعلم الباطن (التصوف)[4].

وبرز أحمد ابن زاغو من أسرة زاغو التلمسانية، الشهيرة بالفقه والفتوى على المذهب المالكي، فكان مفتي الديار التلمسانية في عصره بدون منازع[5].

وكان العلماء المدرسون يلقون دروسهم في المساجد والمدارس والزوايا بالمدينة، وهي كثيرة، فكانت لكل طريقة زاويتها، واشتهرت المساجد والمدارس بالطابع المعماري الممزوج بالفن المغربي الأندلسي الأصيل، ولاسيما منها مسجد سيدي بومدين، وزاويته، ومدرسته، وضريحه بالعبّاد، ومسجد سيدي الحلوي، وزاوية بالركن الشمالي للمدينة، ومسجد أبي الحسن التحفة الناذرة، والجامع الكبير، وجامع

---

[1]– "نفح الطيب" ج1، ص 556، وج5، ص 13-14.

[2]– نفسه، ج5، ص284، ويحي بوعزيز "مدينة تلمسان"، ص 252-261.

[3]– أبو القاسم سعد الله "المرجع السابق"ج 2، ص 180-181.

[4]– "أبو القاسم سعد الله" نفسه ج2، ص 221.

[5]– "أبو القاسم سعد الله" ج2، ص 275.

المشور، ومسجد سيدي يدون، ولالّة الغربية، ولالّة الروية، ومسجد ريغ، ومسجد سيدي بوجمعة، وغيرها من المساجد التلمساني آنذاك[1].

أمّا أضرحة الفقهاء والأولياء الصالحين فهي كثيرة، ومتعددة بكثرة أصحابها في الزوايا، وفي الروضات، ومنهم من دفن قرب أبواب المدينة، لأنّ الناس كانوا يعتقدون بأنّ الشيخ الولي الصالح يقوم بحماية المدينة من الغزاة والشرور، ومن بين هذه الأضرحة ضريح أبي يعقوب يوسف التفريسي باب وهب، وضريح أبي يوسف يعقوب الصنهاجي باب الجياد، وضريح ابن صاحب الصلاة باب العقبة، ودفن العالم الصالح أبو سعيد الشريف الحسني شرق باب القرمادين، ودفن الشيخ الصالح أبو عبد الله الشوذي –المعروف بالحلوي- خارج باب علي، والشيخ أبو جمعة الكواشي بالقرب من باب كشوط[2].

وصفوة القول لقد عرفنا كيف اشتهر مدينة تلمسان بوفرة علماء، والكاتيب، والمساجد، والمدارس، والمكتبات، خلال العهد العثماني، وأنّ التعليم بها كان حرا وخاصا، وجزءا أساسيا من حياة الناس، يكاد يكون مجانيا وإخباريا، قبل أن تقوم الدولة الفرنسية بتشريعه وتقنينه لأبناءها في سنة 1873م، وأنّ الأمية تكاد هي الأخرى تخلو من أهل تلمسان ومن الجزائر عامة آنذاك. فكانت تلمسان تحتضن ما يؤيد عن 50 مدرسة في أواخر العهد العثماني، ومدرستين للتعليم الثانوي والعالي، وعدة مساجد.

لقد وجد الفرنسيون المدارس والجوامع قائمة، وعامرة بالطلبة، والمدرسين عند احتلالهم للمدينة، فاندهشوا لوفرة هذه المؤسسات التربوية، وكثرة المعلمين والمتعلمين والمكتبات، وتعجبوا من نظام الأوقاف ومؤسساته، وضخامة مداخليه، في المدن وفي القرى وفي البوادي أيضا[3]، فكانت هذه المؤسسات كلّها تقوم بنشر الثقافة الإسلامية، وتبليغها للصغار والكبار بإستمرار، إلا أنّ الجدير بالذكر هو أنّ التعليم وطريقته وأساليبه في هذه المرحلة كان تقليديا لم يواكب العصر وإصلاحاته، ولم يتطور مع الزمن، ولعلّ ذلك يعود إلى ظروف الإنحطاط والركود، الذي داهم العالم الإسلامي حينذاك.

4 - تلمسان في العهد العثماني

بدأت طلائع "الأخوة بربروس" **عروج** و **خير الدين** و **إسحاق**، وصلوا إلى الحوض الغربي للمتوسط منذ القرن الرابع عشر ولكن تدخل أوائل العثمانيين في الجزائر، كان استجابة لطلب الجزائريين، لمشاركتهم في الدفاع عن بلادهم من الإحتلال الإسباني.

وكان أوّل ما وقع تحت سيطرتهم مدينتي جيجل ثم الجزائر لينطلقوا بعدها نحو مدينة تنس التي كانت تحت راية الزيانيين في صيف 923/1517م وتقدم **بابا عروج** إلى تلمسان، حيث كان السلطان الزياني

[1] – w. marcais. G. marcais : les monuments arabes de Tlemcen.paris 1903. p358.

[2] – "المجموع ورقات" صصص17-19-27.

[3] – "أبو القاسم سعد الله" مرجع سابق، ج3، ص248-264.

أبو حمو الثالث قد اغتصب الملك من ابن أخيه **أبي زيان** وأودعه السجن، فتلقى دعوة من بعض أعيان تلمسان لإعادة أبي زيان[1] إلى الملك وانتصر بابا عروج عليه، ففر السلطان الزياني إلي فاس ثم إلى وهران، ومن هذه الأخيرة توجه إلى بلاط ملك إسبانيا **شارل الأول،** لطلب عونه.

ودخل **عروج تلمسان** في رمضان 923/ سبتمبر 1517م، واستحوذ على الملك فيها، وقتل **أبا زيان** بعد أن أعاد له الملك فترة من الزمن وكذلك كل أفراد الأسرة المالكة إلا من فر منهم، والمتعاطفين معهم من التلمسانيين ثم جد في توطيد سلطته في المدينة وتحصينها وقام بتحالف دفاعي وهجومي بينه وبين سلطان فاس، ليستقر **بابا عروج** في المدينة.

جاء رد فعل الإسبان سريعا، بمحاصرة بابا عروج[2] في تلمسان، وبعد أن طال انتظاره لوصول المدد من حليفه السلطان **الوطاسي** حاول الفرار في اتجاه الغرب مع القليل من الأتراك الذين بقوا ولكن سرعان ما تمكن الإسبان وبعد معركة عنيفة من القضاء عليه وعلى رفاقه في ماي م1518 في **بني زناسن،** وأعاد الإسبان الملك إلى **أبي حمو الثالث** الذي قبل أن يدفع ضريبة سنوية لهم مقدارها 12000 دوكاتو زائد 12 من الخيل و6 من إناث الصقور.

وبمقتل بابا عروج وأخيه **إسحاق** في تنس والقوات التي كانت معهما، كاد أن ينتهي الحكم العثماني في الجزائر لولا نهوض خير الدين بربروس بالحكم في الجزائر وبدأ توسيع سلطته شيئا فشيئا إلى أن قضى نهائيا على نفوذ الزياني واستولى صالح رئيس (باشا الجزائر) على تلمسان بإسم الأتراك العثمانيين عام 963هـ/1555م.

أمّا في ما يخص النسيج العمراني والتركيبة السكانية لتلمسان فبعدما عرفت تلمسان قبل دخول الأتراك أوجها في العمران والتمدن وبدخولهم إلى الجزائر خسرت تلمسان نهائيا دورها الريادي في المغرب الأوسط وأصبحت تتبع غيرها من المدن كمازونة ثم وهران.

كما ظهر في تلمسان عنصر جديد جاء كنتيجة لتزاوج الأتراك مع السكان المحليين لما سيعرف بالعنصر الكولوغولي أو القراعلة والذين أصبحوا سادة للمدينة على حساب بقية مركبات المجتمع من البربر والعرب الأندلسيين.

وسيستقر الوافدين الجدد في المكان الذي بقي حتى الآن فراغا بمنطقة الجنوب الغربي، أي في حي باب الحديد، وهو الحدث المهم والوحيد في التطور العمراني لهته المدينة أثناء الحكم العثماني.

[1] – التنسي كتاب "نظم الدر والعقبان" ص 145 ألفه حوالي سنة 860 هـ.

[2] – عبد الحميد بن أشنهو كتاب "مآثر تلمسان" (الأيام الأخيرة لملوك بني زيان واستشهاد عرّوج) ص 75.

وبسيطرتهم على تلمسان سنة 1555 دق آخر مسمار في نعش المدينة القديمة، كما كانت هذه بداية عهد جديد لم يكن بالأفضل في تاريخها بما أنّها لم تعد سوى مكان لتمركز القوات العسكرية ومكانا لجمع الإتاوات والضرائب من السكان.

ممّا أدى بإنحطاطها وتدهور حالتها، حتى دفع البعض منهم إلى هجرتها هربا من وحشية الوافد الجديد، حتى وصل عدد سكانها سنة 1842م إلى أقل من 5000 نسمة.

وبعد أن حرمت من لقبها كعاصمة، لم يشفع لتلمسان ماضيها التليد أن ترقى حتى لمقر لبايلك من بيالك السلطة العثمانية، وفضل الأتراك مراكز أقل أهمية منها كمازونة ثم معسكر وأخيرا وهران، لتخسر تلمسان نهائيا وبلا رجعة مع الأتراك سيطرتها السياسية من ثمة الإقتصادية.

وخلال قرون التدهور والإنحطاط شهدت هته المدينة تراجع عدد حرفييها وصناعها الذين كانوا يمثلون مفخرة وزهو المنطقة، فذهبت العديد من التقنيات التي كانت إلى وقت قريب محل إعجاب وفخر كـ:السكة (ضرب النقود) الصناعات اليدوية، ونحت على الخشب والسيراميك، والتطريز، والمجوهرات، والمفروشات، والجلود، صناعة السروج، ولم ينجو من هته الصناعات سوى النسيج، ومع ذلك خسر الكثير من النوعية والإتقان التي لم تعد كما كانت في الماضي.

أمّا التعمير فلم يكن ذا أهمية عند مسؤوليها ما عدا منطقة في الشمال الغربي التي لم يتم تعميرها من قبل والمعروفة **بتافراتة**، نسبة لقبيلة تافرانت الزناتية وكان يتمثل دور هته المنطقة خلال الأزمنة الغابرة كمستقر للبدو المتحالفين مع **تلمسان** في الأيام الصعبة مثل الحروب مثلا، كما استعمل **أبو حمو موسى الأول**1307م/1317م جزءا منها كمخزن للغذاء (مطمورة) تحسبا لأي حصار قادم، كما استغلت في السنوات الرطبة لزراعة القمح.

5- تلمسان في عهد الإستعمار الفرنسي

بدأ الوجود الفعلي للإستعمار الفرنسي بتلمسان سنة 1834 م/1836م حيث اتصل أعيان من تلمسان مع السلطان المغربي لتحتمي به[1] . ثم تكرس هذا الوجود خلال فترة المقاومة 1837م/ 1842م والتي انتهت بموجب معاهدة تافنة (1837م) بين **الأمير عبد القادر** والمحتل الفرنسي.

و حسم الأمر بتكريس الإحتلال الفرنسي نهائيا سنة1842م /1962م، فأكدت الهندسة العسكرية الفرنسية وجود المؤسسة العسكرية في 1852م في محيط تافراتة و المناطق المجاورة لها والتي تقع في الشمال الغربي. أقام **الأمير عبد القادر** في مدينة **تلمسان** فترة غير قصيرة خلال مقاومته للإستعمار، حيث اضطر إلى "الهرب" إليها، والتحصن بقلعة المشور، وفي عهد كانت منطقة تلمسان من أكبر

[1]– أحمد بن هطال "تلمسان"، تحقيق محمد بن عبد الكريم ص 18 – 19.

المناطق السياسية والعسكرية، وقد عين عليها خليفته **مصطفى بن التهامي** على رأس مسؤولين آخرين[1]، وهذا خصوصا بعد تقلص الثورة نحو الهضاب العليا في مطلع الأربعينات من القرن التاسع عشر، وكانت سياسة أميره على المنطقة سبب في خروج قبائل بني عامر عليه وذلك لما جار في حكمه وتعسفهم وخفض رتبة أكابرهم وصناديدهم، فركّب ونزّل وولىّ وعزل ورفعوا به الشكوى إلى الأمير فلم يستجب لهم.

فإجتمع أكابرهم ورؤساؤهم على تأمير رجل اسمه **بوشيخي** يقال له "محمد بن عبد الله" فأمَّروه عليهم بواسطة أكابر الدوائر وصاروا يتحاكمون عنده، وكان بليد الطبع لا يحسن الحكم ليدخلوا بعدها المغرب[2]، وقد تعرّض الأمير للوشاية التي جعلته يخسر ألفا (1000) من جنوده خلال معركة السكّاك.

ما زالت تلمسان تحتفظ بسهم من سهامه الذي أطلقه على أحد جند العدو فإستقر في أعلى جدار في أحد أحياء المدينة القديمة كتذكار. في بادئ الأمر اهتمام السلطات الفرنسية بالجانب العسكري (1842م-1851م) كان دفاعيا مما جعلها تحوّل جزءا من القصر الملكي (المشور) إلى ثكنة، كما تم البدء في بناء ثكنة غرمالة والتي احتلت ثلث المدينة، كما أنشأت ثكنة مصطفى في بيت عربي قديم وحديقة.

الإهتمام العسكري للسلطات بدأ يخفّ وكتأثير لذلك بدأ المستعمر في رسم الشوارع الواسعة كشارع سيدي بلعباس (شارع أول نوفمبر) شارع فرنسا (شارع الإستقلال) و شارع باريس (شارع تيجاني دمرجي) ووفقا لخطة إعادة التهيئة العمرانية المقررة في 1845م، قامت السلطات الإستعمارية باختيار سياسة التهديم والإخلاء في 1887م عن طريق خلق ساحتي الفندق والمسجد. ومنطقة تفراتة الغير معمرة ساعدت السلطات الفرنسية لإنشاء نواة للمدينة أوروبية دون مصادرة أو تطبيق نظام الحدود كما هو الحال في الأراضي المستغلة سابقا.

وهكذا في 1860م افتتح الشارع الوطني (شارع العقيد لطفي) بعرض 33م، قام بتهيئة الحي الأوروبي (الدرك، الدائرة، الكنيسة والمحكمة، بناء ساحات في مركز المدينة دفع بتدمير المدرسة التاشفينية (1872م)، والمدرسة اليعقوبية وإغلاق المدرسة أولاد الإمام في عام 1904م، ودمر الإستعمار سوق القيصرية لبناء السوق المغطاة). بعد 1920م أخذ التعمير بعدا جديدا بالبناء ما وراء الأسوار، وإنشاء حي بوسيجور، بيل إير على الطريق المؤدي إلى منصورة و سيدي شاكر عند سفح الهضبة لالة ستي، ومواصلة القلعة، أيضا في فترة الإستعمار الفرنسي لتلمسان ارتفع عدد السكان من 5.000 نسمة في 1842م إلى 73.000 نسمة في عام 1954م و82.500 نسمة في عام 1960م، وخلال هذه الفترة كذلك، خسرت تلمسان مكانتها أمام وهران.

---

[1]– توفيق المدني "كتاب الجزائر" ص 50 – 54، نفس المصدر " الحركة الوطنية الجزائرية " ص 146 – 147.

[2]– أبو حامد العربي المشرقي "ذخيرة الأواخر و الأول فيما ينتظم من أخبار الدول".

إنشاء السكة الحديدية من المحمدية إلى بشار ضيع لتلمسان دورها السابق كصلة بين الشمال والجنوب، ومن آثارها تدهور الصناعات التقليدية من أصل 152في عام 1958م ،000م2 المنتج من السجاد في الغرب الجزائري تم انسج ما لا يقل عن 108،000 م2 في تلمسان وحدها، كما سيحدد دور تلمسان في المجال الزراعي، كما تم إنشاء شبكة من التعاونيات والبنوك المنظمة، وجدير بالذكر أنه في عام 1900، و40 من معالم والمواقع الأثرية بتلمسان صنفت تراثا وطنيا1.

الثقافة الإسلامية في عهد الإحتلال الفرنسي

لقد احتلت فرنسا الجزائر بقوة السلاح والأرض المحروقة، وهيمنت على مقدرات البلاد، وفرضت سيادتها على الذهب والأرض، مدّعية أنّها جاءت برسالة حضارية لتنوير السكان، وتثقيفهم، وتحريرهم من الأتراك، وكان همّها الوحيد هو تكريس الإحتلال بشتّى الطرق والوسائل، فقد أخذت عملية الاحتلال من جهد الفرنسيين ووقتهم ما يزيد عن سبعين سنة، للسيطرة على كامل التراب الوطني.

لم تخضع مدينة تلمسان إلى الاحتلال الفرنسي إلاّ في سنة 1842م، ولعلّ ذلك يرجع إلى المقاومة العنيدة التي خاضها التلمسانيون مع الأمير عبد القادر في حزبه ضد العدوان الفرنسي، وقد أشاد الأمير بمقاومتهم إليه، والاعتراف به وبدولته، فجعل مقاطعة تلمسان من بين ثماني مقاطعات إدارية تابعة له، وقام بتشييد مصنع فيها لصناعة المدافع والجوخ (الملّف)، وصناعة البارود، وشوهد بعض هذه المدافع التي صنعت في تلمسان سنة 1839م في معارض باريس2.

تعرضت مدينة تلمسان إلى التدمير، وتعرض أهلها للقتل والتشريد، والفرار من نار الاستعمار إلى الأقطار المجاورة، وإلى الجبال للاحتماء بكهوفها وأدغالها، فاستولى العدوعلى ديارهم وممتلكاتهم، ووضع يده على المساجد والمدارس، والزوايا، فهدّم بعضها، وحوّل بعضها إلى مؤسسات فرنسية، وأصيبت حركة التعليم بالشلل، وتعرضت المكتبات إلى النهب والتخريب خلال هذه المقاومة.

وبالرغم من هذه الظروف التي ألّمت بالمجتمع التلمساني والجزائر عامة، فقد أخذ بتكيف مع الأوضاع بعد قرن من الاحتلال بطريقته المعهودة في النضال والمقاومة، ورفض الأجنبي الدخيل للحفاظ على الهوية، فركن للنضال السياسي والثقافي، وتمسك بالتعليم العربي الإسلامي في المدارس القرآنية الحرّة، وفي المساجد والزواية القائمة آنذاك، خاصة تلك التي كانت بعيدة عن عيون الإدارة الفرنسية، فصار هذا التعليم شكلا من أشكال المقاومة والتحدي، وكانت الدروس العامة، في الفقه، والتوحيد، التصوف، وهي المواد المسموح بتدريسها في الجامع الكبير، ومسجد سيدي بومدين، ومسجد سيدي محمد السنوسي، وكان يقوم بها كل من الشيخ محمد بن الزقاي، والشيخ بوثلجة، وأبي بكر شعيب بن علي، وعبد السلام

[1]– أبو حامد العربي المشرقي "ذخيرة الأواخر و الأول فيما ينتظم من أخبار الدول".

[2]– محمد بن عمرو طمار "تلمسان عبر العصور"، ص 254.

بن شعيب –خريجا المدرسة المزدوجة– وبوعلي الغوتي، وعبد الرحمان رستان، فضلا عن شيوخ الزوايا والمدارس القرآنية الأخرى.

شهدت مدينة تلمسان في الثلاثينيات من القرن العشرين ثورة ثقافية، ونهضة دينية واجتماعية ورياضية وفنية، بإنشاء عدة مرافق حيوية في المدينة مثل: نادي الشبيبة، ونادي السعادة، حيث كانت تقام المحاضرات العلمية، والمقترحات الفكرية والمسجلات الشعرية والمناقشات السياسية، والحفلات الموسيقية، كما أنشأ أهل تلمسان مكتبة لتشجيع الكتاب، ومطبعة ابن خلدون، والحركة الكشفية لتدريب النشئ، وتهذيبه وفرقا مسرحية لمعالجة المجتمع التلمساني وظواهره1.

ابن باديس وتلمسان

قام الإمام ابن باديس وإخوانه من العلماء بتأسيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، يوم 17 ذي الحجة 1349هـ(05-05-1931م) بالجزائر العاصمة، كره فعل مباشر على التحدّي الذي مثلته الإحتفالات بالذكرى المئوية للاحتلال، فجاءت جمعية العلماء بمشروع نهضوي لإحياء الدّين واللغة العربية. وقد حظيت مدينة تلمسان باهتمام رئيس الجمعية الإمام ابن باديس وعتابته الخاصة، لما تتميز به من تاريخ وحضارة وتراث، ولما قدمته للثّقافة الإسلامية واللغة العربية، ولتثبيث أهلها بدينهم ولغتهم، ولمكانتها في نفسه كما عبر عن ذلك2.

اختار ابن باديس لتلمسان شخصية علمية مرموقة هوالإمام الابراهيمي، نائبه في جمعية العلماء، لغزارة علمه، وفصاحة لسانه، وسداد رأيه، وقوة حججه، وضجاعته في مواقفه.

كان الإمام الإبراهيمي في غرب الجزائر يقوم بحركة واسعة النطاق، وكانت دروسه يؤمها الأتباع والمحبون، فانفتحت بذلك أذهان التلمسانيين لمبادئ الجمعية وأهدافها، فاندفعوا إلى الرجوع إلى الأصول والثقافة الإسلامية الصحيحة.

كما عمل الإمام الابراهيمي على إصلاح ذات البين بين سكان المدينة، لتوحيد الجهود وتدعيم الصف ضدّ الاستعمار، الذي كان يشجع الفرقة والخلاف.

تفاعل أهل تلمسان مع مشروع الجمعية الاجتماعي والثقافي والديني، وهو الأمر الذي آثار حفيظة الاستعمار وأذنابه ضد الجمعية، والعمل على إفشال مشروعها، لكن بفضل النخبة النيرة التلمسانية، ووجهاء المدينة الوطنيين تغلبت الجمعية على الصعاب، فتغلغلت في الأوساط التلمسانية.

[1]– أحمد طالبي الإبراهيمي "مذكرات جزائري"، ج1، ص: 24.

[2]– عبد الحميد ابن باديس "نصوص تاريخية حول المغرب العربي"، تقديم "عبد العزيز فيلالي"، ص 5.

ولم يتأخّر التلمسانيون في السعي لبناء مدرسة حرة، تكون منارة علمية وفكرية إسلامية، وحصنا للّغة العربية في مدينتهم، فجمعوا التبرعات بقيادة الإمام الإبراهيمي وأسّسوا مدرسة حملية أطلق عليها اسم "دار الحديث" تيمنا بدار الحديث الأشرقية بدمشق.

كانت هذه المدرسة فريدة من نوعيها، وليس لها نظير في القطر الجزائري آنذاك، شيّدت على نمط معماري مميز، وطراز هندسي تلمساني أصيل، فجاءت تحفة فنية رائعة، تعيد للأذهان مجد تلمسان وحضارتها الإسلامية العريقة، وهي عبارة عن مجمع ديني تربوي ثقافي، تضم قاعة للصلاة في الطابق الأرضي، وقاعة للمحضارات في الطابق الأول، وقاعات للتدريس في الطابق الثاني، ومرافق أخرى.

إفتتاح مدرسة دار الحديث

لعلّ أحسن احتفال شهدته الجزائر وأروعه، هو الاحتفال بفتح هذه المدرسة بتلمسان يوم 22 رجب 1356هـ(27 سبتمبر 1937م)، فكان الاحتفال جميلا في مظهره، ولطيفا في أسلوبه، وبديعا في مناسبته، ودقيقا في تنظيمه، وفي علوّ الطبقة التي شاركت فيه، وشاهدت مراسيمه، وتكلمت فيه، من العلماء، ورجال السياسة والشعراء، وأهل الفكر، وصفته درائد ذلك الوقت وصفا دقيقا، واهتمت به اهتماما كبيرا، وحدّد له تلمسانيون الإمكانيات المادية والمعنوية الضخمة، رغم مضايقات الإدارة الفرنسية واستفزازات المخارات وتهديدات رجالها1.

وقد اختارت الجمعية الدينية لمدرسة "دار الحديث " أن تدوم الاحتفالات يومين كاملين، (27-28 سبتمبر)، وتزامن الاحتفال مع نهاية عقد مؤتمر جمعية العلماء المسلمين في الجزائر العاصمة لتحديد إدارتها، وكان الإمام الإبراهيمي قد بشر المؤتمرين بهذا الحدث الهّام، وتحديد يوم التدشين، وأخبرهم بطموح أهل تلمسان لنشر مبادئ الجمعية وأهدافها، والتفاني في خدمة الإسلام واللغة العربية، ووجه لهم دعوة باسم سكان تلمسان، الذين يتشوقون ويتشرفون بأن يكون الافتتاح الرسمي لهذه المدرسة بيد الإمام ابن باديس، وقال في هذا الصدد: "لقد حملني إخوانكم التلمسانيون أمانة، يجب علي أن أبلعها إليكم، وهي أنّهم يسلمون عليكم، ويعاهدونكم على التفاني في خدمة الجمعية ونشر مبادئها، ويبشرونكم بأنّهم شيّدوا للإسلام والعربية معهدا، لم يكن له نظير في تاريخ الجزائر الحديث، كما أنّهم يتشوقون ويتشرفون أن يكون فتح هذا المعهد لأوّل مرة بيد علامة الجزائر وزعيم نهضتها الأستاذ عبد الحميد ابن باديس"2.

كان يوم الافتتاح "عرسا علميا" تجلت فيه الأخوة الإسلامية والنخوة العربية حسب تعبير الإبراهيمي، فكان يوما مشهودا اتّضحت فيه تطلعات الجزائريين للثقافة الإسلامية والعلم.

دخل الإمام الإبراهيمي والوفد المرافق له المدرسة مبتهجا مسرورا معجبا بطراز المدرسة وهندسته، وكانت الجماهير الغفيرة تحيط بالمدرسة ورؤوسها مشرئبة نحو الشّرفة تريد رؤية الإمام ابن باديس وسماع كلمة منه،

1– "مجلة الشهاب"، ج8، م 13.

2– نفسه.

فأطل عليهم من شرفة المدرسة، متأثّرا بحفاوة الاستقبال، وخاطبهم بكلمة نابعة من القلب، قائلا: "يا أبناء تلمسان يا أبناء الجزائر، إن العروبة من عهد تبّع إلى اليوم تحيّيكم، وإن الإسلام من يوم محمد صلّى الله عليه وسلم إلى اليوم يحيّيكم، وإن أجيال الجزائر من هذا اليوم إلى يوم القيامة تشكركم، وتثني عليكم، وتذكر صنيعكم بالجميل، يا أبناء تلمسان، كانت عندكم أمانة من تاريخنا المجيد فأديتموها، فنعم الأمناء أنتم، فجزاكم الله جزاء الأمناء، والسلام عليكم ورحمة الله"1.

تلمسان بعد الإستقلال

الإستقلال لن يكون تغيير جذري في ولاية مساحات إذا كان ذلك نهاية الفصل العرقي، من جهة هناك أخذت من السكان التلمسانيين إلى الجزائر، وهران، سيدي بلعباس، وبالإشتراك مع تدفق السكان من المناطق الريفية إلى المدينة2، كما يبدو أن يثبت والتوسع الكبير في منطقة الظاهرة بودغن وقضم الأراضي الزراعية في الدائرة الوطنية للتوظيف متفرقة قرب المدينة.

المدينة دائما انخفاض أقل ببطء من خلال أنشطتها، ومنتجات الحرف اليدوية والتجارة "التقليدية" للتدهور الفضاء. بالنسبة لكليهما، وهذا يبدو قريب تخفيف من سكانها، سكان المدينة وتمكنت الهجرة إلى أجزاء أخرى من المدينة نشوئها إلى "المنازل الشاغرة"، والأحياء الجديدة، تاركة المدينة إلى السكان أقل تفضل، المدينة المنورة فيما يبدو للبقاء على قيد الحياة إلا من خلال أنشطتها التجارية والحرفية، و يبدو أن كل شيء يحدث كما لو أن الإقتصادية نشاط خارج الفضاء أن يولد.

وهذا يعني أن تراكم من المدينة المنورة وجود على الإطلاق في العودة، بل لا ساري اللازم لدعم الإستثمار، وفي الوقت الراهن، منقسمة بين "المدن" والبلدات ويبدو المستهلكة، وستبقى إلى الأبد "عمل" ما بعد الحقبة الإستعمارية، ولا يزال النمو الحالي في هذا الشوط من قبل الآخرين، الإستعماري وسط المدينة مشبعة تماما على الرغم من محاولات تخفيف المعدات تلمسان نمو التنافسية ضم الفضاء تنقسم إلى ثلاث فئات كبيرة الفضائية :سكني/ الإسكان الهياكل/ المرافق، والإنتاج / المنطقة الصناعية.

كل من هذه المجالات الرؤى، بما في ذلك تدفق ¬ الصدارة التي تسببها، كلهم يعارضون بدرجات متفاوتة في المناطق الريفية يتنافسون على قدر مائة ¬ احتلال الأرض، الصناعية وشبه الصناعية تستهلك كل 220 هكتار و80 هكتار من الأراضي الزراعية عالية الغلة المروية داخل محيط تلمسان، وهذا من شأنه زعزعة توازن كثيرا من البلدة ¬ العمل في المنزل وعلى وجه الخصوص من تعقيد التدفق اليومي داخل المدينة، كل الظواهر المرئية بالفعل مباشرة بعد تسوية رينيه نزوح القسري وتدمير المدينة.

---

[1] – "مجلة الشهاب"، ج8، م 13.

[2] – الميلي "تاريخ الجزائر " ص 98 –100.

2–فؤاد الغماري "مدينة تلمسان تركة التاريخ"

الفصـــــــل الرابـــــــع

الإمتـداد الأندلسـي في تلمسـان

1- دور الأندلس في نقل الحضارة العربية في العالم

2- تلمســــــان المقصد المفضل للجاليـــة الأندلسية

3- العلاقـــات بين تلمســـــان وغرناطـــــــــة

4- عمـــــران تلمســـــان و عماراتـــــــــها

1- دور الأندلس في نقل الحضارة العربية الإسلامية في العالم

المعروف والشائع أن الحضارة العربية والإسلامية قد انتقلت للعالم خلال الفترة المتأخرة من العصور الوسطى، وأدّت دورا حاسما في انتقال العالم لعصر النهضة، وذلك عبر جسور ثلاثة هي: المشرق وصقلية والأندلس، وتقتضي الدقة العلمية الإيجابية على تساؤل يطرح نفسه في هذا المجال وهو: هل هناك صفة مميزة لكلّ جسر من الجسور من حيث النقول عبره من مؤثرات عربية إسلامية كمًا ونوعًا؟ أو أنّ هناك تساويا في كمية المنقول عبر كل جسر وتماثلا في نوعيته؟

يدلنا تفحص المنقول من عناصر الحضارة العربية الإسلامية والطريق الذي سلكه أنّ الأندلس كانت الجسر الأعظم والأهم في عملية الإنتقال هذه ويمكن تفسير ذلك وتعليله بأمور متعددة توفرت في الأندلس مجتمعة، في حين لم تتوفر للجسرين الآخرين كذلك، أو توفر بعضها دون البعض الآخر وأهم الظروف المواتية لإنتقال المؤثرات عبر الأندلس دون غيرها هي طول فترة النقل.

لم تتجاوز الفترة التي حدث فيها إحتكاك العالم بالعرب المسلمين1، ونقل عنهم في طريقي المشرق وصقلية أكثر من ثلاثة قرون، في أحسن الأحوال، بينما استمر الإنتقال الناتج عن الإحتكاك والإتصال في الأندلس قرابة عشرة قرون، فقد استمرت السيادة السياسية العربية الإسلامية على الأندلس، كليا أو جزئيا قرابة ثمانية قرون، أي منذ الفتح أواخر القرن الأول الهجري/ أوائل القرن الثامن الميلادي، حتى سقوط غرناطة أواخر القرن التاسع الهجري/ أواخر القرن الخامس عشر للميلاد، واستمر الوجود العربي الإسلامي أثر ذلك، متمثلا بالبشر الباقين على الأرض في ظل السيادة الإسبانية والذين أطلق عليهم أسمان وفق الفترة الزمنية، فدعا من سمح له بالإحتفاظ بدينه مدجنا، ومن أجبر على التنصر موريسكيا، وعاش كل هؤلاء في الأندلس إلى أن أجلوا عنها قسرا أوائل القرن السابع عشر للميلاد.

توفر العناصر والرسائل الملائمة للنقل

خلال كل هذه الفترة كان يتوفر العنصر والوسيلة الملائمين للنقل، ذلك أن أحوال العرب المسلمين في الأندلس تقلبت بين وضعين.

فمنذ الفتح وحتى القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي كانوا أسيادا للجزء الأعظم من إسبانيا، ولم يتركوا للملوك والأمراء الإسبان عندما وجدوا، سوى الزاوية الشمالية الغربية من البلاد، وحتى في هذا الحيل الجبلي الضيق من الأرض، كانوا في الغالب يتبعون الأمراء والخلفاء الأمويين في قرطبة، انقلبت الأوضاع أثر ذلك وتجزأت الأندلس العربية الإسلامية، بينما توسعت ممتلكات ملوك الإسبان وأصبحوا أقوياء أعزة يتوسعون على حساب العرب المسلمين ويخدمون بعضهم للسيادة الإسبانية، ويقرضون الجزية على الآخرين، لكن الأمر الذي يهمنا، وهو انتقال المؤثرات الحضارية العربية

[1]– آدم ميتز"الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري"، ترجمة محمد عبد الهادي أب وريدة، ص 180.

الإسلامية إلى العالم عن طريق الأندلس، ظل مستمرا في الحالتين، كما أنّه لم يضعف بضعف العرب المسلمين السياسي وإنّما على العكس من ذلك ازداد، وكأنّه يكرر حالة سبقت في التاريخ الإنساني، فكما غزا الرومان اليونان وسيطروا عليها سياسيا، ليصبحوا بدورهم ومن ناحية حضارية عرضة للغزو والخضوع، كذلك كان حال الإسبان الذين انتصروا على العرب المسلمين في الأندلس.

في فترة قوة المسلمين دخل قسم من الإسبان في الدّين الإسلامي واحتفظ الباقون بدينهم، إلّا أنّ هذا لم يكن عائقا أمام إصطيافهم بصبغة الحضارة العربية الإسلامية في جميع مجلات الحياة1 ، ومنها الفكر و اللّغة التي تعلموها إلى حد قرض الشعر بها وإلى درجة تفوق معارفهم فيها على معرفتهم بلغة بلده الثقافية وهي اللاتينية، ممّا أدى إلى شكوى مريرة من أحد كبار رجال الكنيسة، ولا أدل على مدى وصلابة تأثرهم بالحضارة العربية من أن أبناء جلدتهم أطلقوا عليهم اسم المستعربين.

وكان عنصر المستعربين هذا دائب الحركة، إذ كان قسم منهم يهاجر إلى الشمال ليقيم في ظل حكم الإسبان وكان هؤلاء بدورهم على علاقات بدول أروبية أخرى إن لم يكون بعضهم جزءا منها، كما هو حال كونت وكونتية برشلونة في فترات متعددة، ونتيجة لكل ذلك وفّر هؤلاء المستغربون عنصرا جيد الملائمة لنقل المؤثرات الحضارية العربية الإسلامية، وكانت ازدواجية اللغة لديهم وسيلة مناسبة.

وعندما حلت بالعرب المسلمين التجزئة وما رافقها من ضعف وبدأ الإسبان يقتطعون أراضيهم وجدوا فيها بشرا سادت بينهم اللغة الإسبانية الدارجة أو عجمية أهل الأندلس أو الرومانس، ذلك أن لغة العرب الفصحى إذا انتصرت على اللاتينية لغة الأندلس لثقافية في المجال الثقافي، فإن الإسبان ربحوا في الشارع وعلى مستوى اللغة الدارجة، وهكذا كان الغزاة أو قسم منهم يتكلمون مع العرب المسلمين الخاضعين اللغة ذاتها2، كما وجدوا إضافة لذلك بقايا حضارية في جميع مجالات الحياة من زراعية وملاحة وآلات، هذا عدا المكتبات العامرة بالآلاف المؤلفة من المجلدات في شتى نواحي المعرفة.

التقدم العلمي للأندلس

ضاف إلى العاملين السابقين، الذين جعلا الأندلس تتقدم غيرها في مضمار نقل التأثيرات الحضارية العربية الإسلامية إلى العالم، تقدمها في مضمار العلوم إلى حد لم يتوفر في صقلية، وإذا توفر مثله في المشرق إلاّ أن طبيعة الغزاة هناك ومقدار الإحتكاك حدا من تأثيره، أضف إلى ذلك أن فترة الإحتكاك، عندما كانت على أشدها في أواخر العصور الوسطى كان المشرق العربي يدخل مرحلة الجمود، أن لم نقل الإنحطاط، بينما لعبت الأندلس في هذه الفترات دور الحافظ للثقافة العربية بكل ما التي برزت فيها آنذاك **كابن باجة** و**ابن طفيل** و**ابن رشد** و**ابن خلدون**.

[1] – عباس محمود العقاد "أثر العرب في الحضارة الأوروبية"، ص 90.

[2]– أحمد بدر "دراسات من تاريخ الأندلس وحضارتها"، ص 180 – 183 .

رغم تميز الأندلس عن غيرها في عملية نقل المؤثرات الحضارية للعالم، إلا أنّ الشكل الذي تمت به العملية اختلف بإختلاف أوضاع العرب المسلمين في الأندلس قوة وضعفا.

إنتقال المؤثرات الحضارية في فترة قوة العرب المسلمين بالأندلس

تمتد هذه الفترة زمنيا منذ الفتح حتى نهاية القرن الرابع الهجري، لكن عملية نقل المؤثرات الحضارية كانت في دورة نشاطها خلال القرن الأخير من هذه الفترة، أي في عصر الخلافة الأموية في الأندلس[1] عندما ازدهر نشاطها الإقتصادي و بلغ نفوذها السياسي أوجه لدرجة بسط سلطانها المباشر وغير المباشر على جميع إسبانيا، وتوسعها خارج هذا النطاق في شمال إفريقيا من جهة وعلى شواطئ البروفانس من جهة ثانية، وكان هذا وسع من شبكة علاقتها التجارية والدبلوماسية، حتى أصبحت تمج من يوم لآخر بالسفراء والمبعوثين من قوى ذلك العصر الكبرى، طلبا لعقد تحالف أو للكف عن حرب، وكذلك من أمراء أو مبعوثين إسبان طلبا للعون أو للحماية أو حتى للاستفتاء.

التأثيرات الحضارية في عمليات التوسع البروفاس

قام جماعة من الأندلسيين يدعون بالبحرين بالنزول في منطقة **البروفانس** في الجنوب الشرقي من فرنسا الحالية والشمال الغربي من ايطاليا، وبنوا حصن **فراكسينيت** في موقع **غارد فرينة** الحالية، وتوسعوا انطلاقا منه ليحتلوا مرتفعات من **جبال الألب** لينحدروا منها فيما بعد نحو مناطق السهول في سويسرا و فرنسا و **البيمونت** من ايطاليا، كما أنهم احتلوا في جبال الألب **ممر سان برنار** الشهير حيث فرضوا الأتاوات على الحجاج الأوربيين إلى روما، وكان الطريق الطبيعي لأكثرهم، كما فرضوا الأتاوات على التجارات الماروبه. و رغم أنهم اخرجوا من هذه المنطقة أواخر القرن إلا أن بصامتهم الحضارية ظلت قائمة مستمرة لعدة قرون ومتنوعة المجالات، رغم أنّه يستحيل رسم صورتها الكاملة لأن مصادرنا عنها ليست عربية إسلامية وإنّما كتابات محلية كنسية معادية وجّهت اهتمامها نحو تشويه صورتهم بذكر ما خرّبوا، لا ما بنوا، وكذلك البقايا الأثرية، وهي صادقة لكنها لا تستطيع التعبير الكامل كالكلمة.

ومع ذلك تمثلت تأثيراتهم العمرانية في طرز العمران العسكرية والإقتصادية كالقلاع والأبراج وقنوات الري، وفي المجال الصناعة أسهموا في ترقية بعض الصناعات، مثل إستخراج القطران من شجر الصنوبر والبلوط الذي يكثر في المنطقة، وكانوا يستخدمونه في قلفطة السفن، وتبدوا علاقة هذه الصناعة بالعرب عندما إستمرت بعدهم، واضحة بإستخدام أهلها لكلمة القطران العربية بدلا من Goudron الفرنسية، كما أنهم إستخدموا صمغ الصنوبر لإستخراج القار الذي أصبح عنصرا من عناصر المزيج المكون لمقذوفات النار الإغريقية.

[1]– ابن حيان "المقتبس" تحقيق الجعي ص 76.

وتعزو الروايات المحلية إلى العرب تطوير استثمار المعادن في المنطقة: وأهم ما إستخرجوه منها كبريت الرصاص (الغالين) وسلفور الرصاص، كما استخرجوا الحديد من أماكن، وحوّلوا ما استخرجوه من المعادن إلى أدوات وأسلحة وآلات زراعية، كما يعزى إلى الأندلسيين إصلاح جنس الخيل في فرنسا، ذلك لأنهم كانوا يأتون على سفنهم بالجياد العراب ليتسنّى لهم عليها بث الغارات في داخل البلاد1، فبقي جنسها في فرنسا منذ ذلك الوقت، ويوجد الآن صنف من الخيل في مقاطعة **كامراغ**، متولد من إزدواج الخيول الأندلسية بخيول تلك المقاطعة.

وتعتبر الروايات المحلية أنواعا من الرقصات أو المواكب في جنوب فرنسا بقايا من الوجود العربي الإسلامي هناك، منها رقصة الفاكهة التي يرقص فيها شاب بين فتاتين وفي أثناء رقصته يقدم فاكهة تارة إلى هذه وطورا إلى تلك وكذلك الرقصة التي يقف فيها الرّاقصون خطا بإزاء الراقصات خطا، ثم يشتبك أحدهما بالآخر ويقلد راقصو كل خط الإشارات التي يقوم بها القائم على رأس خطهم، ومثلها أيضا الرقصة العسكرية التي يرقص فيها إثنان ويشهر كل منهما سيفه لطعن الآخر، أما الكواكب الذي ترجع نشأته لفترة الوجود الإسلامي هناك، فهو موكب التحدي ويبدأ يسير مجموعة من الرجال، منهم رجالة، مع بقايا قديس لحراستها ويصل بعدهم جند برفقة السلطان الكبير مع وزرائه يجرون خلفهم عبيدا مكبلين بالأغلال.

وفي النهاية تأتي جماعات بأزياء متنوعة من أزياء الجند لتحيي بقايا القديس بإطلاق النار بغزارة، ويظن أن هذا الموكب تطوير لموكب كان يجري أثناء الوجود الإسلامي بدليل اسمه التحدي، ومشاهده ويرمز كل ذلك إلى حث رجال الدّين المحليين لرعاياهم لتحدي حظر السلطة الإسلامية على الاشتراك في المواكب الدّينية، وخاصة تلك التي يرافقها تقديس لبقايا القديسين بإعتبار تقديس البقايا مظهرا من مظاهر الوثنية2.

انتقال التأثيرات الحضارية عن طريق التجارة والسفارات

إلى الشّمال من المنطقة السابقة في العالم تقع منطقة أخرى في جهات اللوين، أي شرق فرنسا وغرب ألمانيا، قامت علاقات تجارية بينهما وبين الأندلس، قائمة على تجارة العبيد، إذ كانت المنطقة منطقة حروب يأتي إليها اليهود لشراء الأسرى من الطريقين ويقومون بسوقهم إلى جنوب الأندلس، حيث يتم تصديرهم بحرا لجهات عدة، وإضافة لذلك حصل عن طريق السفارات المتبادلة بين إمبراطور ألمانيا **أوتون الكبير** والخليفة الأندلسي **عبد الرحمن الناصر لدين الله**، خلال النصف الأوّل من القرن الرابع

---

[1]– "ابن الفرضي" ج 2، ص 149.

[2]– انظر عن "تأثيرات العرب الحضارية" هذه شكيب أرسلان، "تاريخ غزوات العرب"، ص 233 – 239.

Jean Lacam, Les Sarrazins dans le Haut Moyen Age Français,PP.191,142,149,150.

الهجري/ العاشر الميلادي لقاء بين رجال الفكر في المنطقتين ونقل مخطوطات من الأندلس إلى المنطقة الألمانية، فقد التقى **ربيع بن زيد**، أحد رجال الفكر المستعربين في البلاط الأندلسي، بمؤرخ العصر الوسيط المشهور **لوتبراند** وحثه على وضع مؤلفه في تاريخ الفترة، كما أن سفير **أوتون الكبير** للأندلس، وهو **جون** راهب مدينة **غورز** كان رجل فكر وإتصل أثناء إقامته بالأندلس التي إستمرت قرابة ثلاث سنوات برجل الفكر الأندلسيين كبار، ولا يمكن تصور بقائه هذه المدة الطويلة دون إطلاعه واقتباسه من الوسط الفكري المحيط به، ولا يستبعد أيضا حملة كتبا لبلاده، إذ كان ذلك من عادته، فقد جلب عند عودته من سفارة سابقة له لإيطاليا مؤلفات **لأرسطو** إلى ديره، ويرى **دنلوب** أن هذه العلاقات كلها، أدت إلى زرع بذور الثقافة العربية الإسلامية في المنطقة وأسهمت هذه بدورها في ترعرع الثقافة بشكل عام وإشعاع المعرفة منها إلى أنحاء من ألمانيا وفرنسا وانكلترا[1].

إنتقال المؤثرات الحضارية بواسطة ظلال العلم

يظهر أن شهرة الأندلسي برقي ثقافتها وتقدم علومها انتشر بين طالبي العلم[2] في أوروبا فقصدوها، وممّا سهل عليهم تلقي العلوم العربية دون معرفة بالعربية، إمكانية أخذهم عن مستعربين أندلسيين يعرفون العربية معرفة جيدة إضافة لمعرفتهم باللّغة اللاتينية لغة الثقافة والكنيسة، ونتيجة لذلك فأن مصادرنا عن هذه العملية ليست إسلامية وإنّما إسبانية وأوروبية معادية للمسلمين في الغالب، وميالة بالتالي لطمس أجزاء كبيرة من صورة هذا التلقي للعلم عن المسلمين، ومع ذلك فإن أخبار الشخصيات الكبيرة يعثر فيها على أخبار صغيرة تمكننا من إعتبارها أمثلة عما أخذوه لا حصرا له، لعل أشهر هذه الأمثلة الراهب **جيربرت دي أورباك**، الذي إعتلى فيما بعد كرسي البابوية بإسم **سلفستر الثاني**، وقد إعتبر البعض، ممن يعادي العرب المسلمين ويحاول طمس فضلهم، أن الزيارة إمّا خرافة، أو مشكوكا بصحة خيرها، لكن التوقف عند القضية وتأملها يدل على أن هذا الحكم تعسفيا بعيدا عن الموضوعية ذلك أن المصدر عن الزيارة هو المؤرخ **إديمار دي شاباناس** الذي ذكر الخبر بشكل محدد ودقيق وذلك بقوله **"أنّ جيربرت ذهب إلى قرطبة من أجل الدراسة".**

وتتوفر لهذا المصدر جميع الشروط التي تجعله ثقة، فالمؤرخ من مواطني **جيربرت** ومعاصر له، إذ كان عند وفاته في سن الخامس عشرة، وتقتضي الأمانة التاريخية لنقض خبر موثوق إلى هذا الحد، البرهان على إستحالة وقوعه، وهو أمر لا يمكن لأحد أن يقدمه، وما كان إيراده هو العكس من ذلك، والذي يتمثل

[1] –D.M. Dunlop, Arabic seience in the West,P.25 – 28. A. A. El – Hjji, Andalusian Diplomatic Relatios With Western Europe, PP. 210 – 227.

[2]– آمنة محمد نصير "دور الأندلس في النهضة الأوربية" في "ميدان الفلسفة" –مجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية (مدريد) ع 26 (1993 – 1994) ص ص 69 – 86.

بتوفر جميع الظروف لقيام هذا العمل، فقد كان الرجل كثير الرحلات طلبا للدراسة، قضى ثلاث سنوات بين 967م و970م في إسبانيا سافر بعدها إلى روما ومن ثم إلى ريمس، حيث أقام سنتين ليدرس على أحد كبار رجال اللاهوت الفلسفة.

وكانت المنطقة الأولى التي حل بها في إسبانيا منطقة **قطالونية** ومعه رسالة توصية من أسقف مدينته إلى كونت قطالونية **بوريل كي** يساعده في تحصيل العلم، وبما أن قطالونية لا تتميز بأي شيء في العلم، فلا بد أن تكون المساعدة عبارة عن إرساله لقرطبة التي كان الأمراء الإسبان يعتقدون أنّها قاعدة العلم الأساسية، ويرتبطون بخلفائها بعلاقات تبعية وتتردد عليها سفاراتهم، وكان لبوريل منها سفارتان، ومن ناحية أخرى فإنّ الأسطورة التي ظهرت في القرن الثاني عشر الميلادي حول هذا البابا، والتي تزعم أنه درس فنون السحر على المسلمين في إشبيلية، دليل على إعتراف ضمني من أوربا الوسطية بأنه أتى بشيء غريب وجديد وإعتبرته سحرا لكون مصدره العدو، ومن الضروري نعته بشيء مستنكر هو السحر، وظل التردد على الأندلس1 لأخذ العلم تقليدا معروفا في قطالونية إستمر قرونا عده بعد ذلك، أي حتى القرنين الحادي عشر والثاني عشر للميلاد، ونجد في هذه الفترة **بيدرو ألفونسو** القطالوني الذي تنقّل فيما بعد إلى إنكلترا حيث عاش في ظل الملك **هنري الأول** وألّف هناك كتاب **"الفلك"** عام 1115م بعدما ذاع صيته كأحد ناشري العلم في أوربا.

إنتقال المؤثرات الحضارية إلى أوروبا في فترة الضعف السياسي للعرب المسلمين

عندما حل الضعف بالعرب المسلمين في الأندلس وبدأ جيرانهم الإسبان يتوسعون على حساب أراضيهم وجدوا فيها عناصر حضارية2 إستفادوا منها أو إقتبسوها وأخذت طريقها بعد ذلك بواسطتهم إلى أجزاء أخرى من أوروبا والعالم الجديد.

ويمكن أن تصنف هذه العناصر حسب طريقة الإستفادة منها إلى صنفين كبيرين هما: الكتب بالدرجة الأولى وتليها بقية العناصر أو البقايا الحضارية.

البقايا الحضارية: يأتي في مقدمتها البشر وخاصة منهم أولائك العلماء المبرزون العارفون بلغة الإسبان والقادرون بالتالي على نقل العلم إليهم، زمن الأمثلة البارزة عليهم، الرقوطي المرسي الذي قرّبه **ألفونسو الحكيم** في القرن الثالث عشر للميلاد، والذي اشتهر عنه أنّه كان يعلّم أبناء ملل ثلاث، الإسلام والمسيحية واليهودية، كلا بلغته، كذلك ترك العرب تقاليد ملاحية مبتكرة يهمنا منها ما تركوه على الشاطئ الغربي حيث البرتغال الحالية ومكان إنطلاق مكتشفي أمريكا، ولسنا هنا بصدد تعداد الوسائل التي يعزى إبتكارها أو نقلها للعرب، والتي أسهمت في إكتشاف أمريكا، ولا بمناقشة المزاعم عن كون

---

[1]– ابن الآبار "الحلّة السيراء" ج1، ص 201 – 202.

[2]– شكيب أرسلان "غزوات العرب"...ص 238.

العرب أوّل من إكتشف العالم الجديد، ويكفي أن نورد هنا ما هو أكيد وثابت، ويتمثل بالقول أن العرب المسلمين جعلوا الأندلس البلد الوحيد في غرب أوربا القادر على الملاحة في الأطلسي والذي يملك أسطولا ذا قدرة على ذلك، بعدما كان هذا المحيط يعرف **ببحر الظلمات** ولا يبحر فيه إلّا **الفيكينغ** الذين أذاقوا شواطئ أوروبا الغربية الأمويين بغاراتهم التي شنوها عليها، أثر تبدل في المناخ أدّى لسيطرة الجموديات على أراضيهم ودفعهم للبحث عن معيشتهم بالإغارة على شواطئ الجنوب الدافئة، وكانت البداية لذلك أواسط القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي، عندما أمر الخليفة **الحكم الثاني** يصنع سفن على هيئة سفن المجوس، ومن ثم أطلق عليها العرب إسم **القراقير** وأورد أحد الجغرافيين وصفا لها بالقول، أنّها مراكب كبار بقلوع مربعة تجري أمامها وإلى خلفاء1.

ويفهم من هذا الوصف أنّها لم تكن على شاكلة السفن التي خبرها العرب في المتوسط والمحيط الهندي، التي كانت على أشكال ملائمة للإبحار في هذين البحرين، كأن تكون ملائمة للإستفادة من الرّبح في المتوسط، أو عكس ذلك في المحيط الهندي لتتلاقى تأثير الرياح الموسمية الشديدة التي تهب فيه، والحاجة هنا ماسة لسفن تقاوم الأمواج العالية للمحيط الأطلسي.

وبعد إنشاء هذا الأسطول إستخدم في نفس القرن عندما حمل عليه **المنصور** رجاله جيشه أثناء **غزوة شنت ياقب**، وتكاثفت الملاحة في الأطلسي خلال القرون التالية، عندما ضمت بقية الأندلس لدولتي المرابطين والموحدين في المغرب، فأصبح الإبحار فيه عاديا حتى لنقل البضائع، ومن هذه البقايا الحضارية أيضا الموقتات التي إشتهر الأندلسيون منذ القرن الثالث بالإبتكار فيها أيّام **عباس بن فرناس،** ومن أنواعها ما عثر عليه **ألفونسو السادس** غازي مدينة طليطلة، وكان عبارة عن بيلتين أو أسطوانتين منصوبتين على نهر هذه المدينة ويتحدد فيهما الساعة من النهار واليوم من الشهر القمري، بناء على نسبة إمتلاء كل منهما بالماء.

وقد أورد هذا الوصف للمؤقت عدد من الجغرافيين المسلمين الذين أضافوا لذلك، أنّ يهوديا كان في حاشية الملك الإسباني، طلب الإذن له بأن ينزع واحدة من الأسطوانتين كي يتفحصها ويصنع مثيلا لها عجز كما عجز عن إعادتها لوضعيتها الأولى2.

وأخيرا، كانت الزراعات التي أدخلها العرب المسلمون للأندلس وطرائق العمل فيها من أهم البقايا لهم ذات التأثر عبر إسبانيا على بقايا عدة في العالم، ومن أهم المزروعات التي أدخلها العرب إلى أوروبا وأنحاء أخرى من العالم الأرز وقصب السكر والقطن، وكان لإدخال الزراعتين الأخيرتين آثاره الكبيرة في أوربا والعالم الجديد، فقد شكّل القطن مع الفحم الدعامة الأساسية للثورة الصناعية في أوربا، أمّا

---

[1]– ابن عذاري "لبيان المغرب" ، ج2 ، ص 235 .

[2]– الزهري "كتاب الجغرافية" ص 83 – 85 .

زراعة السكر فقد أثرت في عادة الأوروبيين في التغذية[1]، إذ بدءوا تدريجيا بالإستفتاء من العسل كمصدر للمادة السكرية وإنتقلت لهم العادة الشرقية بتناول الحلوى بعد الطعام، على أن الأهم من ذلك هو التغييرات الإجتماعية التي أدّت إليها هذه الزراعة ذلك أنها زراعة معقدة تحتاج هي وما يتبعها من إستخراج السكر وتنقيته إلى أعمال كثيرة، وعندما تصبح مادة تجارية تتعرض للمنافسة وينظر في تقليل الكلفة كالإستعانة بيد عاملة رخيصة، ممّا يقود لإستخدام العبيد على نطاق واسع كما حدث في جنوب العراق عند إستخدام الزنج.

وقد سار البرتغاليون على طريق نفسه، فأقاموا مستوطنات زراعية جمعوا فيها الرقيق الأسود، كان أوّلها في جزر الأطلسي البرتغالية في القرن الخامس عشر، وأصبحت نموذجا إنتشر في القرن السادس عشر إلى البرازيل، وقلّده الإسبان في جزر الكناري وهسبنيولا، أي هايتي.

من ناحية أخرى يقتضي نقل زراعة ما إلى نقل التقنيات الزراعية المرافقة، وهذه الزراعات في الأصل من نباتات الشرق الأقصى حيث تتوفر المياه الغزيرة الأزمة لها، وعندما نقلها العرب المسلمون لمنطقة الشرق الأوسط الأكثر فقرا بالمياه، لجأوا لتوفير المياه إلى جمع المياه الجوفية من عدة أبار في مجرى في قنوات تحت الأرض لتجنب البحر، وطبق الأسلوب نفسه في إسبانيا ومنها إنتقل على ما يظهر إلى العالم الجديد، حيث وجدت قنوات مشابهة في تشلي.

نقل المؤثرات العقارية عن طريق الكتب

وجد الإسبان في البلاد الأندلسية التي إحتلوها مكاتب عامره لدى الأمراء والخاصة، وحتى عند البعض من عمار الناس وبسطائهم، وتوفرت العوامل للإطلاع عليها ونقلها من العربية في مدينة طليطلة، إذ كانت هذه المدينة، عاصمة الوطن قبل الفتح، ثم أصبحت عاصمة لدولة من كبريات دول الطوائف عند تجزؤ الأندلس في القرن الخامس الهجري – الحادي عشر الميلادي، وإشتهر أمرؤها بتشجيع العلماء المهتمين بما نسميه الآن علما، وحوت مكتبات[2] كبرى للخاصة ومكتبة للقصر زاخرة، ولم يتورع أحد الأمراء عن مصادرة كتب من مكتبة أحد الخواص، لولعة بإغناء مكتبته وضم كل نفيس من الكتب إليها، من ناحية أخرى ضم مجتمعها كل العناصر الملائمة للنقل من العربية إلى لغة أو لغات يفهمها الغزاة، فإضاقة العرب المسلمين كان فيها مستعربون وفئة من اليهود الذين مهروا بمعرفة لغة الغزاة مع العربية.

[1]– ابن بسام "الذخيرة" القسم الرابع – المجلد الأول، ص 65 –66.

[2]– رضا سعيد مقبل "تاريخ المكتبات الإسلامية في الأندلس"، اشراف شعبان عبد العزيز خليفة، احمد علي تاج.

مدرسة التراجمة في طليطلة

بهذا قامت حركة نشطة للترجمة من العربية أطلق عليها إسم مدرسة على سبيل المجاز لأنه إذا قصد بالمدرسة جهاز متسلسل مترابط من المعلمين والطلاب والقاعات، فإنها لم تكن كذلك، إنّما هي مدرسة، بمعنى وجود جماعة من الدارسين يعيشون في الموضع نفسه والمكتبات ذاتها ويصدرون من منطلق واحد ويعملون في ميدان خاص هو ترجمة المؤلفات العلمية العربية، أمّا الدور الذي قامت به هذه المدرسة وأنجزته فكان في خطوطه العريضة، نقل الثقافة العربية الإسلامية بكل ما إحتوته من العناصر، معارف اليونان القديمة، بعد ما غرق في الإنحطاط بعض ما حفظته الإمبراطورية الرومانية، وقبل أن تسقط هذه الإمبراطورية ويسيطر عليها البرابرة الجرمن ليقطعوا أوصالها ويفوضوا عليها عزلة ثقافية ويجعلوها بمنأى عن أي إتصال ببيزنطة التي حفظت هذه الثقافة.

ومن المعروف أن النهضة الأوربية بمعنى من معانيها عودة إلى الروح اليونانية والتقاليد الفكرية والثقافة لليونان القديمة، كما نقل العرب لأوروبا فكرا آخر، لم يتح لها في السابق الإتصال به وهو فكر وثقافة الشرق الأقصى، هذا إضافة إلى ما إضافة العرب لهاتين الثقافتين من تطوير إضافات وإبتكار.

المرحلة الاولى في نشاط مدرسة الترجمة

تمّت هذه المرحلة كلّها تقريبا في ظل هيمنة وتوجيه الدافع الأول والمحرّك لها، وهو **غونديسالفو** أحد كبار اللاهوتين في كاندرائية طليطلة، بين أعوام 1130م-1170م، ويفضلها بث في أوربا، فكسّر **أرسطو والأفلاطونية الحديثة،** كما طورت في الثقافة العربية الإسلامية لدى **الألفاربي** و **ابن سينا،** وكذلك تم تعريف أوروبا بتصرف **الغزالي** المزدري للفلاسفة والمهتمين بالعقل الإنساني، هذا إضافة لما أنتجته الأندلس في المضمار ذاته، وبهذا النشاط دوّن **غونديسالفو** عصرا جديدا في فكر العصر الوسيط، الذي أضحى عصر تجديد نتيجة للإحتكاك بالفكر العربي الإسلامي.

وكانت الترجمة من العربية إلى اللاتينية عن طريق الواسطة، بحيث تجري ترجمة شفوية إلى "الإسبانية الدارجة"، ومن ثم يترجم الكلام إلى اللاتينية وبدون ونموذج هذه الطريقة ترجمة كتاب **"النفس" لإبن سينا،** وفيها قام اليهودي **خوان بن داود** بالترجمة الشفوية من العربية إلى الإسبانية الدارجة، في حين قام **غونديسالفو** بترجمة كلامه إلى اللاتينية، وبهذه الطريقة قام **خوان الشبيلي،** الذي إختص بترجمة الكتب الفلكية العربية وأضاف ترجمة لكتاب "الخوارزمي" في الحساب[1]، المؤلف في المشرق في أيام خلافة **المأمون العباسي** (813م-833 م)، وهو الكتاب الذي نشر بين العرب الأرقام الهندية ونظام التعداد الهندي، وبفضل هذا العمل إنتقلت الأرقام الهندية وطريقة التعداد والحساب لأوروبا أيضا، لتسود فيها

[1]– محمد عبد الله عنان "اكتشاف السفر الخامس" من "المقتبس" لابن حيان– مجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية (مدريد) –ع13 (1965–1966–) –ص ص 127–137.

تدريجيا وتحل نظام التعداد الموروث عن الحضارة1 الإغريقية والرومانية، وتبدو أهمية هذا التطور واضحة إذا أخذ في الإعتبار بساطة نظام التعداد الهندي وإيجازه في التعبير عن العدد إذ أن رقما واحدا يمكن أن يرمز إلى إعداد مهما تفاوتت قيمتها قلة أو كثرة حسب الخانة التي يحتلها، بينما لا يتيسر ذلك في الأرقام اللاتينية، وهكذا يكتب الرقم 998 بهذا الشكل DCCCLXxXxVIII وكذلك تسهيله للعمليات الحسابية وخاصة بعد إدخال الصفر لأوروبا عن طريق الأندلس، ويجعل طريقه عبر مدينة **بجاية** في المغرب الأوسط، ومن الجدير بالذكر أن الأرقام التي نقلت لأوروبا إحتفظت بأشكالها حتى اليوم هناك، ولا زال سكان المغرب العربي يستخدمونها كذلك، بينما حل محلها في المشرق شكل آخر لها يطلق عليه إسم الشكل الغباري2.

يظهر أن ذكر ما كان يجري في طليطلة قد شاع في أواسط المهتمين بمتابعة الدراسة في أوروبا فهرع عدد منهم، لا نستطيع التأكد من أن روايات المؤرخين قد حفظت لنا ذكرا لهم بمجموعهم، ومع ذلك فإن من حفظت أسماؤهم يكفون للدلالة على أنّهم كانوا من جهات شتى في أوروبا، يبرز من انجلترا إسم الفيلسوف **إديلاود دي باث**، وكان رحالة نشيطا زار كيليكيا وسورية عام 1115 م وفرنسا وصقلية في العالم التالي ويعتقد أن إقامته في الأندلس كانت بين عامي 1126م و1129 م، ترجم خلالها الجداول الفلكية **للخوارزمي** مع إضافات **مسلمة المجريطي** (1007م – 1108 م) عليها.

وفي عام 1142م في اسبانيا ظهر رئيس ديرية كلوني أكبر ديرية في أوروبا الغربية، وهو **بطرس الممجد** الذي حج إلى ضريح **شانت ياقب** ومثل بعدها في بلاط **ألفونسو السابع**، واشتهرت طريقته بالعداء الشديد للإسلام والحض على محاربته بشتى الأشكال من السيف إلى القلم، ورغبة منه في الإسهام بتنفيذ هذه السياسة، عهد بترجمة القرآن الكريم إلى كل من **بطرس الطليطلي** و**هبرمان الدالماسي** والإنجليزي **روبرتودي شستر**، وكان الأخيران مقيمان في إسبانيا وقد كرسا نفسيهما للترجمة عن العربية.

وتعتبر عملية ترجمة القرآن الكريم مؤثرا لإتجاه جديد للأوساط الدينية المتطرفة في عدائها والمسلمين، ومؤدي هذا الإتجاه إعتبار الدّين الإسلامي والثقافة العربية الإسلامية سببا رئيسيا لقوة المسلمين3، وبالتالي تجب محاربتهم بالعقل قبل السيف، ومن مقتضيات ذلك دراسة معتقدهم وعلومهم، وقد سارت على هذا الإتجاه فيما بعد أيضا كل من رهبانية **ألفرنسيس** كان في القرن التالي، إذا كان توافد إنجليز وفرنسيين على طليطلة أمرا غير مستغرب لبعد بلادهم عن مواطن الحضارة العربية الإسلامية أو

[1]– إبراهيم فرغلي "تاريخ وحضارة الأندلس"، ط1 العربي للنشر والتوزيع، 2006 م ص 123.

[2]– زيفريد هونكةك: "شمس العرب يسطع على الغرب"، صص 67 –110.

[3]– عبد العزيز سالم "تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس"، مؤسسة شباب الجامعة.

لعزلتها عنها، إلاّ أن ورود الطليان مثير للإستغراب حقا، ذلك لأنّ جنوب بلادهم وخاصة صقلية، خضعت لحكم العرب المسلمين مدة قرنين ونصف القرن، وعند إنقضائها أظهر ملوك المنطقة النورمانديون إعجابا بهذه الحضارة وتقديرا فائقا لها جليا بمظاهر عدة، منها أن الملك النورماندي **روجر الثاني** المعاصر **لفوند يسالفو** يبدو كسلطات عربي في ألبسة وموكبه وحياته الخاصة، ومثله أيضا أحاط نفسه بحاشية فكرية بينها العديد من رجال الفكر المسلمين، وسار سيرته بعده إبنه **غليوم الأول**، الذي ترجم له **ايوجينيودي بالبرمو** أحد رجال حاشيته، كتاب "بطليموس" المشهور "بالمجسطي" من العربية، كذلك كان للجمهوريات الإيطالية في الشمال كجنوا والبندقية علاقات تجارية وثيقة مع المسلمين، وقامت فيها عملية ترجمة واحدة أيضا، إلاّ أن كل ذلك لم يزد على صعيد الترجمة إلاّ إلى عمليات فردية وغير مستمرة، ولا يمكن أن تقارب بأي وجه من الوجوه بحركة الترجمة في طليطلة من حيث المعنى وكذلك من حيث الإستمرار يزيل ما مر الإستغراب ويفسر توجه طليان أيضا من المتحمسين **لورود منهل** التراث والعلوم العربية وقصدهم لطليطلة، وقد إشتهر من هؤلاء **اللومباردي جيرادودي كريونا**، الذي لم يتوجه نحو جنوب بلاده، ولا حتى إلى المشرق، وإنّما توجه غربا إلى طليطلة في إسبانيا، نشط **جيراردو** في التردد على العلماء في طليطلة، وإنصب إهتمامه أوّل الأمر على معرفة مؤلفات **بطلييموس الفلكية**، وأتمّ ترجمة لكتاب "المجسطي"، دون أن يدري بأن ترجمة أخرى له قد أنجزت في صقلية.

ومع ذلك فإن الترجمة الصقلية غمرها ظلام النسيان، بينما ظلت الترجمة الطليطلية في التداول حتى طبعت في البندقية عام 1515م، وفي ذلك ما فيه من دلالة على ما كانت تعنيه طليطيلة آنذاك بالنسبة للغرب الأوروبي، أقام **جيراردو** أثّر ذلك أمدا طويلا في طليطيلة، حيث وجد في الكتب العربية بها مبتكرات كثيرة تفتقد إليها اللاتينية، فترجم منها مستعينا بمترجم إسباني، كما جرت المادة، أكثر من سبعين مؤلفا في الفلك والتنجيم والجبر والرياضيات والطب[1].

أثر الترجمة على نقل صناعة الورق

أدّت ترجمة المؤلفات العربية إلى اللاتينية بأعداد كبيرة إلى إغناء المكتبة الإسبانية من ناحية كمية، وربما أدّى هذا بالتالي إلى خلق ضرورة لتغيير طبيعة المادة التي يكتب عليها فيه، فإذا كانت الرقوق أو حتى أوراق البابيروس ملائمة لأعداد صغيرة من الكتب فإنها ليست كذلك بالنسبة لأعداد الكبيرة وخاصة منها ما كان ضخما، وقد جرى مع معاينتهم للمكتبة العربية التي سطرت كتابة كتبها على الورق، الذي إنتشرت صناعته لدى العرب إعتبارا من أيام **هارون الرشيد**، عندما نقلت هذه الصناعة من الصين، وفي

---

[1] –C.H.Haskins, Studies in the histary of medieval sciene, P18

ووردت عدة روايات عن الفرنسيين في هذا الصدد، مما هيأ السبل ودفع إلى نقل صناعته إلى بلادهم بالتسمية ذاتها
Menendez Pidal, Espania Ealabon………………….PP. 43-46.

القرن التالي أي الثالث الهجري- التاسع الميلادي أنشئت المعامل في شاطبة الأندلس، ويعود تاريخ أوّل كتاب إسباني كتب على الورق إلى القرن الحادي عشر، وكان نسخة من الكتاب المقدس، ويظهر أنهم ظلّوا يعطونه نفس تسمية **البابيروس**، ولذلك جاء إسمه كذلك مع بعض التحريف في لغتهم وهي Papel، ولم يقتصر الأمر على الإسبان، بل أن الأوربيين الآخرين الذين ارتادوا اسبانيا عاينوا هذه المادة الجديدة.

المرحلة الثانية لمدرسة الترجمة

إمتدت الفترة الزمنية لهذه المرحلة إلى أواسط القرن الثالث عشر للميلاد وتميزت بنصب الإهتمام الأكبر نحو ترجمة المؤلفات العربية التي تسير على الخط الأرسطاليسي، وربما كان الدافع وراء ذلك النشاط الفلسفي الذي سار على الخط نفسه في الأندلس والمغرب المعاصرين، بعد ما أقلّ نجم هذا الفكر في المشرق العربي وتمثل بتوالي سلسلة من الفلاسفة، بدأت **بإبن باجة** وتلاه **ابن طفيل** وتجسدت القمة **بإبن رشد** (520هـ-595هـ)(1133م-1208م). وقد أحييت بواسطة هؤلاء وطورت بالشرح والتعليق فلسفة **أرسطو**، ومع ذلك كانوا مجهولين في المشرق لكن الحال إختلف بالنسبة لأوروبا، حيث ترجم للاتينية أكثر ما كتبوه وإنتشر على نطاق أوسع مما هو في العربية، بدليل أن أكثر الأصول العربية لهذه المؤلفات ضاعت وبقيت ترجماتها اللاتينية فقط لتلعب دورا رئيسيا في الفكر الأوروبي خلال القرون الأربعة التالية.

أما المترجمون فظلوا خليطا من الجنسيات الأوربية، فعمل بالترجمة من الإنجليز كل من ميخائيل الإسكدلندي وميخائيل سكوت الذي ترجم عام 1271م، "كتاب البطروجي"، الذي يتبع خط أرسطو الفكري، وفيه شكك المؤلف بنظرية بطليموس في الفلك التي كانت معتمده خلال العصور الوسطى، وربما إعتمد على أفكاره العالم المشهور **كوبرنيق** الذي أجهر على النظرية وقد طبعت هذه الترجمة في بولونا عام 1495م.

كما أن المترجم ذاته ترجم كتبا أخرى **لأرسطو**، مع شروح وتعليقات عليها **لإبن سينا**، قام الراهب الإسباني **ماركسو** بترجمة كتب **جالينوس** المشهور في الطب من العربية إلى اللاتينية، كما ترجمت تحت إشراف الأسقف **خميليت دي رادا** عدة كتب إسلامية، في مقدمتها **"القرآن الكريم"**، ثم تلته كتب دينية أخرى ألفت ظل الموحدين، وترجم **هيرمان ألمان** عددا من تعليقات وشروح **ابن رشد** على كتب **أرسطو**، ومع أنه ترجمها لمرحلة الترجمة إلى اللغات الأوروبية الدارجة أو العامية، أمّا أثر هذه الأعمال بالنسبة للعقل والفكر الأوروبي فيكفي للتدليل عليها والشهادة لها، قول الفيلسوف **رينان** في كتابه الذي مضى على تأليفه أكثر من قرن حول "ابن رشد والرشدية " أنّ إدخال النصوص العربية في دراسات الغرب الأوروبي يقسم تاريخ العلم والفلسفة إلى فترين متباينتين كلية، في الأولى: كان على النفس

الإنسانية أن ترضى بطاعاتها للمعرفة بتلك البقايا الفقيرة المحفوظة في المدارس الرومانية لعصر الإنحطاط، أمّا في الفترة الثانية: فقد إستفاد الغرب من المؤلفات الأصلية لليونان والعرب1، كما أنّ معاصرا لعملية النقل هذه، هو **روجر باكون** الفيلسوف المشهور، يجعل من هذه الفترة، الفترة الوحيدة المناسبة لتلقي العلم، بينما يعتبر المرحلة السابقة تافهة إلى حد يمكن إلغاؤها من الناحية الفلسفية وذلك بقوله "يجب ألّا يتعب المرء من تكرار القول بأنه لا مفر عند دراسة الفلسفة من دراستها بالعربية لأن ما لدى اللاتين لا قيمة له بإستثناء ما أخذوه عن اللغات الأخرى2.

تطور أوضاع مدرسة الترجمة في عهد ألفونسو الحكيم

تمثل أهم عنصر في هذا التطور في غلبة الترجمة إلى الإسبانية الدارجة واللغات الأوروبية، بعدما كانت الترجمة في الفترة الماضية تتم إلى اللاتينية، ويرى **أمير كوكاستور** في كتابه "إسبانيا في تاريخها"، إنّ اليهود والمتنصرين منهم في بلاط **ألفونسو الحكيم** كانوا وراء هذه العملية، وقد أقنعوه بجدواها وفائدتها رغبة في تحطيم الكنيسة التي كانت عدوة اليهود اللدودة3، بينما يرى آخرون، بأنّه على الرغم من ضرورة أخد هذا العامل بعين الإعتبار، إلاّ أن من الضروري أيضا النظر للعملية ضمن الظروف التاريخية المحيطة التي قد تشكل السبب الرئيسي، أو على الأقل، العامل الحاسم الذي أتاح لليهود تحقيق رغبتهم. من جهة ثانية كان التغير متوقعا ما دام يكون أول مرحلة في الترجمة من العربية إلى اللاتينية، ومن جهة ثالثة فإن اللاتينية فقدت دورها وأهميتها كلغة، ذلك أنّها لم تكن لغة التخاطب وإقتصر دورها على كونها لغة ثقافية، وجاء إطلاع المثقفين الأوروبيين العارفين باللاتينية طبعا، على الكنوز الثقافية التي إحتوتها العربية، ليظهر لهم أن المحتوى الثقافي طبعا، على الكنوز الثقافية في اللاتينية يكاد يكون معدوما، وبالتالي كان لا بد لهم من الإستنتاج، كما هو حال **روجز باكون**، أنّ لغة الثقافة هذه أصبحت بدون مضمون ثقافي يعتد به، فما هي ضرورتها إذن؟ ويظهر أن التساؤل كان عاما في أوروبا بدليل وجود ميل عام فيها نحو الكتابة باللغة الدارجة، لم يكن التطور إنقلابا فجائيا وإنّما مر بمرحلة إنتقالية كانت الترجمة فيها تتم إلى اللاتينية إضافة للغة الدارجة4، وهذا ما نشاهده في كتاب الكيمياء **لأبوقراط**، المترجم عن العربية بأمر من **ألفونسو الحكيم**، وجدت منه ثلاث نسخ إثنتان باللاتينية و واحدة في الإسبانية، وكذلك الحال في كتاب "أحكام النجوم" الذي أمر نفس الملك بترجمته إلى الإسبانية واللاتينية كذلك.

[1]– Renan Averroes et Averroiu sme, Paris 1852,PP.158 -159

[2] – M. Asin Palacicos, Ibn Massarra, PP. 122 -129.

[3] –A. Casiro, Espana in su Historia, 1949, PP.347,486 – 494.

[4]– ليفي بروفنسال : "تاريخ إسبانيا الإسلامية"، ج 1، ترجمة علي اليعبي وآخرون ط3، المجلس الأعلى للثقافة، 2000 م.

نشاط مدرسة الترجمة الألفونسية

عمل **ألفنسو الحكيم** في الإشراف على الترجمة وتشجيعها قبل إعتلائه عرش قشتالة، إذ أمر قبل خمس سنوات من ذلك، بترجمة كتاب "كليلة ودمنة" إلى الإسبانية، وكانت تلك أوّل ترجمة لهذا الكتاب إلى لغة أوروبية، وبعدما أصبح ملكا مونشاطه بمرحلتين: إستمرت الأولى منها أربع سنوات، بدءا من عام 1256م وكرست لترجمة كتب علوم صرفة، يأتي في مقدمتها كتاب "الصفيحة"، الذي ألفه العالم الأندلسي **ابن الزرقالة** من رجال النصف الثاني من القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي، والذي وصف فيه كيفية صنع الإصطرلاب وكيفية عمله والإستفادة منه في الملاحة.

أمّا في المرحلة الثانية فقد تميز العمل بأمور عدة، أهمها الإهتمام بالكيف لا بالكمْ فقط وأصبحت الترجمة تعد، ثم يعاد النظر فيها وتدقق فتنقح أو يضاف عليها.

كذلك إشتهرت الفترة بدمج ترجمات عربية لمؤلفات عامة أمر بوضعها **ألفونسو الحكيم**، ويتجلى ذلك "بالمدونة العامة الأولى في التاريخ"، التي إعتمدت فيما يخص تاريخ الأندلس وجغرافيتها على البكري في كتابة "المسالك والممالك" وفي تاريخ بالنسبيا الأندلسية على **محمد البلنسي** المعروف **بابن علقمة** (428هـ – 509هـ/ 1032م-1115م) في مؤلفه "كتاب البيان الواضح في الملم الفادح" والذي فقد نصه الأصلي بإستثناء شذرات يوردها في الجزء الثالث من البيان المغرب، بينما إحتفظت به المدونة كاملا أو مختصرا، وكذلك إعتمدت في تاريخ مصر على كتاب "ابن وصيف شاه"[1]، إضافة لكل ذلك يظهر أن **ألفونسو الحكيم** المتحمس لنشر المعارف على نطاق واسع، وجد في التطور الجديد سلاحا ذا حدين بالنسبة لتحقيق هذا الهدف، فترجمة الثقافة العربية إلى الإسبانية الدارجة يساعد في نشرها على نطاق واسع لدى الإسبان، لمن يحرم منها الأوروبيين الآخرين بعدما كانت في متناول العارفين منهم باللاتينية سابقا، لذلك يغلب على الظن أنه تلافى وأمر بترجمة عدد من الكتب، لا إلى الإسبانية وحدها، بل إلى لغات دارجة أوروبية أخرى، وكمثال على ذلك نواه في الإصطرلاب الألفونسي الذي عمّ أوروبا كلّها، وكان يستخدم لدى كل الملاحين في الغرب الأوروبي، وكتابه عنه هو ترجمة لكتاب الصفيحة **لإبن الزرقالة العربي**، الأمر الذي يدل على أن ترجمة هذا الكتاب لم تبق مقصورة على الإسبانية بل ترجمت إلى اللغات الأوروبية الأخرى، وإذا كنّا لا نملك دليلا مباشرا على ذلك، وهو نسخ عن الترجمات لكتاب الإصطرلاب إلى اللغات الأخرى، إلاّ أن السنوات الأخيرة وفرت لنا الدليل عبر مثال آخر هو قصة "المعراج الإسلامية"، التي ترجمت في قصر ألفونسو إلى اللاتينية والإسبانية والفرنسية.

1 –R. Menendez Pidal Espana Eslabon..,PP.52 – 60

2 - تلمسان مقصد الجالية الأندلسية المفضل

وتواصلت خدمتهم في البلاط الزياني مع **عثمان بن يغمراسن** (681-703هـ/1281م-1303م) وإبنه **أبو حمو موسى الأول**718-707هـ (هـ/1307م-1318م)، الذي كان لهم في دولته مزيد من العناية والحظوة، فولى الوزارة والحجابة **محمد بن ميمون بن ملاح**، ثم إبنه **الأشقر** من بعده، وعين إبنه **إبراهيم بن محمد** على نفس الخطة بعدهما.

وأشرك معه في الوظيفة قريبه عليا **بن عبد الله بن ملاح**، وظلت هذه الأسرة تختص بالمناصب الإدارية السامية، إلى أن نكبهم **أبو تاشفين الأول بن حموّ الأول**، عندما ثار على أبيه وقتله مع خاصته وخلصائه من بني ملاح، بالدار البيضاء في تلمسان سنة 718هـ/1318م، ومهما يكن من أمر فالجدير بالملاحظة هو أن الجالية الأندلسية تركت بصماتها، الإجتماعية والثقافية والإقتصادية والعمرانية في المجتمع التلمساني.

وساهمت في تطويره ونموه في مختلف المجالات، وقد نجحت في مهامها الإدارية والسياسية، في البلاط الزياني، على مر السنين، حتى ظهرت منهم- فيما يبدو- طبقة سياسية أندلسية متميزة، ولاسيما في النصف الأوّل من القرن التاسع هجري، الخامس عشر ميلادي، تكتلت فيما بينهما، وأصبحت تمثل مركز القوة، في البلاط الزياني، تثير أحيانا بعض الدسائس، وتقاوم معارضيها بمختلف الوسائل للإحتفاظ بالنفوذ، والإمتيازات السلطانية، ولعلهم كانوا يحاولون فرض نوع من الوصاية السياسية والحضارية على أهل تلمسان، كما فعلوا مع أهل تلمسان.

وقد بلغ نفوذهم الإداري والسياسي مبلغا جعل بعض شيوخ بني زيان، وبعض علماء تلمسان يضيقون بهم ذرعا وخاصة في عهد الأمير **ابن أبي عبد الله**(814-827هـ/1411م-1424م)، الذي طالت مدته نسبيا وساءت سمعته، حسب تعبير أحد المؤخرين، فإتخذ بطانة من جالية أندلسية، دفعت به إلى الإنغماس في ملذات الحياة وبهرجها، ونعيم الترف ومغرياته، فصرّف الأموال الكثيرة على شهواته، وأغدق العطايا على خلصائه وخلانه، وتوسع في لوازم الرفاهية، وإتخذ لنفسه أعيانا من اليهود وأعوانا منهم، فأنكر عليه ذلك فقهاء المدينة ووجهاؤها.

تلمسان دار لا تليق بجاهنا ولكن لطف الله نسأل في القضا

فكيف يرجى الخير ممن يسوسه يهود وفجار ومن ليس يرتضى[1].

والظاهر أن الفوارق الأصلية والثقافية، بين سكان تلمسان وبين المهاجرين الأندلسيين، بدأت تتقلص شيئا فشيئا مع مرور الزمن، وأخذوا ينصهرون جميعا في البيئة الثقافية المحلية للمدينة، فأثروا وتأثروا وإصطبغوا جميعا في نهاية المطاف بالطابع التلمساني المميز.

[1]– الشاعر أبو عبد الله محمد بن مرزوق الحفيد المتوفى سنة 842هـ/1439م.

وفقد الأندلسيون الكثير من خصوصياتهم، التي كانوا يتميزون بها وتخلوا عن ذلك التضامن والتكافل، الذي كانوا يحرصون على التمسك به، على أساس أنهم يمثلون الأقلية في المجتمع التلمساني، غير أنّ الفقر الوثائقي وإنعدام النصوص في هذا المجال، حالت دون تحديد عددهم في مدينة تلمسان، أو تقدير نسبتهم بين السكان، إلاّ أنه يمكن القول بأنهم كانوا يمثلون العنصر الثالث، في المجتمع التلمساني، وأن تأثيرهم الثقافي والإقتصادي والسياسي كان قويا، وإذا إعتبرنا أن مدينة تلمسان، عاصمة بني زيان، كانت المقصد المفضل لهذه الجالية الأندلسية، وإن المصادر التقليدية لا تتحدث إلاّ عن الأعلام المعروفين، الذين قاموا بأدوار بارزة، في الميادين المختلفة، كأسر الأدباء والأطباء والعلماء والكتاب والوزراء والقائمين على الأشغال الكبرى، كالمهندسين والعاملين في الميدان المالي والإداري، فإن هناك بدون شك عددا هائلا من العائلات التي حطت عصا التّرحال بمدينة تلمسان وضواحيها، المتكونة من الحرفيين والتجار والفلاحين والأطر الإدارية المتوسطة والمعلمين، إستقرت بصفة نهائية بمدينة تلمسان وفي وادي الوريط، حيث كانوا يعملون في الحقل الفلاحي والصناعي والتجاري والتربوي، وفي غيرها من مدن المغرب الأوسط الساحلية منها والداخلية، حتى أصبح الطابع الحضاري لأهل تلمسان، يكاد يكون طابعا أندلسيا نلاحظه في الفضاءات العمرانية، ونميزه في مختلف البناءات الدّينية والدنيوية، وفي التراث الفني والشعري والموشحات، فضلا عما كانوا يتمتعون به، من حرف متطورة وصناعات وفنون مختلفة، طعمت النهضة المغربية، وغذت معظم روافدها، لأن معظم المدن الساحلية للدولة الزيانية، كانت تقطنها جاليات أندلسية كثيرة في مدينة **هنين،** التي تقابل مدينة **المرية،** و**مستغانم** التي تقابل مدينة بشرق الأندلس، ولا تبعد عنها إلا بنحو يوم وليلة.

الهجرة الأندلسية إلى تلمسان القديمة

أعطى السلطان **يغمراسن التلمساني،** أهمية كبيرة لموضوع المهاجرين الأندلسيين، وإنّ الظهير الذي أصدره في شأنهم، يؤكد على العناية الكاملة بهم، ويكرم نبهاءهم وأعيانهم غاية الإكرام، ويبيّن حقهم في السكن والتملك للأراضي الزراعية المناسبة لنشاطهم، في أرضهم المفقودة بالأندلس1، حتى يشعرون بالأمن والتسلية عما فقدوه في وطنهم، ويبدو أنّ العاصفة الدّينية والأخوية والإنسانية كانت لها أثر كبير في إصدار ذلك الظهير، الذي يتطرق إلى وضع هؤلاء الأندلسيين وإلتماس المكان المناسب لهم، للإقامة ومطالبة الجميع، وحثهم على تنفيذ الأوامر الصادرة في هذا الشأن، ويتكئ هذا الظهير على ما لحق بالأندلسيين من مصائب، في عقيدتهم وفي أموالهم وأوطانهم، وينص الخطاب الرسمي في الظهير على أنّ يغمراسن: (بوّأهم من إهتمامه الكريم وإنعامه العميم جنات ألفافا).

[1]– محمد رزوق "الأندلسيون وهجراتهم إلى المغرب خلال القرنين 16–17 إفريقيا الشرق"، ص 160، 1998 م.

ويصرّح **إبن الخطاب بأن يغمراسن**، فضل أن يسكن المهاجرين الأندلسيين مدينة **تلمسان**، عن جميع المدن الأخرى1، وفي هذا الصدد يقول: (وأطلع يغمراسن على أغراضهم الأندلسيون السديدة في إختيار حضرته السعيدة للسكنى، على سائر البلاد، فلحظ منهم النية وإعتبرها وأظهر عليهم مزايا مالهم من هذه... وأذن أيده الله لهم ولمن شاء من أهل تلمسان).

وأن ظهير يغمراسن يجعل من منحه السكن، ووسائل أخرى لهؤلاء، هو تهدئة لنفوسهم المصابة من ظلم خصومهم وأعدائهم، وطمأنتهم على حاضرهم ومستقبلهم وفي هذا يقول **ابن خطاب**: (ووطأ لهم جناب احترامه تأنيسا لقلوبهم المنجاشة إلى جانب العلي واستلافا، وأشاد بماله فيهم من المقاصد الكرام، وأضفى عليهم من جنن حمايته ما يدفع عنهم طواق الإضطهاد)،

ولعل أكبر جالية أندلسية نزلت بتلمسان، هي التي كانت في عهدي الأميرين **عبد الواحد بن أبي عبد الله** (814هـ-827هـ/1411م-1424م)، وخلفه **أبي العباس أحمد الزياني** (834هـ-862هـ/1431م-1462م)، وقد إستقبلهم هذا الأخير بحفاوة ووجههم حسب طبقاتهم وحرفهم، فالعلماء والوجهاء وسراة القوم، أنزلهم عاصمته مدينة تلمسان، وأنزل معهم التجار والحرفيين، وأصحاب رؤوس الأموال في درب خاص بهم، عرف بدرب الأندلسيين.

كما قام بإسكات العامة والفلاحين ضواحي المدينة وأحوازها، ولاسيما في وادي الوريط فإنتشروا على ضفتيه، حيث شيدوا قرى وبساتين وأسسوا مصانع عديدة ومتاجر كثيرة، وغرسوا الحقول والمزارع المختلفة الثمار، فجلبت للبلاد، وأهله الخير والنعمة، ويشير إلى ذلك **ابن الأعرج** بقوله: **"**وأظهروا هناك من صنائعهم ومتاجرهم، ما عاد بالنفع على البلاد وأهلها وملئوا تلك الشعاب من البساتين المتنوعة الثمار، وأنواع الرياحين والأزهار... "

واتصلت مساكنهم بذلك الوادي إلى نهر السفسيف، أقاموا بها عمارة بقيت آثارهم بتلك الشعاب العميقة ذات الأدراج المؤنقة والمياه المتدفقة، والثمار المتنوعة، وقد وصلت قرى هذه الجالية الأندلسية إلى جبل بيدر حيث توجد زاوية الشيخ **أحمد بن محمد المناوي الحسني** المتوفي سنة (930هـ/1524م)، و إلى مداشر الشولي وعين تالوت، التي برز فيها العالم **علي بن محمد التالوتي الأنصاري**، وهو أحد إخوة الإمام **السنوسي التلمساني** المتوفي سنة (895هـ/1489م)، ومدشر عين فزة وغيرها من المداشر والمعاهد التي ذهب رسمها، ولم يبق إلا إسمها، في ضواحي مدينة تلمسان وأحوازها.

فقد حددت درجة الثقافة ونوعيتها والمهنة، التي كان يحترفها المهاجرون الأندلسيون المكان والوظيف، الذي يتناسب مع طبائعهم وإختصاصهم الحرفي والمهني، فأهل البادية والزراعة وجهوا إلى المناطق التي تكثر فيها الفلاحة، ووجه المثقفون والتجار والحرفيون وأصحاب رؤوس الأموال، إلى مدينة تلمسان

[1]– مصطفى الشكعة "المغرب والأندلس آفاق إسلامية وحضارة إنسانية"، ط1، دار العلم للملايين 1987.

عاصمة بني زيان، أما أصحاب الملاحة والصيد البحري، فإستقروا بالمدن الساحلية، ويؤكد ذاك قول المقري: "ولما نفذ قضاء الله، على أهل الأندلس بخروج أكثرهم عنها في هذه الفتنة الأخيرة، فتفرقوا ببلاد المغرب من بر العدوة، حتى بلاد إفريقية، فأهل البادية قد مالوا إلى البوادي، إلى ما إعتدوه ودخلوا على أهلها، وشاركوهم فيها، فإستقوا المياه، وغرسوا الأشجار وأحدقوا الأرض، وعلموهم أشياء لم يكونوا يعلمونها ولا رأوها، فشرقت بلادهم وصلحت أحوالهم".

وقد إستمر تدفق الهجرة الأندلسية وتقاطرها، على مدينة تلمسان ودار الإسلام في بلاد المغرب وإفريقية بدون إنقطاع، إثر وبعد سقوط غرناطة وزوال دولة **بني الأحمر** سنة (897هـ/1492م)، ومما تجدر ملاحظته أن هؤلاء المهاجرين[1]، قدموا إلى بلاد المغرب الأوسط- كما وضحنا سابقا- في مجموعات (جاليات) موزعة في الزمان والمكان، وبالرغم من أنهم لا يختلفون كثيرا على السكان المحليين، من حيث اللغة والعرق والدّين واللباس والطبائع، إلاّ أنهم ظلوا محافظين على مميزاتهم وخصوصياتهم الأندلسية، والبعض من عاداتهم وتقاليدهم، ونمط حياتهم، كما كانوا كثيرا ما يظهرون، الإعتزاز بأصلهم، وبإنتمائهم الجغرافي الأندلسي، وكانوا يمتهنون مختلف المهن والصناعات.

وقد أقدم المحترفون بالفلاحة، على تطوير الزراعة، وتجديدها بإستعمال أساليب وطرق زراعية متطورة، في ضواحي مدينة **تلمسان**، وخارج أسوارها ولاسيما على ضفتي وادي الوريط، واختص آخرون بفن البناء والعمارة وصناعة الجلود، وفن الخطوط والتعليم وتجارة الخشب، بينما إتجه آخرون إلى الإشتغال بالتجارة، ومختلف الصناعات المفيدة، من طرز ونسج الحرير، وحياكة القطن، والكتان، وغزل الصوف، وقاموا بتطوير صناعة الفخار والخزف، وأنواع عديدة من السلاح، وسائر الأواني والأدوات المنزلية المعروفة آنذاك، ويؤكد ذلك المؤرخ **ابن الأعرج** بقوله: "وكان لعهد نزول الأندلسيين بها تلمسان مزدانة بالمصانع المفيدة، فما شئت من أطرزه ومنسوجات الحرير، والقطن والكتان والصوف، ومعامل الفخار والخزف وأنواع السلاح، وسائر الأواني المنزلية، وقوله في مكان آخر أنهم: نشروا بين الناس آدابهم وراجت مصانعهم، وقلدهم الناس في فلاحتهم، وإعتنائهم بغرس الزيتون، وسائر الفواكه، حتى صارت البلاد وأهلها في حالة زاهية وعيشة راضية، وعمل بعض الأندلسيين، في صفوف الجيش الزياني، كجنود وضباط في الفرق العسكرية، فقد استعمل منهم **أبو يحي يغمراسن**، **إبراهيم الآبلي** وأخاه **أحمد**، في سلك الجندية، حتى صار **إبراهيم** قائدا عاما لمدينة هنين.

فبالإضافة إلى الشرائح الإجتماعية الأندلسية التي ذكرناها، توجد من بينهم طبقة هامة من المهندسين والبنائين واليد العاملة الفنية، التي أرسلها السلطان الغرناطي **أبو الوليد** (713هـ-725هـ/1313م-1325م)، إلى مدينة تلمسان في إطار التعاون الفني والإقتصادي والعسكري، الذي كان سائدا بين

[1]– محمود إسماعيل إشكالية المنهج في "دراسة التراث"، رؤية للنشر والتوزيع، ط1، القاهرة 2004 م

تلمسان وغرناطة، فإستعملهم **أبو حمو موسى** وابنه **أبو تاشفين** في بناء القصور والمنازل الفخمة والبساتين الناظرة، وفي هذا الصدد يقول **ابن خلدون**: (فبعث إليها تلمسان السلطان الوليد صاحب الأندلس بالمهرة، والحداق من أهل صناعة البناء بالأندلس، فإستجادوا لهم القصور والمنازل والبساتين).

وكذلك هاجر الأطباء والعلماء، والفقهاء، والأدباء، إلى مدينة تلمسان حاملين معهم مصنفاتهم ومكتباتهم، فإحتضنهم البلاط الزياني بحفاوة، وقلد بعضهم خطط الكتابة والحجابة، وقد اشتهر من بينهم بنو وضاح الوافدون من شرق الأندلس، في بداية عهد **أبي يحي يغمراسن**، فقربهم إلى مجلسه وأنزلهم منزلة الخلو والشورى، فدعم بهم أركان دولته، وجعلهم أداة توازن، وكان الأديب **أبو بكر بن خطاب** مرسلا بليغا وكاتبا مجدا وشاعرا مفوها، جعله يغمراسن كاتبا وصاحب القلم الأعلى في بلاطه، صدرت عنه عدة مراسلات إلى ملوك الموحدين بمراكش، و**بني حفص** بتونس، كما وفدت إلى مدينة تلمسان، أسرة أندلسية اشتهرت بالعلم والأدب والفقه، هي أسرة **بني ملاح** من بيوت مدينة قرطبة.

ومن أسرها من كانوا يحترفون سك النقود، ويتمتعون بثقة كبيرة، ويتصفون بالأمانة، نزلوا بتلمسان مع جالية قرطبة، وتقلدوا وظيفة سك النقود وخطة الأشغال، وزادوا إليها مهنة فلاحة الأرض بضواحي تلمسان، بالإضافة إلى منصب الحجابة، ظلت تلمسان –درة المغرب الإسلامي– تصنع الحدث لقرون وقرون، بوجودها في موقع استراتيجي بين المغربيين الأقصى والأدنى1، ولكونها صنعت كثيرا من الحوادث التي عرفها المغرب الأوسط سواء ما تعلق بقيام الكيانات السياسية المستقلة، أو بتفاعلها مع الدويلات القائمة مشرقا ومغربا، أو من خلال إسهاماتها الحضارية المتنوعة، التي تركت بصماتها واضحة على صفحات تاريخ المغرب الإسلامي، وصارت بذلك تضاهي المدن والحواضر الكبرى في المشرق الإسلامي على غرار دمشق والقاهرة وبغداد.

إنّ إسهامات مدينة تلمسان ودورها الحضاري الرائد في تطريز الحضارة الإسلامية بخيوط ذهبية مغربية مميزة دفعنا إلى التركيز على جانب مهم من هذه المساهرة الحضارية، ودور الجالية الأندلسية في مدينة تلمسان في هذا المجال.

بعد تضعضع كيان الأندلس، وبداية تهاوي الدويلات القائمة في شبه الجزيرة الإبيرية الواحدة تلو الأخرى، لم يجد الأندلسيون وسيلة للهروب من الواقع المحترم إلا الهجرة الأخرى، فأصبحت سواحل المغرب الأقصى، والجزائر من وهران ومستغانم إلى جيجل وبجاية مرورا بتنس وشرشال ملاذا آمنا للمهاجرين الأندلسيين، خاصة بعد انكماش دور دولة بني الأحمر بغرناطة، وتزايد الخطر الإسباني بعد أن انشطت حركة الإسترداد –الريكونكيستا-، وبلغ التكالب المسيحي على مسلمي الأندلس أشدّه، وغدا طردهم من اسبانيا عملا مقدسا تباركه الكنيسة وتحد له رجال الدّين.

[1]– المراكشي "المعجب في تلخيص أخبار المغرب"، تحقيق محمد سعيد العريلن، ص 97، القاهرة 1963 م.

كانت تلمسان واحدة من الحواضر التي عرفت هجرة أندلسية كبيرة نظرا لعدة اختبارات، في مقدمتها العلاقة الوطيدة والمميزة للمدينة مع باقي المدن الأندلسية مند قرون، ودورها الرائد، ونهضتها الثقافية والعمرانية، وحنكة حكّامها وفي مقدمتهم السلطان الزياني **أبو حمو موسى الثاني**، لكن المرحلة البارزة في مسار الهجرة الأندلسية إلى عاصمة الزيانيين جاءت بعد 1492م تاريخ سقوط غرناطة، حيث انتقل الآلاف من – المريسكيين – وهي التسمية التي أصبحت تطلق على مسلمي الأندلس بعد السقوط إلى المدن الجزائرية وفي مقدمتها تلمسان، خاصة بعد أن أصدر الملك الإسباني **فيليب الثالث** قرار الطرد النهائي لمسلمي الأندلس عام 1609م، في خطة لوضع حد نهائي لوجود المسلمين بإسبانيا، وقد سبق هذه المرحلة تسيير عشرات الرحلات البحرية من الأندلس بإتجاه السواحل الجزائرية، أشرف عليها رياس البحر العثمانيون وفي مقدمتهم **خير الدّين بربروس**[1] وأخوه **وبيري ريس**، و**صالح ريس**، الذين أرسلوا أكثر من 500 سفينة لترحيل الأندلسيين عبر عدة رحلات بحرية مشوبة بمخاطر المواجهة مع الجيوش المسيحية في عرض البحر، وهكذا غدت تلمسان شقيقاتها وهران وشرشال والجزائر المحروسة ودلس وبجاية الناصرية مدينة للأندلسيين، الّدين قدر عددهم بعشرات الآلاف، قدموا من مختلف المدن الأندلسية.

وعرف ملوك بني زيان كيف يستغلون الظروف الصعبة لمسلمي العدوة الأخرى من أجل استقطابهم إلى مدينتهم والإستفادة من خبرتهم المختلفة في شتى المناحي والميادين، ولعلّ الأمر السلطاني الذي أصدره السلطان **يغمراسن** بشأن المهاجرين الأندلسيين والتكفل بهم ومنحهم أعلى المراتب خير دليل على ذلك وفي ظرف سنوات عدت العديد من أحياء تلمسان أندلسية المظهر بفضل العدد الكبير من المهاجرين خاصة من العلماء والحرفيين والفنانين والزراعيين، وأنصهر الإبداع الزياني مع الفطنة والبراعة الأندلسية، فإنتحت حركية مميزة وسط المجتمع التلمساني، وأفرزت نهضة ثقافية وعمرانية وإقتصادية، كان للأندلسيين فيها نصيب.

التأثيرات الأندلسية في تلمسان

فتحت تلمسان الزيانية ذراعيها للأندلسيين، وسمحت لهم بإبراز قدراتهم ومهارتهم التي إكتسبوها في شبه الجزيرة الإيبيرية لعدة قرون، ولم تعاملهم معاملة اللاجئين أو المهاجرين المؤقتين، أو النازحين الذين يثيرون الشفقة، بل سمحت لهم بالإنصهار في حركية المجتمع والمساهمة في حركية نسج خيوط نهضة في كل المجالات، وبدورهم لم ينطو الأندلسيون على أنفسهم، فإندمجوا بسرعة في حركية المجتمع التلمساني، وإستغلوا ما إكتسبوه من خيرات على أرض البعدوة الأخرى للسير في ركب الإبداع والإنجازات الحضارية، فإرتسمت ملامح النزوات الحضاري، والتناسق الإبداعي بين الشعبين، ورثت

[1]– مجهول "كتاب غزوات عرّج وخير الدين" الجزائر 1934.

تلمسان مجد قرطبة وغرناطة، فإستحقت بذلك لقب "لؤلؤة المغرب العربي"، وكان للأندلسيين دور بارز في ترصيع هذه اللؤلؤة، ويمكننا إختصار التأثيرات الأندلسية في المجتمع التلمساني في الميادين التالية.

في الميادن الاجتماعي: هاجر الأندلسيون وهم يحملون معهم موروثهم الإجتماعي الذي عرفوه في مختلف المدن والحواضر من بلنسية وقرطبة وغرناطة وإشبيلية، فكانوا أحرص على الإعتزاز بشرفهم ونسبهم ومكانتهم الاجتماعية، وما يترتب عن ذلك من ممارسات في النّشاط اليومي للأندلسيين، ولمّا كانت تلمسان هي الأخرى عاصمة حضارية، ومجتمعها له مكانة رفيعة مما أهّلها للإفتخار والإعتزاز أيضا، بدأ التأثّر واضحا في نمط المعيشة وتسيير الأمور اليومية، فأصبح التنافس في زينة البيوت وفي الملابس الفاخرة، والأكلات، وظهرت الرفاهية في الأحياء وشملت مختلف مظاهر الحياة اليومية للتلمسانيين، فإنتعشت صناعة الأثاث الفاخر وتجارته، وخياطة وطرز الملابس الزاهية وجودتها، وبرزت الحفلات العائلية في المناسبات الدّينية والإجتماعية كالزواج والختان وما إلى ذلك، وفعلا عرفت تلمسان رقيا إجتماعيا فلم نجد له نظيرا في تاريخ الحواضر في تلك الفترة.

في الميدان العمراني: على غرار مدن الساحل الجزائري التي عرفت نهضة عمرانية بعد نزوج الأندلسيين إليها، لم تشذّ تلمسان عن القاعدة، فإستفادت من خبرة المهاجرين الأندلسيين الذين عرفوا براعة عمرانية مازالت آثارها قائمة في قرطبة وغرناطة، وإذا كان الأندلسيون قد أنشئوا مدنا جديدة، وأحبوا مدنا قديمة على السواحل الجزائرية، فإنهم في تلمسان أضافوا بصماتهم ومهاراتهم إلى المعالم العمرانية الموجودة في المدينة وأضفوا عليها الطابع الأندلسي، كما ساهموا في بناء معالم جديدة، سواء منها المساجد والجوامع أو بعض المرافق مثل عيون الماء، وزخرفة البيوت، والنقش على الخشب، وتزيين الحدائق، مع العلم أنّ التعاون بين الأندلسيين وملوك تلمسان في مجال العمران سبق سقوط غرناطة، لكنّه برز بشكل أكثر بعد وصول آلاف المهاجرين1.

في الميدان الاقتصادي: لم تكن الخبرة والمهارة الأندلسية في المجال الزراعي والصناعي لتوقف مع هجرة المسلمين الأندلسيين وطردهم نهائيا من إسبانيا، بل إنتقلت معهم إلى الحواضر التي حلّوا بها، وكان للجزائر المحروسة وتلمسان نصيب الأسد من ذلك، فعمل الفلاحون الأندلسيون المهرة على إستصلاح الأراضي بتلمسان لتكون مصدر رزقهم، وأدخلوا عليها أساليب متطورة كانوا يستعملونها في الأندلس، وحوّلوا محيط مدينة تلمسان –خاصة ضفتي وادي الوريط- إلى حدائق غنّاء ومزارع منتجة، وطوّروا كثيرا من الزراعات، كزراعة الزيتون والحوامض والكرز والتوت، والخضر المختلفة،

[1]– عنان عبد الله "نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين ابن الخطيب"، دار الكتاب العربي، بيروت.

ورسموا في مساحات الأراضي المستصلحة، وجعلوا من تلمسان1 سوقا كبيرا لمختلف المنتوجات الزراعية، وأمّا في المجال الصناعي، فالبراعة الأندلسية والتحكم في التقنيات الصناعية التي تطورت في مدن: بلنسبة وإشبيلية، وسرقسطة، وماردة وغيرها وجدت لها مكانا في مدينة تلمسان، فأضاف الأندلسيون كثيرا للخبرة التلمسانية، واستغلوا الحركية الإقتصادية في المدينة، لإقامة عدة ورشات ومصانع غيرة للتجارة، والحدادة، والخياطة، والمعدّات العسكرية، ورافق التطور الإجتماعي نهضة صناعية شملت طرز الملابس الجلدية والقطنية والحريرية.

وصناعة الأثاث الفاخر، والأبواب المنقوشة، وصناعة الذهب والمجوهرات، وأدوات الفلاحة، وقنوات المياه، وصناعات البارود والمدافع، وإرتبطت بعض الصناعات بعائلات معينة توارثت الصنعة أبًا عن جدْ، وإمتدّ التأثير الأندلسي في مجالي الصناعات قرونا طويلة، ومع التطور المتزايد لصناعة والزراعة، أضفى الأندلسيون2 نشاطا ملحوظا في المجال التجاري بين المدن الجزائرية إنطلاقا من تلمسان مرورا بالسواحل الغربية وصولا إلى السواحل الأوروبية، وبذلك نشطت الحركة التجارية في تلمسان وبرز التعامل بالنقود والعملة الإسبانية والسابقة.

في الميدان الثقافي: كما كان عليه حال الأندلسيين بمدنهم الأصلية من تذوق الفن الرّاقي ونظم الشعر، والتمتع بالموشحات، فإنّهم حافظوا على هذا النمط حين إنتقالهم خارج المدن، فطبعوا المدن التي حلوا بها بطابعهم الفني الأندلسي وكان لإستقرارهم بتلمسان أثر في بعث الحركية الثقافية سوءا بالنسبة لنوع العلماء والفقهاء أو تأطيرهم للمعالج العلمية في المساجد والمدارس، حيث برز العديد من العلماء الذين أضافوا حياتا ثقافيتا على المدينة فأصبحت مدارس تلمسان وجوامعها تعجّ بالمحدثين والفقهاء، والأدباء والمقربين، والخطباء، ودفع هؤلاء بحركة التأليف ونسخ الكتب إلى الأمام.

وساهم الموسيقيون في إطفاء الطّابع الأندلسي على الموسيقى والغناء وبرز الموشح الأندلسي في مقدمة الفنون الغنائية، وصار ينشد في كل المناسبات ويدرّس للتلاميذ والمختصّين، وإنتشرت المدارس الموسيقية في المدينة، وبرز التنافس الشديد بينها وإستمر لقرون من الزمن3.

[1]– المقري (التلمساني) "نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين ابن الخطيب"، دار الكتاب العربي، بيروت.

[2]– سعيدوني ناصر الدين "دراسات أندلسية"، دار المغرب الإسلامي، بيروت 2003.

[3]– بوعياد محمود "جوانب من الحياة في المغرب الأوسط في القرن التاسع الهجري، (الخامس عشر الميلادي"، ش.و..ن.ت، الجزائر 1982.

كما ظهر التأثير الأندلسي على اللهجة المحلية لتلمسان1، وباقي المدن التي نزلوا بها، خاصة أنّ للأندلسيين لهجتهم الخاصة بهم وما يزال نطق كثير من المفردات بطابع أندلسي ملاحظ إلى اليوم في مدن تلمسان وشرشال والدّلس، مثل إدخال:"الـ التعريف" على حلّ المفردات ونطق "القاف ألفا"، إضافة إلى رقة خارج حروف الكلمات أثناء التلفّظ بها، وأصبح لسكان المدن لمحتهم التي تميّزهم عن سكان الأرياف والبوادي، وإنتشرت اللغة العربية إلى جانب الأمازيغية.

كما أثّر الأندلسيون في الخط المغربي بعد أن أدخلوا معهم الخط الأندلسي الذي أخذ مكانة إلى جانب الخط الكوفي والمغربي.

وهكذا نرى أنّ التأثير الأندلسي في مدينة تلمسان كان بارزا وواضحا للعيان، وأنّ مدينة تلمسان بعمقها الحضاري، وتاريخها الضّارب في العمق تفاعلت مع حوادث العالم الإسلامي، خاصة بعد سقوط غرناطة، إذ فتحت ذراعيها للأندلسيين المطرودين، ووفّرت لهم سبل الإبداع وإبراز قدراتهم المتعدّدة فحققت بذلك نهضة خاصة مازالت آثارها شاهدة على ذلك إلى اليوم.

الصناعة والتجارة في تلمسان القديمة

إحتلّت مدينة تلمسان في العهد الزياني مكانة إقتصادية هامة بالمغرب الأوسط، فإعتبرت مركز أعمال ومقر صناعة وتجارة هام بفضل موقعها القريب من الموانئ الساحلية الشمالية ووجودها في مكان تلتقي في الطرق التجارية الكبيرة، وقد أهّلها ذلك لأن تكون سوقا عالمية لمختلف السلع والبضائع المتباينة، القادمة من وراء البحر الأبيض المتوسط، ومن بلاد المغرب والمشرق وجنوب الصحراء.

ومن مميزات تلمسان كمركز دولي للمبادلات التجارية بين الشمال والجنوب والغرب والشرق، الطريقة المحكمة لتنظيم أسواقها، وساحاتها وأزقتها، على نسق جميل بحيث كانت الدكاكين والحوانيت والورشات التابعة لأرباب الصناعة والتجارة مرتبة ترتيبا محكما حسب طبيعة ونوعية البضائع والسلع المصنعة والمعروضة للتجارة2، وكانت التربيعات والرحبات التي يملكها التجار وأهل الصناعة، موزعة على أحياء المدينة ودروبها وفي الأسواق العامة المتخصصة3، وتعتبر الحياة الإقتصادية بمدينة تلمسان نشطة ومتطورة بفضل المخازن والمصانع والأسواق الدائمة والأسبوعية و الموسمية، القائمة بالمدينة وخارجها، وكان أهل تلمسان يفضلون الإشتغال بالتجارة والصناعة ويرغبون فيها، ويقدمونها على غيرها من المهن، حتى أن الشيوخ والعلماء والفقهاء، ضربوا فيها بسهم وافر، فإشتهر الكثير منهم في

[1]– الطمار محمد بن عمرو "تلمسان عبر العصور"، م..و.ك، الجزائر1984.

[2]– الحسن الوزان "وصف إفريقية"، ترجمة: محمد حجي ومحمد الأخضر، بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1983، ط2، ج 1، ص19.

[3]– مارمول كربخال "إفريقية"، ترجمة: محمد حجي وآخرون، الرباط: دار نشر المعرفة، 1988–1989، ج.2، ص299.

هذا الميدان، فقد كانت لهم مصانع للحياكة ودكاكين للخياطة، وغيرها من المهن، في الدروب والأزقة وفي السوق الكبير المعروف بالقيصارية (أوالقيسارية).

ومن أمثال هؤلاء العلماء والفقهاء نذكر **أبو يزيد عبد الرحمن النجار** والخطيب **أبو زيد بن أبي العيش** الذي كان يملك دكانا بجوار المسجد الكبير يستغله للتجارة وكان يعد ملتقى للعلماء والفقهاء، ومنهم كذلك **أبو إسحاق الخياط** الذي كان له محلا لخياطة الملابس بدرب القبابين؛ أما **أبو عبد الله محمد بن مرزوق** فقد كان تاجرا كبيرا له عدة دكاكين تجارية بالقيصارية وفي درب مرسى الطلبة، يبيع فيها شتى أنواع البضائع وينسخ فيها الكتب، وكان المؤرخ **أبو العباس بن القطان** يمارس التجارة لحسابه وحساب **أبي إسحاق التنسي** في دكان في القيصارية إشتراه بأموال هذا الأخير.

وتتركز معظم الأسواق بوسط المدينة، موزعة على الساحات والشوارع، كسوق الخياطين والنساجين، والعشابين والعطارين والصاغة، وسوق الخضر والفواكه ورحبة الزرع.

وكانت المحلات التجارية تؤجر من الخواص وأصحاب العمارات والمنازل ومن الأوقاف ومن والولاة، ويتراوح ثمن إيجارها ما بين ستة دنانير وستين دينارا في السنة، وذلك حسب مساحتها وموقعها، أمّا سوق الحدادين وأدوات النحاس والصباغين، فتقع شرق المدينة، وقد نجد مثل هذه الحرف منتشرة في أحياء متباينة من تلمسان، مثل سويقة إسماعيل، وسوق السراجين والقبابين وسوق منشار الجلد وسوق الكتب، وتوجد الأفران الخاصة بطهي الخزف والفخار والقرميد والآجر، خارج أسوار المدينة ولاسيما في الشمال الغربي، بالقرب من باب القرمادين، وفي الجنوب الشرقي أمام باب العقبة، وكانت معاصر الزيتون تتجمع حول الأبواب وخاصة في الجنوب الشرقي من المدينة، حيث تكثر أشجار الزيتون على طول ضفاف وادي متشكانة، كما تقع الصناعات التي تحتاج إلى الماء وتدار بقوته، على ضفاف الأودية، كمطاحن الحبوب التي أقيمت على ضفة وادي الصفصيف غير بعيدة عن المدينة، وطاحونة بالقرب من البرج الذي سمي بإسمها وهو برج الطاحونة، على بعد عدة كيلومترات من مدينة تلمسان.

كما كان الدباغون والصباغون يلجئون إلى ضفاف الوديان لغسل الصوف والجلود وصبغها ودباغتها، وقد تعود سكان بادية جبل ورنيد، بجنوب تلمسان على تزويد سكان المدينة بالحطب والفحم والعسل والحليب بإستمرار، ولعل أسواق الحيوانات كانت تقع خارج أسوار المدينة وفي ضواحيها وكان للسوق حراس لحراسة الدكاكين والبضائع معا.

3- العلاقات بين تلمسان وغرناطة

لاشكّ أنّ أقطار العدوتين: بلاد المغرب جنوبا، والأندلس شمالا، تبادلا حضريا هاماً عبر العصور، خاصة خلال العصر الوسيط، ورغم أنّ كلا من هذه الأقطار كان يمتاز بخصائص تضفي على حضارته طابعا لا يخلو من عناصر أصيلة، فإن هذه البلدان كلّها قد تأثرت تأثرا عميقا بالحضارة العربية الإسلامية ممّا أدّى إلى قيام علاقات وطيدة بينها، وسهّل الإتصالات بين أهاليها في شتى المجالات من سياسية، وإقتصادية، وثقافية، وفنّية.

وفي هذا الصدد يمكن القول بأنّ مدينة تلمسان، عاصمة دولة بني زيان، كانت لها صلات وثيقة ببلاد الأندلس، ولاسيما بمدينة غرناطة عاصمة بني نصر، وأنّه قد حصل بين الجانبين تأثّر متبادل، وأخذ وعطاء متواصل، ممّا ساهم في إثراء حضارة القطرين مدّة قرون عديدة، وغرضنا في هذا الحديث الوجيز أن نستعرض نماذج من هذه العلاقات مركزين على جانب الحضاري والثقافي الذي بلغت إهتمامنا بشكل خاص، والجدير بالملاحظة أنّ هناك عوامل لعبت دورا رئيسيا في توفير شروط الإستعداد المتواصل والتقارب، أهمها أنّ هذين القطرين هلا من معين ثقافي واحد نابع من حضارات حوض البحر الأبيض المتوسط منذ أقدم العصور، فكلاهما تأثّر بالإشعاعات الفكرية والعلمية والفنية، والنظم السياسية والإقتصادية والإجتماعية التي إنتهجتها شعوب المنطقة خلال العصر القديم1.

ولم يكن إنتشار الإسلام في المنطقة عامل إنفصال وتوقف في المجال الحضاري، بل كان عامل تواصل وتفتح، وحوار مستمر بين شعوب العدوتين، فكانت العلوم الإنسانية والإجتماعية والطبيعية والفنون عند هذه الشعوب إمتدادا لما أنتجه المصريون والفنيقيون واليونان وغيرهم2، وكانت الحضارة العربية الإسلامية خلال العصر الوسيط كله، عبارة عن حصيلة ما وصل إليه العقل الإنساني في ذلك العهد3، كما أنّ المراكز الثقافية الكبرى في العدوتين بمدن تونس، وبجاية، وتلمسان، وفاس، ومراكش، وقرطبة، وإشبيلية، وغرناطة، وغيرها، كانت ينابيع حضارية، نهل منها العلماء والأدباء والفنانون من مختلف الأنحاء4.

[1]- قدري حافظ طوفان، "تراث العرب العلمي في الرياضيات والفلك"، دار الشروق، بيروت، القاهرة: 1963، ص: 35-46. انظر: ليفي بروفنسال، "حضارة العرب في الأندلس"، ترجمة: ذوقان قرقوط، بيروت، ص:77-111.

[2]- انظر: "قدري حافظ طوقان"، المرجع السابق، ص:47-465، آلدوميلي، المرجع السابق، ص:351-422.

[3]- انظر: عبد المنعم ماجد "العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى"، مكتبة الجامعة العربية، بيروت،1966، ص:227-260

[4]- آلدوميلي المرجع السابق، ص 423-484.

في هذا الجو المتسم بروح الترابط الثري والإتصال المثمر، تبلورت العلاقات بين المغرب الأوسط وبلاد الأندلس، وتمحورت في مرحلة أولى حول التبادل التجاري بشكل خاص، ثم إزدادت قوة إبتداء من عهد المرابطين، حيث أنّ كلا القطرين أصبح تابعا لدولة واحدة هي دولة المرابطين، فتزايد حجم التبادل الإقتصادي والحضاري بينهما، وتأثّر الفن المعماري المغاربي بالفن الأندلسي، كما يشهد على ذلك الجامع الكبير بتلمسان، بينما أخذ العلماء والأدباء يزدادون إتصالا بعضهم ببعض، وساهمت الرحلات العلمية في تطور الحياة الفكرية بالعدوتين1.

وقد حفظت لنا المصادر والآثار أخبار كثير من رجال الدّين والعلم والفن، الذين قدموا من الأندلس إلى تلمسان، وساهموا في دفع التطور الحضاري بها، خلال تلك الفترة، مثل **ابن غزوان**2، الذي نزل تلمسان في عهد المرابطين ونشر العلم بها، وتوفي سنة (524هـ/ 1130م)، ومثل الولي الصالح **أبي مدين بن الحسين الإشبيلي**3، الذي ذاع صيته في مختلف أنحاء المغرب الإسلامي أيام **يعقوب المنصور الموحدي**، وتوفي قرب تلمسان سنة(594هـ/1197م)، فدفن في رابطة العبّاد، خارج المدينة شرقا، وكان ضريحه محل احترام وتبجيل الزائرين، الوافدين إليه من سائر أنحاء المغرب العربي.

ولأبي مدين شعيب أشعار وحكم، كان لها أثر هام في إنتشار التصرف بين أهالي المنطقة، وعنايتهم بالشعر الصوفي الأندلسي وبتأليف كبار الصوفية، ومن علماء الأندلس الذين نزلوا مدينة تلمسان آنذاك وإستقروا بها **أبو بكر بن سعادة الإشبيلي**، الذي تخرّج على يده كثير من علمائها في الحديث وغيره من العلوم الدّينية، وتوفي بها سنة(600هـ /1203م)، ولا يفوتنا في هذا الصدد أن نذكر الولي الصالح **أبا عبد الله الشويذي الإشبيلي**، الذي عاصر أواخر عهد الموحدين، وساهم أيضا في نشر التصوف في تلمسان، في شكله الشعبي المتمثل في نزعة الزهد والخلوة، ودفن بها خارج باب علي، فكان قبره محل إقبال الزائرين.

والجدير بالملاحظة أنّ تلمسان كانت خلال هذه الفترة تمتاز بنشاط ملحوظ في المجال الإقتصادي نظرا لأهمية صناعتها التقليدية، من نسيج وحياكة وطرز وغير ذلك، التي كان لها شهيرة في العديد من الأقطار، ولمنتجاتها الزراعية الوافرة، ولموقعها الهام في ملتقى الطرق التجارية، ممّا جعلها مركزا

1- انظر: إحسان عبّاس "تاريخ الأدب الأندلسي" دار الثقافة، بيروت، 1969-416، أحمد شلبي "التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية"، ج4، القاهرة، 1969، ص:120-156، عبد المنعم ماجد المرجع السابق، ص: 226-218.

2- عن ابن غزلون انظر: ابن بشكوال "الصلة"، ج1، رقم: 169، ص: 77.

3- عن "أبي مدين شعيب الاشبيلي" انظر: ابن الزيات النادلي، "التشوق"، رقم:162، ص:316-325، ابن الآبار "التكملة"، ج2، رقم: 2015، ص:715، المقري "نفح الطيب"، ج9، ص:342-351، ابن مريم "البستان"، تحقيق: محمد ابن أبي شنب الجزائر، 1908-114، ابن قفذ القسنطين "أنس الفقير"، ص:11-20،محمد رشيد مولين "عصر المنصور الموحدي"، "الباط"، مطبعة الشمال الإفريقي، ص: 259.

رئيسا للتجارة الرابطة بين بلاد السودان جنوبا وأوروبا الغربية شمالا من جهة، وبين الشرق والغرب من جهة أخرى، وقد نتج عن ذلك إزدهار تلمسان في سائر المجالات وتطلعها الحثيث للتعامل مع الأسواق الخارجية، وأقربها بلاد الأندلس.

غير أنّ إتصالات تلمسان بالأندلس لم تبلغ أوجها إلاّ عندما أسّست الدولة الزّيانية سنة (633هـ/1235م)، تراثها المعماري والفني، وإنماء نشاطاتها الإقتصادية، ولاشك أنّ بلاط ملوك الدولة الزيانية ازدان بإقبال العديد من الأندلسيين عليه، فأكرموا مثواهم وأسندوا إليهم وظائف هامّة، فكان عهد أبي تاشفين الأوّل من أزهى عهود الإنجازات العمرانية، وتمّ خلاله تشيد أفخم قصور تلمسان مثل **قصر أبي فهر**، و**دار السرور**، و**دار الملك**، وتأسيس **المدرسة التاشفينية**، وقد أشار **يحي ابن خلدون** إلى إنجازات **أبي تاشفين الأوّل** قائلا: فخلد آثارا لم تكن قبله الملك، ولا عرف لها بمشارق الأرض ومغاربها نظير1.

وذكر أنّه إستعمل في إنجاز هذه الأعمال آلافا عديدة من فعلة الروم –أي الإسبان– من نجارين وبنّائين وزليجيين، وزواقين، وغير ذلك مع حذفه بالإختراع وبصره في التشكيل والإبتداع2.

وكان الملوك بني زيان مؤسسة دار الصنعة التابعة للدولة، لإنتاج الأسلحة والعتاد الذي هي بحاجة إليه، وقد وصفها **يحي ابن خلدون** فقال: إنّ دار الصنعة السعيدة تموج بالفعلة على إختلاف أصنافهم وتباين لغاتهم وأديانهم، فمن درّاق ورمّاح ولجّام ودرّاع ووشّاء وسرّاج وخبّاء ونجّار وحدّاد وصائغ دبّاج وغير ذلك، فتستق لأصواتهم وآلاتهم الأسماع، وتحار في أحكام صنائعهم الأذهان، وتقف دون بحرهم الهائل الأبصار، ثمّ تعرض كل يوم مصنوعاتهم فيه بين يدي الخليفة أبده الله3.

فهذا القول إن دلّ على شيء فإنّما يدل على أنّ الصناعة التقليدية التي أشاد بأهميتها الجغرافيون مثل **البكري**، و**الإدريسي**، و**الزهري** خلال عهد المرابطين والموحدين، قد إزدهارا أيام الزيانيين، ولا شك أنّ العديد من الأندلسيين المسلمين والنصارى قد ساهموا في ذلك التطور الملحوظ بقسط وافر، إلى جانب العناصر المحلية.

---

[1]– عن أبي سعادة الاشبيلي انظر: ابن الآبار المصدر السابق، ج1، رقم: 879، ص 284، يحي ابن خلدون "بغية الرواة"، تحقيق: عبد الحميد حاجيات ج1ص 129، ابن مريم المصدر السابق، ص227.

[2]– عن أبي عبد الله الحلوي انظر: يحي ابن خلدون المرجع السابق ص 127–128.

[3]– الزهري "كتاب الجغرافية"، تحقيق: محمد الحاج صادق، مجلة الدراسات الشرقية، المعهد الفرنسي بدمشق، سنة 1968، ص 194، الإدريسي "المغرب العربي"(من كتاب نزهة المشتاق) تحقيق: محمد الحاج صادق، ص 100–101، يحي ابن خلدون المصدر السابق، ص91–92.

ويلاحظ التواصل نفسه في المجال الثقافي، حيث أنّ كثيرا من علماء تلمسان وفقهائها وأدبائها كانوا يرحلون إلى الأندلس للقاء رجال العلم والأدب، أو لأغراض أخرى، ويستقرون بها أحيانا، مثل الشاعر **أبي عبد الله ابن خميس،** الذي رحل إلى غرناطة وأقام بها في خدمة الوزير **ابن الحكيم،** إلى أن توفي بها سنة (708 هـ/ 1308م).

وقد إستفادت تلمسان كثيرا من هجرة العلماء والأدباء والكتاب وكبار الموظفين إليها، قادمين من مختلف أنحاء الأندلس، وقد نبه ذكر كثير منهم وذاع صيتهم، وكان لهم أثر فعّال في تدعيم النشاط الثقافي والفني، والمشاركة في سير شؤون البلاد، وإذا كان من المستحيل حصر عددهم فلعلنا نستطيع تبين الدور الهام الذي لعبوه في هذه الميادين بذكر بعض المشاهير من بينهم كنماذج وأمثلة.

فمن أشهرهم **أبو بكر محمد بن الخطاب الغافقي المرسي،** الكاتب البارع، الذي كان كاتبا لملوك بني نصر بغرناطة، ثمّ عاد إلى بلدته مرسية، غير أنّ أوضاعها لم تكن مستقرة، فغادر الأندلس وقدم إلى تلمسان في عهد **يغمراسن بن زيان،** وكتب له ثمّ لولده أي **سعيد عثمان،** إلى أن توفي سنة (686هـ/1287م)1.

ومنهم **بنو الملاّح** من أهل قرطبة، الذين كانوا يشتغلون بحرفة صياغة الذهب والفظة، ونزلوا تلمسان في جملة من هاجر إليها من جالية قرطبة، فزاولوا بها حرفتهم، واستعملهم ملوك بني زيان في أشغال دولتهم، وعينوا في وظيفة سكنة الدنانير والدراهم، وزادت حظوتهم في عهد **أبي حمّو موسى الأول** الذي عين في الحجابة **محمد بن ميمون ابن الملاح،** وبقيت الحجابة في أسرته إلى وفاة هذا السلطان سنة (718هـ/1318م)2.

ومن أشهر العلماء **أبو عبد الله الآبلي،** الذي يرجع أصل أجداده إلى مدينة آبله بالأندلس، نشأ بتلمسان في كفالة جده القاضي **ابن غلبون،** وأخذ العلم بها، ثمّ رحل إلى المشرق، ولقي كثيرا من علمائه، ثمّ عاد إلى تلمسان وفيها ظهر نبوغه في الرياضيات والعلوم العقلية، ثمّ رحل إلى المغرب الأقصى فلقي **أبا العبّاس ابن البنّاء** بمراكش، ثمّ استقر بفاس، حيث عينه **أبو الحسن المريني** في مجلسه العلمي، وصحبه مع غيره من العلماء في حركته إلى الأندلس، ثمّ انتقل معه إلى تونس سنة (748هـ/1347م)، فمكث بها إلى سنة (753هـ/1352م) عندما استدعاه السلطان **أبو عنان المريني،** وتوفي بفاس سنة (757هـ/1356م).

1- نفسه، ص 129.

2- عن بني الملاح انظر: عبد الرحمان ابن خلدون كتاب "العبر"، ج7، ص 217-218.13-

لقد كان الآبلي من أبلغ رجال عصره وأذكاهم، وساهم في تكوين جيل من مشاهير العلماء، فمن تلاميذه **عبد الرحمن ابن خلدون**، الذي أخذ عنه كثيرا من مظرياته الأمعة في التاريخ وعلم الإجتماع، وكذلك أخوه **يحيى**، مؤلف كتاب **"بغية الرواد في ذكر من بني عبد الواد"**، و**المقري** الكبير، **وأبو عبد الله الشريف**، و**ابن مرزوق الخطيب**، و**سعيد العقباني**.

ومن كبار رجال غرناطة الذين حلّوا بتلمسان **لسان ابن الخطيب** الوزير، الأديب، المؤرخ، الشاعر، الذي أقام بتلمسان حوالي سنتين، قادما إليها من غرناطة سنة (772هـ/1370م)، أيام استيلاء **عبد العزيز المريني** عليها، فأخذ عنه كثير من علماء تلمسان، واستفادوا من علمه وأدبه، ولازمه **يحي ابن خلدون**، كاتب السلطان **أبي حمّو الثاني**، وأخوه **عبد الرحمن**، ثمّ رحل **لسان الدّين** إلى فاس حيث حظي بتكريم السلطان **عبد العزيز المريني**.

ولمّا ضاقت أحواله بعد وفاة هذا الأخير وألقي به في السجن بذل **يحي ابن خلدون** ما أمكن من الجهود لإنقاذه ولكن بدون جدوى، وبعث **لسان الدين** إلى **أبي حمّو موسى الثاني** رسالتين ضمّنهما قصيدتين رائعتين استصرخه بهما، طالبا منه أن يشفع فيه لدى سلطان غرناطة **الغني بالله محمد بن نصر**، من أجل التدخل لإطلاق سراحه، وذلك في أوائل سنة (776هـ/1374) إلاّ أنّ المنية عاجلت الوزير الغرناطي قبل أن يتمكن أبو حمّو الثاني من تلبية طلبه.

هذا وقد أعجب لسان ابن الخطيب بمدينة تلمسان، واستطاب المقام بها، ومن شعره في وصفها قوله:

حــــيا تلمسان الحــيا فربوعــها * صـدف يجود بـدروها المـــك
ما شئت من فضل عميم أن سقى * أروى و مـن ليس بالممنــون
أو شئت من دين إذا قدح الهـــدى * أورى، ودنيـا لـم تكـن بالـدون
ورد النسيـم لــها بنشــر حديقــة * قد أزهـرت أفنانـها بفنـــون1.

وكان السلطان **أبو حمّو موسى الثاني** الذي ولد بغرناطة أدبيا شاعرا، فشجع العلماء والأدباء والشعراء، وأحلهم منزلة سامية في بلاطه، مثل كاتبه **يحي ابن خلدون**، مؤرخ الدولة الزيانية، والشاعر **أبي عبد الله محمد بن يوسف الثغري الأندلسي**، المشهور بقصائده القيمة التي كان يلقبها بمناسبة الإحتفال بالمولد النبوي الشريف، والقاضي **سعيد العقباني** وغيرهم.

والذي ينبغي التأكيد عليه أنّ العلاقات التي تربط بين تلمسان وغرناطة لم تفتأ تتسم بطابع التعاون والتضامن وحسن الجوار طيلة عهد دولة بني نصر، حيث أنّ جيش هؤلاء كان يشمل كثيرا من فرسان بني عبد الواد ضمن فرقة الغزاة، كما أنّ العديد من أهل غرناطة وأحيائها الذين غادروا بلادهم نزلوا مدينة تلمسان، واستقبلوا بحفاوة، ومن أشهر هؤلاء **أبو الحسن القلصادي البسطي** الذي نبغ في

[1]– ابن الخطيب "الإحاطة في أخبار غرناطة"، تحقيق محمد عبد الله عنان، مكتبة "الخانجي"، 1974 م.

الرياضيات والفرائض وغير ذلك من العلوم، وحلّ بتلمسان في أواخر عهد بني نصر أثناء رحلته عبر بلاد المغرب والمشرق، ولقي معظم علمائها، ثمّ إلى تلمسان عندما غادر غرناطة نهائيا فأقام بها مدّة قضاها في التدريس والتأليف، وتوفي بباجة من بلاد افريقية سنة (891هـ/1486م).

وممّن هاجر إلى تلمسان أيام سقوط مملكة غرناطة **أبو عبد الله محمد ابن سعد الزغل،** الذي توفي بعاصمة بني زيان سنة (899هـ/1494م)، وهو عم **أبي عبد الله بن أبي الحسن،** آخر ملوك بني نصر، ثمّ استمرت هجرة الأندلسيين إلى تلمسان، وغيرها من أنصار المغرب إلى حوالي سنة(1017هـ/1609م).

ويستنتج مما سبق أنّ مدينتي **غرناطة** و**تلمسان** تشكلان أحسن نماذج التأثير والتأثر الحضاري الذي ظل سائدا بين أقطار المغرب العربي والجزيرة الإبيرية مدّة ثمانية قرون، وأنّ التأثير الثقافي والعلمي والفني، الذي شمل سائر عناصر جزيرة إيبيرية من مسلمين ومسيحيين وغيرهم لم ينقطع بسقوط مملكة بني نصر، بل استمر بقوة وانتشر في سائر أقطار أوربا الغربية مما ساعد على تطور العلوم والثقافة والصناعات فيها، وسمح لها بتحقيق نهضتها الحضارية التي أدت إلى الثورة الاقتصادية الأوروبية الحديثة.

كما أنّ الترابط الذي ميّز العلاقات بين غرناطة وتلمسان قد ترك بصماته في عاصمة بني زيان، بأشكال متنوعة وتتمثل في تقاليد أهلها، وعادتهم ولهجتهم وحرفتهم وترائهم الثقافي والمعماري والفني، وليس أدل على ذلك من ازدهار الموسيقى الأندلسية والصناعات التقليدية بتلمسان إلى عصرنا هذا، وحرص أهلها على الحفاظ على هذا التراث.

4- عمران تلمسان وعماراتها

***الفن:** الفن محاولة تقليد الطبيعة بقصد استثارة العواطف وإبراز ما انطوت عليه من معاني الجمال التي قد تكون مستوحاة من نظرة رجل العلمي.

***الإنسان والفن:** ممّا لا شك فيه أنّ الإنسان منذ أقدم العصور يتذوق الفن، فحبه للفن طبع فيه، فإذا هو اطمأن على نفسه واستوفى حاجاته، بدت فيه مظاهره وإلتفت إلى الكمال بمجرد فراغه مما هو ضروري من أموره العادية، صار يطلب الفن والجمال. هكذا تبدو بعض الفنون بدائية بين الجماعات المبتدئة ثم تتنوع وترتقي بينهما شيئا فشيئا بقدر ما تسمح به بيئتها من الرقي المادي والفكري1.

***أنواع الفن:** الفنون جميعها تصور جمال الطبيعة فمن أجل ذلك سميت الفنون الجميلة وهي أربعة أنواع: الشعر، الغناء، الرسم، والنحت.

[1]– ابن خلدون "مقدمته" ص 252.

الشعر يصور جمال الطبيعة بالخيال ويعبر عنها بالألفاظ، **الغناء** يصور ذلك بالأنغام والألحان ويسمى الموسيقى، **الرسم** يصور ذلك مصطلحا بالخطوط والألوان ويسمى التصوير، والرابع أي **النحت** يصور ذلك بالأشكال ويسمى كذلك الحفر.

الفنون كلها إذن شيء واحد لكن الشعر والغناء أقدم من الرسم والنحت لقلة ما يحتاجان إليه من مواد أولية أما الرسم والنحت وكذا العمارة فأكثر تأخرا منهما لما هي في حاجة إليه من الإستقرار أولا ثم تقدم الصناعة ومعرفة الكتابة وما إليهما وهذا ما يهمني في بحثي.

أطوار الفن العربي

يتجلى في الفن المغربي الطابع الشرقي، بكل وضوح، فالقبات والعقود بأشكالها المختلفة عليها مسحة بيزنطينية والأعمدة عليها مسحة فارسية.

كل من يحقق النظر في الفن العربي يجده ينقسم إلى ثلاثة أطوار: الطور التقليدي، طور التخلص، والطور العربي الخالص.

الطور التقليدي: لهذا الطور علامات خاصة تميزه عن الأطوار الأخرى، فعلاوة على المواد المستعملة في البناء أن هيئة الأبنية لا تزال مقلدة للطراز البيزنطي إذ القناطر منقوشة الشكل ولا وجود لشكل البيكارين المستعمل في الأبنية المصرية المعاصرة لها، وأما القباب فهي على شكل نصف الكرة وأما النقش فهو على الأزهار وأما الأحجار المستعملة في العقود فهي ملساء ومنها ما هو ملون ومنها ما ليس بملون، وأما الزخرفة التي وشيت بها بسائط الجدران فهي ذات أشكال هندسية مشتبكة أو على شكل الأزهار وأخيرا الأعمدة وتيجانها تمتاز بالرشاقة واللّطافة وكل ذلك يشبه ما يراه الزائر في آثار القسطنطينية أو البندقية، وإنما تمتاز الأبنية العربية عن تلك بما أحدثوه من نقوش جبسية محفورة وبارزة، وأحسن مثال للأبنية العربية المشيدة في الطور الأول هو جامع "عقبة ابن نافع" بالقيروان، وجامع "قرطبة الأعظم": ذلك الجامع العجيب الذي لا نظير له في العالم الإسلامي كله ويضاف إلى هذين الجامعين أيضا "الجامع الأعظم" بطليطلة المحول إلى كنيسة بعد استيلاء الأسبان على هذه المدينة(*).

طور التخلص: في هذا الطور بدأ الفن العربي يتخلص شيئا فشيئا عن الطور التقليدي وقد دام هذا الطور نحو القرنين أي الرابع والخامس للهجرة (العاشرة والحادي عشر للميلاد) إذ الأبنية التي شيدها العرب بالمغرب والأندلس في هذه الفترة من الزمن وإن احتوت على البعض من الزخرفة القديمة المعهودة فإن ظواهر التجديد بها شاخصة جيدا مما يدل على الفن العربي قد دخل في طور جديد حيث

(*)– كان هذا الجامع كنيسة قبل استيلاء العرب على هذه المدينة التي كانت عاصمة القوط فلما استولى الإسبان على طليطلة هدموا الجامع وبنوا من أنقاضه الكنيسة الجامعة بحيث لم يبق اليوم أثر ما للجامع الذي كان قبلها.

أنه صار أدق من سابقه وأكثر استقلالا، وأحسن مثال للأبنية المشيدة في هذا الطور هو جامع "القرويين" بفاس و"الجامع الأعظم" أو الكبير بتلمسان ثم ما شيده الموحدون بالأندلس والمغرب الأقصى كقصر إشبيلية ومئذنة جامع "الكتيبة" بمراكش ومئذنة رباط الفتح المعروفة بصومعة حسان ويضاف إلى ذلك بعض القصور المشيدة بجزيرة صقلية كقصر القبة وقصر العزيز ببالرمة، وبإختصار إن هذا الطور الذي شيدت به الأبنية المذكورة هو طور متوسط بين الطور الذي شيد فيه جامع "القيروان" وجامع "قرطبة" وجامع "طليطلة" والطور الذي سوف تشيد فيه أبنية غرناطة، فاس و تلمسان بحيث يستقل الفن العربي استقلالا عن الفن التقليدي ويصير فنا عربيا بحثا لا أثر فيه للفن التقليدي أصلا.

الطور العربي الخالص: يمتاز هذا الطور عن سابقيه بالإبداع في تصميم البناء وفي تصميم كل جزء من أجزائه وبالإكثار من الزخارف المتشابهة في الظرف والرشاقة، تلك الزخارف المشتملة على أحجار الفسيفساء ذات الألوان الزاهية، وعلى البلاط من الملس والرخام وعلى الجبس المنحوت بدقة حتى أنه يلمع لمعانا والمقطع تقطيعا يشمل ألف صورة هندسية تشتبك اشتباكا غريبا وعلى الأكاليل من الزهور التي تخيلوها فنقشوها على جدران أبنيتهم بأتم صناعة، كما يمتاز هذا الطور كذلك بنحت أسماء المشيدين وأشعارهم ورموزهم على ستائر الجدران بخطوط عربية بديعة الحسن تزيد هذه الزخارف رونقا وجمالا مما يدل على لطافة ذوقهم ومبلغ رقي حضاراتهم وازدهار فنونهم وأحسن مثال للأبنية العربية المشيدة في هذا الأخير هو قلعة غرناطة المعروفة ب "الحمراء" فهي النموذج الأمثل لهذا الفن البديع لما احتوت عليه من الحجر الواسعة والأبواب اللطيفة والحمامات الحسنة النظيفة والحدائق الداخلية الأنيقة وقد أضيف إلى ذلك كله مسجد من أجمل وأبهى ما يرى الزائر بل يلقى نفسه مسحورا مأخوذا بمحاسن ذلك العجيب والتناسق المسكر والجمال الخلاب وكثيرا ما يقرأ الزائر على الجدران منحوتا بخط كوفي جميل العبارات التالية "لا غالب إلا الله" أو "عزا لمولانا السلطان فلان" أو آية من القرآن الكريم بل آيات في بعض الأحيان.

خصائص الفن: تتمثل أهم خصائص الفن الإسلامي في العمارة في عروبته وعالميته أي في وحدته التشكيلية التي تعتبر أهم قيمة الجمالية، فإذا كان من الصحيح أنّ العرب أخذوا كثيرا من عناصر فنهم من مختلف الأقاليم الإسلامية فمن الصحيح أيضا أنّ كثيرا من بلاد العرب الحضرية كانت لها فنونها العريقة "كاليمن" و"اليمامة" و"الحجاز" و"الحيرة" و"البصرة"، ولاشك أنّه كان لها دورها العام في تشكيل فنون الإسلام التي تصبح عن هذا الطريق فنون العرب أيضا.

و من أشهر آثار الحجاز القديمة هي الكعبة المكرمة التي كان لها دورها في إضفاء صفة العالية على العمارة الإسلامية من حيث كونها قبلة المسلمين، كان للشكل المكعب وما يلحق به من المربعات والمستطيلات أثرها في تشكيل العمارة الإسلامية في دورها المبكر كما في بيت الصلاة المستطيل أو

الصحن المربع أو المئذنة المكعبة، وهذا ما يفسر ظهور بعض الأشكال الصليبية بطريقة تلقائية في عدد من العمائر الإسلامية سواء في التخطيط أو البناء أو الزخرفة، أصبح التكعيب والتربيع من سمات العمارة الإسلامية والزخرفة وأصبحت الكعبة مصدر الفن الإسلامي وملهمه صانعيه بطريقة أو بأخرى، وهي تضفي عليه خاصيتي الوحدة والعالمية: كأنه الإسلام وروحه.

لم يمنع التكعيب والتربيع من إضافة الشكل المستدير والكروي في العمارة الإسلامية منذ وقت مبكر عندما أقيمت قبة الصخرة بيت المقدس سنة(72 هـ -691 م)، وأصبحت القبة وكذلك العقد من أهم عناصر العمارة الإسلامية1، وبذلك أصبح المكعب أو المربع الذي تغطيه القبة رمزا لإتصال الأرض بأركانها الأربعة بالسماء وقبتها المدورة.

إستخدام وتبادل العناصر في العمارة والزخرفة

من خواص الفن الإسلامي استخدام الأقواس والعقود والقباب بأشكالها المختلفة، وبطرق مبتكرة كعناصر معمارية أصيلة أو كعناصر زخرفية، من أروع النماذج: العقود المزدوجة التي يرتفع بعضها فوق أكتاف بعض في جامع قرطبة، والعقود المنفوخة في جامع ابن طولون بمصر ومن أقدم أمثلة استخدام القباب ما يوجد منها في جامع القيروان وهي التي كان لها أثرها في كل قباب المغرب والأندلس، بفضل جمعها ما بين سمات العمارة والزخرفة جميعا.

تبعا للظروف المحلية، استخدمت مواد بناء مختلفة كالآجر والحجارة، والتي كانت تظهر متبادلة لأغراض زخرفية ورغم ضعف الآخر تمكن البناءون المسلمون من إقامة صروح عظيمة بقي لنا الكثير منها مثل بقايا جامع سامرا ومئذنة الملوية و جامع ابن طلون بالقاهرة، وبقايا جامع إشبيلية، و قصر غرناطة.

الفنون والعمارة الأندلسية

عرف المسلمون الفنون من تصوير ونحت ونقش وزخرفة وموسيقى، كما عرفوا فنون الهندسة والعمارة، كما هو الحال في كل شيء يبدأ بسيطا متواضعا ثمّ يتدرج إلى التطوّر والرقي قليلا قليلا، ومن ذلك أنّ الخلافة الإسلامية منذ عصر بني أمية، حيث اتسعت رقعة الدولة الإسلامية وشملت أركان في آسيا وأوروبا وأفريقيا.

إهتمام العرب بالفنون

بدأت الخلافة منذ ذلك العهد الأموي في الأخذ بأسباب الترف وبمختلف أنواع وبمظاهر العظمة الدنيوية، فبرزت الفنون وأقيمت القصور وزرعت الحدائق واهتم الخلفاء بالفنون ومنها الموسيقى، واستعان

[1]– محمد بن رمضان شاوش "باقة السوسان في التعريف بحاضرة تلمسان عاصمة دولة بني زيان"، ص 200.

العرب بطبيعة الحال، وهم في أول طريقهم للأخذ بأنواع الترف والحضارة بمن سبقهم من الشعوب، فأخذوا من الفن الفارسي و اليوناني و الروماني و البيزنطي كما أخذ عرب الأندلس من الفن القوطي.
ثمّ بدأ الفن الإسلامي يأخذ خطا مميّزا خاصا بالعرب والمسلمين حتى بلغ مستوى رفيعا، فبرعوا في الموسيقى وفي صناعة الزخارف والنقوش والرسوم بأنواعها، وبلغ الفن الإسلامي في الأندلس الغاية.
ومن ذلك المسجد الجامع بقرطبة بناه "عبد الرحمان" الداخل منذ أول حكمه للبلاد بنى المسجد والقصر، ويعتبر هذا المسجد من أروع أمثلة العمارة الإسلامية.

فلسفة الجمال في العمارة الإسلامية

عندما نشاهد الأحياء القديمة ومبانيها القديمة نشعر دائما بتلك البساطة الرائعة ونلتمس التكوينات والقواعد الجمالية التي تتمثل فيها، كالوحدة والإنسجام وحتى الإختلاف (التضاد)، ممّا يجعل تلك البيئة العمرانية غنية ومشوقة ومتجددة دائما، ففي كل مرة تراها تجدها في حلة جديدة وتشعر بشعور مختلف وتلتمس رؤية أخرى، لطالما سألت نفسي ....هل كان المجتمع آنذاك يشعر بالجمالية المتمثلة في أبنيته وبيئته؟

هل كانت هناك قواعد جمالية أو هل كانت تلك (العفويات الجمالية) مقصودة ومدركه من قبل المجتمع والمعمار نفسه؟ يقول الكاتب المعماري الأمريكي ألبرت بوش بروان في كتابه "فن العمارة الأمريكية" أن الفن المحلي هو عبارة عن مسلّمات جمالية ارتضاها المجتمع لنفسه، فأوجد مفردات خاصة به تنبع من متطلباته وتعبر عن احتياجاته ضمن قدراته المالية، أو يمكننا القول بعبارة أخرى إن المجتمع كان يعي مفهوماً جمالياً نابع منه ويتناسب معه، مع إتاحة الفرصة للتجديد والإبداع بما يتوافق مع الهيئة العامة ويتواصل معها، ذكر المعماري رفعت الجادرجي نقطة أخرى، لخّصها في العلاقة بين المالك والمعمار، أو تلك المعرفة بين العائلتين، ممّا يجعل المعمار واقفاً على جميع شؤون المالك من متطلبات ومن رؤى فنية ومن حالة اقتصادية، والأهم هو تلك الحميمة بين المعمار والمالك، محور ثالث أعتقد أنه أثّر على مفهوم الجمال في العمارة الإسلامية[1]، ألا وهو أن المعمار نفسه هو فرد من ان فلسفة الجمال في العمارة الإسلامية تعتمد على الإنتفاعية (الوظيفية) النابعة من الشريعة الإسلامية أو في إطارها العام، فعندما نحلل المفردات المعمارية الجمالية أو الفراغات في العمارة الإسلامية، نجدها تحمل محاور عدة في أسباب نشأتها وتشكلها وحتى تطويرها، فالمشربية مثلاً هي عبارة عن معالجات مناخية لحماية الواجهات والفراغ الداخلي من العوامل المناخية غير المرغوب بها، وأيضا لها هدف آخر ألا وهو توفير الخصوصية للنساء وحمايتهن من أعين الغرباء، ورغم هذين السببين إلاّ أن المعمار لم يقف على تلك الوظيفتين لهذا المفرد بل حاول أن يخرجهما بطريقة فنية أو جمالية حسب رؤيته الفنية.

[1]– ابن الآبار "الحلة السيراء" ج 1، ص ص 163 – 164

أيضا الفناء الداخلي الذي كان أحد المعالجات المناخية، ولكنه أيضا عبارة عن اتصال الساكن مع الطبيعة (الفراغ الخارجي) دونما أن تجرح خصوصيته أو يجرح خصوصية الآخرين، ومع ذلك فلقد رأى المعمار المسلم الفناء بمنظوره الجمالي فأوجد النوافير التي أضفت على الفناء لمسة جمالية بهندستها الراقية مع منفعتها كعامل ترطيب للهواء الحار، هناك نوع آخر من الجمال العفوي في العمارة الإسلامية الذي ينبع من جمال وروعة الشريعة الإسلامية نفسها كالإرتفاعات1، قد جعل من البيئة العمرانية الإسلامية بيئة متناسقة في الإرتفاعات ومتمازجة بحميمة رائعة لدرجة أنك ترى الواجهات للمنازل المختلفة كواجهة واحدة تحمل في ظاهرها الكثير من القواعد الفنية والجمالية، فالجمال في العمارة الإسلامية هو عبارة عن تحقيق وظائف ومتطلبات اجتماعية ضمن الإطار التشريعي(الديني)، أو يمكن القول بأن الجمال في العمارة الإسلامية ذو هدف، وهذا ما يجعل الفن المعماري الإسلامي، فن يجمع الكثير من المتعة والراحة والإكتشافات.

لقد ذكر المعماري سوليفان معماري أمريكي مقولة مشهور "الشكل يتبع الوظيفة" كقاعدة للعمارة الحديثة، وإن كنت أعتقد أن العمارة الإسلامية قد سبقت سوليفان في هذا التعريف منذ زمن، لكن دون أن تتجرد من روحها المحلية وهوية مجتمعها، وهذا ما يجعلها مميزة ولها فلسفتها الخاصة.

المجتمع منغمس فيه ومتشبع بمعتقداته وفكره، لذا فإن رؤيته الفنية أو الجمالية كانت تمر عبر ذلك المنظور الذي تكون لديه.

إن فلسفة الجمال في العمارة الإسلامية تعتمد على الإنتفاعية (الوظيفية) النابعة من الشريعة الإسلامية أو في إطارها العام، فعندما نحلل المفردات المعمارية الجمالية أو الفراغات في العمارة الإسلامية، نجدها تحمل محاور عدة في أسباب نشأتها وتشكلها وحتى تطويرها، فالمشربية مثلاً هي عبارة عن معالجات مناخية لحماية الواجهات والفراغ الداخلي من العوامل المناخية غير المرغوب بها، وأيضا لها هدف آخر ألا وهو توفير الخصوصية للنساء وحماتيهن من أعين الغرباء، ورغم هذين السببين إلا أن المعمار لم يقف على تلك الوظيفتين لهذا المفرد بل حاول أن يخرجهما بطريقة فنية أو جمالية حسب رؤيته الفنية، أيضا الفناء الداخلي الذي كان أحد المعالجات المناخية، ولكنه أيضا عبارة عن اتصال الساكن مع الطبيعة (الفراغ الخارجي) دونما أن تجرح خصوصيته أو يجرح خصوصية الآخرين، ومع ذلك فلقد رأى المعمار المسلم الفناء بمنظوره الجمالي فأوجد النوافير التي أضفت على الفناء لمسة جمالية بهندستها الراقية مع منفعتها كعامل ترطيب للهواء الحار.

هناك نوع أخر من الجمال (العفوي) في العمارة الإسلامية الذي ينبع من جمال وروعة الشريعة الإسلامية نفسها كالارتفاعات، فقول الرسول (صلى الله عليه وسلم): (لا ضرر ولا ضرار)، قد جعل

[1]– فقول "الرسول صلى الله عليه وسلم" (لا ضرر ولا ضرار).

من البيئة العمرانية الإسلامية بيئة متناسقة في الارتفاعات ومتمازجة بحميمة رائعة لدرجة أنك ترى الواجهات للمنازل المختلفة كواجهة واحدة تحمل في ظاهرها الكثير من القواعد الفنية والجمالية.
فالجمال في العمارة الإسلامية هو عبارة عن تحقيق وظائف ومتطلبات اجتماعية ضمن الإطار التشريعي(الديني)، أو يمكن القول بأن الجمال في العمارة الإسلامية ذو هدف، وهذا ما يجعل الفن المعماري الإسلامي، فن يجمع الكثير من المتعة والراحة والاكتشافات.
لقد ذكر المعماري (سوليفان) (معماري أمريكي) مقولة مشهورة "الشكل يتبع الوظيفة" كقاعدة للعمارة الحديثة، وإن كنت أعتقد أن العمارة الإسلامية قد سبقت (سوليفان) في هذا التعريف منذ زمن، لكن دون أن تتجرد من روحها المحلية وهوية مجتمعها، وهذا ما يجعلها مميزة ولها فلسفتها الخاصة

الفن العربي بتلمسان

لم تنفرد غرناطة وحدها بما أنتجه الفن العربي بل شاركتها فيه مدن أخرى بالمغرب الكبير[1]، وبالأخص العواصم الثلاث المعاصرة بها فاس، تونس، و تلمسان إلاّ أن الفن العربي بتلمسان ينحصر في جوامعها وبعض ضرائحها أمّا الدّور والقصور والحمامات والمدارس وغير ذلك من الأبنية القديمة التي كانت تفتخر بها عاصمة بني زيان فإنّها اندثرت وانطمست آثارها وعفت رسومها منذ أمد بعيد بما فعلته يد الإنسان وتقلب الحال والزمان ماعدا مدرسة واحدة فإنّها لا تزال كما كانت عليه منذ عهد المؤرخ العظيم "عبد الرحمن بن خلدون" والإمام "ابن مرزوق الخطيب" والوزير الخطيب والأديب الكبير "لسان الدين بن الخطيب السلماني" الذين طالما ألقوا دروسا بها ألا و هي المدرسة الكائنة بقرية العباد بجوار جامع "سيدي أبي مدين".
الفن العربي التلمساني وإن كان لا يختلف كثيرا عن الفن العربي المغربي والأندلسي من حيث الإبداع في الصنعة وأحكامها والجمال في الزخرفة وإتقانها فإنه لا يخلو من خصائص فمن حيث المواد المستعملة في الأبنية القديمة نجد الرخام الأبيض الذي فرش به صحن الجامع الكبير على سعته ولا يستثني من ذلك الصحن إلا محرابه الذي فرش بالرخام الأسود كما نجد المرمر الذي صنع منه كثير من الأعمدة بتيجانها فمن ذلك العمودان الموجودان بالرواق الأوسط من الجامع الأعظم وأعمدة مسجد أبي الحسن وجامع سيدي الحلوي وكذا أعمدة ضريحي سيدي إبراهيم وسيدي أبي مدين، كما أن أعمدة كثير جئ بها من المنصورة ووضعت خارج جامع أبي الحسن.
كما وضع داخله حوض المرمر جئ به من المنصورة أيضا وذراع ملكي من الرخام جئ به من القيسارية القديمة ويوجد بكنيسة المدينة كذلك حوض آخر من الرخام السماقي استعمل لماء العماد ومن

[1]– أبو عبدلي "التغر الجمالي" ص 14 طبع قسنطينة 1973م.

بين المواد المستعملة نجد أيضا اللوح المصنوع من الأرز في دفّات الأبواب المحفور إطارها حفرات صغيرة على شكل النجوم بحيث أنها تشبه التخاريم.

عمــران تلمســـان

العمران في المفهوم الخلدوني كلمة عامة وشاملة مضمونها واسع ومناحيها مختلف ومتنوعة، وهي تشمل في محتواها جميع النشاطات البشرية وحركية المجتمعات المؤدية حتما إلى النمو الحضاري المحصّل للترف وكثرة النعم.

والمقصود بعمران تلمسان هنا هو عمران المدينة وعمارتها1، أي صورتها المادية التخطيطية ونسيجها المعماري المشكل لكيانها، وهي الصورة المادية للعمران البشري، فيها تتجمع قوته الفكرية والروحية والمادية والإبداعية، ومنها تتوزع إلى ما دونها حضارة وترفا وفكرا، وهو ما ذهب إليه بوات (Poet) بقوله: "المدينة كائن حي جماعيق"، وأوضح هـ.لوفابر (H.lefebre) في كتابه: "التطور العمراني"، العلاقة بين المجتمع وعمران المدينة بقوله: "المدينة انعكاس على الأرض للمجتمع بأكمله، بثقافة، ومؤسساته، وأخلاقه وقيمه، وأسسه الاقتصادية، وروابطه الاجتماعية المكونة أساسا لهيكله الاجتماعي".

تبوأت تلمسان مكانة مرموقة خلال العهد الزياني، خاصة في فترة ازدهارها قبل نهاية الربع الأول من القرن 9هـ/15م، وهي تتكوّن اليوم من ثلاث مدن متتالية هي: أغادير الإدريسية، وتاكرارت المرابدية، والمنصورة المرينية، وتعد تاكرارت المرابطية هي قلب مدينة تلمسان ومركزها.

احتوت هذه المدن الثلاث المكونة لتلمسان على نسيج عمراني دقيق، كانت فيه أغادير الإدريسية وتاكرارت المرابطية مدينة واحدة يحيطها سور، شيده يوسف بن تاشفين لهما بعدما سقطت أغادير في يده، وهدم سورها لمقاومتها له، ثم ضمها إلى مدينة الجديدة تاكرارت، فصارتا مدينة واحدة.

أمّا المنصورة فهي لا تبعد عن الأسوار الغربية لتلمسان إلا بأقل من 500م، وأسوارهما متقابلة، والباب الغربي لتلمسان يكاد يكون على محور مع الباب الشرقي للمنصورة.

لقد تبارى حكام تلمسان الزيانيون في تميزها وإعادة إصلاح ما تهدم منها، وترميم ما كان آيلا للسقوط فيها، وتشييد المؤسسات والمرافق العامة والخاصة بها، كإصلاح وترميم السلطان يغمراسن الجامعي تلمسان المرابطي وأغادير الإدريسي، وبتحول تلمسان إلى عاصمة دولة شهدت زيادة سكانية، وامتد نطاقها العمراني، واتسعت خطتها، وضاقت بسكانها حتى بلغ عدد منازلها في عهد السلطان أبي تاشفين عبد الرحمان حسب رواية -الحسن الوزان- سنة عشرة ألف منزل (ما بين 90 و120 ألف/ نسمة)،

[1]– أ.د عبدالعزيز لعرج جامعة الجزائر (2)، "مجلة الوعي" العدد المزدوج (3–4) جمادي الأولى والثانية 1432 هـ / افريل – ماي 2011.

ونشأت أرياض (أحياء) جديدة، ومنها ربض العباد أو سيدي أبي مدين إلى الشرق، وغيرهما، ومن هنا فإنه يمكن التساؤل عن كيفية تشخيص الخريطة المورقولوجية لمدينة تلمسان، وكيف يمكن تحليل نسيجها العمراني على ضوء هذه الخريطة وذلك النسيج التخطيطي؟

التركيب العمراني لمدينة تلمسان

ليس من السهل القيام بتشخيص دقيق لمدينة **تلمسان،** التي جمعت إرثا **عمرانيا** و**معماريا** تراكم عبر الأزمنة، امتد من المستوطنة الفينيقية، إلى بوماريا الرومانية، فأجادبر أو أغادير الزيانية اليفرنية الإدريسية، إلى تاكرارت المرابطية، ثم الموحدية، فالزيانية، وأخيرا العثمانية.

هذه المدة الزمنية الطويلة وما اعتراها من تراكم عمراني ومعماري[1]، وما دخل عليها من تطور وتغير لعدة عوامل طبيعية وبشرية، تجعل الباحث يتجه إلى التاريخية والمعطيات الأثرية ونتائج الأبحاث والدراسات الميدانية ليستغلها في محاولة إعادة تصور بناء الكيان العمراني للمدينة، مع ما يكتف ذلك من مظاهر الغموض والإحتمال والشك والإكتفاء بالمقربات حيث أعوزت المعلومات، غير أنّ السمات العامة التي تشترك فيها المدن الإسلامية في المغرب والمشرق تجعلنا نفيد منها في إعادة تصور مورفولوجية المدينة، بغض النظر عن اختلاف البيئات الطبيعية والقوالب المحلية.

إنّ بناء المدن الإسلامية يخضع في معظمه لتصور فكري وفلسفي، يمتزج بروح العقيدة الإسلامية والموروث الحضاري الإنساني القديم، ويرتبط بضوابط محددة وشروط معينة ومعايير ثابتة وقوانين مرعية تحقيقا لضرورات الحياة والإكتفاء، ماديا، وتوفيرا للأمن والراحة (وهي الضرورات والمعايير التي أوردتها كتب الفكر العمراني عند المسلمين: (ابن أبي الربيع، أبو زكريا القزويني، قدامة بن جعفر، ابن الرامي، ابن عبدون، الفاراني، ابن خلدون.....الخ).

ومدينة تلمسان لا تختلف في تركيبها العمراني عن المدن الأخرى، واستقراء لما توفر لها من نصوص وخرائط ومخططات يمكن استنتاج معايير علما أنّها كالتالي: فالمدينة تتألف من قسمين: يشير إليهما العبدري في رحلته في حدود 688هـ/1289م بقوله: "وتلمسان مدينة كبيرة، سهلية جبلية، جميلة المنظر، مقسومة باثنتين بينهما سور..."، ويقصد باثنتين أغادير وتاكرارت، وقد فرضت تاكرارت نفسها كمدينة رسمية إدارية، تضم المؤسسات الحكومية والدواوين، وتحولت مع تطور المدينة عمرانيا إلى مركز لها بتوسطه جامعها الكبير.

مركز المدينة ووسطها: ويمثل الحي الإداري والسياسي والديني والثقافي والاقتصادي، وذلك وفقا للنشاطات التي تضطلع بها المؤسسات المنتمية لهذا الحي الذي تعد مدينة تاكرارت المرابطية أساسا لها، وأهم مؤسسات المسجد الجامع، ويلتصق به غربا دار الإمارة، مستقر الولاة المرابطين والموحدين،

[1]– يحي بن خلدون " بغية الرواد" ص 16.

وتغيير اسمها إلى القصر القديم أو البالي بعد تحول تلمسان إلى عاصمة استقطاب عدد كبير من السكان، وفدوا عليها استقرارا بها وانتفاعا بخدماتها، ممّا أدى إلى توسيعها وبناء مؤسسات جديدة.

وقد شرع في القيام بتلك المهمة منذ عهد مؤسس الدولة يغمراسن بن زيان، فقد قام ببناء قصر المشور أو قلعة المشور في الناحية الجنوبية من المسجد، ليكون سكنا له ولأهله، ومقرا لدواوينه وأمواله، خصوصا أنّ دار الإمارة المرابطية التي استقربها في بداية الأمر ضاقت به وبأسرته وحاشيته وخزائنه، ولم تعد قادرة على أن توفر له الهدوء والأمن والراحة لإزدياد أعباء الدولة والمقبلين عليها وما تتطلبه من مراسيم.

ولا شك أنّ هذا الحي المركزي شهد توسعا عمرانيا ومعماريا كبيرا خلال العهد الزياني، تدل عليه تلك المؤسسات التي ورد اسمها في النصوص التاريخية، وبعضها ما يزال قائما إلى اليوم، مثل قلعة المشور جنوب تاكرارت محادية لسور المدينة ومواجهة للمسجد الجامع، ثم مسجد أبي الحسن (بلحسن)1، الذي يحد هذا الحي المركزي في زاويته الشمالية بالناحية الغربية، وإلى الجنوب من مسجد سيدي بلحسن يقوم مركب سيدي إبراهيم المصمودي، الذي يتألف من جامع وضريح بجوارهما المدرسة اليعقوبية، وإلى الشمال الغربي منه يمتد مسجد ومدرسة أولاد الإمام2، وفي الجانب الشرقي من وسط تاكررت ومواجهة للجامع تقوم المدرسة التاشفينية، التي شيدها السلطان الزياني أبو تاشفين عبد الرحمان، وإلى جنوب الشرقي منها المحكمة ودار الحسبة.

وقد أشار إلى ذلك التوسع العمراني والمعماري لمدينة تلمسان الزيانية المؤرخ ابن خلدون ولخصه في قوله: "ولم يزل عمران تلمسان يتزايد إشارة إلى فترتي الدولة المرابطية والموحدية وخطتها تتسع، والصروح بها بالآجر والقرميد تعالى وتشاد إلى أن نزل بها لآل زيان واتخذوها دارا لملكهم وكرسيا لسلطانهم، فاختطوا بها القصور المونقة والمنازل الحافلة، واغترسوا الرياض والبساتين، وأجروا خلالها المياه، فأصبحت أعظم أمصار المغرب، ورحل إليها الناس من القاصية، ونفقت بها أسواق العلوم والصنائع فنشأ بها العلماء، وضاهت أمصار الدول الإسلامية والقواعد الخلافية...".

لقد كان مركز المدينة في المدينة وطبوغرافيتها، وذلك عن طريق شوارع رئيسية تمتد من الشرق إلى الغرب ومن الشمال إلى الجنوب، وهي سمة تشترك فيها معظم المدن الإسلامية مشرقا ومغربا، وقد خضعت تلمسان لهذه الضوابط من حيث اتصال مركزها بمنافذها تبعا لوضعها من حيث تطورها واتساعها، واحدها الطريق شرق- غرب الممتد من باب العقبة بأغادير شرقا مارا بمحاذاة مؤخر

---

[1]- بناه الأمير آلى عئلذؤلئول ام آلىيحىيغلئز م ام يئم، عام 696 هـ.

[2]- شيد هذا المسجد حوالي 710 هـ (1311 م) بأمر من السلطان آلى ح لـه لـهزوئلآ لك.

مسجدها، عابرا باب السويقة متجها غربا إلى باب الخميس، مرورا بالساحة التي تتقدم الجامع المرابطي مما يؤكد وسطية موقعه.

أسواق المدينة

إنّ الحركة التجارية تتطلب إنشاء الأسواق العامة والمتخصصة، والأسواق من المرافق العامة والأساسية في المدن الإسلامية، لذلك كانت تخضع لشروط ومعايير محددة في إقامتها تبعا لتطور النظم التجارية واتساع الحركة الاقتصادية وما كان يعتري الأوضاع السياسية من عوامل الإستقرار والهدوء، أو القلاقل والإضطرابات، مما كان ينعكس على حياة المدينة وسكانها وحكامها ثراء أو فقرا.

وكانت تلمسان بماضيها وموقعها ومحتواها البشري وتراكماتها الحضارية مؤهلة لأن تلعب دورا رياديا في الحركة الاقتصادية للمغرب الأوسط بصفة خاصة والمغرب الإسلامي بصفة عامة، فهي على ما يذكر الإدريسي "حسنة لرخص أسعارها ونفاق أشغالها ومرابح تجارتها...."، وكانت الأسواق تنتظم في محيط القسم المركزي للمدينة، وتتصل مباشرة بالجزء الحرفي لأهميته الإنتاجية، ولما تتطلب الشؤون العامة والحياة اليومية لسكان المدن والأرياف، ولا يستثنى في إنتاج القسم الحرفي إلا ما تعارض مع الصحة العامة من المواد التي قد تثير الغبار أو الدخان أو الروائح الكريهة أو الضجيج، فإنها تبعد خارج أسوار المدينة وتقام في أمكنة تساعد الرياح على إبعاد ضررها.

وكانت الأسواق العامة مفتوحة لكل السلع وكل الأقوام والأجناس، يفدون عليها من القرى والأرياف على إبعاد ضررها1.

وعرفت المدن الإسلامية عموما أشكالا عديدة من المعاملات التجارية انتظمت في أماكن عديدة، فهناك تجارة التصدير والإستيراد، تخص فئة محددة ومحصورة في التجار الكبار أجانب ومحليين، الأجانب يجلبون السلع والمواد ويبيعون، كما يمكنهم أن يشتروا من الأسواق التي يبيعون فيها، ويمكن في الوقت نفسه أن يكون التجار المحليون تجارا جالبين السّلع لمدنهم، وفي كل الأحوال فإنّ هذا النوع من التجارة تختص به طبقة ميسورة ومهنية من التجار.

أمّا توظف أموالها في التجارة أو تقوم هي بنفسها على تجارة إلى الفنادق والخانات فتعرض وتباع لكبار التجار الذين يصرفونها لتجار التجزئة لتباع في دكاكين والأسواق المعروفة بالقيصريات، وكان لتلمسان سوقها المعروف بالقيصرية، والقيصرية أو القيسرية كلمة تعني المقيصر، وهو لقب الأباطرة الرومان ومما يقصد به أهمية السلع المبيعة فيه وقيمتها، وكانت قيصرية تلمسان تقع إلى جنوب الشرقي من الجامع الكبير وهي عبارة عن مساحة واسعة يحيطها سور، وكان أكثرها متخصصا في الأقمشة

[1]– أكثر منتوجات نواحي تلمسان تستهلكها أسواق تلمسان التي تقام في يومي الأحد والاثنين من كل أسبوع وكذا سوق ندرومة التي تقام يوم الخميس.

والمنسوجات، وقد نصّب له أبو تاشفين عبد الرحمان في حائط من حوائطه ذرعا تلافيا للغش والمنازعات بين التجار والزبائن أي فاه بالكيل لقوله تعالى: وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ[1]، وكان بجوار سوق القيصرية فنادق وخانات عديدة، تستقطب التجار أو الوافدين على المدينة من خارجها، ومنهم التجار الأوروبيون، خاصة الإسبان من أهل أراغون، الذين كانت تجارة رائجة بينهم وبين تلمسان حتى خصصت لهم فنادق في وهران وربما في تلمسان أيضا، كما كانت هذه التجارة تدرّ أرباحا وفيرة على تلمسان وعلى خزينة الدولة بما كانت تحصله من هؤلاء التجار من ضرائب جمركية قدرت بعشر الواردات، لدرجة أن رضيت تلمسان بتقديم نصف مداخيلها الجمركية للأراغونيين الإسبان، وما يزال كثير من هذه المؤسسات قائما إلى اليوم في حالة من الإهمال مع تخليها عن وظيفتها الأصلية، أو تحولها عنها لوظائف أخرى.

وكان سوق القيصرية من أشهر أسواق مدينة تلمسان[2]، وهو يشغل فراغا يمتد اليوم من السوق المغطي للخضر والفواكه شرق الجامع الكبير إلى الملحق البلدي لبلدية تلمسان المقابلة للجدار الجنوبي الشرقي للجامع حيث كانت المدرسة التشفينية، وقد هدمتها السلطات الإستعمارية في نهاية الربع الثالث من القرن 19م، ومن هناك إلى الحد الشمالي الغربي لفندق المغرب اليوم، ليلتف إلى نهج السلام ومنه إلى مسجد درب مسوفة، يلي هذا المركز الكبير المتبادل التجاري، أسواق أخرى مجاورة له في موقع يمتد بين الأحياء السكنية ومركز التبادل الرئيسي، وهو أقل شأنا واتساعا، مهمته أعادت توزيع السلع والموارد، وزبنائه الرئيسيون سكان الأحياء، ثمّ الغرباء عن المدينة أو القادمون من القرى والأرياف، تزودهم بما يحتاجون إليه، وتعرف هذه الأسواق الصغيرة بإسم السويقات، وكان لتلمسان سويقاتها، بل كان لكل حي سويقة خاصة به بدكاكينها وحوانيتها إضافة إلى ورش صغيرة تنتشر على مشارف الأحياء تقوم بإنتاج ما تحتاجه المدينة وما تتطلبه القرى والأرياف من مواد مصنعة، ومنها المنسوجات، والأحذية، والأحزمة، والأثاث، والتجهيزات الخيل، والنجارة الخفيفة، فضلا عن المواد الغذائية.

[1]– "سورة الرحمان" الآية 9.

[2]– الشريف الإدريسي "وصف إفريقيا الشمالية والصحراوية ص ص 54– 55 طبع الجزائر 1376 هـ (1957م)، وهو جزء من " نزهة المشتاق في اختراق الآفاق"، اعتنى بنشره هنري بيريس.

أحياء تلمسان ودروبها1

من المميزات الأساسية للتنظيم في أي مدينة إسلامية هي تقسيمها إلى أحياء سكنية تشغل جزءا محصورا ومحدودا في المحاور المخصصة للسكان فيها، وتتكون هذه الأحياء من وحدات سكنية متلاصقة ومتجاورة على شكل منازل تختلف في حجمها واتّساعها باختلاف عدد شاغليها وقدراتهم الاقتصادية والمالية.

وكان التخطيط المادي للمدينة يتكيّف مع توزيع سكانها من حيث القرابة والتجانس أو العصبية، وذلك تسهيلا لعملية التكيف الاجتماعي وسرعته وسهولته وييسر إدارة الحياة بين السكان فيه، والتقليل من النزاعات بينهم، وقد تطور هذا المفهوم مع تطور المجتمع الإسلامي وتعدد أجناسه وأقوامه، فإذا كان الأمر يتعلق في عهد الرسول الكريم محمد صلى الله عليه وسلم بالتخطيط وفقا للعصبية القبائلية مع محاولة إذابتها لتحل محلها العصبية للإسلام، فانّ العصر العباسي على سبيل المثال، اعتمد التّوزيع فيه على التباين بين القوميات لكثرة الشعوب واختلافها وما أنتجته من شعوبية في المجتمع الإسلامي، وما تبع ذلك من صراع القوميات، فلجأت الخلافة العباسية في عهد المعتصم إلى إقصاء العنصر العربي والفارسي لإحلال العنصر التركي محله، وهو سبب أدى إلى تأسيس مدينة سامرا لتكون مدينة للخليفة وأتباعه من الأتراك.

وقد احتفظت المدن الإسلامية في المشرق والمغرب بهذه المبادئ في التخطيط المادي للمدينة، وفي التوزيع السكاني لإحيائها، وهو ما يتضمنه في أسماء بعض أحياء مدينة تلمسان، كحي مسوفة في الجزء الشمالي الشرقي من مركز المدينة المرابطية وتاكرارت، والمعروف أنّ مسوفة هو اسم لإحدى القبائل الرئيسية التي كانت تشكل القوة المرابطية التي أدّت دورا مهما في تاريخ المرابطي.

وتشغل الأحياء السكنية في مدينة تلمسان الساحة المحصورة بين حي الإنتاج الحرفي والأسوار الخارجية للمدينة، ويحتل أكبر مساحة فيها، وقسم إلى حارات أو حومات بالتعبير الشعبي، وسميت بأسماء مختلفة، أمّا نسبة لحرفة كحارة باب الحديد، أو حارة باب السبّاغين، أو لجهة كباب سيدي أبي مدين أو باب سيدي الحلوي، أو سميّة الحارة بإسم عالم أو فقيه كحارة باب علي وحارة باب سيدي اليدون، أو سيدي الجبار، أو أولاد الإيمام أو سيدي زكري أو الوزّان، أو لقبيلة كحي مسوفة وحي ملالة أو لفئة من المجتمع كحارة اليهود.

1– عبد العزيز لعرج "تلمسان عمرانها وعمارتها الدينية" (مجلة الوعي ص29).

ويطلق اسم الدرب في الأحياء السكنية على الشوارع الواقعة بين الوحدات السكنية، وعادة ما يقطع الدرب أزقة لها أبواب تغلق عند غروب الشمس، وتفتح عليها أبواب المساكن المتقابلة أو المنحرفة عن بعضها، كما كان الدرب في أوّله يغطى بغطاء أو سقف خشب صلب متين يقوى على حمل ما يعلوه من بناء بحيث يشكل سقيفة يمكن العبور من أعلاها والاحتماء تحتها من تغيرات الطقس صيفا وشتاء.

أمّا من حيث البناء الهيكل لهذه الأحياء فهي تختلف من حي إلى آخر، وتتّخذ شكلا أشبه بخلية للنحل على هيئات عديدة كهيئة العمود الفقري أو النوع الهامشي منها، أو الخلية الحدية، وهي أشكال لأحياء تتكرر خصائصها في المدن الإسلامية بصفة عامة، ولها مثيلتها في مدينة فاس الحفصية، وللعلم فانّ حيز الأحياء السكنية يتصل بحيز الأسواق بواسطة أبواب تغلق في الليل لأسباب أمنية، وتتميّز الأحياء ببنائها المورفولوجي بتعرج دروبها وأزقتها وطرقها، ولكنها تتّصل بيسر وسهولة بالطرق الرئيسية فيها، وهي بدورها تتصل مباشرة بالشوارع الرئيسية للمدينة المتّصلة بالأبواب الرئيسية المفتوحة على الجهات الجغرافية الأربع.

وقد ارتبط الحي السكني بمرافقه العامة تشغل جزءا وسطا فيه تقوم على خدمته، بل نجد لكل حي مرافقه العامة المتّصلة به مباشرة وملازمة له، ولكنها أيضا تتّصل بالحي الإنتاجي وهمها الأساسي خدمة الحي بالدرجة الأولى ثمّ تصريف الفائض منها إلى الاحتياجات الريفية والقروية، وتتألّف المرافق العامة للحي السكني من عناصر رئيسية كلّها في خدمة سكن الحي، وهي وقف عليهم.

ساحـــة عامـــة

وهي مربعة أو مستطيلة أو شبه منحرفة، يوصل إليه من الشارع الرئيسي الذي يشق مجموع الأحياء في قسم أو جهة من المدينة، وتستغل هذه الساحات في اتصال السكّان ببعضهم لأسباب مختلفة واجتماعهم في ما بينهم، فهي صلة الوصل بين السكان في مجال الأخبار والمعلومات وتداول في القضايا المتعلقة للحي والسكان، وبقدر ما تبدو الأحياء مستقلة بذاتها في مجال مؤسساتها فهي متّصلة ببعضها بواسطة أبواب مفتوحة ممّا يجعل اللحمة بين السكان قويا، سواء كان هؤلاء السكان ينتمون إلى قبيلة واحدة أو لفئة واحدة.

مسـجد الحـي

وهي مساجد صغيرة للصلوات الخمس دون صلاة الجمعة التي تجري في المساجد الجامعة، وهي لذلك تخلو من المآذن إلاّ في القليل منها كمسجد سيدي سنوسي بحي درب مسوفة، و مسجد درب باب زير و مسجد حي أولاد الإمام، و مسجد اليدون، ويختلف موقع المسجد في الحي من حي إلى آخر، ولكن في معظم الأحيان يتّخذ موقعا له في أوّل الحي وبدايته ملاصقا أو مجاورا لساحة الحي كمسجد حي باب زير، مسجد حي سيدي الجبار، ومسجد حي سيدي اليدون، أو على مسافة منها إلى الداخل كمسجد درب

مسوفة، ومسجد حي القران الكبير، ومسجد حي القران الصغير المجاور لمسجد الشرفاء ناما مسجد درب الصباغين فيقع وسط الدرب1.

وتتميز مساجد الأحياء بصغر حجمها وعدم انتظامها أحيانا وخلوها من الصحون (الأفنية الداخلية) إذا ما استثنينا مسجد سيدي البنا كما تختلف في تصميماتها المعمارية، وهي تخضع في ذلك إلى ثلاثة أنماط من الأنظمة المعمارية: الأول النمط المديني ذي البلاطات العمودية على المحراب، والثاني النمط الشامي ذي البلاطات الموازية لحائط القبلة، والثالث يخلو من البلاطات العمودية والأفقية، فهو مغطى بقبة أو أقبية كمسجد القران الكبير.

حمام الصحي

وهو من المرافق العامة للحي، لا يكاد يخلو حي من حمام لأهميته في الصحة العامة2، والنظافة اليومية والأسبوعية، وقد أورد بعض المؤرخين أعدادا ضخمة من الحمامات في المدينة الواحدة، دلالة على ما للنظافة في الإسلام وعند المسلمين من قيمة، لحث الإسلام على النظافة والطهارة التي لا تجوز الصلاة إلاّ بها، وبالتالي فان الطهارة والوضوء الأكبر والأصغر أساسيان في إتمامهما، حتى أصبح ذلك سلوكا عاما لدى المسلمين يقبلون على الحمامات بكثرة ويترددون عليها باستمرار، لا لوظيفتها الدّينية والصحية فقط، ولكنها أيضا باعتبارها أحد أماكن التلاقي والاتصال بين الناس وسكان الحي الواحد.

وحمامات الأحياء صورة مصغرة للحمامات الكبرى الرئيسية في المدينة، وكانت تلمسان تشتمل على حمامات كثيرة3، "ولها خمسة أبواب، ثلاثة منها في القبلة، باب الحمام، وباب وهب، وباب الخوخة...."، وفي العهد الزياني يشير العدري إلى أهمّ الحمامات فيقول: "...وبها حمامات نظيفة ومن أحسنها وأوسعها وأنظفها حمام العالية، وهو مشهور قل إن يرى له نظير..."، كما يشير الحسن الوزان إلى أنّ مدينة تلمسان عدة حمامات، غير أنّه لم يورد تفاصيل عنها، ولاشك أنّ الحمامات التي ذكرها هؤلاء الرحالون هي الحمامات العامة في الشوارع الرئيسية والمساحات العامة في القسم المركزي من المدينة أو على حوافه، وهي المؤسسات الصحية التي يتمسكن الغرباء وأبناء السبيل من ارتيادها دون حرج، أمّا حمامات الأحياء فإنّ إتيان الغرباء لها يكون برفقة أهلها.

ولم تكن المنازل تحتوي على حمامات إلا في القليل النادر، وإن وجدت فهي في منازل الأثرياء لآفة هذه الطبقة من الاختلاط بعامة الشعب لإخلالهم بشروط الحياء.

---

[1]– نفس المصدر ص 30.

[2]– العدري " الرحلة المغربية" ص 10 طبع قسنطينة، (الجزائر).

[3]– البكر في معرض حديثه عن "أبواب الحمامات لمدينة تلمسان".

وما تزال معالم هذه الأحياء قائمة إلى اليوم، بل يمكن القول أنّ أهم مدينة ما زالت تحتفظ بالأسس العمرانية والمعمارية في الجزائر هي مدينة تلمسان، بالرغم ممّا أصابها من الدمار خلال العهد الإستعماري وبعد استرجاع الإستقلال.

المنشآت الدينية لتلمسـان

شهدت تلمسان بمدينتها القديمة والجديدة تطورا عمرانيا كبيرا، كانت العمارة الدينية فيها من أجل الأعمال الحضارية التي أقبل أمراؤها وحكامها وسكانها على إقامتها وتشييد صروحها، وإذا كان كثير من تلك المؤسسات قد اندثر بسبب الحروب والكوارث الطبيعية والتغيرات المستمرة لتطور الحياة وتعقدها، وكذلك بفعل التطور الديمغرافي والتوسعات العمرانية، فإنّ كثيرا من تلك المؤسسات والعمائر التي ترجع لما قبل الإسلام وخلاله ورد ذكرها في متون المصادر القديمة والإسلامية، ممّا يدل على زحم عمراني ومعماري كبير، كما يدلّ على مكانة المدينة وما يحيط بها في عمقها الإقليمي من مناطق تزودها بالموارد التي تحتاجها وتساهم بذلك كله في البناء الحضاري والثقافي للمغرب الأوسط (الجزائر) بصفة خاصة والمغرب الإسلامي بصفة عامة، ولا شك أنّ ذلك الكم الهائل من تلك المنشآت التي كانت قائمة قد لقيت عناية كبيرة من قبل المجتمع في تزينها وزخرفتها بشتى أنواع الفن والصناعة، وما يزال بعضها قائما إلى اليوم، كل ذلك يدل على حذق المعمار التلمساني، وقدرة الصنّاع والفنانين على الإبداع والابتكار واكتساب المعرفة وطرق العمل وأساليب المعالجة في الإنشاء والصناعة، تناقلتها وساهمت بواسطتها في البناء الحضاري لبلادنا.

لقد شيّدت تلمسان عددا كبيرا من المنشآت الدينية كالمساجد والجوامع والأضرحة والمدارس والزوايا والكتاتيب، وشيدت العمائر المدنية السكنية من منازل وقصور وفنادق ودور الصناعة، فضلا عن المنشآت العسكرية والمرافق العامة من أسوار وقلاع وحصون وأبراج وطرق ومحطات تجارية وحدائق ومنتزهات، وسوف نقتصر في هذه العجالة على المساجد الجامعة التي ما تزال قائمة في تلمسان إلى اليوم ويمكن معاينتها والتعرف على مظهرها ومحتوياتها.

أسـوار تلمسـان

تقدم لنا في القسم التاريخي أنّ تلمسان مدينتان: أقادير وتقرارت وأن السلطان يغمراسن بن زيان لمّا استقل بالحكم في "المغرب الأوسط" جعل منها "عاصمة" له بعد أن جمع بين المدينتين وصيرهما مدينة واحدة يحيط بها سور واحد وقال بعض المؤرخين: أن تلمسان كان يحيط بها سوران أي سور داخلي وسور خارجي وأنّ المسافة بين السورين لم تقل عن ثلاثة مائة مترا وأنّ المساحة التي بينهما لم يكن بها من البنيان إلّا الأبراج المعدة لمقاومة العدو والدفاع عن المدينة حين حصاره لها وبعد هذا الاستنتاج عرض لنا مشكلان:

أ – ما هو عدد أبواب السور الداخلي وما أسماؤها؟

ب – ما هو عدد أبواب السور الخارجي وما هي أسماؤها؟

وبعد البحث والتنقيب في النصوص التاريخية وفي الآثار الباقية خرجنا بالنتائج التالية: قال يحي ابن خلدون في كتابه: "بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد" ما نصّه: "ولها خمسة أبواب قبلة باب الجيّاد1، وشرقا باب العقبة وشمالا باب الحلوي وباب القرمدين2، وغربا باب كشوط".

وهي مؤلفة من مدينتين ضمهما الآن سور واحد، وقال الملك أبو الفداء في كتابه "تقويم البلدان ": "لتلمسان ثلاثة عشر باب " فالأول منهما مغربي تلمسان الدار والوفاة والثاني مشرقي لم يزر المغرب ولم يعرف تلمسان وإنّما كان يستقي الأخبار من غيره لكنه كان يذل الجهد في تصحيحها وتحقيقها وهما متعاصران ولذا فإنّ كلا منهما غير مخطئ فيما قاله عن تلمسان فالأوّل اكتفى بذكر الأبواب الكبيرة والثاني ذكر الأبواب جميعها الكبيرة منها والصغيرة من دون تفصيل ولا بيان لأسمائها وقبلهما قال أبو عبد البكري في كتابه "المسالك والممالك" عن أقادير أو تلمسان القديمة: "ولها خمسة أبواب ثلاثة منها في القبلة باب الحمام وباب وهب الخوخة وفي الشرق باب العقبة وفي الغرب باب أبي قرة مع علمنا انه لم يذكر بابا سادسا وهو باب الأرواح الذي –يا لها من مهلة للقدر– لا يزال قائما إلى يومنا هذا وموقعه بالجدار الشمالي من السور القريب من حي القصارين وأمّا تقرارت أو تلمسان الحديثة فإنّ سورها القديم بقي قائما إلى ما بعد عهد الاحتلال الفرنسي وأبوابه معروفة: ثلاثة في الشمال، باب القرمدين وباب سور الحمام3، وباب الحلوي وثلاثة في الشرق، باب زير السويقة أو باب السجان4، وباب الربط5 (الربض في الأصل) وثلاثة في القبلة: أبواب الجياد وباب تقررت6، وباب الحديد (وبين باب تقرارت وباب الحديد يوجد باب رابع كان معروفا بباب التويتة لا يعد من أبواب المدينة لأنه كان خاصا بالدخول للمشور فقط)، وبابان في الغرب: باب كشوط أو باب الجغليلة7، وباب سقا8، ومجموع هذه الأبواب أحد عشر بابا فإذا ضممناها إلى أبواب أقادير الستة صار مجموعا سبعة عشر بابا فإذا طرحنا من هذا العدد

[1]– الجياد جمع جواد وهو الفرس السريع وسمي بهذا الاسم لقرب إسطبل السلطان منه وكان هذا الباب قرب واد مشكانة وجدار بيت الريش من جدران احد أبراجه.

[2]– لا يزال هذا الباب بأبراجه إلى يومنا هذا قرب قباصة.

[3]– كان هذا الباب على يسار باب سيدي البرذعي الحالي.

[4]– باب سيدي أبي مدين الحالي

[5]– عند منتهى نهج الأخوين ابن الشقراء.

[6]– البوبية الآن.

[7]– باب سيدي أبي جمعة الآن.

[8]– قرب باب وهران الحالي.

الأربعة التي هدمها يغمراسن حينما جمع بين المدينتين بهدم سور أقادير وسور تقرارت الشرقي إذ تهدم مع السورين باب أبي قرة من جهة وباب زير وباب السويقة وباب الربط من الجهة الأخرى فبقيت ثلاثة عشر بابا وهو العدد الذي قال به الملك أبو الفداء ومما يؤكّد هذا القول هو أبي يحي بن خلدون نفسه علاوة على الأبواب الخمسة المذكورة بأسمائها في كتابه قد ذكر في مواضيع أخرى من نفس الكتاب أسماء أبواب أخرى كباب زير وباب الحديد وغيرهما من الأبواب المعدودة في إحصاء أبي الفداء وممّا هو جدير بالملاحظة أنّ السورين المهدومين كانا متقاربين جدا، فقد ورد في "معجم البلدان" لياقوت الحمودي ما يلي: "أن تلمسان مدينتان مسورتان لا يعد احد السورين عن الآخر إلاّ بقدر مرمي حجرة".

وفيما يتعلق بالسور الثاني أي سور الخارجي فان ابن واضح العقوبي صريح في كتاب "البلدان" بأنّ تلمسان أي أقادير كان يحيط بها سوران وأمّا تقرارت فإنّ بعض جدران سورها الخارجي –وإن لحقها التخريب– فإنّه لا يزال قائما إلى يومنا هذا: البعض منها بالقلعة السفلى والواقعة جنوب المدينة[1]، والبعض الآخر بحي الكيس الواقع غرب المدينة.

وهنا عرض لنا الثاني أي ما هي أبواب السور الخارجي وما هي أسماؤها وبعد البحث والتنقيب خرجنا بالنتائج التالية: وهي أنّ السور الخارجي كان له خمسة أبواب مقابلة للخمسة أبواب الكبيرة من السور الداخلي ومن تلك الأبواب: بابان ذكرهما أبو عبد الله محمد بن يوسف القيسي في إحدى قصائده التي انشدها في وصف تلمسان: الباب الأول منها كان يسمى باب الرجاء كان يقابل باب الجياد وهو واقع على الطريق المؤدية إلى قرية العباد وهذا الباب قد أشار إليه الشاعر المذكور بقوله: (الكامل):

عرج بمنعرجات باب جيادها * وافتح به باب الرجاء المقبل[2]

والباب الثاني كان يسمى باب الملعب وكان وسطا باب كشوط و باب الحديد وهو واقع على الطريق المؤدية إلى المنصورة وقد أشار الشاعر نفسه إلى هذا الباب بقوله في القصيدة عينها: (الكامل):

فإذا دنت شمس الأصيل لغربها * فإلى تلمسان الأصيلة فادخل

من باب ملعبـــها لباب حديدهـا * متنزها في كل حفل احفـل[3].

ومن المعلوم أنّ الملعب كان على يسار الطريق الذاهبة إلى المنصورة وأنّ الآتي مع هذا الطريق له الخيار بين الدخول إلى تلمسان من باب كشوط أو باب الحديد إذا كان محل سكناه قريبا منه.

[1]– ومنها ما يحيط بمقبرة النصارى ويتجه نحو واد مشكانة.

[2]– "بغية الرواد" ليحي بن خلدون ص 16.

[3]– نفس المصدر ص 16.

والباب الثالث كان يسمى باب أصيلان[1]، وكان يقابل باب القرمدين وهو واقع على الطريق المؤدية إلى الحنايا وقد نصّ على هذا الباب يحي بن خلدون في حديثه عن المعركة التي وقعت بين السلطانين العبد الواديين أبي سعيد و أبي ثابث وبين ابن جرار من قواد بني مرين قال: "والتقى الجمعان بسكّاك إزاء جمعة العز عند ملتقى نهري الصفصيف ويسر.... إلى أن قال: واستمرّ السلطانان بأثر المنهزمين إلى البلد فدخلوا علهم باب أصيلان..." ولا شك أن القادم من موطن المعركة لابدّ له من المرور طريق الحنايا والدخول إلى تلمسان من ذلك الباب[2].

والباب الرابع هو باب الزاوية وموقعه معروف ويقابل باب الحلوي من السور الداخلي ولا يزال مكانه وما حوله يدعى بهذا الاسم إلى يومنا هذا وإن اندثر الباب ولم يبق له أثر ما ومنه يتوجه إلى بساتين المنية.

والباب الخامس هو باب العزّافين وكان يقابل باب العقبة وهو واقع على الطريق المؤدية إلى نهر الصفصيف وقد نصّ ابن مريم صاحب "البستان" على هذا الباب في حديثه عن أشياخ سيدي علي بن يحي السلكسيني الجادري قال: "واسم ذلك الرجل سيدي عيسى وصار يقرا عليه سيدي علي وهو من أشياخ سيدي علي ودفن في باب العزّافين[3] رضي الله عنه[4] "مع علمنا بأنّ مقبرة أقادير الأولى كانت حول ضريح سيدي الداودي القريب من باب العقبة.

فوجود السور الثاني أي السور الخارجي يحل لنا مشكلة ثالثة ألا وهي مقاومة أهل تلمسان لبني مرين تلك المقاومة العتيقة الطويلة التي دامت ثمانية أعوام وبضعة أشهر وذلك أنّ أهل تلمسان كانوا يستغلون المساحة الواقعة بين السورين بالزراعة وتربية المواشي وهي مساحة ليست بالقليلة إذا اعتبرنا مسافة دائرة السورين حيث أنّ السور الداخلي كان يمتد من باب العقبة شرقا[5] إلى باب كشوط غربا وأن السور الخارجي كان يمتد من باب العزافين شرقا إلى باب الملعب غربا وأن المسافة بين السورين كانت تتراوح بين الثلاثة مائة والخمسمائة مترا حسب انخفاض الأرض وارتفاعها في مختلف الجهات المحيطة بالمدينة ولأنه لا يمكن إدخار المؤن والأقوات لهذه المدة كلها من غير أن تصاب بالتعفن والفساد ولأنّنا لا نعرف –حسب ما في علمنا تاريخنا- أنّ مدينة أخرى محاصرة غير تلمسان قاومت العدوّ مدة مثل هذه المدة فمن أجل ذلك كله نستنتج أن بني زيان خصوصا وأهل تلمسان عموما ما استطاعوا أن يقاوموا بني

[1]– الإدريسي يسميه آسلان ويقول عنه "ومن مصب الوادي (تافنة) إلى حصن آسلان أربعة أميال" (وصف إفريقيا الشمالية والصحراوية ص112 طبع الجزائر 1376 هـ (1957م) وهو جزء من "نزهة المشتاق في اختراق الآفاق" للشريف الإدريسي).

[2]– "بغية الرواد" المجلد الأول، ص 148 طبع الجزائر، 1321 هـ (1903 م).

[3]– في بعض النسخ العزابين بالباء والصواب ما قلناه.

[4]– "البستان" لابن مريم، ص 146 طبع الجزائر 1327 هـ (1908م).

[5]– "باب العقبة" كان يسمى أيضا "أقادير" و"باب سيدي الدوادي" لقربه من ضريحه.

مرين المحاصرين لهم تلك المدة كلّها إلاّ بفضل استغلالهم لتلك المساحة التي بين السورين والتي وان كانت جديرة بالاعتبار– لم تكن كافية تموينهم لمثل تلك المدة التي ليست بالقصيرة ولذلك نالهم فيها من الجهد والجوع ما لم ينل أمّة من الأمم كما يقول عنهم عبد الرحمن بن خلدون الذي يضيف قائلا: "وغلت الأقوات والحبوب وسائر المرافق بما تجاوز حدود العوائد وعجز وجهم عنه "1.

نماذج من العمارة (أقادير أو تلمسان القديمة ومعالمها)

قد اندثرت هذه المدينة تماما ولم يبق منها إلا جزء من الأسوار و باب الأرواح في جهتها الشمالية وصومعة الجامع العتيق التي بناها السلطان يغمراسن هي وصومعة الجامع الكبير في آن واحد وهي شبيهة بها لا من حيث الوضع فحسب بل من حيث الزخرفة كذلك أمّا الجامع المشيد قبلها بنحو الخمسة قرون أي في عهد الأدارسة فلم يبق منه شيء قائم إلا ما ذكرناه في القسم التاريخي من الحفريات المجراة مكانه وما نتج عنها.

أول جامع شيد بأقادير هو الجامع الذي بناه موسى بن نصر لما قدم إلى تلمسان في طريقه إلى المغرب الأقصى عام 89 هـ/(708م) وهذا المسجد لا نعرف موقعه الآن ومن معالم أقادير كذلك ضريح الإمام أبي جعفر أحمد بن نصر الداودي المتوفى عام402هـ (1011م) الواقع تحت باب العقبة وكذا ضرائح الأميرات وسيدي وهاب وسيدي يعقوب وبالقرب من ضريح هذا الأخير من جهة القبلة لا تزال رسوم محراب لمسجد كان بهذا المكان واندثر فيها بعد.

جوامع ومساجد تلمسان التي لا تزال قائمة

كان بتلمسان فيما سلف من الزمان عدة جوامع ومساجد البعض منها لا يزال قائما والبعض الآخر- وهو الأكثر- قد اندثر. فالجوامع التي لا تزال قائمة أربعة: الجامع الأعظم أو الكبير، وجامع سيدي إبراهيم المصمودي، وجامع سيدي أبي مدين بقرية العباد وجامع سيدي الحلوي وهذه الجوامع الأربعة تقام بها صلاة الجمعة وصلاة العيدين: عيد الفطر وعيد الأضحى وهاتان الصلاتان كانتا تؤديان بالمصلى الواقع بين الحرطون والعباد الفوقي وكان ذلك قبل الاحتلال الفرنسي لتلمسان.

ثم لا بدّ أن نضيف هنا أي إلى هذه الجوامع القديمة الأربعة ثمانية عشر جامعا حديثة العهد بنيت في جميع أحياء تلمسان منذ عهد الاحتلال إلى يومنا هذا عندما توسعت المدينة وكثرت البناءات والعمارات بها في كل حي من ضواحيها فلما تعدد سكان الحي وبعدوا عن وسط المدينة توجب عليهم بناء جامع لحيّهم الجديد فقاموا بأنفسهم في الحين ببناءه وبذلوا كل ما في وسعهم لتشيده، تبرعوا بأموال باهظة في ترفيهه وقد تنافسوا في إعطائهم لجامعهم بهجة وجمالا ورونقا خاصا حتى يصبح أحسن من غيره في الأحياء الأخرى وتفننوا في نقش واجهته وقبة محرابه متمسكين في هذا البناء بالهندسة القديمة العربية الأندلسية لاسيما في بناء المئذنة وإعطائها تشبها

1– كتاب "العبر" لعبد الرحمن بن خلدون ج7 ص95 طبع بولاق 1284 هـ.

بمئذنة سالفتها مئذنة سيدي أبي مدين ونستطيع أن نقول – قبل ذكر أسمائها– أن هذه الجوامع الحديثة خلقت ما اندثرت وأعادت لتلمسان مكانتها الدينية المرتفعة التي يشهد معها التاريخ نفسه جعل الله عز وجل تلك الجوامع العامرة بتقوى الله في كل أوقات الصلوات الخمس مثلما هي عامرة في وقت صلاة الجمعة حتى تصبح مدينة تلمسان يعطى لها اسم -المدينة ذات العشرات المآذن- 1 ، مثلما أطلق عليها اسم "المدينة ذات آلاف الينابيع".

وهذه الجوامع الحديثة العهد هي خمس: " دار الحديث "، "جامع السنة" بحي المحطة، وجامع "حي أقادير"، وجامع "بن يلس" بحي رياض الحمار، جامع "الشيخ السنوسي" بحي عين مازوتة، جامع "أبي عبيدة بل الجراح" بحي القلعة، وجامع "ابن المرزوق الجدّ" بحي بئروانة، وجامع "أبي ذر الغفاري" بحي بودغن، جامع "الشريف أبي عبد الله " بحي الكرز، جامع "حي الهواء الطلق"، جامع "المصلى" بحي ماخوخ، وجامع "حي إمامة "، وجامع "حي الكيفان القديم"، جامع "ابن الجزار القيرواني" بحي الكيفان الجديد، وجامع "عمر بن عبد العزيز" بعين الكلب.

جامع "الفتح" بحي فدّان السبع، وجامع "عثمان بن مذعر" بحي سيدي الحلوي، وجامع "عمر بن الخطاب" بحي رياض الصفار تحت قرية العباد. وأما المساجد التي لا تزال قائمة فعددها أربعة وعشرون مسجدا وهي : "مسجد سيدي البناء" بالقيسارية، مسجد "سيدي السنوسي" بدرب مسوفة، مسجد "لالة الغربية" بحي القران الكبيرة، مسجد "الشفراء" بنهج ابن خلدون، ومسجد "سيدي اليدون" بحي المدرسة، مسجد "سيدي الجبار" بحي باب علي، مسجد "باب الزير"، مسجد "سيدي الحسن بن مخلوف " (لكنه مخرب الآن ما عدا مئذنته)، مسجد "سيدي يعقوب"، مسجد "سيدي القلعي"، مسجد "لالة الرؤية"، مسجد "ابن مرزوق"، مسجد "سيدي حامد"، مسجد "درب القاضي"، مسجد "سيدي الوزان"، مسجد "المشور" الذي حول إلى كنيسة في عهد الاحتلال، ومسجد "أبي الحسن" المحول إلى متحف وهو أبدع مساجد تلمسان، ومسجد "سيدي زايد" بدرب الحجّاميين، مسجد "لالة الغربية " تحت درب السّن، ومسجد "أولاد الإمام"، ومسجد "سيدي أبي عبد الله"2، ومسجد "سيدي إبراهيم الغريب"3، ومسجد" سيدي زكري4"، ومسجد "سيدي شاكر" بنفس الحي5. وهذه المساجد تقام بها الصلوات الخمس ويعلم بها القرآن الكريم للصبيان وفيما يلي وصف الجوامع القديمة الأربعة ووصف بعض المساجد6.

---

[1]– عددها الآن 33 مئذنة منها 21 للجوامع (باستثناء دار الحديث) وتسعة لمساجدها وثلاثة واقفة بدون جامع ولا مسجد وهي مئذنة جامع المنصورة ومئذنة الجامع العتيق بحي أقادير ومئذنة جامع سيدي انجاصي بطريق العباد أمام ثانوية يغمراسن.

2– توجد المساجد الثلاثة في الناحية العالية من نهج الحكيم دمرجي.

3– توجد المساجد الثلاثة في الناحية العالية من نهج الحكيم دمرجي.

4- توجد المساجد الثلاثة في الناحية العالية من نهج الحكيم دمرجي.

[5]– يوجد كذلك مسجدان بحي بودغن.

[6]– أورد الأستاذ تكوك في كتابه "تلمسان" ص226 قائمة الجوامع والمساجد التي كان لها أوقاف في عهد الاحتلال منها تسعة لا تزال قائمة وعشرة قد اندثرت تماما.

الجامع الأعظم أوالأكبر

وهو جامع تاكرارت المرابطي، يكاد يحتل اليوم وسط المدينة ومركزها، والشك أن المدينة تطورت حوله تطورا كبيرا خاصة في العهد الزياني بعد ما تحولت إلى عاصمة دولة بعد أن كانت قبلهم عاصمة إقليم. لقد دخل المرابطون تلمسان سنة 472 هـ/ 1079 م، ولكنّهم لم يستطيعوا الاحتفاظ بها أمام الحمّاديين، فعادوا في السنة الموالية في جيوش يقودها يوسف ابن تاشفين نفسه، وتمكّن من الاستيلاء على تلمسان وتجاوزها إلى جزائر بني مزغنة (مدينة الجزائر) فدخلت في حكمه وبنى لها جامعا.

ويرجح أن يوسف بن تاشفين – وهو يؤسس مدينة الخاصة تاكرارت لتكون مستقرا لدواوين الدولة وحكامها وخزنتها، خصوصا أنه جعلها عاصمة إقليمية للمغرب الأوسط – فكر في بناء جامع للمدينة على عادة الحكام والأمراء الكبار، فيوسف بن تاشفين نفسه هو الذي أعطى أمرا لولاة الأقاليم وعامة الشعب بضرورة بناء مسجد في كل حي سكني والا تعرضوا للعقاب، ومن غير المعقول أن يؤسس المدينة ويعطي ذلك الأمر ولا يبني لمدينته جامعها.

وقد جدّد الجامع في عهد خليفة يوسف بن تاشفين وهو ابنه علي، ويتضح ذلك من كتابه حول رقبة القبة التي تتقدم المحراب محفورة في الجص ومنقوشة بخط أندلسي وهي: "بسم الله الرحمن الرحيم وصلّى الله على محمد وعلى آله وسلم تسليما هذا ممّا أمر بعمله الأمي(ر) *الأجل...أيد الله أمره وأعز نصره وأدام دولته * وكان إتمامه على يد الفقيه الأجل القاضي الوصل أبي الحسن علي بن عبد الرحمن بن علي أدام الله عزهم فتمّ في شهر جمادي الآخرة عام ثلاثين وخمسماية".

أما المرحلة الثالثة من التجديد والإصلاح للجامع فكان بطلها يغمراسن بن زيان، وقد شملت أعماله موضع الصحن القديم، حيث أضاف إليه سبع بلاطات جديدة ذات ثلاثة أساكيب عمقا، فضلا عن قبة مضلعة صغيرة في بيت الصلاة تعلو سدة المبلغ جاءت تقليدا للقبة المرابطية أمام المحراب، وفي نفس الموضع حلّ محل الدعامات المرابطية الأصلية أعمدة رخامية في البائكة الثانية على البلاطة المركزية من جهة المحراب، هذا فضلا عن أعمال أخرى في مؤخرة الجامع، وقد أعطت هذه الزيادة للجامع شكله وتصميمه ومخططه الذي هو عليه اليوم، هذه هي مجمل الآراء التي حدّدها الباحثون بوروية و جورج مارسي و كولفان.

وفي نهاية العشرية الأولى من النصف الثاني من القرن 8هـ/14 م، كان المسجد محل اهتمام من جديد على يد السلطان أبي حمو موسى الثاني، مجدد كيان الدولة الزيانية بعد سقوطها على يد ابي عنان فارس المريني، واختص عمله بعمل خزانة كتب للجامع خلد اسمه عليها في نقش بخط أندلسي رشيق على لوحة خشبية تضمنت نصا كتابا هو: "أمر بعمل هذه الخزانة المباركة مولانا السلطان أبوحمو ابن الأمير الراشدين أيد الله أمره وأعز نصره ونفعه كما وصل ونوى وجعله من أهل التقوى وكان الفراغ من عملها

في يوم الخميس ثالث عشر لذي قعدة عام ستين وسبع ماية (1360م)". وما يزال الجامع قائما إلى اليوم محتفظا بخصائصه المعمارية والإنشائية والفنية الجمالية.

يوجد هذا الجامع بوسط المدينة وهو بناء مستطيل الشكل طوله 60 مترا وعرضه 50 مترا مبيض بالجير وتعلوه قبتان مغطى سطحهما بقرمود أخضر اللون، ومئذنته عالية ذات 4 أوجه يبلغ ارتفاعها 35 مترا وهي من بناء السلطان يغمراسن بن زيان بخلاف الجامع الذي شيده أمير المسلمين علي بن يوسف اللمتوني كما هو مسطر في القسم التاريخي ثمّ أتمه الموحدون بعد استلائهم على تلمسان.

أبواب الجامع الأعظم: بهذا الجامع ثمانية أبواب، ثلاثة منها في القبلة "باب ابن مرزوق" وسمي بها الاسم لقربه من ضريحه وكان فيما قبل يدعي باب المدرسة التاشفينية بقربه من بابها و باب الجنائز وهو خاص برجال الدّين من أئمة المؤدنين وقيمين وهو يؤدي إلى بيت خلف المحراب وسمي بهذا الاسم لأن الأموات يدخلون منه للصلاة عليهم يوم الجمعة خاصة أداء الفريضة و"باب الضحية" لأن الإمام يذبح ضحيته يوم العيد بقرب منه عملا بالقاعدة المعلومة "لا تذبحوا قبل أن يذبح الإمام" وثلاثة أبواب أخرى في الشرق "باب الخرازين" لقربهم من دكاكينيهم وهذا الباب هوأهم أبواب الجامع، وباب دار المساكين لأنه يقابل باب ملجأ الشيوخ والعجزة المساكين وباب " سيدي أحمد ابن الحسن الغماري "لأنه يقابل ضريحه وكان للجامع بهذه الواجهة باب رابع وهوباب "سوق الغزل" سمي بهذا الاسم لقربه من تلك السوق وكان يقال له باب النساء لأنهن كن يدخلن إلى الجامع منه يوم الجمعة أوالعيد لكن هذا الباب حول إلى باب المحكمة الشرعية التي هي جزء من الجامع انتقص منه في عهد الاحتلال الفرنسي وله باب في الشمال وهو باب ابن صعد إذ يقابل مقامه وفي مدح هذا العالم الجليل يقول بعض فضلاء الأندلس وهو"محمد العربي الغرناطي" :

إذا جئت لتلمسان * فقل لصنديدها ابن صعد

علمك فاق كل علم * مجدك فاق كـل مجـــد1

وهنا نفتح قوسين لنقول: (كانت الضرائح والمقامات تبنى على قبور العلماء العاملين و أولياء الله الصالحين اعترافا بفضلهم وتخليدا لذكرهم2 وقد عوض ذلك بالتماثيل في عصرنا هذا اقتداء بأهل الغرب حينما يريدون تخليد أسماء عظمائهم). وللجامع في الغرب باب واحد أيضا وهو باب دار الإمارة أو القصر القديم وهذا الباب كان خاصا بالسلطان وحاشيته في أيام الجمع والأعياد إذ الجامع كان ملتصقا بذلك القصر الذي شيّد قبله كما تقدم.

1- أمين توفيق الطيبى "دراسات وبحوث فى تاريخ المغرب والاندلس" ص50 الدار العربية للكتاب ، 1984 م

2- فيلالي "تلمسان" ج2، ص 400

عمارة الجامع الأعظم

يشتمل الجامع الأعظم كغيره من جوامع تلمسان الكبيرة على قاعة الصلاة وصحن أو فناء وأروقة تحيط بالصحن ومئذنة، أمّا قاعة الصلاة فهي بيت فسيح يحتوي على اثنين وسبعين سارية عظيمة من الحجر الصلد تحمل قناطرة مقوسة لا زخرفة عليها، يتألف منها ست بلاطات وثلاثة عشر رواقا أوسعها الرواق الأوسط الذي جعل المحراب والقبان فيه، وهذا الرواق أجمل ما في هذه القاعة لما يحتوي عليه من النقوش الجبسية المحفورة والبارزة التي زخرف بها إطار المحراب والقبتان الوسطى والتي أمام المحراب1.

أما القبة الوسطى فإنها مزخرفة بتخاريم عريضة تلمع لمعانا وأما القبة التي أمام المحراب فإنها بنيت على الشكل الكثير الأضلاع وألفت صفحاتها من عدة قناطر صغيرة متتالية كل قنطرة تحتوي على ثلاثة أجزاء، ووشيت القناطر المجتمعة في الزوايا بتماثيل مدلاة شبيهة بالتماثيل المائية المتحجرة التي تتدلى في الكهوف والمغارات وفي رأس القبة ترى أقواس ضيقة تشتبك اشتباكا عجيبا حاملة لصفحات تلمع لمعانا وقد وضعت هذه القبة على قوس مربع الشكل يحتوي على إفريز نقش في حفريته العريضة بخط أندلسي أنيق ما يلي: " بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على محمد وعلى آله وسلم تسليما هذا ممّا أمر بعلمه الأمير الأجل... أيد الله أمره وأعز نصره وأدام دولته وكان إتمامه على يد الفقيه الأجل القاضي الأوصل أبي الحسن على بن عبد الله بن عبد الرحمن بن علي أدام الله عزهم فتم في شهر جمادي الأخير عام ثلاثين وخمسمائة" والجدير بالملاحظة أن اسم الأمير الذي أمر بهذا العمل الجليل قد كشط ومحي لكن الكاشط الماحي غفل عن كشط ومحو التاريخ الذي هو530 هـ وهكذا أبى التاريخ إلا أن يعترف لذوي الفضل بفضلهم وأمكن معرفة اسم القائم بهذا العمل وهو أمير المسلمين "علي بن يوسف بن تاشفين اللمتوني" الذي كانت تلمسان من جملة ولاياته في ذلك العهد والظاهر أن الأمر بالكشط والمحو هو أحد خلفاء الموحدين الذين خلفوا المرابطين في الحكم وأتموا بناء الجامع.

وتحت ما ذكر ترى نافذة مقوسة مزخرفة بأشكال هندسية شبيهة بالشباك وعلى يمينها ويسارها رواقان مؤلفان من قناطر صغيرة وضعت على ركائز ذات تيجان متوازية الأضلاع كل قنطرة منها تحتوي على ثلاثة أقواس صغيرة، ثم تأتي تحت النافذة والرواقين حاشية تحيط بإطار المحراب كلّه ثم يأتي بعدها إفريز زخرف بصور على شكل الأوراق التي ترى على وجهها تتخللها أوراق أخرى ترى على جانبها، ثم تأتي حاشية ثانية محتوية على مايلي: بسم الله الرحمن الرحيم (وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ1 (204) وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّوَالآصَالِ وَلا

[1]– سورة الأعراف الآية 204

تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ (205) إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ (206)1 صدق الله العظيم، هذه الآيات الثلاث نقشت بخط كوفي بوسط المستطيل الداخل الذي وضع فيه قوس المحراب.

قوس المحراب: هذا القوس على شكل حذوة الفرس يحمله عمودان رشيقان من المرمر وهنا ترى أحجار منقوشة تتخللها أحجار صقلية مثل الأولى في العرض ويحد هذه الأحجار كلها قوسان وشي القوس المحيط بها المغير في أسفله بنقوش عريضة على شكل أوراق الأشجار وأزهارها وهي تلمع لمعانا حول نقطة مركزية وحيدة وضعت على وثرة القوس الصغير الجامعة بين تاجي العمودين.

على يمين فتحة المحراب ويسارها وتحت الزخرفة هذه ترى صفحتان مستطيلتان الشكل تحيط بكل واحد منهما حاشية نقش في أولاهما بخط كوفي قوله تعالى: بسم الله الرحمن الرحيم

(نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ)2 صدق الله العظيم، وقوله عز وجل: بسم الله الرحمن الرحيم (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تفلحون(77))3 صدق الله العظيم، وفي ثانيهما قوله عز من قائل: بسم الله الرحمن الرحيم (في بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُووَالْآصَالِ(36) رِجَالٌ لا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاء لزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ (37))4 صدق الله العظيم، وقد وشي وسط هاتين الصفحتين والزوايا الأربع التي حول قوس المحراب بزخرفة كثيفة على شكل الأزهار.

قبة المحراب: ترتاح قبة المحراب على جدار ذي ثمان صفحات قطعت في أعلاها بخط كوفي وقد وشيت تلك الصفحات بثلاث نوافذ منقوشة ومزخرفة بأشكال أزهرية مشتبكة تلمع لمعانا، وأما سقف تلك القبة فإنه مزخرف بتخاريم كبيرة في غاية الصنعة والإتقان وهذا المحراب وما حوله من الزخرفة شديد الشبه بمحراب جامع "قرطبة الأعظم " كما صرّح بذلك الأخوان مارسي في كتابهما "الآثار بتلمسان".

منبر المحراب: على يمين المحراب يرى منبر من الخشب عجيب الشكل من حيث الزخرفة وأحكام الصنعة إلاّ أنه حديث العهد5، وهذا مما يدلّ على أن أهل الصناعة التقليدية بتلمسان لا يزالون يعملون على أسلافهم ويتقنون العمل مثلهم، ويؤيد قولنا هذا وجود الثريا الكبرى المعلقة في القبة في وسط الرواق الأوسط وهي التي من وضع الفنان الماهر المرحوم "محمد بن قلفاط " والتي كان يركز عليها 360 شمعة للإستصباح، يشاهد في نفس الرواق سدّة كبيرة من الخشب محمولة على ست قوائم يصعد

1- "سورة الأعراف"، الآيات 205-206.
2- "سورة الصف"، الآية 13.
3- "سورة الحج"، الآية 77.
4- "سورة النور"، الآيتان 36-37.
5- إن هذا المنبر من صنع الفنان "عبد المجيد فار الذهب" إضافة إلى البابان الكائنان على يمين المنبر وعلى يسار المحراب.

عليها المسمّع أثناء صلوات الجمع والأعياد كما يشاهد أيضا حذاء العمودين مثلثان كبيرتان من النحاس الأصغر كانتا تستعملان للاستصباح أيضا، وذلك من ليالي رمضان بالخصوص.

مئذنة الجامع الكبير: مئذنة الجامع الكبير الشامخة المبنية بالحجارة الصلبة التي يبلغ ارتفعها الآن أربعين مترا بعد أن سقطت طبقتها العليا ولم تبق منها إلاّ الطبقة السفلى فإن هذه الطبقة تحتوي على أربعة أنواع من الزخارف: كل نوع منها مباين لصاحبه، أوّل ما يبصر المبصر وتاجا مقوسا يحيط به إطار مؤلف من حفريات متتابعة رسمت الحفرية الأولى في مستطيل يبلغ عرضه ثمانية أمتار زخرف بحاشية تشمل على خطوط أندلسية ذكر فيها اسم مشيّد هذا الجامع وتاريخ تشيّده وزاويتين رسمت فيهما أشكال عربية ووشي وسط كلّ منهما بتمثال صدف بارز.

إنّ الحفرتين الثانية والثالثة زخرفت كلّ واحدة منهما بقوس ذي رؤوس مسّننة وأمّا الحفرية الرّابعة فهي عبارة عن قوس غير مسنّن يرتاح على عموديين من المرمر الخالص وفوق ما ذكر يبصر المشاهد شرفة عجيبة وضعت فوق التماثيل المدلاة في دون أن تجعل لها أعمدة داخلية تحملها كما يبصر كذلك رواقا منقوشا بتقاطيع على شكل أوراق الأشجار وأزهارها. وفوق ما ذكر تشاهد زخرفة محتوية على صفحة كبيرة شبكية الهيئة ترتاح على رواقين لهما شكل البيكارين ثمّ طبقة وسطى مرتاحة على قوس صغير تبتدئ من الأسفل وتنتهي عند ثلاثة أرباع هذه الصفحة حفرت فيها نوافذ ضيّقة.

قاعة الصلاة في المسجد الكبير: قاعة الصلاة مقسمة إلى قسمين متساويين بصف من الأقواس المقطعة، كما أن الرواق الأوسط منها له قوسان مخططان أحدهما: قبالة المحراب والثاني: عند مدخل الصحن، أما أرضها فهي مفروشة بزرابي من الصوف ذات نمط واحد وألوان وأشكال ومقاييس متماثلة في غاية النسيج والإتقان وأما سقفها المصنوع من الخشب المرصع بالصدف لحجب المارين عن المرور أمام الإمام الذي يقف وقت الصلاة أمامها.

صحن الجامع الكبير: صحن الجامع أو فناؤه فهو فضاء واسع مربع الشكل تبلغ مساحته نحو الأربعمائة مترا مربعا مفروش بمربعات كبيرة من الرخام وفي وسطه حوضان أحدهما مستطيل الشكل يحيط به جدار صغير حديث العهد مغشى بزليج مختلف الألوان وفي وسطه نافورة من الرخام يجري فيها ماء عذب لذة للشاربين ولا سيما في فصل الصيف وثانيهما مدور الشكل تحيط به مصاطب من الرخام يجلس عليها المتوضئون، وهذا الحوض الأول بواسطة قناة تجمع بينهما.

وبكل جانب من جوانب الصحن الأخرى (أي الشرقي والغربي والشمالي)، أروقة سقف كل رواق منها محمول على سوار فخمة ويحتوي على ثلاث أو أربعة بلاطات وتحيط بالصحن من جوانبه الأربعة أبوبا من الخشب متوسطة الشكل ذات خوختين للدخول إلى الصحن والخروج منه وفي جهة القبلة من الصحن يوجد محراب مفروش برخام أسود اللون معدّ للصلاة في فصل الحرارة وتشرف على هذا الصحن من

جهة الشمال مئذنة يصعد إليها بمائة وثلاثين درجة وهي ذات أربعة أوجه مزخرفة بأشكال مختلفة يعلوها جامور مزخرف، وكثيرا ما تزين بالأنوار الكهربائية في ليالي الأعياد والمواسم فيزيدها ذلك بهاء وجمالا.

مسجد سيدي أبي الحسن (المتحف)

إذا كان الجامع الأعظم يمتاز بالكبر والسعة والفخامة فإن هذا المسجد يمتاز بالحسن و الرقة و اللطافة وهو منسوب إلى العالم الجليل "سيدي أبي الحسن علي بن يخلف التنسي" المعاصر للسلطان "أبي سعيد عثمان بن يغمراسن" الذي شيّده ونسبه إليه إكراما له لأنه كان من أفضل علماء عهده وأتقاهم وأروعهم وابتنى هذا المسجد حسبما تنص عليه كتاباته المنقوشة في صفحة من المرمر الأخضر مثبتة في الجدار الغربي منه بالخط الأندلسي الأنيق تذكارا للأمير "أبي عامر إبراهيم بن أبي يحي يغمراسن بن زيان"1 عام 696 هـ، وقد كرر هذا النص بخط كوفي على حاشية فوق المحراب.

لهذا المسجد في الواجهة الجنوبية الشرقية مئذنة معتدلة القامة متناهية في الطرف والرشاقة تحتوي أوجهها الأربعة على زخرفة ذات أشكال بديعة.

قاعة الصلاة في مسجد أبي الحسن: قاعة الصلاة بيت مربع الشكل مساحته نحو المائة متر مربع يحتوي على ثلاثة أروقة وسقفها محمول على صفين من الأعمدة المرمرية المكللة بتيجان في غاية الزخرفة واللطافة تحيط بها مثل الأساور بالمعصم، وهذه الأعمدة تجمع بينها أقواس على شكل حذوة الفرس وهذا السقف المصنوع من خشب الأرز المنقوش بأشكال بديعة قد أصابه و باللأسف حريق في أوائل سنوات الإحتلال فذهب بمحاسنه كلها.

المحراب: يوجد المحراب في الجدار القبلي من الرواق الأوسط فزخرفته الجبسية الباهرة تثير إعجاب الزائر وتأخذ بمجامع قلبه وتذهب به في فضاء الأحلام إلى أن يذهل عن نفسه ويكاد يفقد شعوره.

زخرفت قبة المحراب الصغيرة بأشكال ضوهيت فيها الطبيعة أحسن مضاهاة بتلك التماثيل المدلاة كأنّها في الكهوف والمغارات ترتاح هذه القبة على أعمدة من المرمر داخلية في زوايا الرسم الكثير الأضلاع، والأعمدة نفسها تعتمد على الإفريز الذي يبتدئ منه قوس فتحة المحراب وهو قوس على شكل حذوة الفرس يحمله عمودان من المرمر داخلان ويحيط به إطار عجيب رائع المنظر يتألف من حاشية أولى مدورة الشكل شبيهة بالأغلال رسمت بين قوس الفتحة وبين قوس ثاني أكبر منه وجعلت نقطته المركزية فوق الأول تأتي حاشية ثانية محفورة محتوية على خط عادي بسيط تحيط بالقوس في مستطيل عريض وتكون معه أربع زوايا غير متساوية مزخرفة كلها بأشكال عربية، أمّا الزاويتان الكبيرتان أي زاويتا الجهة العالية فإنّ وسط كل واحدة منهما وشي ببرعمة ذات تعاريج كثيرة شبيهة ببعض الأصداف وبعد

1- إنّ هذا الأمير هو الذي أوصى ببناء هذا المسجد قبل وفاته وحبس عليه بعض أمواله العقارية.

ذلك تأتي حاشية ثالثة مؤلفة من عدة حويشيات ذات خطوط كوفية تتخللها أشكال عربية ومربعات ذات أشكال هندسية وفوق ذلك كله تأتي طبقة أخرى محتوية على ثلاث نوافذ مقوسة ومزخرفة بأشكال هندسية لامعة، وهذه الطبقة والتي قبلها تجمعهما حاشيتان أخرتان ضيقتان، إنّ زخرفة المحراب هذا لها شبه كبير بزخرفة محراب مدرسة العطّارين الفاسية كما صرّح بذلك الأستاذ **الفريد بيل** في كتابه "تلمسان وناحيتها"1.

وممّا يزيد هذا المسجد بهاء وجمالا أنّ جدرانه وقناطره رواقيه مزخرفة كلّها بتخاريم بديعة إلاّ أن زخرفة القناطر قد ذهب معظمها ولم يبق منها إلاّ القليل، بخلاف زخرفة الجدران فإنّها لا تزال على أصلها ولم يلحقها أدنى تغيير بل لا تزال لها قناطر صغيرة مسننة كما أنّ زواياها لا تزال مغشاة بنماذج مكررة مرسومة في مربعات و أخرى صقلية، وفوق هذه الزخرفة الجميلة توجد نوافذ صغيرة مقوسة ذات أشكال هندسية تشتبك إشتباكا أي ملئ فراغها بزخرفة مصنوعة بنظام وكلّ ذلك تحيط به حاشية محتوية على خطوط عادية بسيطة أضف إلى ذلك أنّ قاعة المسجد كلها يحيط بها إفريز يحتوي على أشكال هندسية من أبهى ما يشاهد فيه.

مسجد سيدي البناء

يوجد هذا المسجد بسوق الخرّازين أو سوق منشر الجلد وهو يتألّف من صحن مربّع الشكل وسطه حوض للوضوء وبجانبه رواقان ومن قاعة للصلاة ذات ثلاثة أروقة يشغل المحراب الجدار القبلي من أوسطها وهو المحراب الوحيد الذي غشى قسط كبير من جداره وما يحيط به يمينا ويسارا بقطع من الفسيفيساء اللاّمعة ذات الألوان والأشكال المختلفة ويفصل بين الصحن وقاعة الصلاة جذار ذور تاج بخوختين للدخول والخروج ونافذتين تقابلهما نافذاتان في الجدار لإنارتها كما أنّ مئذنة هذا المسجد هي المئذنة الوحيدة التي طليت واجهاتها الأربع باللّون الأحمر كما كانت مئذنة مسجد المشور من قبل مطلية به. يرجع بناء مسجد سيدي البناء إلى القرن التاسع الهجري (الخامس عشر للميلاد)، وقد أدخل عليه إصلاح وترميم منذ عهد ايس بالبعيد أمّا نسبته سيدي البناء فالصحيح أنّه ابن البناء قال ابن مريم في كتابه "البستان" في ترجمة سيدي محمد ابن الغليظ المديوني2، كان يؤمّ في مسجد سيدي ابن البناء3 في رحبة الزرع عند "فندق المجاري" وإنّما حذفت كلمة ابن لكثير الإستعمال وتردّدها على الألسن.

مسجد الشيخ السنوسي

يوجد هذا المسجد بسوق البرادعين فوق مدخل درب مسوفة وهذا المسجد له ميزة خاصة وهي أنّه مبني في طابق علوي بحيث يصعد إليه بواسطة مدرج واقع على يمين الداخل إلى الّرب وتتألّف قاعة الصلاة

1- "تلمسان و ناحيتها" ص35 طبع تولوز (فرنسا) بدون تاريخ.

2- "البستان" لابن مريم، ص 275 طبع الجزائر، 1326 هـ (1908م).

3- ولعلّه "سيدي محمد بن البناء" الشاعر الأديب والعالم المحقّق.

به من قسمين غير متساويين القسم الأوّل له رواقان، أمّا القسم الثّاني فهو أصغر من الأوّل وخال من كلّ ترتيب أو نظام وفي الجدار القبلي جعل المحراب وباب يؤدّي إلى صحن صغير فوق الدرب، وفي الجدار المقابل له جعلت النوافذ المضيئة له نهارا، يظهر على المسجد إصلاحات وترميمات وقعت بهذا المسجد بكلّ ما كان به من تناسب ورونق، يعلو هذا المسجد مئذنة عالية كثيرا ما يكون على جامورها عش بلارج كبقية مآذن جل مساجد تلمسان، أمذا نسبته للشيخ السنوسي فإنّ المراد به الإمام العلاّمة الشّيخ محمد بن يوسف السنوسي المتوفّي بتلمسان عام 895هـ/(1490م) صاحب المصنّفات الكثيرة في علم التوحيد وغيره ولاسيما مصنفيه المشهور المعروف "بالعقيدة الصغرى" أو عقيدة أهل التوحيد.

مسجد سيدي الحلوي الشوذي

ينسب هذا المسجد إلى الشيخ العالم أبي عبد الله الشوذي الذي تولى القاضاء في إشبيلية ثم انتقل إلى تلمسان واستقر بها، ولقب بالحلوي لأنّه كان يصنع الحلوى ويبيعها لأبناء الحي الذي عاش فيه حتى توفي عام 737هـ/1337م، وقد أمر بتشييد هذا المسجد السلطان المريني أبو عنان عام 754هـ/1353م تكريما لهذا العالم الأندلسي الورع، وكان أبوه السلطان أبو الحسن المريني قد أمر ببناء مسجد سيدي بومدين بالعباد ومئذنته ومدرسته عام 739هـ/1339م، ولذلك جاء مسجد سيدي الحلوي مطابقا في تصميمه المعماري وزخرفته للمسجد الذي بني قبله بـ14 عاما، أسس مسجد سيدي الحلوي خارج مدينة تلمسان القديمة إلى الناحية الشمالية البحرية في سفح الجبل والهضبة التي أسست عليها المدينة، وذلك على أرض مائلة شديدة الانحدار إلى الغرب والشمال بينما يقع وجه المسجد على جهة الشرق صوب جرف الجبل، لهذا الجامع ثلاثة أبواب أحدهما شرقي والآخر غربي والثالث وهو الأعظم جوفي، فالداخل من هذا الباب تقابله شرعة محمولة على ثلاثة عشر مسندا منقوشة بدقة وتحتها إطار الباب المغشى بالفسيفساء، ولا تزال زخرفة الباب تحتفظ بالكثير من جمالها كالأشكال الزهرية المختلفة وألوان الفسيفساء المتنوعة وفوق الإطار توجد حاشية منقوشة بخط أندلسي ونصها:

"الحمد لله وحده، أمر بتشييد هذا الجامع المبارك مولانا السلطان أبو عنان فارس بن مولانا السلطان أبي الحسن علي ابن مولانا السلطان أبي سعيد عثمان بن مولانا السلطان أبي يوسف يعقوب بن عبد الحق أيده الله ونصره، عام أربعة وخمسين وسبعمائة"، وتعتمد مساند الشرعة على حاشية من الخشب تحتوي على خطوط كوفية نصها: "الغبطة المتصلة والبركة الكاملة والسعادة".

تقع قاعة الصلاة في مقدمة المسجد وهي مربعة الشكل، متوسطة الحجم، تحتوي على 16 سارية (أو عمود كبير) ثمانية منها في الوسط سيقانها رخامية دائرية قصيرة عليها تيجان رخامية جميلة، والثمانية الباقية توجد على الأطراف خشنة ومربعة الشكل، وسقف قاعة الصلاة خشبي متموج على شكل أروقة ثلاثة مستطيلة من الشرق إلى الغرب.

أمّا جدران القاعة فهي ملساء في الداخل عدا المحراب وحواشيه فهي منقوشة وخلف القاعة غربا توجد ساحة كبيرة في مستوى القاعة يتوسطها حوض ماء للوضوء، وحولها أروقة من اليسار واليمين والغرب تمثل امتدادا لقاعة الصلاة محاطة بسواري وسقفه بالخشب، وخلف الساحة غربا يوجد باب المسجد الرئيسي الكبير وهو يشبه باب مسجد سيدي بومدين1، وقد طرزت أطرافه وحواشيه بالنقوش والأسماء والكتابات منها اسم السلطان المؤسس أبو عنان فارس، وعلى يمين هذا الباب توجد مئذنة المسجد المربعة الشكل والعالية، المزينة بالنقوش والزخارف الرخامية الملونة، ولها باب إلى داخل الرواق الجنوبي، والأروقة التي تلف بالجامع تحتوي على قناطر مقوسة على شكل حدوة الفرس تحملها أعمدة من الرخام عليها تيجان في منتهى الجمال، أمّا المحراب المفتوح في الجدار القبلي من الرواق الأوسط فإنّ فتحته المقوسة محمولة على عمودين من المرمر مكللين بتاجين مزخرفين نقش على تاج اليمين العبارة: "جامع ضريح الشيخ ولي الله المجتبي بفضله الحلوي رحمة الله عليه"، ونقش على تاج اليسار ما يلي: "أمر بتشييد هذا الجامع المبارك عبد الله المتوكل عليه تعالى فارس أمير المؤمنين"، وقبة المحراب مزخرفة بالتماثيل المدلاة كبقية قبب المحاريب الأخرى بتلمسان، أمّا إطاره فليس عليه زخرفة وكذا القبة فهي سقف من الخشب مربع الشكل لكنه أعلى من سقف المسجد.

وغير بعيد عن المسجد في الاتجاه الجنوب الشرقي وفي وسط جرف الجبل يوجد الضريح والقبة التي دفن بها سيدي الحلوي، يطلّ من موقعه هذا على الحي الذي يحمل اسمه منذ أزيد من ستة قرون كأنّه الحارس والمراقب والحامي على هذه الديار.

مسجـــــد أغاديــــر

وهو أقدم جامع في تلمسان، ورد ذكره في كثير من المصادر والنصوص التاريخية، ويقع شرف تاكرارت المرابطية أو مركزها آنذاك واليوم، ولا شك أنّ مؤسس الجامع قد اختار له موقعا وسطا في المدينة التي تحولت إلى حي في مدينة أكبر مع مقدم المرابطين، وأسس هذا الجامع إدريس بن إدريس سنة 174هـ/790م، ويذكر ابن أبي زرع أن الأمير إدريس بنى له منبرا فخما نقش عليه كتابات تأسيسه، فهو يقول عن إدريس: "بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما أمر به الإمام إدريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسن رضي الله عنه، وذلك في شهر صفر سنة أربع وسبعين ومائة"، وجدّد الجامع على يد إدريس الثاني حسب ما يشير اليه نص تاريخي عن تاريخ حكام المغرب لأبي محمد الصالح فحواه أن: "....أبو مروان عبد الرحمن قال: دخلت سنة 555هـ(1160م) إلى جامع تلمسان، وهنا قرأت الكتابة الآتية على لوحة مسمرة على حزام المنبر، وكانت لمنبر آخر أقدم "أمر بعمل هذا المنبر الإمام إدريس بن إدريس بن عبد الله بن الحسن بن علي رضي الله عنهم، في شهر محرم سنة 199 هـ/(811 م)".

1- "أبو مدين شعيب بن الحسين الأندلسي التلمساني"، "مجلة الوعي" العدد المزدوج، (3-4) أفريل ماي 2011 ص 139.

وكان جامع أغادير ذا مكانة خاصة تعادل مكانة جامع تاكرارت في نظر الأفراد والحكام، وكان يقوم بوظيفتين الدّينية والعلمية، وهوما جعل يغمراسن بن زيان مؤسس الدولة الزيانية يشيد له مئذنة حيث لم تكن له مئذنة قبل ذلك، أو تهدمت في تاريخ غير معروف، وذلك إضافة إلى ما شيّده من مآذن كمئذنة جامع تلمسان الكبير، وكان الجامع ما يزال يقوم بوظيفة الدينية والعلمية في تدريس العلوم وتحصيل المعرفة بعد النصف الثاني من القرن 10 هـ/ 16م، فقد كان العالم العارف على بن يحي السلكيني الجاديري إماما بمسجد أجادير، يدرس فيه العلم إلى الضحى الأعلى، ويخرج ويذهب لعرصته بوادي الصفصيف يخدمها بالفأس.... ، ولاشك أنّ الجامع ظل يقوم بوظيفة خلال العهد العثماني، ولكن مع أوائل الاحتلال الفرنسي لتلمسان تعرض المسجد إلى التّدمير على يد جيوش الاحتلال فتحوّل الجامع إلى ركام وهو ما أكده لبارجيس المرافقون له من العرب في جولته الارتيادية إلى أغادير في منتصف القرن 19م، ولأنّه فعل شنيع ووصمة عار لأمّة تدّعي الحضارة، فلم يصدق ما قيل له حتى اطّلع بأمّ عينيه على بربرية بني جلدته، وقد اندثر الجامع اليوم فلم يبق منه إلاّ آثار من قواعد الدعامات، وجدار قبلته، ومحرابه، وجدرانه، ومئذنته.

مدرسة أولاد الإمام بتلمسان

تعرف كذلك بالمدرسة القديمة، وهي أوّل مدرسة بنيت في تلمسان، وكان ذلك بأمر من الأمير الزياني أبي حمّو موسى الأول سنة 710هـ (1311 م) احتفاء بقدوم العلمين الجليلين أبي زيد عبد الرحمن و أبي موسى، المعروفين بأولاد الإمام، إلى تلمسان وتكريما لهما.

فإستقبلهما وقربهما إليه، وضمهما إلى حاشيته من العلماء والفقهاء، وبنى لهما مدرسة عرفت بلقبهما وهي توجد بناحية المطهر داخل باب كشوط، وخصّص لهما إيوانين للتدريس والإقراء، وبنى لهما منزلين للسكنى بجوارها كما أوكل إليهما أمور الفتوى والشورى وحظيا بالتقدير والإحترام والتعظيم من جميع أهالي تلمسان، ويعتقد أن المسجد الذي يحمل اسمها يوجد بالقرب من المدرسة التي بناها لهما.

جاء ذكر هذه المدرسة في "نظم الدر والعقيان" للتنسي حيث قال في وفود العالمين إلى تلمسان أنّ الأمير الزياني استقبلهما "...فأكرم مثواهما، واحتفل بهما وبنى لهما المدرسة التي تسمى بهما..."، وكانت هذه المدرسة لا تزال قائمة عند دخول المستعمر الفرنسي إلى تلمسان، وكانت تحتوي على قاعتين لإستقبال طلبة العلم.

مسجد أولاد الامام

شيّد هذا المسجد حوالي 710هـ (1311 م) بأمر من السلطان أبي حمّو موسى الأوّل الذي أضافه إلى المدرسة القديمة أو مدرسة أولاد الإمام1.

1- "البستان" لابن مريم 221، "تاريخ الجزائر" العام 2/234.

إن ملامة هذا المسجد التي يبلغ ارتفاعها سبعة عشر مترا لمثال رائع المرشاقة والجمال قد وشيت واجهاتها الأربع بزخرفة على شكل رفعة الشطرنج تحتوي على مربعات من الفسيفساء مختلفة الألوان وكلّها على شكل المعين.

أمّا قاعة الصلاة فإنّها مؤلفة من ثلاثة بلاطات وثلاثة أروقة جعل المحراب كغيره في واجهة القبلة من الرواق الأوسط وهو يحتوي على ثلاث نوافذ مقوسة على الشّكل المعهود وله إطار فيه بقايا تراكيب جبسية خفيفة جامعة بين الدقة والفخامة شبيهة بما شوهد في زخرفة إطار محراب مسجد أبي الحسن، وكذا قبّة هذا المحراب فإنّها موضوعة على الرّسم الكثير الأضلاع المعهود وهي مزخرفة بالتماثيل المعلّقة المدلاة في جوانبها وأمّا أعلاها فهو قبّة صغيرة مؤلفة من ستة عشر تخريما ولكن لهذه القبة ميزة خاصّة وهي أنّ العمودين الذين يحملانها تجمع بينهما قنطرتان وضعت إحداهما فوق الأخرى، أمّا القنطرة الأولى التي لا يراها النّاظر الواقف في أحد البلاطات أي العليا فإنّها محشاة بتقاطيع شبيهة بالتقاطيع التي تشاهد في محراب مسجد سيدي أبي الحسن، وأمّا القنطرة الأخرى السفلى فإنّها محشاة بنقوش شبيهة بشكل السعف، كما يشاهد مثل ذلك في محراب جامع سيدي أبي مدين الذي سيأتي الحديث عنه عند الكلام على قرية العبّاد. ولا ننسى أخيرا أنّ السلطان أبا حمو موسى الأوّل شيّد هذا المسجد وكذا المدرسة التي كانت بجواره من أجل العالمين الجليلين الأخويين أبي زيد عبد الرحمن وأبي موسى عيسى بن الإمام عبدالله البرشكي1، وقد كانت وفاة الأوّل منهما عام 741هـ /(1340 م)، وكانت وفاة الثاني عام 749 هـ/(1349 م)، وكلاهما مدفون برحاب هذا المسجد الذي لا يزال موجودا به شاهدا قبريهما تغمدهما الله برحمته وأسكنهما فسيح جنته.

صرح المشــور ومسجـده

إنّ المشور هو الصرح العظيم الذي بناه السلطان يغمراسن بن زيان في أواسط القرن السابع الهجري (الثالث الميلادي) بجنوب تلمسان واتخذه دارا لسكناه بدلا من القصر القديم وقد حصّنه غاية التحصين حتى صار كأنّه مدينة مستقلّة في وسط العاصمة الزيانية ولا يزال هذا الصرح قائما بأسواره الشامخة وبابيه الداخلي المعروف بباب المشور والخارجي المعروف التويتة2 إلى يومنا هذا، لكن داخله الذي كان يحتوي على عدة دور أنيقة وحدائق بديعة ونافورات للمياه في غاية الجمال والرشاقة ومسجدا فخما وشجرة من فضة وساعة نادرة المثال تعدّ من عجائب الدنيا فكلّ ذلك قد محته خطوب الزمان وطوارئ الحدثان ولم يبق من المشور الآن إلا المسجد الذي بناه السلطان أبو حمو موسى الأوّل، وجدّد بناءه الأتراك ثم حوّلته السلطة الفرنسية إلى كنيسة بحيث أنّه فقد جميع زخرفته القديمة ولم يبق به من الأعمال

1- نسبة إلى برشك: مرسى صغير بين شرشال وتنس يدعى الآن وراية.
2- الباب الاول يصل المشور بالمدينة والباب الثاني يصله بالفحص والتويتة مصغر توتة أي شجرة التوت.

الفنّية ما يلفت النظر ما عدا مئذنته التي لا زالت تحتفظ ببعض زخرفتها العتيقة خصوصا الواجهة الجنوبية منها فلا تزال مكتوبا على قطع الفسيفسات التي تغشى إطارها العبارات التالية المعهودة في الزخرفة الخطية الأندلسية: "اليمنة الإقبال" و"يا ثقتي يا أملي أنت الرجاء أنت الولي أختم بخير أملي"، هذه المئذنة هي التي أشار إليها الشاعر مفدي زكرياء بقوله: (المتقارب):

وفي مشور المجد إذن موسى[1] * وخلـد زيـان مجد العـرب

وكان بهذا المشور في عهد ازدهار الحضارة الزيّانية شجرة من الفضّة تقدم الكلام عليها في القسم التاريخي وساعة عجيبة الصنع فريدة في نوعها تدعي المنجانة أو المنقانة من اختراع المهندس المبدع ابن الفحّام[2]، ودونك ما قاله عنها الحافظ التنسي في كتابه "الدر والعقيان في بيان شرف ملوك بني بني زيان" و"خزانة المكانة ذات تماثيل لجين محكمة الصنعة بأعلاها أريكة تحمل طائرا أفراخه تحت جناحيه ويختله فيها أرقم خارج من كورة بجوار الأريكة وبصدرها أبواب مفرجة بعدد ساعات الليل الزمانية يعاقب طرفيها ببان مفجآن: الأول أطول من الثاني وأعرض وفوق جميعها ودون رأس الخزانة قمر أكمل يسير على خط الاستواء سير نظيره في الفلك وسامت أولئك ساعة بابها المرتج فينخفض من البابين الكبيرتين عقابان بغي كلّ واحد منهما صنجة صفر يلقيها إلى طمست من الصفر مجوف بوسطة ثقب يمضي بها إلى داخل الخزانة فيرق وينهش الأرقم أحد الفرخين فيصفر له أبوه فهناك يفتح باب الساعة الذاهبة وتبرز منه جارية محترمة كأظرف ما أنت راء بيمناها إضبارة فيها اسم ساعتها منظوما ويسراها موضوعة على فيها كالمبايعة بالخلافة"[3].

إنّ هذه الساعة التي كانت أعجوبة الزمان بحاضرة تلمسان قد ورد وصفها كذلك في كتاب "بغية الرواد" ليحي من خلود بتفصيل لا مزيد عليه، وقد تقدّم في القسم التاريخي كما تقدم كذلك وصفها للتنسي منقولا من كتابه "راح الأرواح" المنقول هو عينه من "أزهار الرياض" للمقري.

1- المراد بموسى السلطان "أبو حمو الأوّل" مؤسّس المسجد ومئذنته.

2- قد نال "ابن الفحام" من السلطان "أبي حمو موسى الثاني" جراية سنوية قدرها ألف دينار جزاء اختراعه العجيب وهو "أبوالحسن علي بن أحمد" المعروف "بابن الفحّام" تلميذ "أبي عبد الله محمد بن يحي بن الفحّام" المتوفي عام 749هـ (1349م) وكان ابن الفحّام أعرف أهل زمانه بفنون التعاليم ظهر على يده من الأعمال الهندسية المنجانة المشهورة بالمغرب فأتابه عنها ملكوكه بألف دينار مقسطة عمال بلادهم في كل سنة (المجلد الاول ص 56 رقم 59)، من "بغية الرواد" ليحي ابن خلدون طبع الجزائر عام 1321 هـ (1903 م).

3- "الدر والعقيان" (مخطوط تلمسان) ج1، ص 66.

دار البـايلـــك

توجد هذه الدار[1] كما قلنا بالجنوب من المدينة قرب أسوار المشور الغربية، وهي الآن مقرّ السلطة العسكرية الجزائرية وكانت من قبل مقرّ السلطة التركية كما كانت مقرّ الخليفة البوحميدي في عهد الامير عبدالقادر الهاشمي ثم مقرّ السلطة الفرنسية بعد ذلك.

وهذه الدار تتألف من صحن أو فناء مربّع الشكل تحيط به أروقة مقوسة على شكل البيكارين تحمل قناطرها أعمدة رفيعة من الرخام ومن عدّة بيوت فتحت أبوابها على تلك الأروقة وكان البوحميدي يسكن البيوت الواقعة في الجهة الشمالية من هذا الفناء، أمّا البيوت الواجهة الغربية فإنّها كانت تشغلها المحكمة الشرعية وتوابعها.

وكان في وسط الفناء نافورة من الرخام يجري منها ماء زلال وينصب ما فضل منه في حوض كان مغروسا حوله أشجار من التاريخ والزيتون والياسمين.

جامع سيدي إبراهيم المصمودي وضريحه

هذا الجامع وما كان يحيط به من الأبنية مثل المدرسة اليعقوبية[2] التي كانت في شماله ولم يعف رسمها إلاّ حوالي سنة 1277هـ(1860) والضريح الذي لا يزال قائما بغربه وغيرهما من المرافق ذلك قد قام بتشيده السلطان أبو حمّو موسى الثاني عام 756هـ/(1363م)، يتألف من قاعة الصلاة ذات أربع بلاطات وخمسة أروّقة ومئذنة وصحن ذي حوض مستدير للوضوء ونافورة وتحيط به أروقة لكن ليس به من الزخرفة الفنّية ما يستوقف الزائر لمشاهدتها بخلاف الضريح الذي بناه السلطان المذكور إكراما لعميّه الأمويين أبي سعيد وأبي ثابت وأبيه الأمير أبي يعقوب فإنّه قد نال حظا وافرا من الزخرفة العربية الزاهرة وهو لا يزال على أصل وضعه إلى يومنا هذا.

أمّا سيدي إبراهيم المصمودي الذي استأثر باسم الجامع والضريح دون الأمراء الثلاثة المتقدمي الذكر فإنّه كان رجلا مشهورا بالعلم والصلاح في حياته ولمّا توفي عام 804هـ/(1401 م) دفن بجوار الأمراء الثلاثة ومن ذلك الحين أسند إليه اسم الجامع والضريح دونهم.

أمّا سيدي إبراهيم المصمودي الذي استأثر باسم الجامع والضريح دون الأمراء الثلاثة المتقدمي الذكر فإنّه كان رجلا مشهورا بالعلم والصلاح في حياته ولمّا توفي عام 804هـ/(1401 م) دفن بجوار الأمراء الثلاثة ومن ذلك الحين أسند اليه اسم الجامع والضريح دونهم.

1- أي الدار التي يقيم بها الباي ويراد بها دار الدولة أو الإدارة أو بيت المال وهي لفظة تركية أصلها "بايلق" ومعناها "الثروة" و "الرفعة".

2 - أعطى السلطان "أبو حمّو موسى" لهذه المدرسة اسم والده الأمير "يعقوب" المدفون بهذا الضريح.

يوجد هذا الضريح خارج الباب الغربي من الجامع بالروضة المعروفة بروضة آل زيان[1]، من ملوك تلمسان وهو يتألف من صحن صغير تحيط به أروقة محمولة قناطره المقوسة على أعمدة من المرمر وعلى البيت الذي دفن به الأمراء الثلاثة والرجل الذي نسب إليه الضريح والجامع، فجدران هذا البيت تقدّم لنا نموذجا كبيرا من الزخرفة الجبسية ذات الأشكال الهندسية الكثيرة مع فاقة ظاهرة في الأسلوب الفنّي واتقان الصنعة إذ الخطوط العربية العادية عوضت بالكتابة في مواضع متعدّدة ورسم الخط الكوفي على مساحة ضيقة وصغيرة وعلى سبيل الأنموذج الزخرفي لا غير لكن الهندسة تلعب دورا مهمّا في هذه الزخرفة إذ هي مستعملة على بسائط كبيرة فهي أهمّ زخرفة ذلك العهد.

وعلى كلّ حال فإنّ هذا الضريح يحوي زخرفة هي من الدّقة بحيث يجود فيها الفنّ كل إجادة، وأمّا باب الضريح فإنّه زخرف بالفسيفساء لكن ذلك وقع فيما يظهر في عهد غير بعيد.

مسجـد العبـــاد (سيدي بومدين)

بنيت هذه المجموعة المعمارية من طرف المرينيين تكريما لأبي مدين بن شعيب [2] وهو ولي صالح أصله من إشبيلية ودفن بعين المكان خلال القرن 12 م، وقد ساهم في نشر وإشعاع التصوف ببلاد المغرب، تضم هذه المجموعة الهندسية مسجدا وضريحا ومدرسة وحمامات، يشبه تصميمها إلى حدّ كبير تصميم مسجد سيدي الحلوي بتلمسان(1353) .

يعدّ المسجد من أهمّ منجزات الفن المغربي الأندلسي بالجزائر يتشكل المدخل الرئيسي للمعلمة كما هو الحال في جامعي قرطبة والقيروان من باب كبير يؤدي إلى بهو مزين بألواح جبسية منقوشة بإتقان وتعلوه قبة ذات مقرنصات، يتم الوصول إليه بواسطة درج شبيه بذلك الموجود بباب الشمس "بويرطة دي لصول" بطليطلة، كسيت الأبواب الخشبية بالبرونز، وهي تؤدي إلى داخل صحن مستطيل تتوسطه نافورة ماء وتحيط بجنباته أروقة تشكل في الجهتين الغربية والشرقية امتدادا لبلاطات قاعة الصلاة.

يغطي قاعة الصلاة سقف مائل ذو تجويفات وزخارف هندسية مثل شبكات مسترسلة إلى ما لا نهاية من النجوم والأشكال المتقاطعة والوردية الشيء الذي يوحي إلى القبة الزرقاء، تتكوّن هذه القاعة من خمس بلاطات موازية لجدار القبلة تنقسم إلى ثلاث أساكيب وتتكئ على بلاط متعامد مع القبلة، وترتكز العقود على دعامات مزين جزؤها العلوي بتوريق عربي، البلاط الأوسط أكثر اتساعا من البلاطات الأخرى

[1]- يؤسف جدّا لما حدث بهذا الجامع العتيق من التفريط وعدم المبالاة فعندما ينبت جانبه "دار الثقافة" وقف تحت الأرض تحويل لجيران الماء التي توجهت نحو أسس الجامع، فنهارت بعض سارياته وانهدمت الأروقة اللاسقة بها وميلت كذلك بعض جدرانه فأغلق الجامع بعدا أقيمت فيه الصلوات الخمسم أكثر من 6 قرون، فكان هذا الإندثار جاء عقابا لأنّ الروضة الملكية المجاورة لضّريح كادت أن تحوّل إلى مراحيض/ فيالها من مهزلة، كاد أن يقوم بها الذين لا يحترمون التاريخ ويجهلون أن تلك الرّوضة تضمّ أعظم علماء وأمراء ومؤمنين أبرياء قد احترمهم الأجيال طيلة الأحقاب الماضية واحترمهم حتى المستعمرون أنفسهم.

[2]- محمدالعيدري : "الرحلة المغربية "، ص ص 9 -10 طبع قسنطينة (الجزائر).

ويشكل التقاؤه ببلاط القبلة، وهوتصميم موجود بمسجد أبو دولف بسامراء العراق منذ القرن 9 و بجامع القيروان.

المحراب عبارة عن غرفة صغيرة تغطيها قبة ذات مقرنصات، والقوس الذي يمكن من الولوج إليها ذوشكل بيضوي جد متجاوز، وهو يرتكز على أعمدة ذات تيجان مركبة تحتمل تأثيرات الفترة العتيقة وهي مزينة بإفريز يحمل كتابات وبكتف العقد المنمق بغصنيات، يندرج هذا العقد داخل إطار مستطيل تعلوه ثلاث شماسيات جبسية دقيقة الصنع، تذكر هذه الزخارف بتلك الموجودة بمحراب تينمل و الكتبية (مراكش).

بالزاوية الشمالية الشرقية للباب تلتصق المئذنة المبنية من الآجر والمكسوة بالزليج، وهي ذات أبعاد شبيهة بمئذنة الكتبية، أمّا جذعها المربّع الزوايا والمتوج بشرافات مسننة والذي يعلوه منور، فيشبه إلى حد كبير مئذنة سيدي الحلوي، وهو مزين بلوحات مستطيلة تضم في الأسفل عقودا متعددة الفصوص كما هو الحال بمئذنة مسجد الشرابليين بفاس، وفي الأعلى تنتشر شبكة من المعينات الناتجة عن تداخل عقود منحنية، وهي متوجة بإفريز من الزخارف الوردية المصنوعة من الزليج.

بني ضريح سيدي أبو مدين ثلاثون سنة قبل البنايات الأولى لقصر الحمراء وهو ذو تصميم مربع يعلوه سقف ذو جناح مغطى بالقرميد الأخضر، ويضم صحنا مربع الزوايا يتوفر على سقيفة ترتكز على أعمدة خشبية ذات تيجان كورنثية، ومن المؤكد أنّ زخارف الباب وتلك الموجودة بداخل البناية تعود لصانع تركي.

المدرسة هي مكان لتدريس الفقه والتفسير والعلوم الدينية، غرب قاعة الصلاة وتصميمها المنتظم حول الصحن الذي تحيط به الأروقة يشبه كثيرا تصميم الرباط المغاربي، يتم الولوج إلى داخل البناية عبر باب كبير ذو زخارف متعددة الفصوص مصنوعة من الآجر وشبيهة بتلك التي تزين مدرسة أبي الحسن بسلا المغرب، وبداخل الصحن ينفتح باب على قاعة الصلاة والدروس التي تتوفر على محراب سداسي الأضلاع مزخرف بزليج تركي ومتوج بقبة صغيرة نصف كروية. المشور هو القلعة القديمة التي بناها يغمراسن (1234/1235-1282) وتحولت فيما بعد إلى إقامة رسمية لبني عبد الواد ملوك تلمسان، ويتحدث محمد التنسي1 عن بنايات عجيبة وأجنحة عالية جدا وحدائق غناء، كما يشير الإدريسي خلال القرن 16 إلى الهندسة الرائعة للبنايات، فبوسط تلمسان، يوجد سور محصن يتخذ شكلا مربع الأضلاع

1- الإمام، المحدث، الحافظ، المقرئ، الفقيه، الأديب، المؤرخ، الناظم: "أبو عبد الله محمد بن عبد الجليل بن عبد الله التنسي التلمساني"، ولد بمدينة تنس، ولم أقف على سنة مولده في جميع الكتب التي ترجمت له وهذا أمر غريب في حق عالم مشهور كالتنسي، لكنني وجدت الإمام "السخاوي" ذكر في ترجمته رقم 274 قال: " بلغني في سنة ثلاث وتسعين بأنه حي مقيم بتلمسان جاز الستين" ولمّا كان السخاوي قد فرغ من تبييض كتابه في ربيع الآخر من سنة (896هـ)، كما هومعروف يمكنني القول – والله أعلم- أنّه ولد بين سنوات 832 إلى 834 هـ.

ويحتل مساحة تقارب الأربع هكتارات، كان هذا السور الذي يبلغ علوه خمسة أمتار، مبنيا في الأصل بالتراب المدكوك لكنه رمّم بالحجارة خلال الفترة الاستعمارية، ويعلوه ممرّ للجند.

شيّد المسجد حوالي قرنا بعد ذلك (من بعد بناء المشور) من طرف أبو حمّو موسى الأول، كانت البناية بدون صحن، وشهدت عدة تعديلات من طرف الأتراك لتتحول خلال الفترة الاستعمارية إلى كنيسة، لم تستعد البناية وظيفتها الأولى إلا إبّان الاستقلال، ولا تحتفظ اليوم من أصلها العبدوادي إلا بالمئذنة.

المئذنة ذات تصميم مربع الزوايا ويتوجها منور، زينت واجهاتها الأربع بزخارف مصنوعة من الآجر والزليج، غطي الجزء السفلي بلوح مستطيل تحيط به مربعات من زليج ذو بريق معدني ويتوسّطه عقد ذو فصوص متشابكة وأركانه مزينة بالزليج، وهي المئذنة الوحيدة التي يزينها زليج لامع بتلمسان.

عثر على أجزاء كثيرة منها بقلعة بني حماد، ويحتمل أن يكون بنو عبد الواد قد تأثروا على هذا المستوى ببني حماد، أمّا الواجهة الجنوبية للمئذنة، فتتوفر على قوس ذو حافة مهذبة مكونة من ستة رؤوس يعلوه لوح ثان به أقواس مفصصة وتحيط به مربعات من الزليج اللامع ويحتوي على نقيشتين: الأولى كتب عليها "اليمن والإقبال"، وهي صيغة شائعة الاستعمال بحيث نجدها مكتوبة على عدة تحف مثل المزهرية الشهيرة لقصر الحمراء والتاج الذي يعلو منور مئذنة تلمسان والمحفوظ حاليا بالمتحف الوطني للآثار والفنون الإسلامية بالجزائر، كما نجدها منقوشة على دملج فتاة مصنوع من الفضة عثر عليه بقلعة بني حماد، أمّا الجزء العلوي للمئذنة فهو مزين على كل الواجهات بإطار مستطيل يؤثثه قوسان متراكبان يتشكلان من خمسة عقود كبيرة متشابكة، وفوق الصومعة شرافات مسننة في حين زين المنور بعقد متجاوز مسدود.

تتكون المئذنة من طابقين وليس ثلاثة كما هو الحال في مساجد القيروان وصفاقس، وقد تأثر بنو عبد الواد بالنسبة لشكل المآذن وموضع بنائها بأسلافهم من الموحدين؛ ولم يعملوا على استمرارية هذه الأشكال الهندسية وإنّما أغنوا هذا الفن الإسلامي بإعطاء مكانة للزخارف المكتوبة وللزليج.

مسجد المنصورة

مسجد المنصورة هي في الأصل معسكرا محصنا بناه الملوك المرينيون لتشديد الحصار على مدينة تلمسان ثم تطورت فيما بعد للتحول إلى مدينة، استغلت أنقاض هذه المدينة من طرف بني عبد الواد الذين أعادوا استعمال موادها (الأحجار المقطوعة والتيجان والرخام والأعمدة) في بناء وتزيين المعالم، ولم يبق منها واقفا إلا جزء من الأسوار ومئذنة المسجد.

مكّنت الحفريات من إعادة وضع تصميم المسجد الذي بناه السلطان أبو يعقوب سنة 1303 وأعاد أبو الحسن زخرفة بابه الرئيسي سنة 1336، يتم الدخول إليه عبر 13 بابا وهو محاط بسور، ويتوفر على

صحن مربع الزوايا تتوسّطه فسقية وتحيط بجنباته أروقة ثلاثية من جهتي الغرب والشرق تشكل امتداد لبلاطات قاعة الصلاة ورواق واحد من جهة الشمال.

تضم قاعة الصلاة التي تنفتح مباشرة على الصحن 13 بلاطا موازيا لجدار القبلة تتوقف على مستوى الصف الثالث قبل بلوغ المحراب، لتمنح تصميما عرف سابقا في سامراء بمسجد بيبرس القرن 13م)، بجوار المحراب، يمتد فضاء مربع على طول ثلاثة بلاطات تعلوه قبة ومن المحتمل أنّ الأمر يتعلق بالمجال الذي كانت تحتله المقصورة، أمّا المحراب فهو عبارة عن غرفة صغيرة الحجم ومستطيلة ملتصقة بخارج الجدار، وبجانبيها ينفتح بابان يؤديان إلى غرفتين صغيرتين.

تلتصق المئذنة المربعة الزوايا بالسور الشمال في محور المحراب، ولم يتبق منها إلاّ أربع مستويات، أمّا زخارفها فتملأ إطارات مستطيلة وتتداخل فيه الفتحات والعقود المفصصة المسدودة، وفي الواجهة الشّمالية تنتشر شبكة من المعينات المصنوعة من الآجر البارز والتي كانت فيما قبل مغطاة بالزليج.

كان للمنصورة أربعة أبواب حسبما ذكر الإمام ابن مرزوق الخطيب في كتابه: "المسند الصحيح الحسن" باب فاس غربا وباب هنين شمالا وباب المجاز1، شرقا وهناك باب رابع جنوبا لم يذكر اسمه ابن مرزوق ولعلّه باب خارجي كان يصل القصبة بالفحص2، يحمل الباب الرئيسي للمسجد، والذي هو في نفس الوقت مدخل المئذنة، مميزات الأبواب الموحدية، فهو ينفتح بواسطة عقد متجاوز تعلوه حنيتا عقد مفصصة، تندرج كلها داخل إطار مستطيل، يرتكز القوس على عمودين صغيرين من المرمر، ويحمل في إحدى جنباته نقيشة مكتوبة بالخط الأندلسي، تزين صدفيتان بارزتان الزوايا العلوية للإطار، وهما عنصران كانا شائعي الاستعمال في العهود القديمة، بينما تعرضت الخرجة التي كانت تعلوه للتلف، وتظهر البقايا الأثرية أنّها كانت محمولة بواسطة مقرنصات منقوشة من الحجارة وتحدها من الجانبين حاملتا إفريز متقنتا الصنع، يحمل هذا الباب تأثيرات موحدية منبثقة من باب قصبة الوداية وباب الرواح بالرباط وباب اكناوب مراكش.

تتخذ مئذنة المنصورة شكلا مربعا وهو شكل تتجسد أقدم أمثلته في منارات الجامع الأموي بدمشق التي استوحت تصميمها من الأبراج الرومانية لمعبد زحل التي بنيت على قواعدها، تعد مئذنة المنصورة من أعلى مآذن الجزائر، وتتشكل نواتها الفارغة من عدة غرف متدرجة.

وحسب الباحث لزين فإنّ أقدم مثال لمئذنة من هذا الشّكل تتجسد في منار سوسة الذي يستقي أصوله من المنار العتيق للبتيس ماغنا، كان الموحدون قد تبنوا هذا الشكل الهندسي في مسجد الكتبية و جامع حسن

1- في رواية أخرى باب الحجاز وهو خطأ والصواب ما ابتناه لأن المراد بإنجاز الطريق والمسلك الذي يسلكه الجند المريني لمحاربة الجند العبد الوادي عند باب الخميس الذي معناه: الجند قال أبو تمام: (البسيط) والعلم في "شهب الارماح اللامعة يبين الخميسين" لا في "السبعة الشهب".

2- بدليل وجود جامع القصبة لأنه كان قرب كل باب من الأبواب الثلاثة المذكورة مسجد يعرف به ولأن القصبة تبنى غالبا في مكان مرتفع من البلدة.

و الخيرالدا باشبيلية، كما كان الصعود إلى أعلى هذه المآذن يتم بواسطة مدارج مائلة مبنية على قباب أسطوانية مستطيلة تحملها وتنتهي بقباب ذات زوايا بارزة لا زالت أثارها بادية للعيان.

مســـاجد الأحيـــاء

ويقصد بها مساجد الصلوات الخمس أو مساجد الخمسة على حد التعبير القلقشندي، أمّا صلاة الجمعة فتقام عادة في الجوامع أو المساجد الجامعة، والمساجد العامة أو العامية أو المساجد المختصة، مثلما يذكرها ابن خلدون، هي الصلوات الخمس "يبنيها أهل الشوارع والقبائل في شوارعهم وقبائلهم، وأمر هذه المساجد راجع إلى جيرانها من السكان، وهي لا تحتاج إلى النظر الخليفة أو السلطان"، وتكون الإمامة فيها لمن اتفقوا عليه ورضوا به إماما، وليس لهم بعد الرضا به أن يصرفوه عن الإمامة إلاّ أن يتغير حاله بإخلال في شروط عمله، على أنّه ليس لهذا الإمام المختار أن يستخلف نائبا عنه ويكون أهل مسجد أحق بإختيار.

هناك عدد كبير من المساجد الأحياء في مدينة تلمسان، وما يزال كثير منها قائما إلى اليوم، جرت عليها بعض التغييرات والإصلاحات والتوسعات، غير أنّ كثيرا منها ما يزال يحتفظ بجوهره التخطيطي، وكثير من عناصره المعمارية الأصيلة.

وتقع معظم تلك المساجد عند مداخل الأحياء، تشرف على ساحة متوسطة الحجم، يشرف عليها أو يجورها أو ملاصقا لها حمام وحوانت وفرن للخبز عادة، من أهم تلك المساجد مسجد الشيخ أبي عبد الله محمد السنوسي، ومسجد باب زير (الزياني)، ومسجد الشرفاء (يرجح أنّه من العهد المورابطي)، ومسجد سيدي اليدون (الزياني) ومسجد حي القرّان الكبير(الزياني)، حي القرّان الصغير (الزياني)، ومسجد درب السلسلة (الزياني) ومسجد درب ملالة ومسجد سيدي الزكري (الزياني) وسيدي الوزان (الزياني) ومسجد سقيفة درب الموحدين، (يرجح أنّ نواته من العهد الموحدين)، ومسجد درب السباغين، ومسجد لالة الرية.

مسجدا باب زير وسيدي الحسن بن مخلوف

الأوّل من هذين المسجدين موجود داخل باب زير، والثاني خارجها وكلاهما له صومعة معتدلة القامة لكن الأول منهما وإن أدخل عليه إصلاح غيّر رسمه الأوّل فلا زالت تقام به الصلوات الخمس إلى يومنا هذا أمّا الثاني منهما فهو خراب الآن ما عدا مئذنته مع أنّه لعب دورا مهمّا أثناء القرون الوسطى حيث أنّه كان مصحوبا بمدرسة انطمست معالمها تماما الآن بحيث أنّنا لا نعرف حتى موقعها وكلاهما أي المسجد والمدرسة منسوبان للشيخ سيدي أبي الحسن بن مخلوف الراشدي المتوفى بتلمسان عام 853 هـ/(1453 م)، ولعلّهما من بناء السلطان أبي العباس أحمد المشهور بالعاقل.

مسجـــــد سيــدي اليدون

يوجد هذا المسجد بدرب يسمّى بإسمه وهو واقع على يمين الدرب يعد المرور تحت ساباط قريب من ساحة الشهداء1، ويدخل إليه عبر باب ذي قوس على شكل حدوة الفرس تعلوه شرعة وله مئذنة بسيطة في واجهته الشمالية.

أمّا قاعة الصلاة فهي تتألف من ثلاثة بلاطات وثلاثة أروقة جعل المحراب في الجدار القبلي من أوسطها وقرب الجدار المقابل له يوجد ضريح سيدي اليدّون الذي يسمى المسجد باسمه وهو محاط بسياج من الخشب منقوش وملوّن بألوان متنوّعة.

ويرجع بناء هذا المسجد إلى العهد التركي وهو مسجد الذي شيّده الأتراك بتلمسان نعم أنّهم شيّدوا مباني أخرى بهذه المدينة لكنّها اندثرت كلّها ولم يبق منها إلاّ دار البايلك الواقعة بالجنوب الغربي من صرح المشور.

حمام الصباغين، نموذج آخر لتطور فن العمارة بتلمسان

اشتهرت تلمسان خلال فترة العصر الوسيط وعلى مدى مئات السنين بتواجد العديد من الحمامات والتي كانت تتوزع على العديد من أزقتها ودروبها وكان يقبل عليها سكان حاضرة تلمسان قديما للإستحمام والإغتسال وساهمت عدة عوامل في انتشار هذه المعالم ذات الطابع الخدماتي ومن بينها الثروة المائية الهالة التي كانت تتوفر عليها تلمسان من خلال طبقات مياه جوفية وانتشرت معها عمليات حفر الآبار لإستغلالها في ذلك، ومن بينها حمام الصباغين الذي يقع في الحي الشمالي الشرقي للمدينة العتيقة وعلى حافة درب ضيق وملتو والذي يصل شارع معسكر بشارع ابن خلدون حاليا.

ويمتاز هذا الحمام الذي كان يوقد بالحطب والفحم بطرازه المعماري العربي وبخصائص أندلسية مغربية، ويعتبر هذا الحمام الذي لا يبعد سوى بمسافة قليلة عن وسط المدينة ومعظم معالمها الدينية كالجامع الكبير والتاريخية كقلعة المشور، نموذجا ودليلا آخر للمراحل الأولى من بداية تطور فن العمارة والهندسة بتلمسان التي شهدت هي الأخرى رقيا لم يكن أقل شأنا من باقي المجالات.

كما أنّ هذا الحمام يتكون من العديد من المرافق الضرورية وفي مقدمتها القاعة الدافئة كعنصر هام والتي تمثل مركز تشكيلة الحمام والعنصر الهام فيها والتي تتفوق وبشكل ملحوظ من حيث أبعادها وهندستها عن باقي المعالم التاريخية2 التي تزخر بها تلمسان وذلك بعدة خصائص بداية من مخططها الذي لا يوجد إلا في حمامات الأندلس و بالمغرب الأقصى، حيث كان آنذاك الإهتمام مركز وبشكل كبير على القاعة الدافئة التي تتميز أيضا بوجود قبة مركزية مهيأة تبعا لنموذج غرف القصور الأندلسية والتي

1- كانت هذه الساحة تدعى "المدرس" قبل الاستقلال و"راس المصدع" في العهد التركي والمصدع معناه الطريق المهلة في الأرض الغليظة.

[2]- العيدري "الرحلة المغربية" ص 10.

لها تقسيمات ثلاثية بأعمدة جانبية في منتهى الروعة والجمالية وليس هذا فحسب بل تمتاز هندسة حمام الصباغين أيضا بأسلوب تيجانها الحجرية القوية والمتينة ممّا جعلها باقية متحدية الزمن لعدة قرون وشكل عوارضها المقسمة وفق انحدار العقود والتي تشبه إلى حد كبير شكل حدوة الفرس وهي الأخرى تتبعها القبة المضلعة حيث أنّ كل هذه العناصر تربط القاعة بفن العمارة خلال القرن الحادي عشر للميلاد ويؤكد ذلك أيضا على التواصل الذي كان قائما بين حواضر شمال إفريقيا وبلاد الأندلس واهتمام حكام وسلاطين تلمسان ب بإستقطاب العلماء ومن بينهم اختصاصيون في العمارة سواء من حرفيين ومعماريين، ونظرا للتميز الذي تنفرد به هذه الحمامات بتلمسان والتي كانت عادة ما ينسب اسمها إلى خصوصية الدرب المتواجد فيها مثلما هو الشّأن بالنسبة لحمام الصبانين الذي يدل على أنّه كان موجودا في منطقة مشهورة بحرفة الصبانة.

حظيت العديد من هذه الحمامات بعمليات ترميم هامة خلال تظاهرة تلمسان عاصمة الثقافة الإسلامية وأشرف عليها ديوان تسيير واستغلال المنشآت الثقافية المحمية، وللحفاظ على هذا الموروث فقد قام العديد من المستثمرين في الوقت الحالي ببناء حمامات مماثلة وعلى نفس الطّريقة والتشكيلة تقريبا في إرادة منهم على الحفاظ على التراث التاريخي لتلمسان، مثلما هو الحال بالنسبة لحمام الشفاء "بالواد الأخضر" و "وادي الشولي" والذي يعود تشييده إلى بضع سنوات خلت ويؤدي الخدمة للمواطنين حاليا سواء للاستحمام أو الاستمتاع بشكله وهندسته المميزة ويقبل عليه العديد منهم حتى من خارج ولاية تلمسان بالنظر لجماليته وروعة هندسته ومعماره الإسلامي من الأقواس والسيراميك والذي يعود بكل من يزوره إلى مئات السنين، ويعتبر هذا الحمام الذي قام ببنائه أحد كبار مجاهدي المنطقة الشرقية من تلمسان والمدعو المرحوم الحاج الغوثي والذي كان من كبار أعيان الجهة، نموذجا حقيقيا للتواصل في الحفاظ على فن العمارة بتلمسان.

وبالجملة فهذه الجوامع والمساجد والضرائح والمدرسة في وضعها وفخامة زخرفتها ونضارة منظرها آية في الإبداع وكمال الذوق إذ فيها من الأعمال الفنّية ما يقف أمامه الإنسان باهتا مدهوشا، فبينما يعجبك هذا الجامع بعظمته فيجذبك الجامع الآخر بفخامته فيستهويك الثالث بكمال جماله فيستلفتك الرابع بديع مثاله فيسحرك الخامس بحسن صناعته ورشاقة أعمدته والحاصل ليس بالإمكان أنّه يتخيّل الإنسان أو يصوّر البيان مقدار ما في هذه المدينة من العظمة والفخامة وحسن الرواق وجمال الشّكل وبديع الصور إذ بها أشياء عجيبة في غاية الدّقّة والأناقة لا يصل إليها وصف الواصف ولا مبالغة الناعت ولو بلغ من الفصاحة والبيان، فهذه المساجد والجوامع وما يلحق بها آيات من آيات الفن وكنوز من مبدعات الصناعة التي لا تباري ولا تزال إلى اليوم مصدر الإعجاب والعجب.

وإني أستطيع أن أقرر أنّ هذه المساجد وما احتوت عليه من مناظر أعظم ما أبدعه فنّان على مرّ القرون والأجيال، فهي الكعبة المكرمة التي يحج إليها كل فنّان حيث يقف ناظرا مستلهما فيذهب به خياله إلى التسبيح بذكر العليّ القدير الذي جعل من بين خلقه من استطاع الوصول بالفن إلى هذا الكمال، فيحقّ لنا حينئذ أمام هذه الأعمال الفنيّة الخالدة أن نقول مع شوقي: (الكامل)

ما مات من حاز القرى جثمانه * واستولت الدنيا على آثاره1.

إنّ المشاهد يقف أمام هذا الخلق الرائع والجمال السامي والنيل العظيم، كما لو كان في حلم هنئ فيشعر دون إرادة منه بعمق العبادة يحيط به ونقاوة القلب وصفاء الضمير يغمران كيانه ويحسّ أنّه تجرّد من حاجات النّفس الماديّة ثم لا يلبث أن يرجع ببصره مطأطأ الرأس أمام العظمة الإلهية التي تمتلت خير تمثيل فيما أبدعه العبقريّ الملهم بهذه الديّار ولله درّ الشاعر أبي عبد الله محمد بن الخميس القائل عن تلمسان: (الطويل)

تلمسان لو أنّ الزمان بها يسخو منّي * النفس لا دار السلام ولا الكوخ2

هذه المواصفات الفنية العمرانية توحي بأنّ تلمسان تبقى إحدى المدن التي يضع فيها النسيج العمراني بصماته بكل مكوناته على الشكل الذي كان عليه في بلاد الأندلس، مماّ يدلّ على أن التأثير كبيرا رغم الهجمات العمرانية السلبية التي تكاد أن تحول هذا النمط العمراني إلاّ أن القضاء على الهوية تبقى أمرا مستحيلا لعراقة و تجدر الحضارة الأندلسية التلمسانية.

1- استعمل شوقي كلمة "آدابه" استبدلها "بآثاره" لتوافق ما قصدناه.

2- "أزهار الرياض" المقري، ج3، ص 323 القاهرة 9،135 هـ (1940 م).

الخاتمـــة

إن عملية التطور التكنولوجى للعمارة على الإبداع المعماري فى القرن العشرين أصبحت هامة جداً فى هذا العصر حيث العولمة والإنفتاح على العالم وفى ظل هذه العولمة حدثت طفرات معمارية هائلة إنتقلت بالبشرية من مرحلى إلى أخرى فى مراحل التطور التكنولوجي الهائل حيث اكتشاف المواد الإنشائية الجديدة ولنظم إنشائية متعددة ووسائل تنفيذ آلية ومتقدمة وفائقة السرعة والتقدم لتوفير الوقت والجهد ، واكتشاف بعض مواد البناء مثل الطوب بأنواعه والحديد والخراسنة وغيرها .. وقد تأثر التصميم المعماري على وجه الخصوص والمنشآت المعمارية على وجه العموم بهذا التطور التكنولوجي الهائل الذى حدث فى القرن العشرين حيث أن تطور تكنولوجيا البناء ليس فى مجال واحد أو مجالين من مجالات العمارة ولكن أصبح فى كل جوانب العمارة ، حيث بدأ المصمّمون المعماريون والإنشائيون استخدام كل ما هو جديد من تطورات فى مواد البناء ونظم الإنشاء أصبحت تلبي كل متطلبات العمارة الحالية ، أما وسائل التنفيذ الحديثة أصبحت توفر الوقت والجهد مع تأدية الوظيفة بصورة أفضل.

إن تطورات تكنولوجيا العمارة فى تحديث دائم حيث أنه من الممكن أن مواد البناء ووسائل التنفيذ ونظم الإنشاء المستخدمة اليوم لا تستخدم بعد فترة زمنية قادمة ويتم تحديث هذه المواد وغيرها. إلاّ أن الحضارة الإسلامية في شبهه الجزيرة الإيبيرية تركت مجموعة كبيرة من المعالم الفنية التي شيدت على أرض بعيدة عن مراكز القوة و الابداع الإسلامية . و يمكن تفسير هذه المنجزات بأنها عرض لقدرة النفس المسلمة الملهمة، أو أنها مظهر لروابط ثقافية فذة متفوقة ربطت معا في عقيدة واحدة متعددة الجوانب، والتي تأثرت بها الثقافة الإسلامية ، مثل الثقافة الإيرانية والثقافة التركية في وسط آسيا، اللاتان أضيفتا إلى خصوصيات ثقافة سلالة البربر والعرب والاسبان.

بيد أن هناك حالة بديلة لما قد يطلق عليه ايديولوجية الرابطة الإسلامية تفسر الثقافة من خلال التوافق المؤثر بين العقيدة و الاخلاقيات المرتبطة بها . و من وجهة النظر البديلة هذه ، يتم تفسير الصفات الفنية لبلد ما من خلال الجهد المستمر للروح القومية ، و الخاصيات المتعذر تعريفها للبلد و ماضيه ، و كذلك من خلال وجود "الأرض" و "الموتى"1 حسبما عرّف بعض منظري الفكر القومي الأمة في السنوات الاولى من هذا القرن.

فكشف لنا هذا الموضوع عن صعوبة حوار الحضارات بسبب النظريتين المتناقضتين للتواجد الإسلامي في البقعة الموجودة في الضفة الغربية للبحر الأبيض المتوسط بين المسلمين و الغرب ، و إذا كان هذا الطرف الثاني يعتبر أن الفتح الإسلامي للأندلس هو عدوانا، فإننا مطالبين بأن نحكم على الأمور بالإستناد على العوامل الموضوعية

إن الحوار بين هذه الايديولوجيات ليس حوارا يجب أن يخوض فيه من ليس بمسلم أو اسباني ، "بيد أنه حريّ بنا أن نسأل لماذا ظهرت بجلاء وجهات نظر متضاربة بشأن الفن في إسبانيا المسلمة" ، كما ظهرت أيضا بشأن ثقافتها ، بل بشأن وجودها. فمن المسلّم به أن جل المعالم العمرانية في بلاد الاندلس والمغرب هي من أفضل روائع العمارة الاسلامية ، بإعتراف كبار المتخصصين في النماذج العمرانية.

[1] .ورد ذكر كلمتي الأرض والموتى في بعض كتابات القوميين الفرنسيين، حوالي 1900 م وبحسب رأيهم أن الأمة تتكون من الوطن المقدس، الأرض والشهداء والأسلاف ،والموتى الذين أعلوا بشن الوطن

كذلك من النتائج التي يمكن أن نستخلصها أن النسيج العمراني المتّبع في بلاد الاندلس كان يخطط ويصمم على أسس مشابهة لتلك الأسس التي أقيم عليها عمران القيروان في تونس ، و القاهرة و المدينة المنورة، والقدس و يتجلى ذلك في بناء المساجد كمسجد قرطبة و القيروان و الأزهر و مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم والمسجد الأقصى و إن بطرق مختلفة إن الحضارة الإسلامية في الأندلس ليست عدوانا ولا استعمارا لأنها لم تقم على التمييز، بل جاءت لتعمر ذلك الإقليم الذي كان يعاني من الظلم بفعل الصراع على السلطة في أوروبا التي بلغت جرؤتها إلى أن تدّعي أن مصدرها هو الله وكل ذلك من أجل أن تضع القوانين التي تراها بنظرتها ومن دون مشاركة أي طرف.

إن الحضارة الإسلامية في الأندلس جاءت بمبادئ الشريعة الإسلامية التي تبين العلاقة بين الحاكم ولامحكوم كما تبين حقوق والتزامات الخليفة، لكن هذا الكلام لا يعني أن المسلمين قد تمكنوا من إرساء دولة فاضلة في بلاد الأندلس لأنهم ظلوا يتنازعون على من يتولى السلطة إلى درجة أن علاقاتهم بالخلافة ظلت غير مستقرة، غير أن عدم الاستقرار السياسي في دولة الأندلس، لم يكن حاجزا في وجه إرساء حضارة في مختلف المجالات بحيث تطورت في عهدهم مختلف العلوم وتميزت العمارة في عهدهم بالرقي.

واذا كان الغرب لا يعترف بكل هذه الآثار التي تدر أموالا كبيرة على دولة إسبانيا المعاصرة نتيجة لرغبة كل من يزورها في اكتشاف منجزات المسلمين، فإنه من الواجب أن تدرس هذه الفترة الزمنية التي تواجد فيها المسلمون في الأندلس بموضوعية، وأن مقارنة هذا التواجد بظاهرة الاستعمار الأوربي للدول العربية والاسلامية والآسياوية والإفريقية ستكشف للجميع وبما فيهم المتعصبين الأوربيين أن الدولة الإسلامية في الأندلس، أنجزت حضارة ولم تكن أبدا احتلالا. فجذورها باقية في شبه الجزيرة الإيبيرية وأغصانها متراميتا في بلاد المغرب (تلمسان).

فرغم عمق هذا التأثير الحضاري الأندلسي في حاضرة تلمسان و مقارنة مع ما ورد في هذه الرسالة لا نكاد نصدق هذه المسلّمات الثقافية، فالزائر اليوم للمدينة تراه متحصّرا لما آلة إليه هذه المدينة من تغيرات أثّرث سلبا و لا زالت تؤثر على النسيج العمراني. فالتأثير المعاكس كبير، فما كان معمول به في البنية الثقافية العمرانية الأندلسية بتلمسان أصبح أثر بعد عين. و رغم أن الحملة شرسة إلاّ أن الهوية الجزائرية تبق صامدة فالإهتمام بفن العمارة منذ الفتح الى السقوط وصولا الى دويلات المغرب لم يكن عبثيا و لا ضرفيا و في هذا المجال تتجلى حقيقتا ناصعتا والتي نعتبرها الحوصلة النهائية لهذا البحث هو أنّ الهذف من هذا الفن المعماري الذي كان يصبو اليه الحكام والفنانون كذلك الهذف من تمكين هذا الفن كان عقائديا و اجتماعيا يمثل شموخ الدولة الإسلامية و عظمت دينها وهذا ما جعل هوية هذه الحضارة تتميز بالديمومة و الأزلية رغم ما تعانيه من هجمات ثقافية داخيلة عميقة. فالهوية الجزائرية و الهوية الأندلسية وجهان لعملة واحدة.

المراجع العربية:

– ابراهيم أحمد العدوي " المجتمع المغربي مقوماته الاسلامية والعربية" ، القاهرة 1970 م.

– إبراهيم القادري بوتشيش "مباحث في التاريخ الاجتماعي للمغرب والأندلس خلال عصر المرابطين"، ط1، دار الطليعة 1998م.

– إبراهيم القادري بوتشيش "المغرب والأندلس في عصر المرابطين "المجتمع" – "الذهنيات-" الأولياء" ، ط1 دار الطليعة ، 1993م.

– إبراهيم بيضون " الدولة العربية في أسبانيا" ، ط 3 ، دار النهضة العربية 1986 م.

– إبراهيم بيضون "الأمراء الأمويون الشعراء في الأندلس" – دراسة في أدب السلطة دار النهضة العربية 1994 م.

– ابراهيم فرغلي "تاريخ وحضارة الأندلس" ، ط1 العربي للنشر والتوزيع ، 2006 م.

– ابن الأبار التكملة لكتاب "الصلة"، ط ، تحقيق: ابراهيم الابياري، دار الكتاب المصري اللبناني 989م - ابن الأبار : "الحلة السيراء"، تحقيق ، حسين مؤنس ، دار المعارف ، القاهرة1985م.

– ابن الخطيب "أعمال الأعلام" ، تحقيق ليفي بروفنسال، ط 1 ، مكتبة ا لثقافة الدينية 2004.

– ابن الخطيب "الإحاطة في أخبار غرناطة" ، تحقيق محمد عبد الله عنان، مكتبة الخانجي، 1974م.

– ابن الفرضي "تاريخ العلماء والرواة للعلم بالأندلس ".ج2 عُنيّ بنشره ، السيد عزت العطار ، ط2 ، مكتبة الخانجي . القاهرة 1988 م.

– ابن القوطية "تاريخ افتتاح الأندلس".

– ابن بسام "الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة"، تحقيق سالم مصطفي البدري، ط 1، دار الكتب العلمية، بيروت 1998 م- ابن بسام " الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة"، تحقيق لطفي عبدالبديع، الهيئة المصرية للكتاب 1975م، القسم الأول، المجلد 1

– ابن بشكوال "الصلة"، تحقيق إبراهيم الأبياري، ط 1، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، 1989.

-ابن بصال" كتاب الفلاحة"، نشر وترجمة وتعليق: خوسي بييكروسا ومحمد عزيمان، معهد مولاي الحسن، تطوان 1955 م.

-ابن حزم "طوق الحمامة" في الألفة والالاف، تحقيق الطاهر مكي، دار الهلال 1994 م.

-ابن حزم "جمهرة أنساب العرب "، تحقيق عبد السلام هارون، دار المعارف، مصر، دار المعارف 1962 م.

- ابن حزم " فضائل الاندلس واهلها "، نشر وتقديم : صلاح الدين المنجد ، دار الكتاب الجديد 1968م.

-ابن حيان "المقتبس الثاني"، طبعة فاكسيمية، مدريد 1999م وهى محفوظة بمكتبة الأكاديمية الملكية للتاريخ بمدريد.

– ابن خلدون "المقدمة"، منشورات دار الكتاب اللبناني للطباعة و النشر، بيروت، 1968م.

–ابن خلدون " العبر" ج7.

–ابن خلدون "تعريف بابن خلدون"، و ايضا، نيل الابتهاج"، ج1 و ايضا "نفح الطيب"،ج7 .

– ابن خلدون "بغية الرواد" في ذكر الملوك من بني عبد الواد ، تحقيق الفراد بال، ح1، الجزائر1910.

– ابن خلدون "بغية الرواد" في ذكر الملوك من بني عبد الواد ج1 تقديم و تحقيق و تعليق عبد الحميد حاجيات المكتبة الوطنية، الجزائر، 1985 .

–ابن خلدون كتاب" العبد و ديوان المبتدا و الخبر في تاريخ العرب" و العجم و البربر و من عاصرهم من ذوي الشان الاكبر ،ج7، دار العلم بيروت، 1968 .

-ابن خلكان "وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان"،. تحقيق: محمد محيى الدين عبد الحميد – القاهرة 1948م.

-ابن خلكان "وفيات الأعيان "، جزء 2، تحقيق إحسان عباس ط 1، دار صادر بيروت 1998م.

-ابن خير "فهرسة ما رواه عن شيوخه"، تحقيق فرانشيسكو كوديرا، مكتبة الخانجي، ط3 ، 1997م.

-ابن دحية " المطرب في اشعار اهل المغرب"، تحقيق: إبراهيم الإبياري ورفيقيه. القاهرة 1954م.

-ابن دحية الكلبي (ت633هـ)، لمطرب من" أشعار أهل المغرب" ، الدرجيني : كتاب "طبقات المشايخ بالمغرب"، ج1 تحقيق : إبراهيم طلاي ، الجزائر 1394هـ / 1974 م" .

-ابن سعيد المغربي "المغرب في حلي المغرب"، ج1 ، تحقيق شوقي ضيف ، ط4 دار المعارف ، 1999م.

ابن السماك العاملي "الزهرات المنثورة في نكت الاخبار المأثورة"، تحقيق: محمود علي مكي، مجلة المعهد المصري للدراسات الاسلامية، مدريد1982– 1981 م.

– ابن عذاري "البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب". تحقيق : كولان وبروفنسال ، ج2 ، بريل ، 1951م.

-ابن عذاري "البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب". تحقيق : ليفي بروفنسال، ج3 ، دار الثقافة بيروت،1983م.

-ابن عذاري "البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب". تحقيق : إحسان عباس ، ج4 ، دار الثقافة بيروت، 1983م

-ابن عطية المحاربي "فهرس ابن عطية"، تحقيق محمد أبي الأجفان، دار الغرب الإسلامي 1980م. -ابن العوام: "كتاب الفلاحة"، نشر وترجمة خوسيه أنتوينو بانكيري، مدريد 1802 م.

–ابن غالب الغرناطي الاندلسي، "فرحة الاندلس في تاريخ الاندلس"، قطعة نشرها الدكتور احمد لطفي عبد البذيع في مجلة معهد المخطوطات العربية، مجلد ج1 .

– ابن غزلون انظر: ابن بشكوال "الصلة"، ج1، رقم: 169 .

– ابن قربة "المئذنة المغربية و الاندلسية في العصور الوسطى"، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1986م.

–ابو عبد الله محمد بنعذاري المراكشي،" البيان المقرب في اخبار الاندلس و المغرب"، ترجمة فاغنان(الجزائر، 1901، 1904)،ج2.

– ابي مدين شعيب الاشبيلي انظر ابن الزيات النادلي، "التشوق"، رقم: 162،ابن الآبار: "التكملة" ،ج2، رقم: 2015، المقري "نفح الطيب"، ج9 ، ابن مريم : "البستان"، تحقيق: محمد ابن ابي شنب، الجزائر، 1908–114، ابن

– احسان عباس "تاريخ الادب الاندلسي"، دار الثقافة، بيروت، 1969م.

– أحمد ابراهيم الشعراوي "دراسات في تاريخ اسبانيا في العصور الوسطى"، ج1، دار النهضة العربية ، 1973م.

– احمد بدر "دراسات في تاريخ الأندلس وحضارتها" ،أطلس للنشر والتوزيع دمشق 1972م.

-أحمد اليوسفي شعيب "أهمية الفتاوى الفقهية في كشف وقائع التجربة الأندلسية "–(نوازل ابن الحاج القرطبي) نموذجا– في: ندوة الأندلس قرون من التقلبات والعطاءات.– الرياض :مكتبة الملك عبد العزيز العامة، 1993م.

– احمد شلبي "التاريخ الاسلامي و الحضارة الاسلامية"، ج4، القاهرة، 1969م.
-احمد محمد إسماعيل "دراسات فى تاريخ الأندلس" دويلات الصقالية العامريين في شرق الأندلس (عصر دويلات الطوائف) ، ط1 ، مركز الإسكندرية للكتاب، 2007 م.
-أحمد مختار العبادي في "تاريخ المغرب والاندلس"، ط1، دار النهضة العربية، د . ت.
-أحمد مختار العبادي وصف الأندلس: من كتاب" صلة" السمط وسمة المرط لابن الشباط.– مجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية (مدريد) – ع14- (1967-1968) .
-أحمد مختار العبادي "صور من حياة الحرب والجهاد في الاندلس "منشأة المعارف 2000م
– احمد يوسف "مصادر الادب الاندلسي" دار الوفاء ، 1995م.
-أحمد عبد اللطيف حنفي "المغاربة والاندلسيون في مصر الإسلامية من عصر الولاه حتى نهاية العصر الفاطمي"، الهيئة العامة لقصور الثقافة، 2006 م.
– الامير محمد بن عبد القادر "تحفة الزائر في اخبار الجزائر و الامير عبد القادر"، بيروت، 1964.
– البكري "المسالك والممالك"، (الجزء الخاص بالأندلس وأوروبا)، تحقيق: عبد الرحمن الحجي، (بيروت، دار الإرشاد)، ط1، 1968م .
– الحسن الوزان "وصف افريقية" ترجمة محمد حجي و محمد الاخضر، بيروت: دار الغرب الاسلامي، 1983،ط2،ج1
– الحسن الوزان "وصف افريقيا" ،ج2 بيروت 1983م .
– الحسين العربي رحمون "أدباء الأندلس" إسهاماتهم وتأثيرهم في الحركة الأدبية العربية خلال القرنين السابع والثامن الهجريين في: ندوة" الأندلس قرون من التقلبات والعطاءات" الرياض: مكتبة الملك عبد العزيز العامة، 1993 م.
– الحميدي "جذوة المقتبس"، الدار المصرية للتأليف والترجمة 1966م.
-الحميري " الروض المعطار في خبر الأقطار"، تحقيق: إحسان عباس، (القاهرة، مؤسسة ناصر للثقافة، ط2، 1980م
- الخشني "قضاة قرطبة"، الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة 1966م.
الزهري "كتاب الجغرافية"، تحقيق: محمد الحاج الصادق، مجلة الدراسات الشرقية، المعهد الفرنسي بدمشق، سنة 1968
-السلفي "اخبار وتراجم اندلسية" مستخرجة من معجم السفر للسلفي ، تحقيق : احسان عباس ، ط1، دار الثقافة 1963م.
– الشريف الادريسي "نزهة المشتاق في اختراق الآفاق"، ج1، القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية، 2002.
-الضبي "بغية الملتمس"، دار الكتاب العربي 1967م.
-الطاهر أحمد مكي "دراسات عن ابن حزم" ، ط 4 ، دار المعارف 1993م.
-الطاهر أحمد مكى "دراسات أندلسية فى الأدب والتاريخ والفلسفة" ،ط2 دار المعارف1983م.
–الطمار محمد بن عمرو "تلمسان عبر العصور"، م.و.ك، الجزائر 1984م .
-العذري "الدخيرة" ق4،م1، نصوص عن الأندلس ، تحقيقم: عبد العزيز الأهواني مدريد 1965م ، المراكشي: "المعجب في تلخيص أخبار المغرب" ، تحقيق محمد سعيد العريان ، القاهرة 1963 م.

– العربي سالم الشريف "دراسات في الأدب الأندلسي" دار شموع الثقافة 2003 م
– العزيز لعرج "المباني المرينية في امارة تلمسان الزيانية"، رسالة دكتوراه دولة، قسم الآثار، جامعة الجزائر 1998-1999م .
-الفتح بن خاقان "مطمح الأنفس" مطبعة السعادة ، 1325هـ.
-الفتح بن خاقان "مطمح الأنفس ومسرح التأنس في ملح أهل الأندلس" الفتح بن خاقان (ت529هـ). تحقيق ودراسة محمد على شوابكة. مؤسسة الرسالة، ودار عمّار، بيروت1983م.
– القسطنطني انس الفقير، محمد رشيد مولين "عصر المنصور الموحدي"، الباط، مطبعةالشمال الافريقي.
– القلصادي "رحلة القلصادي" دراسة و تحقيق محمد ابو الاجفان، الشركة التونسية للتوزيع، تونس 1978م.
-القلقشندي "صبح الأعشى في صناعة الانشا "، جـ5 ، تحقيق فوزي محمد أمين ، الهيئة العامة لقصور الثقافة 2005م
– ألفونس كارمونا كونزليس "معاهدات الصلح والاستقرار الإسلامي في الأندلس".– في: ندوة الأندلس "قرون من التقلبات والعطاءات"– الرياض: مكتبة الملك عبد العزيز العامة، 1993.
– المراكشي،"المعجب في تلخيص أخبار المغرب" عبد الواحد المراكشي (ت647هـ) تحقيق: محمد سعيد العريان، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، لجنة إحياء التراث الإسلامي. القاهرة1963 م
-المراكشي "وثائق المرابطين والموحدين" ، مكتبة الثقافة الدينية ، القاهرة 1997 م.
– المصحف الكريم، رواية ورش عن نافع، "سورة الحج"، آية 77 .
– المصحف الكريم، رواية روش عن نافع، "سورة النور"، الآيتان 36-37 .
-المقري "نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب" ، ج1 ، تحقيق إحسان عباس ط 1. دار صادر بيروت 1968م.
–المقري، "النفح"، ج2، الزهري ، الجغرافية.
–المقري نقلا عن الرازي، "نفح الطيب" ج2 .
–المقري"ازهار الرياض" ج3 القاهرة 1359هـ (1940م) .
– المقري ، المصدر السابق، ج5
–المقري، "نفح الطيب" ، ج6 .
– الونشريسي "المعيار المعرب و الجامع المغرب" عن فتاوى علماء افريقيا و الاندلس و المغرب، خرجه جماعة من الفقهاء باشراف محمد حجي ج5، دار المغرب الاسلامي، بيروت، 1981.
امنة محمد نصير "دور الأندلس في النهضة الأوربية في ميدان الفلسفة"– مجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية (مدريد) – ع26 (1993-1994).
-اميريكو كاسترو"حضارة الاسلام في اسبانيا" ترجمة : د. سليمان العطار، 2002م.
-اميريكو كاسترو "اسبانيا في تاريخها"، "المسيحيون والمسلمون اليهود"، ترجمة: علي ابراهيم منوفي المجلس الأعلى للثقافة، 2002 م.
-أميليو غرسيه غومس ثلاث دراسات عن" الشعر الأندلسى" ترجمة محمود علي مكي– القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة،ص177 -1999 – (سلسلة المشروع القومي للترجمة).

-إميليو غرسيه غومس "الشعر الأندلسي" بحث في تطوره وخصائصه ترجمة: حسين مؤنس لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة 1952م.
-أمين توفيق الطيبى، دراسات وبحوث فى "تاريخ المغرب والاندلس"، الدار العربية للكتاب، 1984م - أنخل بالينشيا: "تاريخ الفكر الأندلسي"، ترجمة حسين مؤنس، ط 1، مكتبة النهضة المصرية،1955م.
-أنور محمود زناتي، تحقيق مخطوط "تاريخ الأندلس" لاسماعيل بن ابراهيم بن امير المؤمنين، مكتبة الثقافة الدينية
-اوليفيا كونستبل "التجارة والتجار في الاندلس" ترجمة : د. فيصل عبدالله ، مكتبة العبيكان، 2002م.
– ابت بسام: الذخيرة، ق1، م2 .
– بروكلمان "تاريخ الشعوب الاسلامية" ترجمة: نبيه أحمد فارس وآخرون ، بيروت 1965 م.
- بروكلمان "تاريخ الأدب العربي": ترجمة د. عبد الحليم النجار دار المعارف، ط2، القاهرة 1977م.
- بروكلمان "تاريخ الأدب العربي" الترجمة العربية الكاملة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1993–1999م.
– بوعياد محمود "جوانب من الحياة في المغرب الاوسط في القرن التاسع الهجري الخامس عشر الميلادي"، ش.و..ن.ت، الجزائر 1982م .
– توفيق برو "التاريخ السياسي والحضاري العباسي الأندلسي" جامعة حلب 1996م.
- توفيق محمد علي "صفحات من تاريخ المدن الأندلسية" دار الضياء ، 2005 م
– جمال أحمد طه "الحياة االاجتماعية بالمغرب الأقصى فى عصرى المرابطين والموحدين"، دار الوفاء، 2000 م.
– جرجي زيدان " تاريخ التمدن الاسلامي" ج5 ، دار الهلال
-جرجي زيدان "تاريخ آداب اللغة العربية" مراجعة شوقي ضيف، دار الهلال، القاهرة.
-جودت الركابي في" الأدب الأندلسي" دار المعارف، 1980م.
-جودة هلال ، محمد محمود صبح "قرطبة في التاريخ الإسلامي" الهيئة المصرية العامة للكتاب، 986 م
– حامد الشافعي "الكتب والمكتبات في الاندلس" دار قباء للطباعة والنشر، 1995م.
-حازم عبد الله "النثر الأندلسي في عصر الطوائف والمرابطين " دار الرشيد للنشر بغداد1980م.
-حازم غانم حسين " الحياة العلمية والثقافية في الاندلس" رسالة ماجستير الموصل 1983م.
-حسن عبد الكريم الواركلي "التراث الأندلسي ومسألة الوحدة" في ندوة الأندلس قرون من التقلبات والعطاءات الرياض مكتبة الملك عبد العزيز العامة، 1993 م.
– حسين مؤنس "رحلة الاندلس " القاهرة 1963 م.
-حمدي عبد المنعم " ثورات البربر في الاندلس في عصر الامارة الاموية " ط1 ، مؤسسة شباب الجامعة.
-حمدي عبد المنعم "التاريخ السياسي والحضاري للمغرب والاندلس" دار المعرفة الجامعية، 1998م
-خالد بن محمد القاسمي "تاريخ الحضارة العربية الاسلامية في الاندلس" مؤسسة شباب الجامعة ، 1998م.
-خليل إبراهيم السامرائي وآخرون "تاريخ العرب وحضارتهم في الأندلس" 2000 م
-دوزي "ملوك الطوائف" ترجمة كامل كيلاني ط 1 ، مكتبة عيسى الحلبي 1933م.
-دوزي "تكملة المعاجم العربية " ترجمة د.محمد سليم النعيمي، دار الحرية، بغداد، 1976م ، (يقع في أحد عشر

مجلدا.

-دونالد هيل "العلوم والهندسة فى الحضارة الإسلامية" ، ترجمة : أحمد فؤاد باشا ، سلسلة عالم المعرفة عدد 305 ، يوليو ، 2004م.

– رجب عبد الجواد ابراهيم "معجم علماء اللغة والنحو في الأندلس" ، دار الآفاق العربية.

-رضا سعيد مقبل "تاريخ المكتبات الإسلامية في الأندلس" ، إشراف شعبان عبد العزيز خليفة، أحمد علي تاج._ جامعة المنوفية: كلية الآداب، 2001م(رسالة ماجستير).

-رضوان البارودى "دراسات وبحوث في تاريخ وحضارة المغرب والأندلس" ، مركز الإسكندرية للكتاب ، 2006 م.

– سامي احمد عبد الحليم "المساجد والقصور في الاندلس" ، مركز التميز ، 1998 م.

-سامي مكي العاني "دراسات في الادب الاندلسي"، ساعدت الجامعة المستنصرية على نشره،1978

-سامية مصطفى مسعد "العلاقات بين المغرب والأندلس في عصر الخلافه" ، الأموية عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية ، 2000 م.

– سعد عبد الله صالح "الحياة العلمية في عصر الخلافة في الأندلس" . جامعة أم القرى 1997 م (سلسلة الرسائل الموصى) بطبعها رقم 7.

-سعدون عباس "تاريخ العرب السياسي في الأندلس" ، ط1 ، دار النهضة العربية.

-سعدون عباسد "ولة المرابطين في المغرب والأندلس"، ط1 ، دار النهضة العربية.

– سعيدوني ناصر الدين "دراسات اندلسية"، دار المغرب الاندلسي، بيروت 2003م.

-سلمى الخضراء "الحضارة العربية الاسلامية في الأندلس" ، ط2 ، مركز دراسات الوحدة العربية ، 1999 م.

-شاخت وبوزورثن "تراث الاسلام " ترجمة حسين مؤنس وآخرون ، الكويت ، 1978 م.

-شاخت وبوزورث، " تراث الإسلام" (الجزء الثانى) ترجمة حسين مؤنس و إحسان صدقى ، سلسلة عالم المعرفة ، عدد 234، الكويت أغسطس 1978م.

-شاكر مصطفى، "الأندلس في التاريخ" منشورات وزارة الثقافة 1990م.

-شحادة الناطور وآخرون، "الخلافة الاسلامية حتى القرن الرابع الهجري" دار الثقافة الاردن ، 1990 م

– شكيب ارسلان، "الحلل السندسية في الأخبار والآثار الاندلسية "، القاهرة 1936م.

– شكيب ارسلان،"تاريخ غزوات العرب" .

-شوقي ضيف، " الحضارة الأندلسية ودورها في تكوين الحضارة الإسبانية"– مجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية (مدريد) ع23 (1985–1986).

– صادق جودة، "تاريخ المغرب والاندلس " جامعة القدس المفتوحة.

-صاعد الاندلسي، "طبقات الأمم" نشر الأب لويس شيخو بيروت 1912 صص 75–77 – يقصد بالجملة الأخيرة انه عاش المدة المذكورة.

-صاعد الأندلسي، "طبقات الأمم" تحقيق وتعليق حسين مؤنس دار المعارف، القاهرة 1993.

عبادة كحيلة، "أندلسيات " القاهرة 2001 م.

-عبد الإله بنمليح، "الرق في بلاد المغرب والأندلس" مؤسسة الانتشار العربي 2004 م.

عبد الحميد حسين، "تاريخ حضارة المغرب والأندلس في عهد المرابطين والموحدين" دار شموع الثقافة ، 2002 م.

– عبد الرحمان الجيلالي، "تاريخ الجزائر العام" ج 2 ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر، 1982م .

-عبد الرحمن الرءوف الخانجى، "أثر فتنة قرطبة على المرتكزات النفسية والأخلاقية" لابن حزم الأندلسي في كتابه"طوق الحمامة" في ندوة "الأندلس قرون من التقلبات والعطاءات" الرياض مكتبة الملك عبد العزيز العامة1993 م.

–عبد الرحمن علي الحجي، "الكتب والمكتبات في الأندلس" مجلة كلية الدراسات الاسلامية ، العدد الرابع، بغداد 1972م.

-عبد العزيز الأهواني، "أمثال العامة في الأندلس"– مجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية (مدريد)ع9–10 (1961–1962).

-عبد العزيز سالم،"بحوث إسلامية فى التاريخ والحضارة والآثار"، قسمان، بيروت1992 م.

-عبدالعزيز سالم، "تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس" مؤسسة شباب الجامعة.

-عبد العزيز سالم، "قرطبة حاضرة الخلافة في الأندلس " مؤسسة شباب الجامعة (جزءان)

-عبد العزيز سالم، صور من المجتمع الأندلسي في عصر الخلافة الأموية وعصر دويلات الطوائف من خلال النقوش المحفورة في علب العاج "مجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية" (مدريد) ع19 (1976).

-عبد العزيز سالم ، "معالم قرطبة في شعر ابن زيدون القرطبي"– مجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية (مدريد).– ع22 (1983–1984).

-عبد العزيز سالم، "المساجد والقصور في الاندلس" مؤسسة شباب الجامعة 1998م.

-عبد العزيز سالم بعض المصطلحات للعمارة الأندلسية المغربية – مجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية (مدريد).– ع5 (1957).

– عبد العزيز سالم (جامع الكوفة) مقال للجزء الثاني من كتاب "مساجد و معاهد" كتاب "الشعب" عدد 78 القاهرة 1960م .

– عبد العزيز فيلالين "تلمسان عبر العصور" .

– عبد العزيز فيلالي، " تلمسان في العهد الزياني" ج2 موقع للنشر و التوزيع الجزائر، 2002م.

– عبد المنعم ماجد، "العلاقات بين الشرق و الغرب في العصور الوسطى" مكتبة الجامعة العربية بيروت، م1966.

عبد الواحد ذنون، "نشأة تدوين التاريخ العربي في الأندلس" دار المدار الاسلامي، بيروت 2004م.

– علي علواش، "معجم مشاهير المغاربة" تنسيق ابو عمران الشيخ تقرير ناصر الدين لعبدوني، اعداد فرقة البحث العلمي، جامعة الجزائر 1995م .

-علي محمد حودة، "تاريخ الاندلس السياسي والعمراني والاجتماعي" ، القاهرة 1957 م.

-عمر رضا كحالة، "معجم المؤلفين " دار إحياء التراث العربي، بيروت.

-عياض، "ترتيب المدارك" ج3، تحقيق: أحمد بكير محمود، بيروت 1965 م

– عنان عبد الله، "نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب و ذكر و زيرها لسان الدين ابن الخطيب"، دار الكتاب العربي، بيروت.

– فؤاد إفرام البستاني دائرة المعارف " قاموس لكل فن ومطلب" المجلد 2 ج 2 ، بيروت 1958 ، مادة ابن حيان.

– فؤاد سزكين، "تاريخ التراث العربي" الترجمة العربية جامعة الإمام محمد ابن سعود الإسلامية بالرياض.

– كاظم شمهود طاهر، "الأندلس والفن الإسلامي" دار أزمنة ، 2001م

- كمال السيد ابو مصطفى، "بحوث في تاريخ وحضارة الاندلس في العصر الاسلامي" ، ط1 ، مؤسسة شباب الجامعة ،1998 م.

– لكوك، "تلمسان" قائمة الجوامع و المساجد التي كان اهل اوقلف في عهد الاحتلال منها تسعة لا تزال قائمة و عشرة قد اندثرت الدر و العقبان(مخطوط تلمسان) ج1.

– لويس سيكودي لوثينا، " الوثائق العربية الغرناطية وقيمتها التاريخية" ترجمة حسين مؤنس– مجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية (مدريد) – ع7 – 8م - (1959-1960)

– ليفي بروفنسال، "تاريخ أسبانيا الإسلامية" ، ج 1 ، ترجمة على البمبي وآخرون ط 3 ، المجلس الأعلى للثقافة ، 2000 م.

– ليوبولدوتوريس بالباس "تاريخ أسبانيا الاسلامية من الفتح إلى سقوط الخلافة القرطبية" المجلد الثانى، الجزء الثانى "الفن والعمارة"، ترجمة على إبراهيم منوفى وأخرين، القاهرة 2002م.

– مانويل جوميث مورينون، "الفن الاسلامي في اسبانيا"، ترجمة لطفي عبد البديع وآخر ، الدار المصرية للتأليف والترجمة ، د . ت.

– محمد أبا الخيل ، "الاندلس فى الربع الأخير من القرن الثالث الهجرى" الرياض 1995 م.

– محمد إبراهيم حسن، " البيان المغربي في أخبار الأندلس والمغرب" الدار العربية ، 2000 م.

-محمد ابراهيم الفيومي، "تاريخ الفلسفة الاسلامية في المغرب والأندلس" ، ط1 ، دار الجيل ، بيروت 1997 م.

– محمد أبو الفضل دراسات فى "تاريخ وحضارة الأندلس" دار المعرفة الجامعية 2000م

– محمد القاضى، "موسى بن نصير فاتح المغرب وبلاد الأندلس" دار التوزيع والنشر الإسلامية 2000م

– محمد العدلوني، "التصوف الأندلسي" أسسه النظرية وأهم مدارسه دار الثقافة ، 2005 م

– محمد المنوني الشيخ ابراهيم التازي نموذج بارز للتبادل الثقافي بين المغربين 1519م مجلة الثقافة.

– محمد الصغير غالم" معالم التواجد الفينيقي البوني في الجزائر" دار الهدى، عين مليلة، 2003م

– محمد بن رمضان شاوش كتاب "باقة السوسان في التعريف بحضارة تلمسان عاصمة دولة بني زيان".

– محمد رزوق، "الاندلسيون وهجراتهم الى المغرب خلال القرنين 17-16أفريقيا الشرق ، 1998 م.

– محمد سعيد الدغلي، "الحياة الاجتماعية في الأندلس" دار أسامة ، 1984 م.

– محمد سهيل طقوش، "تاريخ المسلمين في الاندلس" دار النفائس ، ط1 2007 م.

– محمد صبحي، "صورة المرأة في الأدب الأندلسي" ط1 عالم الكتب الحديث ، 2006 م.

- محمد عابد الجابري "المشروع الثقافي العربي الإسلامي في الأندلس" قراءة في ظاهرة ابن حزم– مجلة المعهد

المصري للدراسات الإسلامية (مدريد) – ع22 (1983–1984).
- محمد عبدالله عنان، "دولة الإسلام في الأندلس" ، ج2 ، الهيئة المصرية للكتاب 2001 م.
– محمد عبدالله عنان اكتشاف السفر الخامس من" المقتبس" لابن حيان.– مجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية (مدريد) – ع13 (1965–1966).
– محمد ماهر حمادة، "لوثائق السياسية والادارية في الاندلس وشمال افريقيا" ، ط1 ،الشركة المتحدة للنشر والتوزيع 1980 م.
– محمد محمد زيتون، " المسلمون فى المغرب والاندلس" ، القاهرة 1984 م.
– محمود إسماعيل إشكالية المنهج في دراسة التراث . رؤية للنشر والتوزيع ، ط1،القاهرة، 2004م
– محمود إسماعيل، "المهمشون في التاريخ الاسلامي" ، دار رؤية ، 2004 م.
– محمود السيد، "تاريخ العرب في بلاد الاندلس" مؤسسة شباب الجامعة 1998 م
– محمود على مكي مقدمة نشرته لجزء من المقتبس " السفر الثاني "، دار الكتاب العربي ، 1973 م.
- محمود على مكي، "التراث السياسي في المغرب والأندلس" قمم وتحولات– في ندوة قضايا المخطوطات بعنوان "تراث العرب السياسي"– القاهرة معهد المخطوطات العربية،2001 م.
– محمود مكي مقال في كتاب "اثر العرب يسطع على الغرب".
- مجهول، "وصف جديد لقرطبة الإسلامية" ، تحقيق حسين مؤنس ، "مجلة معهد الدراسات الإسلامية"، مدريد مج12، 65–1996 م.
– مجهول، كتاب "غزوات عرّج و خير الدين" الجزائر 1934م .
- مصطفى الشكعة، "المغرب والأندلس" ، "آفاق إسلامية وحضارة إنسانية" ، ط1 ، دار العلم للملايين 1987م.
- مقداد رحيم، مصادر التراث الأندلسي من كتاب "كشف الظنون" المجمع الثقافي م1999
- مهجة الباشا، "رثاء المدن والممالك في الشعر الأندلسي "، دار سعد الدين ، 2006 م.
– موسى لقبال، "الحسبة المذهبية في بلاد المغرب"، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع ، الجزائر، 1971م، ملحق رقم 14.
– نبيلة حسن محمد، في "الوثائق والمخطوطات" ، دار المعرفة الجامعية ، الاسكندرية 2006 م.
-هنري بيرس،"الشعر الأندلسي في عصر الطوائف" ، ترجمة الطاهر مكي ، ط 1 ، دار المعارف، 1990م.
– ياقوت شهاب الدين ابو عبد الله الحموي، "معجم البلدان"، ج1، القاهرة، 1906م .
– يحيى شامي، "صقر قريش مؤس للإمارة العربية المروانية بالأندلس" ، دار الفكر العربي ، 2007 م
– يوسف أحمد بني ياسين، "بلدان الأندلس في أعمال ياقوت الحموي"، مركز زايد للتراث والتاريخ، ط1، 2004 م.
-يوسف أشباخ، "تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين"، جـ1 ، ترجمة محمد عبدالله عنان، ط 3 مكتبة الخانجي، 2002 م.
-يوسف بن علي، "الحياة العلمية في الاندلس في عصر الموحدين "، دار الفجر 1995 م.
-يوسف فرحات ويوسف عيد، "معجم الحضارة الاندلسية "، ط1 ، دار الفكر العربي ، 2000 م.

-يوسف فوزي العريني، "الحياة العلمية في الأندلس في عصر الموحدين"– الرياض: مكتبة الملك عبد العزيز العامة، 1995. (سلسلة الأعمال المحكمة ؛ 7).

المراجع الاجنبية

- Ach-CharifF al-Idrissi –"*Wakf el Masjid al- Jamiaa bi-quort'uba*"-, description de la grande mosquée de cordo, éd.dessus lamare, Alger, 1949
- A. D Ortiz Y B. Vincent, "Historia de los Moriscos"
- Andrew C. Hess, "*The Moriscos, An Ottoman Fifth Column in XVI Century Spain*", A.H. R. LXXIV (11968).
- A.P. NYKI, Aljamiado Leiterature, R. H. 77 (1929), A. el-Chejme, Musliù Spai.
- Balbas, La MEZQUITA de Córdoba y las ruinas de Madinat al – Zahra, colección de « *Monumentos Cardinales de España*» , t XII Madrid, 1952.
- Casiro, "*Espana in su Historia*", 1949.
- Christien Evert, eDit Monchee von Ban al-Mardoum la Tolodo-ein "*Kopir*" der *Monchee von Cordoba*," Madrider Mittielhenger, vol. 18 (1977), C.H.Haskins, Studies in the histary of medieval sciene
- Craweli, "*Eacly Muslim architecture*", t. II,
- "*Cronicas de los reyes de Castilla*", Vol, III .
- Diccionario Historico Espanol, Vol. I, Art. Cisneros, Francisco jimenez
- Diccionario Historico Espanol, Art. Felipe II
- D. Fonseca, justa expulion de los Moriscos de Espana.
- D.M. Dunlop," *Arabic seience in the West*". A. A. El – Hjji, Andalusian Diplomatic Relatios With Western Europe.
- Dominguez Ortiz y Bernard Vincent," *Historia de los Moriscos*"
- D. Ortiz y B. Vincent," *Historia de los Moriscos*
- E . Levi Provençal, "Histoire de L'Espagne Musulmane" , TI
- Elie Lambert, "les mosquées de type Andalou en Espagne et en Afrique du nord, Al-Andalous", Vol. XIV, fasc. 2,1949.
- Gabriel Jackson, "*The Macking of MEDIEVAL Spain*".
- Gaya Nuño, Gomas, "*Castillo Califal, Al-Andalous*", Vol. VIII
- Georges Marçain, "*Manuel d'art Musulmanan, t. I L'architecture en Tunisie, Algerie, Maroc, Espagne et Sicile*", Paris sgz6, p. ags-Marçais, L'architecture musulmane d'occident, Paris. 1954

- Gomez Moreno, “*Ars Hispaniae*”, t. III, Madrid
- Gomez Moreno, Iglesiias Mozarabes,Madrid
- Grabar, Ibid.
- James T. Monrol, “*A Curius Morisco Appeal to the Ottoman, Empire, Al-Andalus*”, Vol, XXXI (1966).
- Jean Read, “*The Moors in Spain and Portugal*”.
- Jerrilyun Dodds, “*Architecture and Ideology in Earty Medieval Spain*” (London : University Park, 1990).
- Juan de Vallejo, “*Memorial de la vida de Fray Francisco Jimenez de Cisneros*”.
- Julio D. Hong, blamie, “*History of Word Architecture*”(New York : H. N. Abrama, 1977).
- Jurrilyun Dodds , “ *Paintings from the Sala de Justicia de la Alhambram : loonography and Loonology*,” Art Bullarin ? Vol, 16, no. 2 (1979).
- K. Garrad, “*La industria sedera Granadina en el siglo XVI y su Conexión con el levantaminto de los Alpujarras*”, M.E.A.H, 1956.
- Klaus Wagner, “*Un Padron desconocido de los Mudejares de Sevilla, Al-Andallus*”, Vol XXXXVI51971.
- Lambert, L’architecture Musulmane du Xe à Cordoue et Tolède Les Mosqués de tipe Andalou “*La mosqué de Cordoue et L’art byzantine*” .
- Lambert, « *les coupoles des Grandes Mosquées de Tunisie et d’Espagne* » :- aux Ixe et Xe sigles, Hesparia, je itrmestre, t. XXXII, fac. II,1956-L’architecture
- Levi Provençal, E, I, Art “ Aljamia “
- Lévi-Provençal, Inscripciona arabes d’Espagne, Ip. a et ag. Leiden.Paris, sggi.
- Levi-Provençal “*inscriptions Arabe d’Espagne*”.
- Lévi-Provençal, "*Histoire de l’Espagne musulmane*". t.III.
- Lévi-Provençal," *L’Espagne Mus.au Xe. Siècle*".
- Leopoldo Torres Balbàs, Arte almohade. Arte mazari. Arte mudéjar, Arte Hispaniae, histiria universal del Arte hispanico. V.4 (Madrid : plus – utra, 1949).
- “*Los Banu Nasr en el sigle VII*”. Madrid 1964
- Louis Cardaillac, “*Morisques et. Protestants, Al – Andalus*” Vol. xXXVI (1971),
- M. A Ladero Quesada, Granada (1232 – 1572).
- M. a. Ladero Granada (1232 – 1571).

- M. A. Ladero quesada.
- M. A. Ladero Quesada, "*La Repoblacion del Reino de Granada anterior al- Ano 1500, Hispania*", 110 (1968).
- Màrmol Carvajal," *Historia dela rebilion y Casztigo de los Moriscos*".
- Marmol," *Historia de rebelion y castigo de los Moriscos del Reino de Granada*".
- M. Asin Palacicos," *Ibn Massarra*".
- M Asin Palacion, "*La Escatalogia Musilmana en la Divina Comedia*",.
- Miguel de Epaiza, "*Moriscos y Andalusies en Tunez en el siglo XVII*", Al-Andalus (1969) .
- M. Soledad Carrasco," *El-problema morisco en Aragon*", 12 y sig.
- Ocana Jinencez," *La inscripcion Fundacional de la Mezquita de Ibn Adabbas en Sevilla*", Al-Andalus, Vol XII fac. I, 1947 .
- Olog Grabar, « *Notes sur le mihrab de la grande Mosquée de Cordoue*» , papier présenté à : Le Mihreb dans larchitecture et la religion musulmanes : Acies de colloque international tenu à Paris en mai 1980, édité par Alexendre Papadopoulo Leiden, New York : E.J. Brill, 1988).
- Olog Grabar, "*The Alhambre, Architect and Sodety*" (London)
- P.Agusdo Bley," *Historia de Espana*", Vol. I.
- Pedro Longas, "*Vida Religiosa de los Moriscos*", P LIV – LVL
- Pedro Longas, "*Vida Religiosa de los Moriscos*" PP. XL- LXLL
- Pedro Longas "*Vida Regligiosa de los Moriscos*", P. XXXV .
- R. Arié, "*L'Espagne Musulmane"*
- R. Castejón, Córdoba
- R. Castejó : "*excavaciones del plane nacional en madina Azahra, campana 1943*" Madrid, 1945-Nuevas excavaciones en Médina Al-Zahra, el salon de AbderrahmaneIII, Al-Andalous, 1945.
- R. Menendez Pidal, Espania Ealabon.
- R. Menendez Pidal Espana Eslabon.
- R. Menendez Pidal, Primera Cronica General, Vol. II
- R. Velasques "*Bosco, Médina Azahra y Alamíriya*", Madrid 1912.
- R. Velasques "*Bosco, excavaciones en Médina Azahra*", Madrid 1923.
- Terry Allen, Five

- Terras,” *Islam d’Espagne*”.
- Torres Balbas,” *el intercambio artístico entre España y Egipto*”, A l-Andalous, 1934.
- Torres Balbàs,” *los Edificios Hispana-Musulmanes*”, Revista del i Instituto Egipcio, N°1 , 1953.
- Torres Balbas,” *Portada de San Esteban, Al-Andalus*”, Vol. XII, 1964 es aqq.
- Watt, A” *History of Islamic Spain*” .
- Werener Weichi,” *Al-Andalus*”, Vol.XVII 1950

الفهرس

الفصل الثاني
العمارة الاندلسية و عبقريتها

الفصـــــل الثالــــث
تلمسان اعرق مدن شمال افرقيا

الفصـــــل الرابـــــع
الإمتـداد الاندلسـي في تلمســان

ملخص: لم يظفر التاريخ و الحضارة الاسلامية في الاندلس عامة و المغرب على وجه خاص (تلمسان) بما يستحقانه من عناية الباحثين، وساعد على ذلك قلة ما كان يعرفه العالم الاسلامي و الاوروبي حتى طليعة القرن التاسع عشر من تاريخ الاسلام و حضارته في الاندلس، و كانت معرفتهم به لا تعدو صورة باهتة شاحبة ، لا تمثل حقيقته بحال من الاحوال ، و كان جل من كتب في تاريخ الاندلس من الفرنسيين او الاسبان رجالا متعصبين لدينهم ، لم ينصفوا الاسلام في الاسلام في الاندلس دوره الرائع الذي قام به في العصر الوسيط، اما من بحث منهم في التراث الفني الذي خلفه المسلمون في هذه البلاد ، و نقصد به ما تبقى لهم من آثار سواء كانت آثارا معمارية ام زخرفية، فقد نسبوا معظمها الى الرومان او القوط الغربيين ، من أمثال هؤلاء رودريجو كارو ، و المؤرخ الإشبيلي الرنسو مورجادو، وبايستروس، وقد انكر هؤلاء نسبة معظم هذه الروائع الى المسلمين ، و كأنهم استكثروا عليهم ان يبدعوا مثل هذه الروائع الفنية. ثم إن معظم هذه الكتابات كانت تختلط فيها الحقيقة بالخيال ، اذ كانت تعتمد على القصص و الروايات التي توارثها القوم ، و تواترت على السنة الناس جيلا بعد جيل ، بل إن الآثار الاسلامية الباقية في الاندلس بما تتسم به من جمال فنّي و ما يحيط بها من اسرار و غموض ، كانت تساعد على تأليف موضوعات شيقة لمثل هذه القصص و الاساطير . ثم بدأت خيوط و اضواء التاريخ تبدد شيئا فشيئا ذلك الظلام الحالك الذي احاط بتاريخ المسلمين في الاندلس ، و تكشفت حقائق كانت خافية بفضل جهود كثير من المستشرقين.

الكلمات المفتاحية: الثقافة – ممارسات – تهجير – شرعية – تأثير.

Résumé : Les seules richesses arabo-Andalouses proviennent de quelques mines de cuivre , de charbon ,de mercure et de plomb . Le nom "Al-Andalus" apparaît pour la première fois, 5 ans après la conquête islamique . On trouve à partir du VIII° siècle des églises mozarabes, c'est-à-dire des églises érigées pendant la domination islamique . On retrouve dans cette architecture les arcs polylobés, entrelacés, les jeux décoratifs des briques .

On rencontre souvent des céramiques dans l'architecture Arabo-Andalouse. Cette céramique est réalisée à partir de terre argileuse cuite. Les murs et les cloisons sont en plâtre et les plafonds sont en bois. L'art figuratif* est presque absent : n'oublions pas que l'Espagne est alors sous l'influence Arabe et que l'art arabe ne représente pas le monde. Les Zelliges sont des pièces de forme géométrique mélangeant imaginaire et constellations mathématiques.

Cette meme influence c'est déplacer jusqu'à la ville de tlemcen . Ainssi l'exemple le plus vivant n'est autre que la grande mosquée qui reste le point culminant de l'impact de la civilisation andalouze dans l'idenditée culturelle algerienne.

Mot clé : Culture – Comportement –Déportation – Impacte- Légale.

Summary : The only Arab-Andalusian wealth comes from some mines copper, coal, mercury and lead. The name "Al-Andalus" appears for the first time, five years after the Islamic conquest. Found from the eighth century Mozarabic churches, that is to say churches built during the Islamic rule. Included in this architecture the lobed arches, interlaced, games decorative bricks.

Often encountered in ceramics Arabo-Andalusian architecture. This ceramic is made from baked clay. The walls and the walls are plaster and ceilings are wooden. Figurative art * is almost absent: let us not forget that Spain was then under the influence Arab and Arab art is not the world. The parts are Zelliges geometric mixing imaginary constellations and mathematics.

This same influence is moving to the city of Tlemcen. Example ainssi most alive is none other than the great mosque which is the culmination of the impact of civilization andalouze in the Algerian cultural idenditée.

Key Word: Culture - Comportment– Déportation – impact – legal.